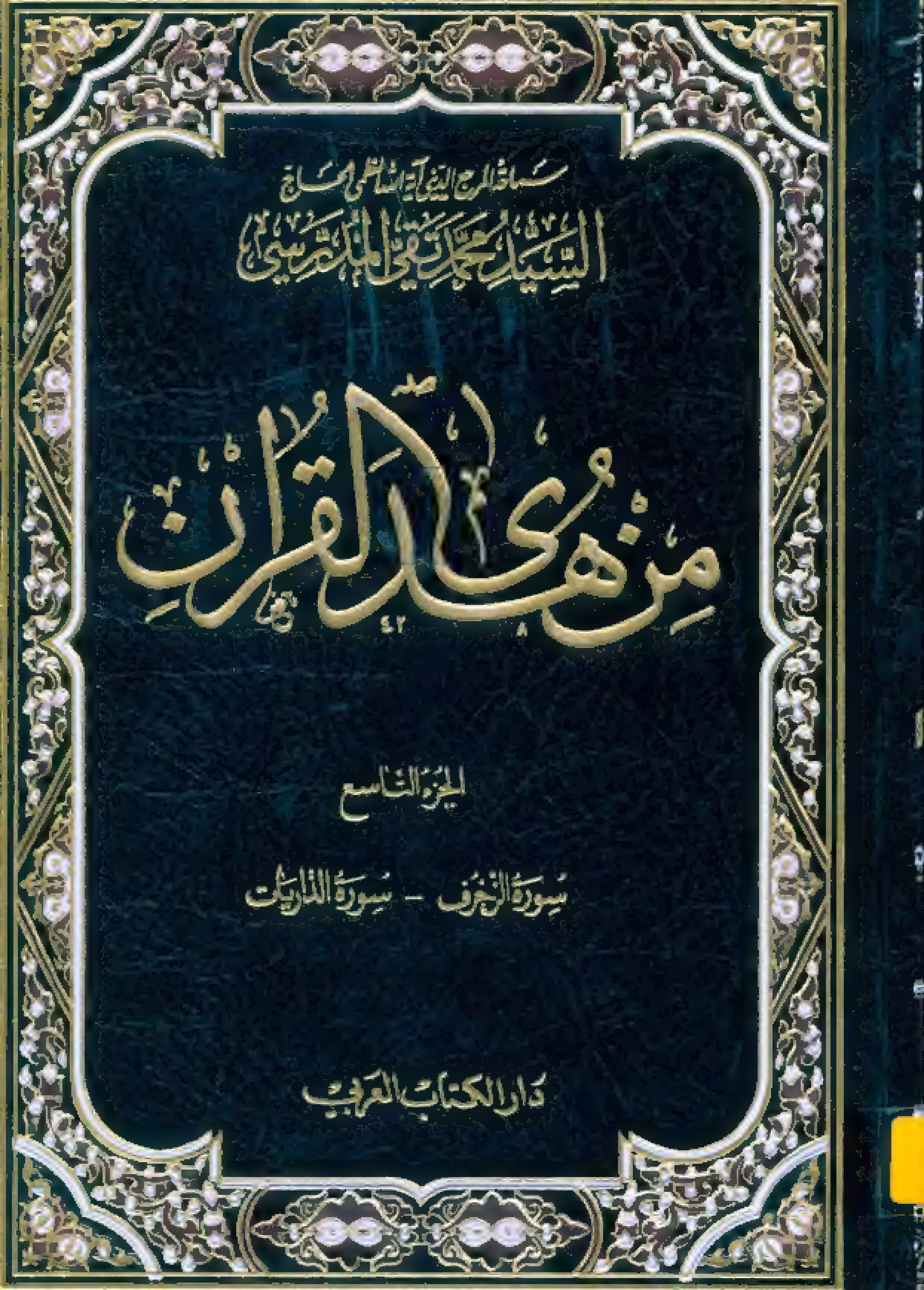

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء التاسع
سورة الزخرف - سورة الذاريات
دار الكتاب العربي




من هدى القرآن
٩

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء التاسع

سورة الزخرف - سورة الذاريات

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٢٢٥٦ - ٠٣/٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين

سورة الزخرف

* مكية.

* عدد آياتها: ٨٩

* ترتيبها النزولي: ٦٣

* ترتيبها في المصحف: ٤٣

* نزلت بعد سورة الشورى.

فضل السورة

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «مَنْ أدْمَنَ قِرَاءَةَ ﴿حمٓ﴾ الزُّخْرُفَ آمَنَهُ اللهُ فِي قَبْرِهِ مِنْ هَوَامِّ الأَرْضِ (ومِنْ ضَمَّةِ القَبْرِ) حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، ثُمَّ جَاءَتْ حَتَّى تَكُونَ هِيَ الَّتِي تُدْخِلُهُ الجَنَّةَ بِأَمْرِ اللهِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٥)

الإطار العام

من اجل تزكية القلوب

لكي تستقبل أفئدتنا ضياء الإيمان، لابد أن نطهّرها من طائفة من الأدران التي تترسب عليها، وآيات الذكر تذكرنا بها، وتشجعنا على تزكية القلوب منها، وتوصينا بكيفية ذلك. ويبدو أن سورة الزخرف تجري في هذا السبيل، كيف؟

إن هدف الكتاب المبين -الذي جعله الله قرآناً عربياً بلغتهم، ويفصح جلياً عن الحقائق- بلوغ العقل، وهوأسمى وأدق تعبير عما في أم الكتاب (الآيات:١-٤).

ثم تترى الآيات في تبصير الإنسان بالعقبات النفسية التي لابد من تجاوزها، أو الأقفال التي يجب فكها، والأمراض التي يجب معالجتها، والأدران التي يجب تطهير القلب منها ليستعد للإيمان..وهي:

أولاً: الغرور بالمال، ولكن هل يترك الله المغرورين بالمال بدون تذكرة وبدون رسل يذكّرونهم، لمجرد أنهم قوم مسرفون؟، أفلا يُنذَرون قبل أن يكسر غرورهم عذاب عقيم، كما أهلك أشد منهم بطشاً، وتركهم أحاديث لمن يعتبربهم؟ (الآيات:٥-٨).

ثانياً: الفصل بين ربِّ السماء وربِّ الأرض، والاعتقاد بأن إله الحق لا شأن له بدنياهم، وإذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض فلا مناص لهم من الاعتراف بالخالق العزيز العليم. وهكذا الأرض، فهو الذي جعلها مهداً، وسلك فيها سبلاً، لعلهم يهتدون إلى مآربهم ثم إلى ربهم الذي أتقن صنعه، وحتى تدبير رزقهم فهو بأمر الله، أوليست حياتهم تعتمد على الماء؟ فمن ينزله من السماء بقدر حاجتهم؟ أفلا يرون كيف يحيي به الله الأرض، فلماذا لا يهتدون إلى أنه كذلك يحييهم بعد موتهم؟

ومن آيات تدبيره خلق الأزواج، وتوفير وسائل النقل، أوَلَيس كل ذلك يدل على أن

إله السماء هو إله الأرض، ويدعوهم إلى طاعته، وشكر نعمائه، فإذا استقروا على ظهور الأنعام أو متن السفن سبحوا الله على تسخيرها لهم ولم يكونوا بمستواها (الآيات: ٩-١٤). ونقرأ في ختام السورة تذكرة بهذه الحقيقة أيضاً (الآية: ٨٤).

ثالثاً: تقديس الأشياء والأشخاص، فإذا بهم يجعلون للرحمن من عباده جزءاً؛ يعطونه (صفة التقديس)، ويبالغوا في كفرهم حين زعموا أن الله اختار لنفسه البنات واصطفى لهم البنين.

ويتساءل: هل شهدوا خلقهم؟ كلا؛ ويقول: إن كلامهم الباطل شهادة عليهم، سوف تُكتب وسوف يُسألون عنها... وتراهم يبرِّرون عبادة الآلهة بالجبر الإلهي، بلا علم عندهم، بل بمجرد الخرص والتخمين، ولا بكتاب إلهي يستمسكون به، بل بإتباع آبائهم.(الآيات: ١٥-٢٢).

ويعالج القرآن اتباع الآباء بأن ذلك من عادة المترفين الذين ما أرسل الله إلى قرية نذيراً إلا تشبثوا بتقاليدهم البالية، متحدِّين بها رسالات ربهم، ولكن ألا ينظرون إلى عاقبة أولئك المترفين الذين انتقم الله منهم؟! (الآيات:٢٣-٢٥).

ويضرب القرآن مثلاً على ذلك بقصة النبي إبراهيم عليه السلام، وذلك للأسباب الآتية:

ألف: لأن أبرز ما في رسالته تحديه لعادات السابقين، ابتداءً من أبيه وانتهاءً بقومه.

بـاء: لأنه من أولي العزم الذين يُذكرون في هذه السورة باستثناء واحد منهم وهو النبي نوح عليه السلام.

وإذا كانت الجاهلية العربية تعتمد على عقائد آبائها، فإن أعظمهم إبراهيم، رائد التوحيد ومحطم الأصنام، ألا يتبعونه وقد جعل رسالة التوحيد كلمة باقية في عقبه؟ كلا؛ إنهم يتبعون أهواءهم لا آباءهم، وقد غرَّتهم متع الدنيا عن اتباع الحق حتى نسبوا الرسول صلى الله عليه وآله إلى السحر (الآيات: ٢٦-٣٠).

رابعاً: تقييم الحقائق بالمقاييس المادية، فقد قالوا: لولا أنزل الكتاب على واحد من العظيمين في الطائف ومكة؟ وَبَهرهم الله، هل هم الذين يقسمون نعم الله؟ كلا؛ الله هو الذي قسم بينهم معيشتهم، وجعلهم يتفاضلون في الأمور المادية، لا لقيمة لهذا عنده أو هوان لذاك، بل لتنظيم الحياة الاجتماعية، ولجعلهم يحتاجون إلى بعضهم، ويتعاونون فيما بينهم، أما النعمة الكبرى فهي رحمة الله، لا المال الذي يكدسونه.(الآيات: ٣١-٣٢).

وما أتفه الدنيا عند الله! فلولا أن يصعب على المؤمنين لجعلها كلها للكفار، لأنها متاع، أما الآخرة التي هي الحيوان فهي للمتقين وحدهم.(الآيات:٣٣-٣٥).

خامساً: قرناء السوء الذين يزينون للإنسان سوء عمله ليراه حسناً، وإنما يقيِّض الله قرين السوء من الجن والإنس لمن يَعْشُ ويتغافل عن ذكر ربه. أما من يتذكر فإنه يبصر الحقائق، لأن الشيطان يتهرب من ذكر الله. ويقوم الشيطان بصد التارك لذكر الله عن سبيل الهدى، وتزيين الضلالة له، وإنما يتنبه الغافل لدور الشيطان في إضلاله حين يأتي ربه، فيقول له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾. وماذا ينفع التبرؤ منه يومئذٍ، لأنهما في العذاب مشتركان بسبب ظلمهما. وهكذا يعالج القرآن وسوسة الشيطان بذكر الله.(الآيات: ٣٦-٣٩).

وبعد أن ينذر القرآن أولئك الجاهلين بعذاب، إما في عهد الرسول أو بعده، ويأمر النبي والذين اتبعوه بالتمسك بالوحي الذي هو شرف له ولقومه (دون المال والجاه) لأنهم يُسألون عنه، يأمره بأن يسأل السابقين من الرسل، ويستقرئ سيرتهم: هل كانوا يدعون قط إلى غير الله، ويقدسون آلهة المال والسلطة؟ كلا؛ ويضرب مثلاً من سيرة موسى وعيسى عليهما السلام، وهما نبيان من أولي العزم ذكرا في هذه السورة مع النبي إبراهيم عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله.(الآيات:٤٠-٤٥).

فحين أرسل الله النبي موسى عليه السلام بالبينات إلى فرعون وملئه إذا هم منه يضحكون، وكلما أراهم ربنا من آياته طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه، وعهدوا إليه بالإيمان، فلما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم، واعتمدوا على قيمة الثروة والسلطة الزائلة.

وأثار فيهم فرعون نخوة العصبية وشهوة المال والقوة، واستخفهم فأطاعوه، فانتقم الله منهم وتركهم آية لمن بعدهم (الآيات: ٤٦-٥٦).

وكذلك كان موقف الجاهليين العرب من النبي عيسى بن مريم عليه السلام، فحينما ضربه الله مثلاً صالحاً جادل فيه قوم الرسول قائلين: آآلهتنا خير أم هو؟ وكانوا يعرفون الحق، ولكنهم عاندوا، ربما لأنهم اعتمدوا على قيمة الثروة والسلطة، فقدسوا آلهتهم رمز الثروة والسلطة، واستخفوا بابن مريم الذي كان مثال الطهر والزهد، بلى؛ إنه عبد أنعم الله عليه، وجعله مثلاً لبني إسرائيل، ولم يأمرهم بعبادته أبداً.

وبعد أن ينذر ربنا أولئك المعاندين بأنه قادر على أن يهلكهم، ويجعل مكانهم ملائكة في الأرض يعبدونه، يبين بعض جوانب عظمة النبي عيسى عليه السلام بأنه من أشراط الساعة، وأنه قد جاء بالبينات والحكمة والقول الفصل فيما اختلف فيه بنو إسرائيل، وأمرهم بتوحيد الله ربه

وربهم جميعاً، بَيْدَ أنهم اختلفوا فيه (ظلماً وبغياً) فويل للظالمين من عذاب يوم أليم (الآيات: ٥٧-٦٥).

ويذكرنا الربُّ بأن الأخلاء أعداء بعضهم في يوم القيامة إلا المتقين. وهكذا ينبغي أن نختار من المتقين أصدقاءنا، وقد أشارت آيات سابقة إلى مسألة القرين. ويصف نعيم الله في يوم البعث لعباد الله الذين تتلقاهم الملائكة بالسلام والبشرى، وتدعوهم إلى الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، كل ذلك جزاء لما عملوا (الآيات: ٦٦-٧٣).

بينما المجرمون خالدون في جهنم، دون أن يخفف عنهم عذابها، وهم آيسون فيها من روح الله بما ظلموا، وحين ينادون كبير ملائكة العذاب (مالك) ليعدمهم الله، يجيبهم بأنهم ثمة ماكثون، ويقول: لقد جئناكم بالحق، وأنتم كنتم تكرهون الحق. وقد عاندوا الحق، فحكم الله عليهم بالعذاب الخالد جزاء عنادهم (الآيات: ٧٤-٧٩).

وبهذه البصيرة يعالج السياق حالة العناد الذي هو واحد من أبرز العقبات النفسية في طريق الإيمان. ثم يعالج سائرالحالات التي تمنع المبادرة إلى الإيمان، مثل التَّوهم بأن الله لا يسمع سرهم ونجواهم، ويذكرنا الله بأنه يسمعهم، وقد أحاط بهم ملائكته الكرام يسجلون ما ينطقون به (الآية: ٨٠).

ويعود إلى معالجة حالة الشرك، حيث يلتجئ الإنسان عادة إلى ظل الشرك فراراً من ثقل المسؤولية، ويقول: النبي ليس ولد الله، بل هو أول العابدين لله.(الآية: ٨١).

وينسف أساس الشرك القائم على الجهل بعظمة الله ويقول: سبحان ربِّ السماوات والأرض أن يكون له ولد مثلما يصفون، أوَلَيسَ هو ربُّ العرش العظيم والهيمنة التامة، فماذا يفعل بالولد؟ (الآية: ٨٢).

ويأمر الرسول (والرساليين) بأن يتركهم في خوضهم يلتهون بباطلهم، ويلعبون من دون هدف معقول في حياتهم حتى يلاقوا يوم الجزاء الذي يوعدون وهكذا ينذر كل المشركين بالله بأنهم يفرِّغون حياتهم من أي هدف سليم، كما يفرِّغون عقولهم من أي بصيرة حق (الآية: ٨٣).

ويبيِّن أن إله السماء هو إله الأرض، وهو الحكيم العليم، فلا يجوز الفصل بين الدين والسياسة، بين عالم الخلق وواقع الحكم) (الآية: ٨٤).

وكيف نتخذ من الثروة والسلطة آلهة والله عنده كل خير؟! أوَ لَيسَ هو المالك للسماوات والأرض وما بينهما، فهو الذي يبارك، أفلا ينبغي أن نعبده ليعطينا من بركاته؟ وعنده علم

الساعة، أفلا تخشاه؟ وإليه ترجعون.

أما شركاء المال والجاه و.. فهم لا يملكون أهم ما يحتاجه البشر، وهو الخلاص من النار، ولا يملكون الشفاعة عندالله، وإنها الشفاعة للحق ولأهله. وفي الوقت الذي يعترف الجميع بأن الله هو خالقهم تراهم يؤفكون عنه!، ولكن لا ينبغي أن يهلك المؤمن نفسه حسرة عليهم. وحين قال الرسول داعياً ربه: إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، أمره الله بالصفح عنهم والإعراض، وأن يقول لهم: سلام؛ ولا يبادرهم بالحرب، لأنهم سوف يعلمون أي منقلب ينقلبون.(الآيات: ٨٦-٨٩).

قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ(١) لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ(٢) ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا(٣) أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١١﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يمهِّد الذكرُ الحديثَ عن الموضوع الأساس في هذه السورة، وهو كما قلنا: التكيُّف السليم مع الحياة الدنيا، وذلك بالتذكرة بحكمة الكتاب المبين الذي أنزله الله وجعله قرآنا عربيا، التي تتلخص في إيقاظ العقل من سباته، وهو أعلى وأحكم نسخة لأم الكتاب

(١) أم الكتاب: هو اللوح المحفوظ، وإنما سمي بذلك لأنه أصل الكتب السماوية وغيرها.

(٢) أفنضرب عنكم: يقال ضربت عنه أضربت عنه أي تركته وأمسكت عنه.

(٣) صفحاً: وأصله من ضرب الحيوان على صفحةِ وجهه ليميل عن طريقه إلى ما يراد به، ثم استعمل في كلِّ شيء للتحريف عن الطريق..

الذي عند الله، وبعد بيان أن إسراف الجاهليين لا يمنع رحمة الله عنهم بتذكيرهم يعالج السياق واحدة من أبرز عقبات الإيمان، التي يهتم القرآن كثيرا بها، وهي حالة اللامبالاة والاسترسال مع الواقع الفاسد، التي تنعكس في صورة الاستهزاء بالرسالة والسخرية من الرسول، ويبدو أن منشأ هذه الحالة الرضا بالواقع القائم، فما دام الباطل يحقق أهدافي ومصالحي، ويشبع طموحي ورغبتي، لماذا الاستماع إذا إلى داعي الله؟

ذلك لأن الباطل ضار زاهق، وإنما الحق وحده باق نافع، انظر مثلك السابقين، واعتبر بعاقبتهم، فإنك لا تملك حياتين تجرب في إحدهما السبل الكفيلة لسعادتك، وتعمل في الأخرى بتلك التجارب، إنما للإنسان فرصة واحدة، وإذا مرت فلن تعود أبدا، وقد جرت سنة السابقين على أن من يتبع الحق يسعد في الدنيا والآخرة، وأن من يتبع الباطل تنتهي حياته بالبأساء والضراء، ويحيط به في الآخرة عذاب أليم.. وإن هذا يعطينا حافزا قويا للبحث عن الحقيقة، والنزوع عن حالة الاسترسال.

بينات من الآيات:

[١] ﴿حمٓ﴾ من الحروف المقطعة التي سبق أن فسرناها.

[٢] ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ قسما بالكتاب الذي يحتوي على الحقائق ويبينها.

[٣] ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ لعل الله قد جعل كتابه المنبعث من اللوح المحفوظ عربيا للأسباب التالية:

أولاً: إن لغة الضاد أفضل لغات البشر إفصاحا عن الحقائق والضمائر، واسمها (العربية) مشتق من الإعراب أي الإفصاح، ولذلك فهي اللغة الأم عند الله التي بها نزلت كتب الله أصلا إلا أنها ترجمت عند الأنبياء بقدرة الله إلى ألسنة أممهم، وقد جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كِتَاباً وَلَا وَحْياً إِلَّا بِالعَرَبِيَّةِ فَكَانَ يَقَعُ فِي مَسَامِعِ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام بِأَلْسِنَةِ قَوْمِهِمْ وَكَانَ يَقَعُ فِي مَسَامِعِ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وآله بِالعَرَبِيَّةِ**»[1].

ثانياً: لقد قدر الله بحكمته البالغة أن يحمل العرب رسالته إلى الأمم فأنزل الكتاب بلسانهم.

ثالثاً: إن ربنا يكرر القول بأن الكتاب قد نزَّله عربيا ليدعو سائر الأمم -كما يبدو- لتعلم هذه اللغة، حتى يستوعبوا لطائف كتاب ربهم، والإشارات البلاغية التي تعجز الترجمات عن بيانها.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٦٣.

وقد ألف أحد المستشرقين كتابا بالإنجليزية عن الإسلام فقال: لا أستطيع أن أبيّن لكم- أنتم أيها الإنجليز- عذوبة آيات القرآن، ولطافة معانيه، وكيف يؤثر في العربي.. ويضيف قائلا: إنه لن يفهم القرآن أحد حتى يتعلم العربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا هدف رسالاته جميعا، وكلمة (لعل) تدل على معنى الرجاء والهدفية؛ أي إنا جعلنا القرآن عربيا لكي تعقلوا، والعقل هو موهبة لا يختلف الناس في أصلها، ولكنهم يختلفون في مدى استفادتهم منها، لذلك جاءت الكلمة بصيغة الفعل أي تستفيدون من العقل.

[٤] ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ إن هذا القرآن هو انعكاس للكتاب الذي عند الله سبحانه وهو أصل الكتاب.

والأم بمعنى الأصل والأساس، والذي أستوحيه من هذه الآية أن عند الله كتابا مكنونا هو أم الكتاب، من نوره يفيض على البشر كتبه سبحانه، فمنه أنزل على نوح عليه السلام رسالته، وعلى إبراهيم عليه السلام كلماته، وبعث موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام بالتوراة والإنجيل، ومنه أيضا آتى محمدا صلى الله عليه وآله القرآن.

وقياس كل كتاب إلهي يتم بميزان أم الكتاب الذي يسمى- فيما يبدو- باللوح المحفوظ، وحينما يقاس القرآن به يكون الأعلى رتبة، والأحكم شريعة ودينا، فهو يعلو كل دين، وينفع الناس بما فيه من حكمة وعلم.

[٥] يزعم المسرفون الذين أترفوا في الحياة الدنيا أنهم عباد الله المقربون. أوَلَيسَ قد أنعم عليهم بالغنى، فهو إذا يحبهم ويكرم مثواهم، ويقودهم هذا الزعم الشيطاني إلى وهم خطير حيث يحتسبون أنهم فوق القانون، وأعلى من الذكر.

ومن جهة أخرى: مادام الإسراف ذنبا عظيما يتوهَّم البعض أنه يمنع عن المترفين رحمة الرسالة، كلا.. فلا الإسراف خير يجعل المترفين فوق الإنذار بالرسالة، ولا هو مانع من منة ابتعاث الرسل ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ نترككم بدون تذكرة وبدون رسل يذكِّرونكم ما نسيتموه؟ وأصل الضرب صفحا -كما قالوا- ضرب وجه الدابة حتى تصرف وجهها جانبا ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي بسبب إسرافكم؟

كلا.. وقد جرت سنة الله بإرسال الرسل يذكرون الناس، وقد بعث رسالاته إلى المستهزئين رحمة بعباده.

ويبدو أن الإسراف رأس سلسلة من الانحرافات، وهو بدوره ناشئ من جهل الإنسان

بحكمة الابتلاء في الدنيا، ولماذا يحلم الله عن المذنبين، ومن ضعف إرادته في مقاومة الشهوات يسير فيها بلا حدود أو قيود. ويتناسب ذكر الإسراف والمحور الرئيس للسورة وهو الالتزام بحدود معينة في الانتفاع بالحياة الدنيا.

[٦-٧] إن الرسول كالطبيب إنما يزور المرضى، كذلك تزداد فرص ابتعاث الأنبياء بالرسالات عند انحراف الناس واتخاذهم شريعة الإسراف سبيلا.

هكذا بعث الله الأنبياء إلى الناس سابقا، وهكذا مضت سنته ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ إلا أنهم كانوا يواجهون بالاستهزاء، ولعل الاستهزاء أسوأ موقف اعتادت عليه الأمم، لأنه موغل في الصلف ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ والاستهزاء بالرسل عادة مضت في الأولين، كما أن ابتعاث الرسل سنة إلهية.

[٨] ولكن هل منع هذا الاستهزاء جريان سنة الله في بعث الرسل أو في إهلاك المستهزئين؟ كلا.. لأن الله لايضره كفر من كفر، كما لا ينفعه إيمان من آمن ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ فلقد أخذ الله من هو أشد جلدا وأكثر عددا من العرب المكذبين، والآية تشير إلى ضعة الجاهليين العرب وضعفهم لعلهم يستفيقون عن جنون كبرهم وغرورهم، ولا يستهزئون برسالات ربهم، ولا يسترسلون مع تقاليدهم العفنة في الشرك والفساد والإسراف.

وقد تكررت الآيات التي تشير إلى ذلك لأن علاج الغرور والاسترسال ومن ثم الاستهزاء هو بيان نقاط ضعفهم، قال ربنا في سورة الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٢٦]. وقد قالت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام تصف حال العرب قبل الإسلام: «.. ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾، مُذْقَةَ الشَّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطَّامِعِ، وَقُبْسَةَ الْعَجْلَانِ، وَمَوْطِئَ الْأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتَاتُونَ الْوَرَقَ، أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ...»[1].

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ قالوا: أي سبق القول في تصريف الأمثال، وبيان عبرة الأولين، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥]. ويحتمل أن يكون المعنى: أنه قد تحقق مثل الأولين، وانتشرت عبرتهم في الآفاق مثلا، والله العالم.

[٩] ويستمر استهزاؤهم بالحق في الوقت الذي يعترفون بأن من خلق السماوات والأرض عزيز حكيم، حيث تتجلى عزته في متانة الصنع، كما تتجلى حكمته في دقة النظم

(١) الاحتجاج: ج١ ص١٠٠.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

[١٠] ومن آيات عزَّته وحكمته تذليل الأرض لتكون صالحة للمشي ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ مهد الأرض وهيأها من أجل راحة الإنسان، فلا هي صلبة يستحيل زراعتها وبناؤها، ولا هي هشَّة يغرق فيها من عليها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ السبل هي الطرق السهلة بالرغم من وعورة الأرض، كما جعل طرقا واضحة حتى في البحار، وعلى الإنسان أن يكتشفها حتى يهتدي إلى أقرب الطرق الموصلة بين مكانين، فهناك مثلا سلسلة جبلية تبدأ من المحيط الأطلسي غرب مراكش، وتتجه إلى المغرب العربي، ثم تمر بالبحر المتوسط، وتصعد ثانية إلى جنوب أوربا، فشرقها، ثم تتجه جنوب تركيا، فجنوب روسيا، فشمال الهند، فشرق الصين، وأمثال هذه السلاسل الجبلية كثيرة، بالرغم من كل تلك السلاسل، فقد جعل الله بينها فروجا كثيرة يسير عبرها الناس، ولو كانت الجبال العالية ذات انحدار شديد لعزلت أبناء البشر عن بعضهم.

وكما في السهول كذلك في السهوب خط الله سبلا لتواصل الناس مع بعضهم، وهكذا في البحار والفضاء..

من الذين جعل هذه السبل؟ إنه الله العزيز الحكيم، ولماذا؟

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ نهتدي بهذه السبل إلى أهدافنا، وإلى ربنا الذي خلق هذه السبل، فكلما كانت آيات الصنع والتدبير أكثر في الطبيعة كانت أكبر شهادة على الخالق، وأقرب هدى.

[١١] وكما خلق السماوات والأرض، وجعل الأرض مهدا هيأ للإنسان رزقه فيها ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير منه، فقد يكون نزول الماء شديدا فتصير سيولا، وقد يكون شحيحا فلا يستفيد منها الإنسان، ولكنه سبحانه ينزل المطر بتقدير منه على حسب حاجة الإنسان والأرض ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ وكما يحيي الله الأرض الميتة بالمطر، فينمو الزرع والضرع ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ وقد استفاد بعض المفسرين من هذه المقابلة بأن الإنسان يخرج يوم البعث من الأرض كالزرع، وقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَاجْتَمَعَتِ الأَوْصَالُ وَنَبَتَتِ اللُّحُومُ»(١).

فيكون القبر للإنسان في يوم القيامة كرحم أمه، أو كالأرض بالنسبة إلى البذرة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص٣٩.

سبحان الذي سخر لنا هذا

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾.

هدى من الآيات:

تسعى آيات هذه السورة إلى ترشيد العلاقة بين الإنسان وما حوله، وإنها يتم ترشيدها بالرؤية السليمة، ذلك أن بصيرة الإنسان تجاه الطبيعة وظواهرها هي التي تكيف علاقته بها.

ويذكرنا السِّياق هنا بأن ما أوتينا من نعم الحياة لا بد أن يهدينا إلى معرفة ربنا والتقرب إليه، فنعمة الزوجية وسيلة لمعرفة الله، كيف؟ لقد خلق ربنا من كل شيء زوجين اثنين ليعرف كل شيء بعجزه وحاجته، حتى لا يشعر أي مخلوق بالاستغناء فيطغى، وليبيِّن له أنه مخلوق يحتاج إلى قرين يكمله، وكما حاجة الإنسان إلى الزوج كذلك حاجة الإنسان إلى الأشياء والأحياء من دونه، فالإنسان بحاجة إلى دابة وسفينة إذا أراد قطع الفيافي والبحار، وحاجته دليل عجزه، وشاهدة على غنى ربه، ولكن بدل أن يعطي الله للإنسان جناحين يطير بهما، أو أرجلا سريعة يسابق بها الريح، أو أذنين حادتين كما أذني الحصان، بدل كل ذلك زوَّده بهبة العقل يستطيع أن يسخر بها الأشياء، فتراه يصنع السفينة، ويمتطي صهوة الطيارة والصاروخ، بل ويسخر حتى الأحياء من حوله لخدمته، كالأنعام، والكلاب، والدلافين و.. و..

ولولا هبة العقل، هل كان يستطيع ذلك؟ كلا.. ألم تر كيف يقود طفل قطيعا من الإبل؟.

لذلك عندما يمتطي الإنسان صهوة فرسه، أو يستقل متن سفينة، عليه أن يذكر الله

فيقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

إن المؤمن ينظر إلى الأرض باعتبارها أمه، وينظر إلى النخل والشجر لكونها عماته، وينظر إلى الشمس والقمر لكونها خلقين لله، ويجريان بأمره طائعين، والإسلام ربطنا بالطبيعة من حولنا، فهناك دعاء لركوب الدابة، ودعاء لظهور الهلال، ودعاء إذا سمعت الرعود و..، وقد كان رسول الله ﷺ يتعبّد الله، وينظر إلى النجوم متفكرا فيها، ويتلو هذه الآيات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

بينات من الآيات:

[١٢] ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾

لماذا خلق الله الأشياء أزواجا؟ لأمرين- فيما يبدو لنا-:

الأول: لتتجلى قدرته المطلقة. أوَليس حسن الصنع ومتانة الخلق في إطار التنوع دليل القدرة! فإنك ترى في الوقت الذي يختلف الزوجان عن بعضهما اختلافا واسعا، فإنهما يخضعان لسنن واحدة تسوقهما إلى هدف واحد، أليس ذلك دليل قدرة الربّ؟

الثاني: لقد أركز الله في كل زوج الحاجة إلى الآخر، فهم محتاجون إلى بعضهم، وذلك أبرز دليل على حاجتهم الشديدة إلى الله خالقهم ومدبر أمورهم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ فالذي خلق للبحار الفلك نمتطي صهوته لنبلغ أقصى الأرض بتجارتنا الثقيلة، هو الذي خلق للصحاري الأنعام وسخرها لنا، ليس فقط لتوصلنا إلى أهدافنا المادية، بل وأيضا لتقربنا إلى الله، أسمى غايات البشر وأعلى مراميه.. لماذا؟.

[١٣] ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ كي نستقلها، ونستوي على ظهورها، ونستوحي من كلمة الاستواء:

أولاً: أن الله سخر الفلك والأنعام للإنسان حتى يستقر في ظهورها دون وَجَلٍ من تمردها عليه.

ثانياً: أن علينا أن نجلس عليها باستقرار، ونتمكن منها، ولا ندعها تجمح أو تضطرب.

كما نستوحي من الآية ضرورة تسخير الطبيعة وعدم إهمالها، وقد ورد في الحديث: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، يَقُولُ مَنْ وَجَدَ مَاءً وتُرَاباً ثُمَّ افْتَقَرَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ»[1].

والاستواء على ظهور الفلك والأنعام هو الهدف المرحلي منها، أما الهدف الأسمى لهذه النعمة وسائر نعم الله هو الاهتداء والتقرب إليه ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فالهدف من نعم الله المادية هو السمو الروحي. إنها معراج الإنسان إلى الله، فإذا شبعت فقل: (الحمد لله)، وإذا ارتويت فقل: (الحمد لله)، وإذا استغنيت فقل: (الحمد لله)، وإذا ركبت السيارة فقل: (سبحان الله)...

ويذكرنا القرآن الحكيم بالأهداف المادية والمعنوية لِنِعَم الله علينا، بالذات في هذه السورة التي تمحورت حول علاقتنا بالطبيعة من حولنا، للأسباب التالية:

أولاً: لكي لا نزيغ عن الغايات النبيلة للنعم، فالزواج جعل ليبنى به البيت والسكينة والمحبة والخلق الرفيع فلا ينبغي أن نجعل هدفنا منه مجرد قضاء وطر الشهوة، وجعلت الأنعام للاستواء على ظهورها وبلوغ الأهداف المشروعة، وليس للهو بها أو للتجبر والبطش على الناس.

ثانياً: لكي لا تبطرنا النعم ونتخذها للتفاخر والتكبر والفساد في الأرض.

ثالثاً: لتعطينا السكينة النفسية التي تساهم في إصلاح نفوسنا من عقدة الضعة، وتدعونا لشكر الله بعمل الصالحات.

لذلك أمرنا الله بهذا الدعاء عند ركوب الأنعام لكي ينقلنا امتطاؤها إلى آفاق روحية أبعد من تلك الآفاق الأرضية، التي نطويها عبرها. أرأيت أيَّ أفق بعيد يبلغه من يقطع المسافة بين الشهود والغيب في لحظة فينتقل من رؤية النقص في الطبيعة إلى الكمال في خالقها!.

﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ونتساءل: لماذا أمرنا الله هنا بالتسبيح وليس بالحمد؟

ذلك لأن حاجتنا -نحن البشر- إلى الدواب أو الفلك، وضعفنا عن توفيرها لولا تسخير الله، شاهد على تنزه الله وغناه، فهو غني عن عباده، غني عن التوسل بالآلات، غني عن تسخير شيء لنفسه، تعالى الله وتقدَّس ربنا عن كل ذلك.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠٠، ص٦٥.

ثم تسخير الأنعام والفلك دليل عجز الحيوانات والطبيعة وحاجتها الشديدة لمدبر حكيم هو الله. ويهدينا ذلك إلى تسامي ربنا عن الحاجة. أوَليسَ حاجة كل شيء دليل مخلوقيته، فكيف يحتاج الخالق؟.

وأساسا كل نقص وعجز وحاجة وضعف في الخلق شاهد على ما يقابلها عند الخالق لدلالة العقل أن صفة الخالق غير صفة المخلوق، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ وبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ العَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ وبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ»[1].

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي لسنا بقرناء له، ولا مطيقين تسخيره، ولا بمستوى ضبطه، وأصل الكلمة من المقارنة بمعنى المشابهة في القدرة.

[١٤] ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ فالنعمة التي أعطيناها ليست دائمة، ونحن مسؤولون عنها يوم القيامة، لأن الله إنما أعطاكها لهدف مقدّس سامٍ، وهو أن تعمل بمنهجه وبمقتضى أوامره. وفي الآية ومضة أدبية فكما المسافر ينقلب إلى أهله كذلك الإنسان ينقلب إلى ربه.

وحول هذا الموضوع جاءت طائفة من الأحاديث، فعَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام هَلْ لِلشُّكْرِ حَدٌّ إِذَا فَعَلَهُ العَبْدُ كَانَ شَاكِراً؟ قَالَ عليه السلام: نَعَمْ. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ عليه السلام: يَحْمَدُ اللهَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ عَلَيْهِ فِي أَهْلٍ ومَالٍ وإِنْ كَانَ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ حَقٌّ أَدَّاهُ ومِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ وعَزَّ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وقَوْلُهُ: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾»[2].

وعن أبي الحسن عليه السلام: «..وَ إِنْ خَرَجْتَ بَرّاً فَقُلِ الَّذِي قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقُولُهَا عِنْدَ رُكُوبِهِ فَيَقَعَ مِنْ بَعِيرٍ أَوْ دَابَّةٍ فَيُصِيبَهُ شَيْءٌ بِإِذْنِ اللهِ»[3].

وروي عن معاوية بن عمار بن أبي عبد الله عليه السلام قال: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ عَلَى رَاحِلَتِكَ واسْتَوَى بِكَ مَحْمِلُكَ فَقُلْ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِلإِسْلَامِ وعَلَّمَنَا القُرْآنَ ومَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله سُبْحَانَ اللهِ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٨٥.

(٢) الكافي: ج٢ ص٩٥.

(٣) الكافي: ج٣ ص٤٧١.

لَمُنقَلِبُونَ ﴾ والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ. اللهُمَّ أَنتَ الحَامِلُ عَلَى الظَّهرِ والمُستَعَانُ عَلَى الأَمرِ اللهُمَّ بَلِّغنَا بَلاغاً يَبلُغُ إِلَى خَيرٍ بَلاغاً يَبلُغُ إِلَى مَغفِرَتِكَ ورِضوَانِكَ اللهُمَّ لَا طَيرَ إِلَّا طَيرُكَ[1] ولاَ خَيرَ إِلَّا خَيرُكَ ولَا حَافِظَ غَيرُكَ»[2].

وهكذا أمرنا الدين الحنيف بأن نذكر الله عند ركوب ما سخَّره الله لنا مباشرة من الأنعام، وما سخَّره بأيدينا من الفلك والسيارة والطائرة وما أشبه، لكي نتذكر ما لهذه النعمة من أهداف معنوية ومادية، كما أمرنا بأذكار وأدعية عند كل نعمة عند الطعام والشراب والزواج وزيارة البيوت والنوم واليقظة والوضوء والغسل، وحتى عند النظر في المرآة.. كل ذلك لكي نتذكر هدف كل نعمة فلا نزيغ عنه، ونشكر الله عليها فلا نصاب بالبطر والكبر.

(١) الطير: هو التشاؤم والفأل الرديء.

(٢) الكافي: ج٤ ص٢٨٤.

أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ(١) وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢) ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا(٣) إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) أو من ينشّؤا في الحلية: الهمزة للاستفهام والواو للعطف، أي هل هؤلاء الكفار يجعلون لله تلك البنت التي تكبر وتربّى في الزينة؟!.

(٢) يخرصون: يكذبون.

(٣) مترفوها: أي المتنعّمون فيها، من أترف بمعنى تنعّم والمراد به الرؤساء والكبراء لأنهم دائماً يقابلون المصلحين بالإنكار والتخاصم..

هدى من الآيات:

لكي تنفذ بصيرة الإنسان إلى واقع الخلق وتصلح بذلك علاقته به فلا يرفعه إلى مقام الخالق، ولكي تخلص عبادة الإنسان لخالقه من شوائب الشرك، ويعلم أن النعم من عنده فلا يكفر به بإشراك عباده فيها، ومن ثَمَّ تكون علاقته بالنعم سليمة منبعثة من نور التوحيد، تسوق آيات الدرس حقائق التوحيد خالصة من زيغ المعتقدات الجاهلية، التي منها نظرية الحلول التي يزعم أهلها أن لله في عباده جزءاً يتنزَّل الله به عن مقام ربوبيته درجة، ويرتفع العبد به إلى مقام الربوبية بقدرها. إنه الكفر المبين بالنعم وبمن أنعم سبحانه، وهكذا الإنسان من طبعه الهبوط إلى هذا الدَّرْك من الكفر.

ويستنكر القرآن زعمهم بأن الله اختار البنات بينما اصطفى لهم البنين في الوقت الذي تراهم يستاؤون من الإناث حتى إذا بشر أحدهم بها ظل وجهه مسودا وهو كظيم.

ويتساءل السياق: كيف يختار البنات وهن ناشئات الحلي والزينة، ولا يصلحن للجدال والمخاصمة؟!

وهكذا جعلوا الملائكة إناثا بينما هم عباد الرحمن والعباد أمام معبودهم شرع سواء. وهكذا ينسف القرآن أساس التفاضل الذاتي بين الخلق وهو في الوقت نفسه الانحراف الكبير الذي يزيغ إليه ذوو الثروة والجاه. وينكر عليهم أن يقولوا ما ليس لهم به من علم وينذرهم بأن كلامهم يُعَدُّ شهادة، وأنه مسجل عليهم، وأنهم يسألون عنه.

وجعل الملائكة أو غيرهم أنصاف آلهة يساهم في الإيمان بالقدر (الجبر)، أي بأنهم لا يملكون من أنفسهم شيئا، وأنه لو شاء الله لما عبدوا الملائكة.

ولكن انسياقهم وراء النظرية القَدَرِيَّة تم بدافع شهواتهم ونزوع الإنسان إلى التملص من المسؤولية. ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون.

وتراهم يعظمون آباءهم إلى درجة اتباعهم بغير هدى، بينما لا يجوز تقديس الآباء إلا بقدر ما كان عندهم من كتاب أو هدى، أما إنهم يقولون إنا مهتدون لأننا نتبع آباءنا فيما وجدناهم ماضين عليه من شرعة ومنهاج!

وهذه عبادة جرت في كل الأمم، فما أرسل الله في قرية من نذير يحذرهم من الاسترسال مع المنكرات إلا قال المترفون الذين عبدوا الثروة وخشوا من الإصلاح- إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإننا ماضون عليها.. وحين دعاهم النذير بما هو أهدى من آثار آبائهم كفروا برسالته

فانتقم الله منهم بسبب تكذيبهم. ويكشف الانتقام أنهم مسؤولون عن مواقفهم، اعترفوا بها أو لم يعترفوا.

وهكذا يتبين حقيقة كفران الإنسان؛ وأصله الجهل بمقام الله والجهل بأنه لا يتشبه بخلقه أبدا.

بينات من الآيات:

[١٥] لقد بيَّن القرآن حقيقة الفصل الأبدي بين الخالق والمخلوق حتى لا يُضفَى على الخالق من صفات المخلوقين شيء، ولا ينعت المخلوق بصفة من صفات الخالق، لأن الخالق لا يشبهه شيء.

وذكرنا بسفاهة كل المعتقدات الجاهلية التي تخلط بين صفات الخالق والمخلوق، التي تنبعث -فيما يبدو- من النظرة الشركية إلى المخلوق وإعطائه الذاتية والقيمة من دون الله. وكان من معتقداتهم السفيهة أن جعلوا لله البنات، وزعموا أن فيها جزءاً من الله.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ فقسموا الله جزأين: أحدهما من ذاته، والآخر من عباده. أَوَلَيسَ الولد امتدادا لوالده، حيث ينتقل جزء من الوالد فيه حتى يصبح بضعة منه، هكذا زعم القائلون بالحلول أن جزءاً من الله ينتقل إلى بعض عباده فيصبح نصف إله، ويكتسب قداسة بين سائر عباده، وينتمي إلى ذي العرش انتماء نسبيا كما زعم النصارى أنه ثالث ثلاثة سبحانه وتعالى عما يصفون، وكما يزعم المترفون أنهم يختلفون ذاتيا عن سائر خلق الله. أولم يفقهوا أن كل من خلقه الله هو عبد لله ونسبته إلى الله نسبة المخلوق إلى خالقه، وبأن خلقهم ليس من ذات الخالق وإنما يبدعه بأمره لا من شيء إذ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣]، وهم جميعا أمامه سواء من حيث الذات ومقام العبودية. ومن السَّفَهِ أن يجعل له جزءاً من عباده دون جزء بل هم جميعا له، ولكن في مستوى العبودية وعلى صعيد المخلوقية.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ إنه جحود متجاهر بجحده..

أولاً: لأنه يجحد بآيات ربه، ويتنكر نعمه عليه، انطلاقا من كبر في نفسه وبوعي منه وإصرار، لأنه لا يريد أن يسلِّم لأمره ويطيع أولياءه.

ثانياً: لأنه يساوي بين من أنعم عليه كل هذه النعم السابغة وبين عباده العاجزين، فيقول أن بعض العباد شركاء لله، وينسب إليهم من دون الله النعم.

ويتصل موضوع نكران النعم بهذه الشدة بمحور السورة-وهو علاقة الإنسان بنعم الله- اتصالا متينا إذ إن أهم ركائز العلاقة السليمة شكر الله، وتجاوز حالة الكفران الطبيعية عند الإنسان إلى حالة الشكر المنبعثة من الإيمان.

[١٦] وهكذا زعموا بأن الله اصطفى لنفسه البنات ولهم البنين ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ ولكن كيف يجتمع الخلق والتبنّي، ثم لماذا يصطفي لنفسه الإناث والبنت في نظر الجاهلين ليست المثلى، فكيف يضربونه لله مثلا؟!

[١٧] ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مكفهرا من الغضب وجهه، كاظما غيظه يكاد يتميز من الغيظ.

[١٨] ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ فالبنت التي تكون نشأتها ونموها في الحِلْية-الزينة- وتعيش النعومة والرقة، هل هي قادرة على القيام بما تقوم به الملائكة؟ كلا.. ولو اتخذ الله بنات لجعلهم في رياض الجنان يمرحن، ولم يجعلهن يمارسن أمور الحياة، ثم إن النساء لذلك لا يكونن قادرات على الخصام والجدال كما الرجال لأنهن عادة يفصحن عن كل ما تجيش به صدورهن لفرط عاطفتهن، أو لحيائهن.

[١٩] ولأنهم جعلوا لله جزءا من عباده، وزعموا أنه اتخذ البنات مما خلق وهم يكرهون البنات، تراهم يعتقدون بأن الملائكة إناث ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ لماذا؟، لعله للأسباب التالية:

أولاً: إنهم زعموا في الملائكة ما زعمته النصارى في المسيح حيث جعلوا لله فيهم جزءاً، لعله لعقيدة الحلول.. أو حسب نظرية الفيض وتنزُّل وجود الله -تعالى عما يقولون- إلى مرتبة الملائكة، وهي عندهم أدنى من مقام الربوبية وأعلى من مقام سائر الخلائق.

ثانياً: لأنهم لم يحبوا الملائكة نسبوا إليهم التأنيث أوَلَيست الإناث أقل قدرا من الذكور عندهم؟!

ثالثاً: لأنهم كانوا يتصورون الملائكة يمثلون جانب الشهوات، بينما مقام ربِّ العرش مقام العقل.

رابعاً: قالوا إنما أنثت العرب الملائكة في لغتهم لأنهم كانوا يؤنثون كل مغيب عنهم، محجوب عن أعينهم. لكن التأنيث لأسباب لغوية بعيد عن سياق الآيات والله العالم.

وواضح أن مفهوم الذكورة والأنوثة معهود فيما حولنا من كائنات، ولا يملك أحد علما

بحقيقة المخلوق الملائكي بحيث يتأتى له القول بأن جنساً يتقبل الذكورة والأنوثة، ناهيك أن المعلومات اليسيرة المتاحة عبر الديانات السماوية السابقة تسير باتجاه ينفي المشابهة مع المخلوق البشري إلا في العقل والحرية، وفي نفي قابلية الذكورة والأنوثة. وتجدر الإشارة أن تعبير ﴿عِبَٰدُ﴾ للملائكة لا يجعلهم ذكورا، والتذكير هو غالب اللغة كما يقولون.. على كل كلماتهم بتأنيث الملائكة لا تستند إلى معرفة.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ هل كانوا حاضرين عندما خلقهم الله حتى يحكموا بأن الملائكة بنات؟! ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي سنسجل لهم قولهم بأن الملائكة إناث، ويسألون عنه يوم القيامة، وكفى بذلك رادعا عن أقوالهم اللامسؤولة.

[٢٠] ويمضي السياق في دحض تخرصات الجاهليين الواحد بعد الآخر حتى يبلغ محورها الرئيسي المتمثل في النظرية القدرية، ذلك أن أساس زيغ البشر -كما يبدو، وكما سبق القول آنفا- النظرة الشيئية التي تعطي للأشياء قيمة ذاتية بعيدة عن صلتها بالله العظيم.. فتضفي عليها هالة من القداسة، والثبات والحتمية.

إن الاعتقاد بوجود جزء من الله في عباد الله هدفه تجريد الإنسان عن مسؤولية أعماله. ألا ترى كيف يتنصل الطاغوت- أي طاغوت- عن الالتزام بالقانون باسم أنه ظل الله في الأرض، وأنه لا يخطئ؟

ويزعم بعض أدعياء التصوف أنه مظهر لتجلي الحقيقة المحمدية فهو لا يزيغ. ويزعم بعض أدعياء الفقه بالتصويب، وأن ما يحكمون به عين ما حكم الله به من فوق عرشه. وهكذا الإنسان العادي يذهب إلى تبرير أعماله بأن وراءها إرادة الله.

كما أن الشرك بالملائكة ينبعث من نزوع الإنسان إلى تبرير أعماله، والتهرب عن المسؤولية، حيث زعم بأن الملائكة يشفعون له.

وهكذا نجد السياق يواصل الحديث عن هذه الأفكار الشركية حتى يبلغ جذورها المتمثلة في القدرية فيقول: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فالله سبحانه حسب هذا الزعم مسؤول عن ضلالتهم، لأنه كان قادرا على إنقاذهم منها فلم يشأ، كلا.. إن الله آتاهم فرصة الهداية، ووفر لهم عواملها، وشاءت حكمته أن يلقي بمسؤولية الاختيار عليهم، فإن اهتدوا بلغ بهم الكمال ذروته، وإن ضلوا سقطوا في قعر الهاوية، لأن تلك وهذه إنما تتم بإرادتهم.

وقد قلنا في بداية هذا الدرس أن هذه فكرة قَدَرِيَّة جَبْرِيَّة هدفها تبرير واقع الإنسان

المتخلف، وتلقي بمسؤولية الهداية على الله بمعنى الجبر عليها أو المنع جبرا عنها.

وقد أشار السياق إلى سفاهة مجمل تصوراتهم، فهم جهلوا مقام الخالق فجعلوا له من عباده جزءا، ولو عرفوا شيئا من معنى الخلق والإنشاء وإحاطة الرب قدرة بكل شيء، وأن أمره بين الكاف والنون من كلمة ﴿كُن﴾ [يس:٨٢] وفي لحظة إرادة يبتدع ملايين المجرات..

أقول: لو عرفوا شيئا من ذلك لسفهوا أنفسهم، ولم يزعموا أن له مراتب وجودية يتنزَّل بواسطتها ليكون جزءاً منه في مخلوقاته، سبحانه الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

ولو عرفوا أن مهام الملائكة مهام صعبة لا تليق بالنساء الناعمات، فمن مهامهم اقتلاع قرى لوط عن أعماقها ثم قلبها وتدميرها، ومن مهامهم بيان أعظم الحقائق وأدقها، ومخاصمة المبطلين، فكيف تليق بمن ينشأ في الحلية، ولا يفصح في الجدال؟!.

لو عرفوا ذلك لما زعموا أن الله اصطفى البنات على البنين. ولو عرفوا قرب الملائكة من الله، ومدى كرامتهم عنده -لأنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون- لما عادوهم وضربوا لهم المثل السيئ الذي رفضوه لأنفسهم حين قالوا أنهم إناث.

كلا.. إنهم عباد الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وما داموا عبادا فهم فوق ما ينسب إليهم من الأنوثة -وهي مرتبة أدنى في زعمهم- ودون ما يتصور من أن فيهم جزءاً من الألوهية. ولأنهم عباد الرحمن فلا يجوز أن يتخذ منهم الرحمن بنات، وقد شملت رحمته كل خلقه، وكيف تتفاوت الخليقة تفاوتا ذاتيا، وهي كلها مخلوقة لرب واحد، بل؛ إنما يتفاضل الخلق بينهم بما يهب الله لهم حسب حكمته البالغة.

والآية تنسف أساس النظرة الشيئية إلى المخلوقات التي هي أساس الشرك وأساس كل الزيغ البشري، ببيان جهلهم المطلق بذلك الغيب، فهم لم يشهدوا خلق الملائكة فكيف يحكمون بأنهم بنات! وأساسا، هل يجوز أن يتحدث الإنسان عما لم يؤت علمه؟!

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فهم يتكلفون علم ما لا قبل لهم به، إنهم أرادوا أن يعرفوا كيف آتاهم الله العقل والإرادة، وكيف يجوز لهذا الإنسان المحدود أن يختار بنفسه، وأن يتجاوز العوامل الضاغطة، فوقعوا في ضلال بعيد.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أرأيت كيف يخمّن الخرّاص وزن التمر على النخل؟ إنه يعتمد على معلومات غير كافية، يضيف إليها من خياله الخصب مالا يغنيه عن الحق شيئا.

ويوحي هذا التعبير بأنهم بنوا على فكرة صحيحة نظرية خاطئاً، فالصحيح هو وجود

دوافع ضاغطة، والخطأ هو أنها تسلب إرادة الإنسان.

صحيح أن للاقتصاد أثرا كبيرا على قلب الإنسان، وأن الناس عبيد الدنيا، وأنهم يحوطون يدينهم ما درَّت معايشهم، ولكن الخطأ هو الحتمية الاقتصادية التي زعمت أن الإنسان محكوم كليا بطرق الإنتاج.

وهكذا للاجتماع جاذبية هائلة، ولكنها لا تحتم على الإنسان شيئا، وكذلك التاريخ يسوق البشر في اتجاهه دون أن يكرهه على ذلك إكراها.

ولولا قدرة الإنسان على تحدي العوامل الضاغطة لما بنى حضارة، ولا تقدم شبرا، ولما استطاع الرواد أن يخرقوا جدر التخلف بسهام التجديد، وما قدر المصلحون أن يغيروا الواقع السياسي الفاسد، ولا انتصر الرسل على الجاهليين الذين كانوا يملكون وسائل الإنتاج، وأجهزة الإعلام، وجاذبية المجتمع.

[٢١] ومن الحتميات الموهومة الحتمية التاريخية، ولا يعترف الدين بالتاريخ والتراث وتقاليد الآباء إلا بقدر ما فيه من هدى الله الموحى به عبر رسالاته، ولذلك نجد الذكر الحكيم يذكرنا بأنهم ما داموا لا يملكون كتابا يستمسكون به فلا قيمة لماضيهم ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ من قبل القرآن الذي يجادلون فيه ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾.

[٢٢] كلا.. إن اعتمادهم ليس على العلم لأنه ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولا على كتاب، إنما على تقاليد بالية.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ على طريقة يأتم بعضهم بالبعض فيها ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ نحن سائرون على آثارهم فنحن إذا مهتدون.

كلا.. إن الآباء لم يكونوا أنصاف آلهة، ولا شرعية لعملهم، ولا هدى في آثارهم من دون علم أو كتاب.

[٢٣] وهذه عادة باطلة درج عليها المترفون حينما بعث الله إليهم الأنبياء ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ فلربما كانت عقيدة الآباء منحرفة، ولربما كانت صحيحة ولكن في وقتها، إذ إن ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. أو قد يكونوا صالحين ولكن مع تقادم الزمن حرفت عقائدهم.

وهذه الآية تبيِّن لنا أن الناس انقسموا تجاه أنبيائهم إلى قسمين: قسم اتبع الأنبياء، وهم

المستضعفون، وقسم خالف هدى الأنبياء، وهم المترفون ومن اتبعهم من عامة الناس.

[٢٤] بلى، من السفاهة إتباع الآباء بلا تعقل، كما لا ينبغي رميهم بالانحراف رأسا، إنما يجب اتباع أهدى السبل سواء عرفه الآباء أم لا ﴿ ﴾ ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ ﴾ وهذا طعن غير مباشر، وغير حاد لعقيدة الآباء، فالرسول لم يطعن في سيرة الآباء، بل دعاهم إلى اتباع الأهدى، مشيرا إلى أن الآباء لم يكونوا مهتدين، أو أن منهاجهم كان صالحا لذلك الوقت، وقد نسخه تقادم الزمن، وتطور الظروف، فماذا كان ردُّ أقوام الرسل لهذه الدعوة؟

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ كفروا بما أرسل الرسل، وتبيّن زيف ادعائهم بحتمية اتباعهم لآبائهم، كلا.. ليس آباؤهم مسؤولين عن كفرهم، بل هم المسؤولون.

[٢٥] وحين تمت عليهم الحجة، وثبتت لهم مسؤوليتهم عن أعمالهم، جاءهم الانتقام ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ وسواء اعترف الإنسان بجريمته أو لم يعترف فإن قضاء الله واقع به إذا تنكبَّ الطريق، وهكذا لا يغنيه إنكار المسؤولية شيئا.

إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[1] ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[2] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا[3] ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾.

هدى من الآيات:

يضرب القرآن مثلا على الصراع بين الحق الذي يحمله النذير إلى قومه والواقع الفاسد الذي يدافع عنه المترفون باعتباره تراث الآباء، بقصة إبراهيم عليه السلام الذي تحدى أباه وقومه، وأعلن براءته مما يعبدون، وجعل الإمامة في ذريته الطيبة لتكون منار هدى للأجيال المتعاقبة، كما متع طائفة من أبنائه -وهم أهل مكة وآباؤهم- دهرا طويلا حتى جاءهم الحق ورسول

---

(١) سخرياً: أي ينتفع أحدهم بعمل الآخر له فينتظم بذلك قوام أمر العالم.
(٢) معارج: جمع معراج وهو السُّلم.
(٣) زخرفاً: هو الذهب.

مبين فكذبوه وقالوا هذا سحر.

وقد قاوموا الرسالة الإلهية بقيمهم المادية، وقالوا: «﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ على واحد من العظيمين في مكة والطائف، أي الوليد بن المغيرة من قريش مكة أو حبيب بن عمرو من ثقيف الطائف» حسب تفسير ابن عباس[1].

ويبين القرآن ضلالة هذا المقياس:

أولاً: بأن الله هو الذي يقسم رحماته كيف يشاء لا المخلوقين.

ثانياً: بأن الله قد قسم بينهم معايشهم حسب حكمته، وإنما رفع بعضهم على بعض لكي يتخذ بعضهم بعضا سخريا، وليس للغني في غناه كرامة، ولا على الفقير في فقره هوان.

ثالثاً: بأن رحمة الله المتمثلة في رسالاته وجزائه خير مما يجمعون من مال وزخرف.

ويمضي السياق قُدُماً في تهوين شأن الدنيا وليقتلع من النفوس مقياس الغنى في تقييم الحقائق، ويقول: لولا أن يكون الناس على الضلالة جميعا بإغراء زخرف الدنيا لجمع الدنيا كلها للكفار. فجعل لبيوتهم سُقُفاً من فضة وسلالم يعرجون عليها إلى الطوابق العليا، وجعل أبواب بيوتهم وسررها من فضة، وأحسن تأثيث منازلهم بالزخرف. ثم ماذا بعد كل ذلك؟، إنما ذلك متاع زائل للحياة الدنيا بينما تصفى الآخرة لمن اتقى ربه.

بينات من الآيات:

[٢٦] ضمن سياق هذه السورة التي تتحدث عن تصحيح العلاقة بين الإنسان وما حوله من بشر وطبيعة، يبيِّن لنا السياق القرآني العلاقة المثلى بين الإنسان وبين آبائه، فعلاقته يجب أن تكون مع القيم قبل العلاقة بالماضي بما فيه من خير وشر.. لماذا؟ لأن الإنسان لا يكتسب القدسية بمجرد مرور الزمان عليه، ولأننا وَهُم أمام الله شرع سواء، وإنما قيمتنا جميعا باتباع ما أمرنا الله به.

ولولا هذه العلاقة المجردة عن التقديس لما قدرنا الانتفاع بتجاربهم، وكيف نتقي الأخطار التي أحدقت بهم وأهلكتهم، وما هي جذور انحرافهم، وما هي عاقبته؟.

كما أن العلاقة السليمة إلى التاريخ تجعلنا نعيش واقعنا بصورة أفضل، فمن الناس من

(١) بحار الأنوار، ج٩، ص١٤٨.

تجده يهرب من حاضره إلى ماضيه، ولا يرى إيجابيات عصره، ولا إنجازات معاصريه، ولا يتنعم بفوائده، ولا يقبل التطوير والتجديد.. كل ذلك لأنه قد ارتمى في أحضان التاريخ، يحتمي بكهفه، ويتغنى بأمجاده، ويجتر حوادثه، ويتفاعل معها كما الأسطوانة الجريحة التي تكرر النغمة ذاتها أبدا، وهذا حقا من أعظم علائم التخلف.

فمثلا لم تكن قريش عندما بزغ فجر النبوة تصدق بأن الرسول واحد منهم، يعيش بين ظهرانيهم، يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، يكون أفضل من إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ومن عظماء التاريخ، بالرغم من أن القرآن الكريم عند عرضه لقصص أنبياء الله الكرام تراه يعرضها بواقعياتها الإيجابية والسلبية، وكيف كذبهم الناس، ولكن مع ذلك يقدّسهم من يأتي من بعده، لماذا؟ يبدو أن ذلك للتعويض عن الحاضر بالماضي، الذي يأتي بدوره من منطلق التهرب من تحمل مسؤوليات الواقع الراهن، ذلك لأن الذي يقدس واحدا من عظماء التاريخ لا يكلفه ذلك شيئا كثيرا، أما الذي يحترم قائدا حيا يعيش في عصره فإن ذلك يعني طاعته والتسليم لأوامره.

ومن هذا المنطلق يتحدث القرآن عن قصة إبراهيم مع قومه، عندما تبرأ من عبادة الأصنام، مؤكداً أن عبادة الآباء لها ليس دليلا على شرعيتها، وورث هذا الفكر التحرري أبناءه، وصارت تلك سنة يتوارثها المؤمنون الصادقون عبر التاريخ، أن يؤمنوا بالله، ولا يخضعوا للفساد المستشري بين الناس، الذي تعودوا عليه، ولا يخضعوا للشرعية المزيفة- شرعية الأمر الواقع- الذي يسميه عالمنا السياسي اليوم، مهما كان هذا الواقع صعبا.

بعد ذلك تتحدث الآيات عن النظرة المادية البحتة إلى القيم التي تتساءل مستغربة، فلو أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، رجل من مكة أو آخر من الطائف. لماذا؟ لأن الدنيا مقبلة عليهم، والنظرة المادية إلى القيم نابعة من النظرة المادية للأشياء، فالقيمة كل القيمة في نظر بعض الناس للمادة، أو كأن المادة هي القيمة الأساس التي تعطي الشرعية لسائر القيم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ كانت رسالة إبراهيم عليه السلام ثورة على استمرار الأمر الواقع، ثورة على عبادة الآباء، وتقديس شرعهم ومعتقداتهم وتاريخهم، لذلك قال لأبيه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله. ويعتبر هذا من أهم ما يتميز به إبراهيم الخليل من بين سائر الرسل.

[٢٧] ويتبرؤ إبراهيم عليه السلام مما عبده آباؤه، قطع صلاته بهم، واختط لنفسه ولآله من بعده خطا جديدا نظيفا هو التوحيد.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ فولاؤه عليه السلام لربه الذي فطره وخلقه، وليس لآبائه، رغم كونه وُلِدَ منهم لأنهم لم يكونوا سوى سبب، وإذا كان الأمر كذلك فإن فاطره أولى بهدايته منهم.

[٢٨]﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي جعل كلمة الرفض والبراءة مما يعبد الآباء باقية في عقبه لعلهم يرجعون إليها من الانحراف، ولم يجعل إبراهيم عليه السلام نفسه رمزا باقيا يُتَّبع ويُطاع، لأن العصور تختلف، وإنما كان إبراهيم نذيرا، وإنه لا بد أن يكون لكل قوم هاد ولكل عصر إمام.

وهكذا نستوحي فكرة من هذه الآية وآيات أخرى أن الأجيال التي تأتي بعد نهضة مباركة ينبغي أن يستفيدوا منها تجربة النهوض دون أن يعطوها كل الشرعية، ويحولوها إلى عقبة في طريق التطوير والتجديد، أو يجعلوها كهف المروب من الواقع ومسؤولياته الثقيلة، كلا.. إن لكل جيل نهضته التي تأتي في مواجهة وضع فاسد يختلف عن ذلك الوضع الذي نهض السابقون في محاربته.

وهكذا فسرت هذه الآية في النصوص الدينية بالإمامة، فجاء في حديث مأثور عن هشام عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل: «هَلْ تَكُونُ الإِمَامَةُ فِي أَخَوَيْنِ بَعْدَ الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ عليهما السلام؟ فقال: لَا، إِنَّمَا هِيَ جَارِيَةٌ فِي عَقِبِ الحُسَيْنِ عليه السلام كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ثُمَّ هِيَ جَارِيَةٌ فِي الأَعْقَابِ وَأَعْقَابِ الأَعْقَابِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

[٢٩-٣٠] وفي مقابل إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده الكفار الذين يتقلبون في نعم الله مما دعاهم إلى الكفر وهكذا انقسم أبناء إبراهيم عليه السلام فريقين: فريق منهم حمله أمانة الرسالة، وجعل فيه كلمة الإمامة، لعل الآخرين يجعلونهم مرجعا لهم في شؤون دينهم ودنياهم، أما الفريق الآخر (وهم الأغلب) فقد ابتلاهم الله بالنعم فأترفوا فيها ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ لما ناموا على حرير النعم، واطمأنوا إليها رفضوا أي فكرة جديدة، وقالوا: هذا سحر، ونحن كافرون به.

كانوا يحسبون أن هذه المتع التي متعهم ربهم بها دليل صلاحهم، ولكن قد تكون المتع والنعم استدراجا منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٣]. وربما تعني الآية أن الله متَّعهم حتى إذا جاءهم

(١) بحار الأنوار: ج٢٥ ص٢٤٩.

الحق ورسول مبين كذبوا به اعتمادا على النعم، حيث يعزو القرآن في آيات كثيرة التكذيب بالرسل إلى الإتراف، كما سبق في الآية (٢٣) حيث رأينا كيف قاد المترفون الناس إلى التكذيب بالرسل، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نعرف الصلة بين هذه الآية والآيات التالية التي تتحدث عن المترفين.

ولكن هل النعم دليل صلاح أصحابها؟ كلا.. بل قد يكون بلاء أو استدراجا، جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام:

١ - «يَا ابْنَ آدَمَ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ»[1].

٢ - «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ ومَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ومَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ومَا ابْتَلَى اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإِمْلاَءِ لَهُ»[2].

٣- «أَيُّهَا النَّاسُ لِيَرَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اخْتِبَاراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً»[3].

ولكن لماذا يتّهم الكفار الرسل بالسحر؟ لأن الرسالات التي يأتي بها الرسل كانت قريبة من قلوبهم وعقولهم وعواطفهم، وكانوا ينجذبون إليها، ولكنهم لم يريدوا الإيمان بها، ففسروها بالسحر، لأنه يجذب الفرد من حيث لا يدري، ولكن جهلوا الفرق الكبير بين رسالة الحق والسحر الباطل. فأثر السحر مؤقت يزول بزوال المؤثر، وهذا ليس في الرسالة، كما أن الرسالة تطلب منك موقفا وأنت في كامل وعيك، وانطلاقا من عقلك، بعكس ما هو عليه السحر فأنت مجبور(!) على سلوك معين بتأثير السحر، ولا يفلح الساحر بينما صاحب الرسالة منصور من عند الله.

ونتساءل: كيف قالوا بأن الرسالة سحر في معرض الانتقاص، وقد كانوا يتوسلون بالسحر في بعض الأحيان؟ يبدو أن السحر كان مبغوضا عندهم، وإنما يتوسلون به أحيانا عند الحاجة.

[٣١] لماذا يكفر بالرسالات الإلهية المترفون؟ ذلك لأنهم اتبعوا ما أترفوا فيه، وضاعت عنهم الموازين الحق، ومسخت شخصياتهم الإنسانية، فلم يعودوا يملكون مقاييس سليمة

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٥.
(٢) نهج البلاغة: حكمة: ١١٦.
(٣) نهج البلاغة: حكمة: ٣٥٨.

لمعرفة الحقائق، فقاسوا كل شيء بميزان الماديات. وهكذا زعموا أن رسالة الله لا بد أن تتنزّل على كبار المترفين، أوليس قد خصهم الله بنعمة الغنى حبا لهم وإكراما لمقامهم، إذن فهم أحق بنعمة الرسالة ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.

جاء في النصوص الدينية في تفسير هذه الآية عن الإمام العسكري عليه السلام عن أبيه قال: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله كَانَ قَاعِداً ذَاتَ يَوْمٍ بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ،... قَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ المَخْزُومِيُّ: لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنَا رَسُولاً لَبَعَثَ أَجَلَّ مَنْ فِيمَا بَيْنَنَا مَالاً وَأَحْسَنَهُ حَالاً فَهَلَّا نَزَلَ هَذَا القُرْآنُ الَّذِي تَزْعَمُ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ وَابْتَعَثَكَ بِهِ رَسُولاً: ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ إِمَّا الوَلِيدُ بْنُ المُغِيرَةِ بِمَكَّةَ وَإِمَّا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ بِالطَّائِفِ،.... ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: وَأَمَّا قَوْلُكَ: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾، الوَلِيدِ بْنِ المُغِيرَةِ بِمَكَّةَ أَوْ عُرْوَةَ بِالطَّائِفِ، فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ يَسْتَعْظِمُ مَالَ الدُّنْيَا كَمَا تَسْتَعْظِمُهُ أَنْتَ وَلَا خَطَرَ لَهُ عِنْدَهُ كَمَا لَهُ عِنْدَكَ بَلْ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ تَعْدِلُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ لَمَا سَقَى كَافِراً بِهِ مُخَالِفاً لَهُ شَرْبَةَ مَاءٍ، وَلَيْسَ قِسْمَةُ رَحْمَةِ اللهِ إِلَيْكَ بَلِ اللهُ هُوَ القَاسِمُ لِلرَّحَمَاتِ وَالفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ فِي عَبِيدِهِ وَإِمَائِهِ.

وَلَيْسَ هُوَ عَزَّ وَجَلَّ مِمَّنْ يَخَافُ أَحَداً، كَمَا تَخَافُهُ أَنْتَ لِمَالِهِ وَحَالِهِ فَعَرَفْتَهُ [فَتَعْرِفَهُ] بِالنُّبُوَّةِ لِذَلِكَ. وَلَا مِمَّنْ يَطْمَعُ فِي أَحَدٍ فِي مَالِهِ أَوْ حَالِهِ كَمَا تَطْمَعُ فَتَخُصُّهُ بِالنُّبُوَّةِ لِذَلِكَ.

وَلَا مِمَّنْ يُحِبُّ أَحَداً مَحَبَّةَ الهَوَى كَمَا تُحِبُّ فَيُقَدِّمَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيمَ، وَإِنَّمَا مُعَامَلَتُهُ بِالعَدْلِ فَلَا يُؤْثِرُ لِأَفْضَلِ مَرَاتِبِ الدِّينِ وَجَلَالِهِ إِلَّا الأَفْضَلَ فِي طَاعَتِهِ وَالأَجَدَّ فِي خِدْمَتِهِ. وَكَذَا لَا يُؤَخِّرُ فِي مَرَاتِبِ الدِّينِ وَجَلَالِهِ إِلَّا أَشَدَّهُمْ تَبَاطُؤاً عَنْ طَاعَتِهِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا صِفَتَهُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَالٍ وَلَا إِلَى حَالٍ بَلْ هَذَا المَالُ وَالحَالُ مِنْ تَفَضُّلِهِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ عَلَيْهِ ضَرِيبَةٌ لَازِمَةٌ فَلَا يُقَالُ لَهُ: إِذَا تَفَضَّلْتَ بِالمَالِ عَلَى عَبْدٍ فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ أَيْضاً. لِأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ إِكْرَاهُهُ عَلَى خِلَافِ مُرَادِهِ وَلَا إِلْزَامُهُ تَفَضُّلاً لِأَنَّهُ تَفَضَّلَ قَبْلَهُ بِنِعْمَةٍ.

أَلَا تَرَى يَا عَبْدَاللهِ كَيْفَ أَغْنَى وَاحِداً وَقَبَّحَ صُورَتَهُ وَكَيْفَ حَسَّنَ صُورَةَ وَاحِدٍ وَأَفْقَرَهُ وَكَيْفَ شَرَّفَ وَاحِداً وَأَفْقَرَهُ وَكَيْفَ أَغْنَى وَاحِداً وَوَضَعَهُ ثُمَّ لَيْسَ لِهَذَا الغَنِيِّ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا أُضِيفَ إِلَى يَسَارِي جَمَالُ فُلَانٍ. وَلَا لِلْجَمِيلِ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا أُضِيفَ إِلَى جَمَالِي مَالُ فُلَانٍ. وَلَا لِلشَّرِيفِ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا أُضِيفَ إِلَى شَرَفِي مَالُ فُلَانٍ. وَلَا لِلْوَضِيعِ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا أُضِيفَ إِلَى ضِعَتِي شَرَفُ فُلَانٍ. وَلَكِنَّ الحُكْمَ للهِ يَقْسِمُ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَفْعَلُ كَمَا يَشَاءُ وَهُوَ حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ مَحْمُودٌ فِي أَعْمَالِهِ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. قَالَ

اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ- نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ فَأَحْوَجنَا بَعْضاً إِلَى بَعْضٍ، أَحْوَجَ هَذَا إِلَى مَالِ ذَلِكَ، وَأَحْوَجَ ذَلِكَ إِلَى سِلْعَةِ هَذَا وَإِلَى خِدْمَتِهِ.

فَتَرَى أَجَلَّ الْمُلُوكِ وَأَغْنَى الأَغْنِيَاءِ مُحْتَاجاً إِلَى أَفْقَرِ الفُقَرَاءِ فِي ضَرْبٍ مِنَ الضُّرُوبِ إِمَّا سِلْعَةٌ مَعَهُ لَيْسَتْ مَعَهُ وَإِمَّا خِدْمَةٌ يَصْلُحُ لَهَا لَا يَتَهَيَّأُ لِذَلِكَ المَلِكِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ إِلَّا بِهِ وَإِمَّا بَابٌ مِنَ العُلُومِ وَالحِكَمِ هُوَ فَقِيرٌ إِلَى أَنْ يَسْتَفِيدَهَا مِنْ هَذَا الفَقِيرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى مَالِ ذَلِكَ المَلِكِ الغَنِيِّ، وَذَلِكَ المَلِكُ يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِ هَذَا الفَقِيرِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعْرِفَتِهِ ثُمَّ لَيْسَ لِلْمَلِكِ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا اجْتَمَعَ إِلَى مَالِي عِلْمُ هَذَا الفَقِيرِ. وَلَا لِلْفَقِيرِ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا اجْتَمَعَ إِلَى رَأْيِي وَعِلْمِي وَمَا أَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ فُنُونِ الحِكَمِ مَالُ هَذَا المَلِكِ الغَنِيِّ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾. ثُمَّ قَالَ -يَا مُحَمَّدُ- قُلْ لَهُمْ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أَيْ مَا يَجْمَعُهُ هَؤُلَاءِ.....»[1].

ونستخلص من هذا النص: أن الجاهلية تعطي القيمة للمادة لا للمبادئ، وقد أشار القرآن إلى هذه النظرة الشاذة عند ذكر قصة طالوت حينما اختاره ملكا لبني إسرائيل فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:٢٤٧]. وعندما حكى قصة صاحب الجنة وصاحبه، قال: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف]. إذ زعم هذا أن أمواله دليل على حب الله له، ولهذا فهو لا يظن أن الساعة قائمة، لأن الدنيا أنسته الآخرة، ولكن إن قامت الساعة فسيجد خيرا منها منقلبا. هكذا تمسك بالمقاييس المادية في تقييم الآخرة. وهكذا زعم كفار قريش أن ثروة أحد الرجلين في مكة أو الطائف ترشح أحدهما للرسالة.

[٣٢] وقد جاءت رسالات الله لتنقذ البشر من ويلات المادة وأصحابها، جاءت لتكون بصائرها منارا للفقراء في كفاحهم لمواجهة استغلال الأغنياء، وللمستضعفين في مواجهة إرهاب المستكبرين، جاءت لتبصير الجاهلين بزيف قيم المادة التي يدعو إليها أدعياء العلم والدين من أصحاب الطغاة والمترفين من أجل تكريس طغيانهم وفسادهم، وتضليل المحرومين حتى لا يطالبوا بحقوقهم. وهكذا رد القرآن تلك المقولة الجاهلية ببيان بصيرتين:

الأولى: كما أن الله تفضل على الأغنياء بالمال فلا يسأل عن ذلك، كذلك يتفضل على

(١) الاحتجاج: ج١ ص٣٢.

البعض بالرسالة، ولا يجوز أن يعترض عليه في ذلك.

الثانية: أن المال ليس أساسا سليما للتقييم، بل رحمة الله المتمثلة في الرسالة هي الأفضل، وهي -وليس المال- دليل حب الله لعبده، وتخصيصه بفضله.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ إن النبوة رحمة الله فهل فوض إليهم أمر تقسيمها بين عباده؟ كلا.. فالله قسم المعيشة بينهم، فقد أعطى لكل شخص معيشته، حسب حكمته، ولا يحق لأحد الاعتراض عليه، وبالذات المترفون تراهم لا يعترضون على الله في تقدير المعيشة لهم، فكيف يعترضون فيما هو أهم من المعيشة وهو رحمة الله المتمثلة في النبوة.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ إن الله لم يعط الكمالات لجميع الناس، بل أعطى المال والولد، وجعل بعضهم شريفا، وأعطى لمن يشاء الملك، ومنع عنه سائر النعم، فمثلا سليمان عليه السلام الذي سخر الله له الجن والطير والريح لم يرزق ولدا على شدة حبه له.

ونستوحي من قوله سبحانه: **﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾** أن تقسيم المواهب والنعم كان بحيث تصلح حياتهم وعيشهم، فأعطى ربنا كل واحد من الناس موهبة يحتاج الآخرون إليه فيها.

إذن عندما أعطى ربنا الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي المال والغنى؛ فليس لأنهما أقرب الناس إليه أو أنه يحبهما ويكره غيرهما، وإنما لأن الحياة قامت على أساس الحاجة المتبادلة بين الناس، ولا يستغني أحد عن أحد، ولذلك عندما سمع الإمام زين العابدين عليه السلام رجلا يدعو قائلا: **«اللَّهُمَّ أَغْنِنِي عَنْ خَلْقِكَ. فَقَالَ عليه السلام: لَيْسَ هَكَذَا إِنَّمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ، وَلَكِنْ قُلِ: اللَّهُمَّ أَغْنِنِي عَنْ شِرَارِ خَلْقِكَ»**(١).

وجاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **«اللهُمَّ ولَا تَجْعَلْ لِي حَاجَةً إِلَى أَحَدٍ مِنْ شِرَارِ خَلْقِكَ وَلِئَامِهِمْ فَإِنْ جَعَلْتَ لِي حَاجَةً إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَاجْعَلْهَا إِلَى أَحْسَنِهِمْ وَجْهاً وَخَلْقاً وَخُلُقاً وأَسْخَاهُمْ بِهَا نَفْساً وَأَطْلَقِهِمْ بِهَا لِسَاناً وَأَسْمَحِهِمْ بِهَا كَفّاً وأَقَلِّهِمْ بِهَا عَلَيَّ امْتِنَاناً»**(٢). والحكمة من هذه الحاجة المتبادلة انتفاع بعضهم من بعض، وهذا تفسير قوله تعالى: **﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾** والسخرة هو الاستخدام، فقد خص كل أناس بموهبة لتتكامل الحياة، إذ لو جعل الله كل الناس مكتفين في كل شيء لكانوا يطغون ويتكبرون، لأن بعض الناس وهم محتاجون بشدة إلى الآخرين تراهم يقولون:

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥ ص١٣٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٨٣ ص٢٢٨.

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤]، فكيف إذا أحسوا بالاستغناء وتحرَّزوا من قيود الاحتياج إلى الآخرين؟! بل لو لم يتفاضل الناس بالمواهب لما بنيت حضارة، ولا تنامى مجتمع إن تجمع، ولعاش الناس كما سائر الأحياء في صراع أبدي.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لقد زعموا أن الرسالة لا بد أن تهبط على الأغنياء، فردهم الله بأنه هو الذي يقسم بينهم معايشهم، وأنه خص كل فرد بموهبة، وأضاف: إن قيمة الرسالة أعظم من قيمة المال، فلو كان ينبغي اجتماع الخير عند آخر فلا بد أن تجتمع عند صاحب الرسالة، لأنها أعظم قيمة عند الله.

[٣٣] ولكي يقتلع جذور هذا التقييم الخطأ من قلوب البشر، مضى السّياق في بيان خساسة الدنيا وعدم احترامها عند الله لأنها زائلة، فإذا قيست بالآخرة لم تكن سوى متاع يسير ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي على دين واحد هو الكفر بالله ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي لولا الخوف من تحول المؤمنين كافرين لأعطى الله الكفار كل ما يريدون، ولجعل سقوف بيوتهم من فضة، ولجعل بيوتهم طبقات عديدة يرتقون إليها عبر سلالم ودرجات.

[٣٤] ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ ربما سبب ذكر الأبواب لبيوت من يكفر بالرحمن هو أن تكون بيوتهم مركزا اجتماعيا، أو يكون تعدد الأبواب دليل سعة البيوت، أو المراد أن تكون تلك الأبواب كما السرر من فضة.

[٣٥] ﴿وَزُخْرُفًا﴾ قال العلامة الطبرسي: «الزخرف كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب زخرف. ويقال: زخرفه زخرفة إذا حسَّنه وزيَّنه، ومنه قيل للنقوش والتصاوير زخرف»[1].

وعلى هذا يكون المعنى أعطاهم ما يكمل حسنهم وحسن بيوتهم من الذهب والفضة والفرش والأثاث، وما إلى ذلك.

ولكن الله منع بحكمته هذه النعم عنهم لكي لا يبتلي المؤمنون بلاء عظيما، فلو فعل ذلك لم يتحمل أحد منهم إغراء النعم المتوافرة عند الكفار فكانوا يكفرون بالله جميعا.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَو فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لَمَا آمَنَ أَحَدٌ وَلكِنَّهُ جَعَلَ فِي الْمُؤمِنِينَ أَغْنيَاءَ وَفِي الكَافِرِينَ فُقَرَاءَ وَجَعَلَ فِي الكَافِرِينَ أَغْنِيَاءَ وَفِي الْمُؤمِنِينَ فُقَرَاءَ ثُمَّ امْتَحَنَهُمْ

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٦١.

بِالأَمْرِ وَالنَّهيِ وَالصَّبْرِ والرِّضا»[1].

هب أن الله أعطى كل ذلك للكفار، فهل يعني ذلك أن لهم عند ربهم كرامة بذلك، وللمؤمنين عليه هوانا؟ كلا.. إن كل ذلك ليس-بعد كل ذلك- سوى متاع، لا يستفيد منه صاحبه إلا قليلا، وهي في الحياة الدنيا التي تأطَّر كل شيء فيها بالدونية والضعة، بينما هيأ ربنا الآخرة حيث القرار الأبدي للمتقين فدعاهم إلى دار ضيافته، ومقام كرامته، ومنازل قربه ورضوانه ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ المتاع: ما يتمتع به الإنسان مؤقتا ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فالقيمة الحقيقية ليست للمادة الزائلة، بل القيمة الأساس للعمل الصالح الذي يدَّخره المؤمنون للآخرة.

وبكلمة: الدنيا زائلة، وما فيها من نعم ليست سوى متاع لا قيمة له عند الله، ولولا أن إغراء هذه النعم كان يسبب في ميل الناس جميعا إلى الكفر لكان ربنا قد أكملها للكفار، لدناءتها وزوالها، ولكن الله اللطيف بعباده أبى أن يجمع الخيرات عند الكفار ليعطي فرصة الإيمان للآخرين.

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٨٤.

ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ[1] فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

ذِكْرُ الله نور ساطع يعشو عنه البعض لأنهم لا يريدون تحمل مسؤولياته، فيقيِّضُ لهم الله شيطانا يقودهم إلى النار، وذلك بأن يصدهم عن سبيل الحق، ويزين لهم الباطل فيحسبون أنهم على هدى.

بهذا يكمل السياق ما بدأه بالآيات المتقدمة من تهوين شأن الدنيا، وتسفيه من يتخذ متاعها مقياسا للحق، ذلك أن علاج الميل إلى الدنيا معرفة حقيقتها، ولكن كيف يتم ذلك؟

إنما بذكر الله فهو نور، وحين يعرض عنه البعض يبتلون بالشياطين من الجن، وبقرناء

---

(١) المشرقين: أي المشرق والمغرب، وغلب المشرق لقاعدة الأشرف أو الأقرب إلى القصد.

السوء من أبالسة الإنس الذين يزيّنون للمحرومين أعمال السلاطين والمترفين من أدعياء العلم والدين.

وعند لقاء الله في ذلك اليوم الرهيب يكتشف المرء مدى خسارته، فيقول لقرين السوء الذي أضله: يا ليت كنا متباعدين في الدنيا كما تباعد المشرق عن المغرب، ولكن هيهات لا ينفع يومئذ التبرؤ من قرينه الذي يلازمه إلى الأبد.

وحين يُضلّ الله أحدا لا تنفعه دعوة الرسول أو عظة الناصحين. أوَ يسمع الأصم، أوَ يهتدي الأعمى، ومَن هو في ضلال بعيد؟!، إن الذكر يشير إلى مسؤولية الإنسان عن هداه أو ضلالته، وتعذره بقرين السوء لا ينفع.

أما الرسول فما عليه إلا البلاغ فإذا عذب الله أولئك الضلال بعد أن يذهب به أو في حياته فإن الأمر بيد الله يعذبهم آجلا أو عاجلا.

إنما عليه -وعلينا نحن التابعين له- أن يستمسك بالوحي، وأن لا تزلزله دعايات المترفين، فهو على صراط مستقيم.

إن القرآن هو ذلك الذكر الذي يعالج أمراض القلب، التي يجمعها حب الدنيا، وهو للرسول أولا، ولقومه الأقرب فالأقرب، وسوف يسألون جميعا عنه.

وهو الشرف الذي يسمو على شرف المال والجاه عند قريش، لأنه يدخل المؤمن حصن التوحيد، ويفك عنه أغلال الشرك.

والتوحيد هو رسالة الأنبياء، وهو يتنافى والخضوع لأصحاب القوة والثروة.

بينات من الآيات:

[٣٦] كيف نواجه إغراء المادة، ونتجاوز الافتتان بما لدى الكفار من مظاهر القوة، وزخرف الحياة؟ إن الإنسان من تراب وكل شيء يحن إلى أصله، فحب الدنيا عميق في كيان الإنسان وهو رأس كل خطيئة، فكيف الخلاص منه؟.

علما بأنه من دون التطهر من حب الدنيا لا يخلص توحيد الإنسان، بل يظل يخلط عملا صالحا وآخر سيئا، بل يشوب نيته نزغات شيطانية حتى في الصالحات من أعماله..فلا يخلص - مثلا - لقيادة الحق إلا عندما توفر له متاع الحياة الدنيا، فإذا مُحِصَّ بالبلاء انهار في وادي الشرك.

الإجابة تتلخص في كلمة ذكر الله، فبه تفيض النفس سكينة، والقلب اطمئنانا. إنه النور الذي يهزم ظلام الجهل والوسوسة والغفلة عن الفؤاد..

فعندما تعصف وساوس الشيطان بالنفس، وتتلاحق عليه نزغاته وهمزاته، لا يجد الإنسان مفرا إلا إلى الله. أوَلَمْ يقل ربنا: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١].

ولكن البعض يعشو عن ذكر الله، يتغافل عنه ويتجاهله، لا يستعيذ بالله، يستسلم لنزغات الشيطان، ولا يتذكر أنه عدو مبين. وهنالك يتمكن منه الشيطان، ويعين له الله قرين سوء من الشياطين يقوم بأمرين:

الأول: يمنعه من عمل الخير، ولا يدعه يسلك سبيل الرشاد، فيسلب بذلك توفيق الهداية عنه.

الثاني: يزيّن له سوء عمله فيراه حسنا فلا يفلح أبدا.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ ﴾ قالوا: أصل العشو النظر ببصر ضعيف، يقال عشا إذا ضعف بصره، وأظلمت عينه ﴿نُقَيِّضْ﴾ نُعين أو نُتيح ﴿لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يلازمه ولا يدعه لوحده ليله ونهاره.

ولعل استخدام اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ هنا لبيان مدى عمى الرجل الذي يعشو عن النظر إلى آثار من وسعت رحمته كل شيء، وتدبيره وهيمنته المصطبغين بالرحمة يمسكان بالكون. أفلا التجأ إليه من عادية إبليس، وفرّ إلى كهف رحمته من عدوه المبين؟!.

[٣٧] [﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ بالضبط نقيض ما تفعله الملائكة بقلب المؤمن حيث تثبته على الطريق، وتزيل عن طريقه العقبات حتى يتوفق لعمل الخير، بينما قرين السوء يُسوِّف صاحبه التوبة، ويعرقل مسيرته إلى الله، ويلقي عليه الكسل كلما قام إلى الصلاة أو دُعِيَ إلى فعل الخير. إنه يملأ قلبه وعودا كاذبة وأماني ووساوس.

بل قد يفتح الشيطان أمام صاحبه بابا مستقبليا من الخير حتى يمنعه عن الخير العاجل، ثم يمنعه عن ذلك الخير أيضا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هكذا يزين الشيطان لقرينه الضلال حتى يحسبه هدى. وما دام الإنسان يشك في طريقته يرجى له النجاة، ولكن حينما يزين الشيطان له عمله فلا يجد في نفسه داعيا إلى التفكر في صحة نهجه وسلامة خطه، لا ينجو أبدا.

ونستوحي من الآية بصيرتين:

الأولى: إن الخطوة الأولى في سبيل الضلال كما في طريق الهدى يخطوها الإنسان بكامل حريته، فإذا عشا عن ذكر الرحمن أضلّه الله بقرين السوء، وإذا تذكر بصره وأعاذه من شر الشيطان.

إذن فمسؤولية الإنسان الكبرى هي اختيار الهداية بالاستعاذة بالله، بالإقلاع عن حالة التكبر الدونية إلى سماء العبودية لله.

الثانية: لا يلغي مسؤولية الإنسان عن عقائده وأفعاله أنه يحسب أنها صحيحة مادام هذا الحسبان آت من تزيين الشيطان. إنه كمن يلقي نفسه من شاهق يتحمل مسؤولية عمله حتى ولو فقد الاختيار أثناء دحرجته بين الصخور. لماذا؟ لأنه هو الذي سلب نفسه القدرة حين رمى بنفسه من علٍ.. كذلك الذي يرفض الالتجاء إلى الله فيقيِّض الله له شيطانا يضله. إنه لا يزال مسؤولا عن ضلالته لأن بدايتها منه.

وهكذا مجرد الاعتقاد بشيء لا يبرِّر المضي فيه ما لم يعتمد على منهج سليم، وإلا فكثير من المجرمين يَعُدُّن أفعالهم صالحة.

[٣٨] إذا أردت أن تعرف حقيقة شيء في الدنيا فانظر كيف يتجسَّد في الآخرة، إذ إن تلك الدار هي المقياس. إنها الحصاد الأكبر بينما الدنيا مزرعة وهل يعرف الزرع إلا بالحصاد!

وإنما يصوِّر لنا كتاب ربنا مشاهد الآخرة، ويبثُّ في كل موضوعة صورا مناسبة لها من واقع الآخرة، بهدف جعلها مقياسا، ولعلنا نقترب أكثر فأكثر إلى حقائق الخلق، ولا ننظر إلى ظاهر من الحياة الدنيا.

وهنا في سورة الزخرف حيث تبيِّن آياتها المحور السليم للحياة وهو التوحيد، لا المال ولا الصداقة القائمة على أساسه، ويكشف عن مزالق الانحراف التي من بينها أصدقاء السوء أو البيئة الاجتماعية، وبخاصة حين يود المرء مجاراة المنحرفين بسبب البريق المادي الذي يحيط بهم، أو بسبب التآلف الاجتماعي. ويبيِّن لنا القرآن مشهدا من مشاهد الصراع القائم هنالك بين أصدقاء السوء هنا، فيقول: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ وحضر عند ربه هذا الذي عشا عن ذكر الله ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ يتمنى يومئذ أن يكون بينهما ما بين المشرق والمغرب لما يجد من سيئات الاقتران به.

[٣٩] كلا.. لا ينفع التبرؤ من البعض، ولا ينفع التبرير، لأن الظلم قد وقع فعلا بكامل

اختيارهم، والنار تسع الجميع ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي لا يجديكم نفعا أنكم تتمنون التباعد عن بعضكم، إذ إنه جاء متأخرا بعد أن ظلمتم أنفسكم ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

قالوا: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب شيئا إذ لا تتقاسمون العذاب بل لكل الحظ الأوفر.

وقالوا: لا يتسلَّى أحد بعذاب غيره فليست هنالك البلية إذا عمت طابت، لأن العذاب هنالك لا يطيب لأحد أبدا، لأنه شديد ودائم.

ولأن قرناء السوء في خصام دائم مع بعضهم فلا يسلى أحد أبدا.

[٤٠] وحين يُضِلّ قرين السوء صاحبه يكون مثله مثل الأصم والأعمى ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ كلا.. لأن جهاز الاستقبال معطل عنده فكيف يستمع، وقد قال الشاعر:

لقد أسمعت إن ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادي

﴿ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ كلا.. لأن من انحرف عن الطريق قليلا ترجى أوبته إليه، ولكن الذي شط بعيدا حتى أحاطت به الضلالة كيف يمكن هدايته.

هكذا ينبغي اليأس عمَّن استبد بقلبه حب الدنيا فأخذ يقيس كل شيء بالمال والجاه، والقوة الظاهرية. إنه في ضلال مبين، ولا يعجبك ما عنده فتفكر في كسبه بأية وسيلة فتقدم له التنازلات من دينك ومواقفك، كلا.. ما عند الله خير وأبقى.

[٤١] إن عاقبة هؤلاء العذاب في الدنيا وقبل العذاب الأكبر عند ربهم، وسواء تم ذلك بعد وفاتك أو في حياتك فإنهم معذبون، فلا تغررك أموالهم وأولادهم، ولا يحزنك مكرهم ودعاياتهم، ولا تستعجل عليهم فإن العذاب الذي ينتظرهم شديد.

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ إن وجود الرسول والمؤمنين بين الكفار قد يؤخر عنهم العذاب إلى أجل محدود، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣].

[٤٢] وقد يعذب الله الكفار في عهد الرسول وبمشهد منه أو من الدعاة من أتباعه، لكي يريهم قوته ويقرَّ أعينهم بنصره.

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ فلا تنفعهم ثروتهم أو قوتهم شيئا.

[٤٣] ولأن عاقبة الكفار الدمار فلا بد من مواجهة إغرائهم وإرهابهم، ولا يمكن ذلك إلا بالتمسك الشديد بالرسالة.

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ لينظر المؤمن إلى الظواهر السياسية والاجتماعية من خلال بصائر الوحي، لكي لا يتأثر بها سلبيا، وليطبق مناهج الرسالة بدقة حتى يمكنّه الله في الأرض، لأن كل بند من بنود الشريعة قوة واقتدار، وليكن واثقا من سلامة خطه فإن الثقة بالنصر طريق إليه ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

[٤٤] وليس الشرف في أموالهم ومناصبهم، وإنما هو في الوحي الذي يعبق ذكر المتمسكين به في كل أفق ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ لقد ذهب أصحاب الأموال، وأصبحوا أحاديث يعتبر بهم المعتبرون، بينما بقي ذكر أصحاب الرسالة على كل شفة وعلى امتداد العصور.

بل، إن أصحاب الرسالة مسؤولون قبل غيرهم عنها، لأنها نزلت في بيوتهم فهم أحق بها وأهلها ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ قَالَ: الذِّكْرُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلُ الذِّكْرِ وَهُمُ الْمَسْئُولُونَ»[1].

[٤٥] ولا يجوز الاستسلام لأهواء المترفين أو الطغاة، لأن في ذلك شركا بربِّ العزة. وقد جاءت الرسالة لتطهير النفوس من الشرك، وتطهير المجتمع من القيادات الشركية، فكيف تقبل بهم اليوم شركاء في السلطة ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ كلا.. إنما هو إله واحد، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه يخضع بأحدهما لربه وبالثاني لأصحاب الثروة أو السلطة.

التوحيد محور العلاقة الاجتماعية

سبق الحديث في محور سورة الزخرف المتمثل في تهوين شأن الدنيا، لكي لا يجعلها المسلم قيمة يقيس بها الأمور، وآيات هذا الدرس تنسف العلاقة القائمة على أساس هذه القيمة الزائلة، ذلك أن القيمة السليمة عند الله هي التي تمتد من الحياة الدنيا إلى الآخرة.

وإذا استطعنا إصلاح قيمة التجمع أو الرابطة التي توصلنا ببعضنا فجعلناها الإيمان دون المصالح العاجلة، ولا الإقليم، والعنصر، والشهوات، والأهواء، والعصبيات، فقد أقمنا

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٧٥.

فعلا المجتمع الرباني المنشود.

ولقد جاءت رسالات السماء جميعا وفي طليعتها القرآن الكريم لتحقيق هذه الغاية السامية، ولكن كيف؟

بتهوين الدنيا، وحطِّ شأنها، لكي لا تصبح بما فيها من زخرف مقياسا، ثم بالنهي عن اتخاذ المترفين فيها قادة، وأخيرا ببيان الرابطة الشيطانية التي تنتهي بأصحابها إلى النار.

وإذا كان حب الدنيا أرضية فإن قيادة المترفين الشجرة. أما ثمرتها فهي الصلة بين قرناء السوء.

ويبدو أن السياق ذكّرنا أولا بهوان الدنيا على الله حتى أعطاها للكفار، ثم أخذ يبصّرنا بحقيقة قرناء السوء في هذا الدرس، حيث نستوحي منه بصائر حكيمة في الروابط الاجتماعية، ذلك أن للعلاقة الاجتماعية -بالذات تلك التي ترتكز عليها البنى التحتية للمجتمع- قاعدة، فقد تكون الأرض قاعدة التجمع فتنشأ الصلة الوطنية والإقليمية، وقد تكون اللغة هي القاعدة فتنمو الحالة القومية، وقد تكون المصالح العامة التي تنمو وتتسع إلى الحالة الإمبريالية، وقد تتجلى في صورة الأممية البروليتارية.

والصلة التي تربط في هذه الحالات جميعا بين الإنسان والإنسان هي صلة مادية ناشئة من التراب، بينما رسالات الله تريد صلة أخرى هي صلة الروح، صلة الحب الإلهي، صلة القيم الربانية، وهذه الصلة قائمة على أساس ذكر الله.

وهي تستنزل رحمة الله، وتنمّي قيم الفضيلة والخير والإحسان، كما تحافظ على الحق والعدل والحرية، بينما الصلات الأخرى تستدرج البشر إلى نقمة الله، وتطمس معالم الحق، ولا تنمي الخير، بل تساهم- عادة- في إشاعة الفحشاء، وبث روح الاعتداء والظلم.

فإذا بحثنا عميقا في أسباب الشقاء والعداء وعوامل الصراع والحرب والاعتداء بين الناس، سواء داخل التجمع الواحد أو بين الأمم، فلن نجدها سوى هذه الصلات الجاهلية النابعة من حب الدنيا وزخرفها.

والقرآن هنا يحذّرنا من الوقوع في هذه المهالك، ويأمرنا بالتمسك بالوحي، فمن عشا عنه فقد قرن به شيطان، يبعده عن السبيل، ويزين له السيئات.

ويبدو أن باطن هذه الآيات التبصير بدور القرين في حياة الإنسان، والقرين قد يكون زوجة أو زوجا أو صاحب السبيل أو زميل الدراسة أو شريك التجارة أو الجليس والأنيس،

والإسلام يأمرنا بذكر الله حتى يكون معيار اتخاذ القرين ربانيا، لأنه حسب ما يكون الإنسان يختار أقرانه، وكما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

- «كُلُّ امْرِئٍ يَميلُ إلى مِثْلِهِ»[1].

- «لا يَصْحَبُ الأَبْرارَ إلاّ نُظَراؤُهُمْ»[2].

- «لا يُوادُّ الأَشْرارَ إلاّ أَشْباهُهُمْ»[3].

وحين يُتَّخذ القرين بمعيار إلهي تكون علاقته به متينة، بينما إذا كانت المصلحة أو الهوى أساسا للصداقة انهارت بتبدل الأحوال.

وحين يكون المعيار الإلهي حاكما يصنع المؤمنون من تجمعهم جنة أرضية حيث يوادون بعضهم في الله لا تجد في قلوبهم غلا للذين آمنوا ويأنس الواحد منهم إلى صاحبه كما الظمآن إلى شراب سائغ.. وهنالك تتجلى السعادة الدنيوية، كما لا تتجلى في أي نعمة أخرى..

وتمتد هذه الخلة حتى يوم القيامة حيث يقول ربنا: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وحتى تبلغ بهم الجنة حيث تراهم ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر:٤٧].

---

(١) غرر الحكم: حكمة ٩٧٢١.
(٢) غرر الحكم: حكمة :٩٧٢٤.
(٣) غرر الحكم: حكمة ٩٧٢٣.

أم أنا خير من هذا الذي هو مهين؟!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[1] (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ[2] مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ[3] فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا[4] انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق هذه السورة التي تدور حول تصحيح علاقة الإنسان بما حوله، يضرب لنا

---

(١) ينكثون: أي يغدرون وينقضون العهد.

(٢) أسورة. جمع سوار وهو الحلية التي تلبس في اليدين المرفق والزند.

(٣) فاستخف قومه: بأن حسبهم خفيفي العقول يتمكّن من إنهاضهم لنصره بمجرد خطاب ومغالطة، كما هي عادة الطغاة دائماً أمام جماهير.

(٤) آسفونا: أغضبونا، واللّه تعالى لا يغضب كما الإنسان، وإنما له رسل وملائكة يغضبون له، كما أن غضبه عز وجل على العصاة هو إرادة عقوبتهم.

القرآن مثلا من فرعون الذي اغتر بزينة الحياة الدنيا، واستعبد الناس بها، فكانت نهايته الأليمة أن أغرقه الله وجنده، وما هذه العاقبة وأمثالها من الظالمين ببعيد.

لقد جاء موسى عليه السلام إلى فرعون لكي يجدد له العلاقة السليمة بالطبيعة، فله أن يسخرها ويستفيد منها، لا أن يركن إليها، ويطمئن بها، لأنها متغيرة، وكل متغير زائل، بَيْدَ أن فرعون آثر الكفر على الإيمان، ورفض الانقياد لرسالة الله، وقيادة موسى عليه السلام.

ويركز الله في هذه القصة على علاقة الإنسان بالطبيعة، فقد اعتقد فرعون أنه مادام يملك مصر، وأن الأنهار تجري من تحته، فلا بد أن يكون هو ملك الناس وموجههم دون موسى عليه السلام الذي جاءه بمدرعة الصوف، وبيده عصاه التي يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، غافلا عن أن قيادة الحياة ليست للأغنى أو الأعتى بل للأصلح.

وتتناسب هذه الآيات والآية التي تقول: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، لأن أهل الجاهلية -كما فرعون- اعتقدوا بأن الأصلح للحكم هو الأغنى وليس الأصلح الأقرب إلى الله عزَّ وجلَّ.

كما هي مثل للقرين الذي يقيضه الله لمن يعشو عن ذكره، حيث إن فرعون حين وجد قوما فاسقين استخفهم، وأثار فيهم النزعات الشريرة والشهوات العقيمة، فقال لهم: ألا ترون-يا قومي- أني ملك مصر، كما بيدي تنظيم أنهارها. هل أنا خير أم هذا الذي لا يتزيَّن بأسورة من ذهب، ولا تصف وراءه جنوده (من الملائكة)؟!

وهكذا يصدُّ الطغاة -وهم قرناء السوء- الغافلين عن ذكر ربهم، ويزينون لهم سوء أعمالهم ليحسبوا أنهم مهتدون!

وأخيرا: يضرب القرآن بهذه الآيات مثلا لعاقبة المستهزئين بالرسالات، الذين ازيَّنت الدنيا في أعينهم، فعبدوها وقاسوا كل شيء بزخرفها، كيف يحيط بهم ما عبدوه، ويكون هلاكهم بما افتخروا به. ألا ترى كيف تبجَّح فرعون بالأنهار التي تجري من تحته فأطاعه قومه بذلك فأغرقهم الله فيها؟! هكذا يضرب الله للناس الأمثال.

وللسياق هنا محوران:

الأول: ما يتعلق بموسى عليه السلام وفرعون.

الثاني: ما يرتبط بفرعون وملئه، الذين لم يتدخلوا لحسم الحوار للحق، فاستحقوا العذاب بسبب سكوتهم عن فرعون واتباعهم لهم.

بينات من الآيات:

[٤٦] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الملأ في القرآن هي الطبقة المترفة المتسلطة على الناس. ونستوحي من إشراك الله للملأ مع فرعون في الدعوة أن هؤلاء كانوا فراعنة صغارا يستفيدون من فرعون، ويستفيد منهم، وكانوا يلتفون حوله، ويستعين بهم، وإذا راجعنا قصص الأنبياء نجد أن الملأ هم الذين كانوا يحرِّضون الناس على الكفر، ويقفون أمام الرسالات. ومن جهة أخرى نجد تمايزا بين الأقوام الذين بُعِثَ فيم الأنبياء وبين المجتمع المصري؛ فتارة يكون الملأ هو الذي يواجه النبي وهو الغالب: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٧٥]، وتارة يكون التركيز على الملك أو الزعيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٤]، وتارة أخرى يكون الأمر مشتركا كما هنا. ويبدو أن السّر يكمن في طبيعة النظام السياسي وتطوره، وقوة النخبة بموازاة الملك أو ضعفها. ويبدو أن المجتمع المصري كان متطورا إداريا وفي مراكز القوى التي تشكل الملأ.

[٤٧] ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ كانوا يضحكون من الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام بدل أن يستفيدوا منها ويؤمنوا بها، ومثلهم مثل الصخرة الملساء لا يستقر عليها قطر السماء، ولا تنبت الزرع، كذلك القلوب المتحجرة تنزاح عنها المواعظ، ويستهزئ أصحابها بالرسالات والرسل، وهذا مثل لما أجمله السياق في فاتحة السورة.

[٤٨] ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ تدرّج الله لهم بالآيات، فمن العصا واليد، إلى السنين ونقص من الأموال والثمرات، إلى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، إلى الرجز، وكل آية من هذه الآيات أكبر وأعظم من أختها، وكلها كانت من نوع العذاب الأدنى الذي يقضيه الله بلطفه على بعض الأمم بهدف إنذارهم ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

[٤٩] تراهم، هل رجعوا؟، كلا.. فحين يصيبهم العذاب يتوسّلون بموسى عليه السلام - ويسمونه ساحرا- أن يدعو ربه بما عهد عنده من الآيات والرسالة إن أزال عنهم العذاب إنهم لمهتدون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ وفي هذه الآية ثلاث ملاحظات:

الأولى: أنهم سموا موسى ساحرا.

الثانية: أنهم قالوا: ادع لنا ربك، ولم يقولوا: ربنا.

الثالثة: أنهم حين العذاب بالآيات لم يهتدوا. ولكنهم قالوا: إننا لمهتدون إن كشف عنا ربك العذاب، فهم لن يهتدوا إلا بعد أن يكشف الله عنهم العذاب.

وتساءل المفسرون: كيف سمّوا موسى ساحرا ثم سألوه أن يدعو ربه بالنجاة؟.

والجواب:

أولاً: يكشف القرآن الحكيم دائما تناقضات الكفار، وكيف أنهم ضلوا فلا يهتدون سبيلا، وبالذات فيما يرتبط بظاهرة النبوة، فقال ربنا سبحانه: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء:٥]. وقال سبحانه: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٤٨].

وقوم فرعون بدورهم ضلوا في أمر موسى عليه السلام، فمن جهة قالوا، يا ساحر، ومن جهة أخرى اعترفوا بأن قدرته ليست منه، ولا من بعض ما يعرفه من الحيل، بل من الله، فسألوه أن يدعو ربه.

ثانياً: إن تهمة السّحر التي كان الكفار يفترونها على الأنبياء كانت أقوى حجة لصدق نبوتهم، إذ إنهم اعترفوا من خلالها بأن الرسُّل يأتون بما هو خارق العادة، ولكنهم كانوا يفسرونها بالسحر.. ونحن نعرف براءة الرسُّل من السحر، إذ لا يفلح الساحر حيث أتى، ونعرف الفرق الذي جهلوه بين السحر والنبوة، فيكون اعتراف الأمم الكافرة دليلا على صدق الرسل-وسحرة فرعون كانوا يُدرِكون الفرق فآمنوا بل والملأ بوصفهم النخبة المثقفة ومطلعة أو مشاركة في التضليل الإعلامي الموجه للأنبياء-، وأن تلك كانت آيات تشابهت عليهم بامتلاك الرسل الخوارق، كما نعرف أن كفر أولئك الجاهلين كان بدافع الكبر وحب الدنيا والهروب من المسؤولية.

ثالثاً: بالرغم من اتهام النبي موسى عليه السلام بالسحر، ونكثهم المكرر لوعدهم إياه بالتصديق، لم يزل هذا النبي العظيم يدعو ربه لأجلهم. وحقا: ما أوسع هذا الصدر، وما أرحم هذا القلب، وما أدوم هذه الاستقامة في طريق الدعوة التي ينبغي أن نجعلها لأنفسنا أسوة ومثلا حسنا.

[٥٠] ويرحمة الله سبحانه الواسعة وعطفه على العباد يرفع عنهم العذاب، مع علمه أنهم لن يهتدوا إذا أبدا، ولكن ليعطيهم الفرصة تلو الفرصة ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ

يَنكُثُونَ ﴾ ويتبيّن لنا من هذه الآيات أن العذاب نوعان:

- عذاب الإنذار.

- عذاب الانتقام.

فمن رأى النوع الأول من العذاب فلا يفوت الفرصة على نفسه، لأنه إذا جاءه العذاب الآخر فلا مردَّ له من الله. وإننا نجد فرعون وملأه قد تعهدوا بالهداية، إذ قالوا: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾، ولكنهم أخلفوا بعد أن كشف الله عنهم العذاب.

[٥١] وخشي فرعون من انتشار الدعوة بين قومه فاستدرك الأمر بإثارة الشهوات في أنفسهم ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ كيف نادى كل أهل مصر الذين كانوا قومه؟ هل جمع الملأ منهم فنادى فيهم؟ أم أنه بث الشائعات عبر أجهزة إعلامه، ووسائل دعايته، كالسحرة والكهنة ومن أشبه؟ لعل هذا أقرب إلى معنى النداء في قومه، حيث يظهر أنه أبلغ كل قومه بكلامه هذا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ فأثار فيهم النخوة والعصبية حيث ناداهم بأنهم قومه ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وهكذا احتج عليهم بأنه مَلِكَهُم الشرعي فلا بد من طاعته. أوليس يملك القوة والمنعة؟ ثم احتج عليهم بأنه يملك ناصية القدرة الاقتصادية أيضا، قائلا: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ فهو المنظم للريّ الذي بأمره تجري الأنهار المتفرعة من النيل، التي قيل بأنها كانت تبلغ (٣٦٠) كم، وكانت تروي منها زراعتهم.

وقد قالوا: إن الحضارة النهرية تدعو إلى النظم والاستقرار أكثر من غيرها، لأن حياة أهلها قائمة على حسن توزيع المياه. ولعل السياق يشير إلى ذلك حيث لمح فرعون بأن الرسالة تهدد النظام الذي يهيء توزيع المياه، ولذلك قال المفسرون إن معنى ﴿مِن تَحْتِيٓ﴾ هو بأمري وسلطتي، وهو تعبير بالغ الروعة.

ولا ريب أن الإصلاح في المجتمعات المستقرة كذلك المجتمع أشد صعوبة ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لماذا لم يقل: «أفلا تعقلون»، أو «تتفكرون»؟ لأنه يدعوهم إلى رؤية الظاهر، أما إذا دعاهم للتفكير فسوف يكتشفون بأنه ليس سوى بشر عادي مثلهم، وإنما سيطر عليهم بجهلهم. ولو عقلوا لعرفوا أن ملك مصر لله ثم لمن عمرها، وأن فرعون يستحق منهم أشد العذاب على استغلالهم ماليا، والتسلط عليهم سياسيا، بلا تخويل منهم، ولا تفويض من عند الله، فكيف يطالبهم بأجر، ويمن عليهم، لأنه طغى عليهم، وانتهب ثرواتهم؟!

[٥٢] ثم استهزأ برسول الله إليهم، وأخذ يقيِّم حقائق رسالات رب العالمين بالمعيار

المادي، وكيف أن موسى عليه السلام مستضعف، وأنه لا يفصح قولا، ولا يملك شرفا.

﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ مستضعف، وراعي غنم لا ذكر له. وهذه عادة الطغاة أن يستصغروا الرسل والدعاة إلى الله. فلقد سمعنا قصة إبراهيم عليه السلام وقومه لما جعل الأصنام جذاذا حين قالوا تصغيرا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠].

[٥٣] ثم أخذ يقيس موسى عليه السلام بما يملكه من ثروة أو سلطة، وهكذا يقيس الجاهليون الناس بالغنى والقوة، لا بالصلاح والخير ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ الأسورة جمع السوار ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ وإذا لم يكن ذا مال، فلتأت معه الملائكة متقارنين يعاضد بعضهم بعضا، كالجنود المجندة التي يملكها هو. وجاء حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ولَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام ومَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ عليه السلام عَلَى فِرْعَوْنَ وعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ وبِأَيْدِيهِمَا العِصِيُّ فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ ودَوَامَ عِزِّهِ. فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ العِزِّ وبَقَاءَ المُلْكِ وهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الفَقْرِ والذُّلِّ فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وجَمْعِهِ واحْتِقَاراً لِلصُّوفِ ولُبْسِهِ.

ولَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ ومَعَادِنَ العِقْيَانِ ومَغَارِسَ الجِنَانِ وأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ ووُحُوشَ الأَرَضِينَ لَفَعَلَ، ولَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ البَلَاءُ وبَطَلَ الجَزَاءُ واضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ المُبْتَلَيْنَ ولَا اسْتَحَقَّ المُؤْمِنُونَ ثَوَابَ المُحْسِنِينَ، ولَا لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا ولَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ القُلُوبَ والعُيُونَ غِنًى وخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الأَبْصَارَ والأَسْمَاعَ أَذًى.

ولَوْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ وعِزَّةٍ لَا تُضَامُ ومُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ وتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الخَلْقِ فِي الِاعْتِبَارِ وأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الِاسْتِكْبَارِ، ولَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً والحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. ولَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الِاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ والتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ والخُشُوعُ لِوَجْهِهِ والِاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ والِاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ وكُلَّمَا كَانَتِ البَلْوَى والِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ المَثُوبَةُ والجَزَاءُ أَجْزَلَ»(١).

[٥٤] ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ لقد جرّد فرعون قومه من ثقل العقل والإيمان،

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

بما أثار فيهم من حب الشهوات الرخيصة، فأطاعوه، لأن الإنسان حينما يملك العقل والإيمان فإنه سيكون رصينا وموزونا، لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، بينما إذا فقده كان كريشة تتقاذفه الرياح.

ويبدو أن المقارب المقابل للخفة هو الرشد. لما يتطلب الرشد من تمييز بين الحسن والقبيح، والخفة تُضَيِّع التمييز كأنه معدوم بسبب اتباع الهوى.

والسؤال عن ضياع الرشد وقدرة الطاغوت على الاستخفاف بالعقول. في هذا المقطع الذي يتحدث فيه عن المجتمع القبطي أشار إلى ما يلقي بعض الضوء، فلنتأمل الأمور الآتية:

ألف: الضحك والاستهزاء من الدعوة الجديدة. فإن الكفار يلهون أنفسهم بأعمال لا هدف لهم ليعرضوا عن سماع الحق. واللعب عموماً سمة البشر العامة في الحياة الدنيا، إذ أنه يميل إلى عدم الجد والاجتهاد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء:٢-٣]. وملامح هذه العقلية غير الجادة السادرة في الترف واللهو تتداعى لتنتج ما سجلته الآيات من نكث بالوعد؛ حيث تعهدوا بالإيمان إن كشف موسى عليه السلام عنهم العذاب. وذلك أن ثقافة اللهو تستخف بحرمات وحقوق الآخرين. وتنتج من جهة أخرى التكذيب والاستهزاء بالنذر والحقائق التي يذكروا بها.

بـــاء: المقاييس المادية في تقييم الذات والآخرين وسائر الأشياء. حيث القيمة لأسباب المال والقوة لا الخير والحق.

جيم: التفكير السطحي. فبين ثقافة اللهو ومقاييس المادة سيكون الوعي والنظر سطحيا لا يتجاوز ظواهر الأمور. فالمجتمع القبطي كان نخبة المجتمعات المتعلمة ورائدها ومع ذلك تعاملوا بسطحية مع نبي الله موسى عليه السلام. كانوا يعرفون التاريخ وكانوا يدركون قصص الأمم السابقة وسر المدنية والقوة، وكانوا يدركون أن تلك الأمم أصابها الانحراف وكذبت الأنبياء فلم تنفعها قوتها.فلم لا يعتبرون!.

كان الهوى والشهوة تحجب أبصارهم فلا ترى إلا ظواهر الأمور المادية والآنية العاجلة، فلم يمتلكون نظرا ينفذ للمستقبل والتبصر بعواقب الأمور.

كانت الغرائز والعصبيات تحكم سجونها على عقولهم، وتحجب معها العقول الفطرية

والقيم الأخلاقية والعقلانية التي أودعها الله في الإنسان لتكون ميزانا.

وإنما الطاغوت يستثير الشهوات والحميات الجاهلية جاعلا من مجتمعه قطيعا من الهمج الرعاع. ولقد كان فرعون- شأن كل الطغاة- يعرف أن منطق العقل والعلم والفطرة يؤيد موسى عليه السلام، ولكنه انحرف عنه إلى إثارة العصبيات، والتلويح بالإرهاب والإغراء، وبالتالي إزاغة الناس من عقولهم الرصينة إلى شهواتهم الخفيفة.

لقد قال فرعون وأجهزة إعلامه: لماذا لا يلبس موسى أسورة من ذهب، ويدعم منطقه بجنود من الملائكة، واليوم تقول أجهزة الفراعنة الجدد: ما قيمة شرذمة من المؤمنين الرساليين، إنهم لا يملكون قوة ولا مالا؟ بلى؛ ولكنهم يدعون إلى الله، والله هو القوي الغني. ولكن من الذي يتبع دعايات الظالمين، ويخضع لإعلامهم!، إنما هم الفاسقون.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ سلّموا أنفسهم للباطل ففسقوا عن الحق، لأنهم لم يُربّوا أنفسهم منذ البدء على التسليم للحق، فكان لا بد أن يُسلّموا لباطل فرعون.

ويبدو من هذه الآية أن فرعون ليس هو المسؤول الوحيد، إنما الذين اتبعوه كانوا أيضا مسؤولين، وإلا لما قال عنهم ربنا: ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ ولما قال عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فقد أطاعوا فرعون في باطله، لأنهم كانوا فاسقين في واقعهم، فاستحقوا العذاب باختيارهم السيىء.

[٥٥] لقد أغضبوا الرَّب الرحمن بعنادهم على الجحود، وبلغ بهم فعلهم المشين درجة الأسف ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إن الله لا يتأسف، ولكن الواقع واقع يبعث على الأسف، والله يفعل ما ينبغي أن يفعله من يأسف، كما أن أولياء الله الذين رضاهم رضى الله وسخطهم سخط الله يأسفون.

[٥٦] ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ سلفا: مثالا يحتذى بهم، ومثلا: عبرة لمن يعتبر.

ولا يصدنكم الشيطان

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

تتوالى آيات الدرس تبصّرنا بشرف الرسالة، وهوان الدنيا، لكي نبني تجمّعنا على أساس الوحي لا المتاع الزائل، وابن مريم آية في شرف الزهد في الدنيا، ومثل أعلى لبني إسرائيل في الرغبة عن زخرف الحياة، وقد أمعن عبيد الدنيا من اليهود ومن تأثر بهم من الجاهليين العرب في الصد عنه، وعن سبيله المستقيم، ونهض الرسول لرد الشبهات التي بثوها حوله، لكي تتكرس في الأمة قيادة الحق، وقيم الرسالة المتمثلة في موسى وعيسى عليهما السلام، ومحمد صلى الله عليه وآله ومن مضى على سبيلهم كالإمام علي عليه السلام وأهل بيت الرسول عليهم السلام والمنتخبين من أصحابهم.

كذلك نجد سورة الزخرف تضرب لنا المثل العالية من حياة أولي العزم من الرسل باستثناء نوح عليه السلام، لأن السورة تبصّرنا أساسا بقيادة أصحاب الرسالات، وتحرضنا على قيادة أولي القوة والثروة.

والجاهليون الذين منعهم تعصبهم الأعمى عن الإيمان بعيسى كانوا يتساءلون:

آلهتنا خير أم هو؟ وهم يعلمون مقام عيسى، ولكنهم إنما جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق. ثم يتابع السياق حديثه عن عيسى عليه السلام الذي جعله الله مثلا لبني إسرائيل، فيقول: إن أعظم فضائله كانت في عبوديته لله. فهو عبد أنعم الله عليه، وكانت دعوته إلى الله الواحد كما دعوة كل الرسل. وإنما جاء ليعلم بني إسرائيل الحكمة، ويفصل بين خلافاتهم، ولكنهم عادوا واختلفوا فيه، فويل للظالمين من عذاب أليم.

ويختم الدرس بالإنذار من الساعة التي تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

بينات من الآيات:

[٥٧] يتبع القرآن الحكيم منهجا رائعا حين يفصل القول في موضوعة هامة ضمن سورة واحدة أو سور شتى، ثم يجمله مشيرا إلى ذلك التفصيل، وهكذا ينبغي أن يتبع المتدبر منهج النظرة الشمولية الذي أشارت إليه النصوص، بأن يفسر بعض القرآن ببعضه، ويعيد متشابهاته إلى محكماته، ولا يجعل القرآن عضين يأخذ ببعضه ويترك بعضا.

وهنا يجمل القرآن حديثه عن النبي عيسى عليه السلام كما جعله مثلا يحتذى لبني إسرائيل، كما ضرب مثلا للعرب لعلهم به يهتدون إلى نوع القيادة الذي أمروا باتباعه.

لقد رفع الله شأن ابن مريم حين خلقه من غير أب، وجعله يكلم الناس في المهد صبيا، وآتاه الكتاب والحكمة، وجعله مباركا.

ولقد أكرمه الله بالزهد في الدنيا، والخلق الرفيع، وتلك هي قيم الوحي الحق، وليس المال والجاه وما أشبه.

وكان يكفي العرب هدى مثال عيسى عليه السلام، فرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله ورسالة أخيه عيسى عليه السلام واحدة، وزهده في الدنيا، وخلقه العظيم، ومعالم شخصيته، كلها متشابهة ومعالم شخصية ابن مريم، ولكن قريشا صدت عن هذا المثل السامي. لماذا؟

أولاً: لأنهم لم يؤمنوا بتلك القيم العليا التي مثّلها عيسى عليه السلام بشخصيته ودعوته،

فهم عبدوا آلهة تمثل الشهوات والأماني الزائلة، وزيَّنها قرناؤهم من شياطين الجن والإنس في أعينهم، حتى قالوا: أآلهتنا خير أم هو؟!

ثانياً: لأن إيمانهم بعيسى بن مريم عليه السلام مثال الفضائل، والذي قد فرض نفسه على وجدانهم وفطرتهم -بالرغم منهم- كان يدعوهم إلى الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وآله لأنهما على نهج واحد، فصدُّوا عن ذاك ليصدُّوا عن هذا.

ثالثاً: ولعل قريشا تأثرت بالدعاية السلبية التي بثها اليهود حول النبي عيسى عليه السلام. ويبدو أن من أبعاد رسالة النبي صلى الله عليه وآله في قومه إحياء ذكر إخوته الأنبياء الكرام عليهم السلام لا سيما أنبياء بني إسرائيل الذين ربما منعت عصبية العرب من قبولهم، وبالذات عيسى عليه السلام الذي تعرَّض للإعلام المضاد من قبل اليهود بالإضافة إلى كونه من بني إسرائيل.

﴿ ◆ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ أي بين القرآن كما الرسالات واتباعها مثال عيسى عليه السلام في زهده وخلقه وآياته ليهتدي به العرب إلى رسولهم الكريم، والى أوصيائه الذين يجسدون نهجه.

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ فلا يؤمنون به مع أن شخصيته أسمى من كل ريب، ولعل كلمة ﴿يَصِدُّونَ ﴾ أشربت معنى الصد عن سبيل الله، وقال بعضهم: إن معناها يضجون، من الصديد وهو الجلبة، فيكون تفسيرها: يثيرون الضجيج واللغط حول هذه الشخصية من الأفكار السلبية لكي لا يؤمنوا بعيسى عليه السلام، وقد سمَّى القرآن أفكار الضالين باللغو في آيات أخرى، كقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ [فصلت:٢٦]. وقد طبقت نصوص أهل البيت عليهم السلام هذه الآية على أمير المؤمنين عليه السلام لأنه كما جاء في أحاديث عديدة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه شبيه عيسى بن مريم عليه السلام. ولا ريب أن عليا عليه السلام كان مثالا للقيادة الربانية التي تمثل قيم الوحي، كما كان النبي عيسى بن مريم عليه السلام، كما أن عليا عليه السلام غالى فيه قوم حتى قالوا فيه مثلما قالت النصارى في عيسى بن مريم، وَقَلاه آخرون حتى ساووه بمعاوية، واقتصد فيه الصالحون.

في الحديث عن أهل البيت عليهم السلام عن علي عليه السلام أنه قال: «جِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله يَوْماً فَوَجَدْتُهُ فِي مَلَإٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَنَظَرَ إِلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّمَا مَثَلُكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ أَحَبَّهُ قَوْمٌ فَأَفْرَطُوا فِي حُبِّهِ فَهَلَكُوا وَأَبْغَضَهُ قَوْمٌ وَأَفْرَطُوا فِي بُغْضِهِ فَهَلَكُوا وَاقْتَصَدَ فِيهِ قَوْمٌ فَنَجَوْا فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَضَحِكُوا وَقَالُوا يُشَبِّهُهُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ فَنَزَلَتْ..»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص١٥١.

وللآية تفسير آخر مستوحى من نص ورد في نزول الآية، نذكره فيما يلي، علماً بأن تطبيق القرآن على موارد نزول آياته لا يعني تحديده بها، فللقرآن أبعاد مختلفة وبطون شتى تجري عليها جيعا الآيات كما تجري الشمس على السهول والجبال.

روي أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، «أَتَى عَبْدُ الله بْنُ الزِّبَعْرَي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عُزَيْراً رَجُلٌ صَالِحٌ وَأَنَّ عِيسَى رَجُلٌ صَالِحٌ وَأَنَّ مَرْيَمَ امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ. قَالَ ﷺ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ الله فَهُمْ فِي النَّارِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]»[1].

[٥٨] ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ هل آلهتنا خير أم عيسى؟ إنهم زعموا أن آلهتهم خير من عيسى لأنها تمثل الثروة والقوة والتقاليد المتوارثة، بينما عيسى عليه السلام مثال الزهد والطهر والفضيلة.

وهم يعرفون أن عيسى خير من آلهتهم، ولكنهم لا يريدون الإذعان بهذه الحقيقة التي تنسف أساس بنيانهم الجاهلي ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ لأن فطرتهم تهديهم إلى سمو عيسى بعلمه ورسالته وبأخلاقه وفضائله عن آلهة تمثل شهواتهم وعصبياتهم التافهة ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ كلما ابتعدت أمة عن قيم الوحي ازدادت حاجتها النفسية إلى الخصام والجدال، أوليس الإنسان يمارس الجدال من أجل دحض الحق، كما قال ربنا: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر:٥]، أوليسوا قد هبطوا إلى حضيض الباطل، فلا بد أن يبلغوا ذروة الخصام حتى يبتدعوا لكل حق باطلا يجادلون به لدحض الحق.

هكذا قال الرسول ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجِدَالَ، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾»[2].

وحسب بعض التفاسير أن معنى الآية: «إن القوم قالوا ما دام عيسى بن مريم في النار -لأنه يعبد من دون الله- فلا بأس أن تكون آلهتهم أيضا في النار وهم معها، ولكنهم كانوا يعلمون أن عيسى ليس في النار، لأنه لم يكن راضيا عن عبادتهم له، ولم يكن يدعو أحدا إلى عبادة أحد غير الله، فما كان مثلهم بعيسى إلا جدلا».

(١) بحار الأنوار: ج٣٦، ص١٨٥.
(٢) تفسير فتح القدير: ج٤ ص٥٦٤.

[٥٩] وإبطالا لجدالهم بيّن الله أن عيسى لم يكن إلها كما اتخذه النصارى، ولم يدع الرسول الناس إلى نفسه أن يعبد من دون الله، إنما كان عيسى عند القرآن عبدا مخلوقا، وإنما كان يميزه عن الآخرين نعمة الوحي الذي أنزل عليه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ حيث انتخبه الله لرسالاته ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ليقتدوا به، حيث إن الرسول-أي رسول- يجسد المكرمات، فيأمر الله باتخاذ سنته منهجا. ولقد فشت المادية في بني إسرائيل، وفرغت الرسالة من روحها وقيمها وأهدافها المباركة، فكان عيسى بن مريم عليه السلام مثلا لبني إسرائيل في الزهد والخلق الرفيع. هكذا يصف أمير المؤمنين عليه السلام أخاه عيسى ابن مريم حين يقول: «وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ وَخَادِمُهُ يَدَاهُ»[1].

[٦٠] والله غني عن طاعتهم، ولو شاء لأهلكهم، وأسكن مكانهم ملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وهم إذ يعصونه بالشرك لا يخرجون عن إطار قدرته ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾ أي بدلا منهم ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾.

[٦١] ومضى القرآن يكرّم عيسى بن مريم، ويجعله من أشراط الساعة، حيث رفعه الله إليه، وادَّخره لآخر الزمان حيث يهبط من السماء، ويصلي خلف المهدي المنتظر عليه السلام بعد ظهوره كما جاء في العديد من الروايات.

جاء في النصوص المتظافرة عن أن أبا الزبير سمع جابر بن عبد الله يقول: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ: أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ بِنَا. فَيَقُولُ: لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةً مِنَ اللهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ»[2].

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي فلا تشكّوا، وإنما يشكُّ الإنسان حتى يجعل علمه جهلا بالتكاسل عن العمل، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٦٠.

(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٧٠، ثم قال: أورده مسلم في الصحيح، وبحار الأنوار، ج٦، ص٣٠١ ثم قال: أورده مسلم في الصحيح، وفي حديث آخر كما عن كشف الغمة: ج٢، ص٤٧٤: «يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام فَيَقُولُ: أَمِيرُهُمُ الْمَهْدِيُّ تَعَالَ صَلِّ بِنَا، فَيَقُولُ: أَلَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ».

ويَقِينكُمْ شَكّاً إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا وإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا»[1].

ولعل الحكمة في التأكيد على النهي من الشك هي أن الحقائق العظمى تحمّل الإنسان مسؤولية كبيرة، ولكي تهرب النفس منها تستجير بالشك والارتياب: من يقول إن الساعة قائمة؟، ومن يقول إن الناس يبعثون؟

وعيسى عليه السلام كان كل شيء فيه دليلا على الساعة، فقد ولد من غير أب، ثم رفع إلى السماء دليلا على قدرة الله التي لا تحدُّ، ثم إنه كان دائم التذكرة بالآخرة، وقد اتخذ من الزهد في الدنيا منهجا لحياته، ومحورا لدعوته.

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ واتباع الرسول دليل الإيمان بالساعة، فمن أيقن بها وفكر كيف ينقذ نفسه من ويلاتها، فسوف لا يجد صراطا مستقيما إلى الجنة والرضوان غير رسالة الرسول وحسن اتباعه فيها. و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى رسالة الله المتمثلة في القرآن.

[٦٢] [﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ فيجعل بينكم وبين الصراط المستقيم حواجز التكبر، والعزة بالإثم، أو حواجز الدم واللغة.. وهكذا، وقد تكون نفسك أو صديقك أو حتى زوجك هم شيطانك الذي لا يفتأ يصدُّك عن الصراط المستقيم.

إن الشيطان وما فتئ حتى الآن يجعل بينك وبين الرسل أو خلفائهم حواجز من التهم والشائعات والشبهات، وهكذا تجد أجهزة الطاغوت يُلَمِّعون الوجوه الخبيثة، ويشوهون صور الرسل والشخصيات الرسالية.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ فقد يأتي إليكم بصفة الناصح، وهو لكم عدو مبين، وهو يمكر ويكيد ويزيّن ويغرّ، ويأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه، ومن ثَمَّ إنه قد عقد العزم على إغواء أبناء آدم، جاء في الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي[2] لَكُمْ طُرُقَهُ ويُرِيدُ أَنْ يُحَلَّ دِينكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً ويُعْطِيَكُمْ بِالجَمَاعَةِ الفُرْقَةَ وبِالفُرْقَةِ الفِتْنَةَ فَاصْدِفُوا[3] عَنْ نَزَغَاتِهِ ونَفَثَاتِهِ»[4].

[٦٣] ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وقد جاء عيسى ابن مريم بني إسرائيل بالحكمة؛ وهي جملة الوصايا الأخلاقية التي تنفع حياتهم الاجتماعية

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٧٤.
(٢) يُسَنّي: يُسهِّل.
(٣) فاصدفوا: فأعرضوا.
(٤) نهج البلاغة: خطبة: ١٢١.

وتنظم علاقاتهم ببعضهم، بينما كان التوراة دستوراً متكاملاً للحياة ولذلك سمي بالكتاب كما -يبدو لنا- وهذه الحكمة -حسبما يبدو بالتأمل- هي ذاتها التي آتاها الله عيسى عليه السلام بالإضافة إلى الكتاب، وهي التي تمثلت في الإنجيل كما تمثل الكتاب في التوراة، وقال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨]، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠].

وهكذا يكون الكتاب تلك البصائر والأحكام الثابتة التي تعكس سنن الله التي لا تتغير، بينما الحكمة هي القيم العامة والأصول الكلية التي لو عرفها الإنسان عرف كيف يحكم بين الناس في الحوادث الواقعة فهي: (الشريعة). وإذا كان الكتاب جملة الحقائق والبصائر. فإن الحكمة هي فقه الكتاب، وتعقله ومعرفته بحيث يصدر الأحكام الصحيحة منه، وبحيث ينظم العيش على أساسه، ويدبّر متغيرات الحياة وفق تعاليمه.

وقد فسرت السنة الشريفة الحكمة بأنها مخالفة للهوى وأنها أجزل حظوظ العقل، وأنها الفهم والعقل. وأنها ضياء المعرفة وميراث التقوى، وثمرة الصدق، وفي حديث أنها الحكماء من الأنبياء والأوصياء.

وقد علم النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله المؤمنين بالكتاب والحكمة، وقال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:١٥١]. وكانت تلك منة كبرى امتن بها الرب تعالى على هذه الأمة، حيث بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله (يذكرهم بالله ويوقظ عقولهم وينمي معارفهم)، ويزكي قلوبهم (ويطهرها من الفواحش الباطنية كالكبر والغفلة والحسد والشح)، ويعلمهم الكتاب (وفيه كل الحقائق)، ويعلمهم الحكمة (الشريعة ومنهج الحكم)، وقد نقلهم الله بنبيه من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، حيث كانوا من قبل في ضلال مبين، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

إذن الحكمة جوهر الرسالة، الذي يصدقه عقل الإنسان وفطرته.. ورأس الحكمة توحيد الله، ومخافته، والتوكل عليه، والتحابب فيه، والإحسان إلى الناس ابتغاء رضوانه، وهذه هي وصايا الأنبياء عليهم السلام وبالذات النبي عيسى بن مريم عليه السلام فلقد جاء في بعض مواعظه: «بِحَقٍّ

أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّيَاطِينِ مَا عُمِّرَتْ فِي شَيْءٍ مَا عُمِّرَتْ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنَّمَا أَعْطَاكُمُ اللهُ الدُّنْيَا لِتَعْمَلُوا فِيهَا لِلْآخِرَةِ وَلَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَشْغَلَكُمْ عَنِ الآخِرَةِ وَإِنَّمَا بَسَطَهَا لَكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنَّهُ أَعَانَكُمْ بِهَا عَلَى العِبَادَةِ وَلَمْ يُعِنْكُمْ بِهَا عَلَى الخَطَايَا.....

بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الأَجْرَ مَحْرُوصٌ عَلَيْهِ وَلَا يُدْرِكُهُ إِلَّا مَنْ عَمِلَ لَهُ. بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الشَّجَرَةَ لَا تَكْمُلُ إِلَّا بِثَمَرَةٍ طَيِّبَةٍ كَذَلِكَ لَا يَكْمُلُ الدِّينُ إِلَّا بِالتَّحَرُّجِ عَنِ المَحَارِمِ.

بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الزَّرْعَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِالمَاءِ وَالتُّرَابِ كَذَلِكَ الإِيمَانُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِالعِلْمِ وَالعَمَلِ. بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ المَاءَ يُطْفِئُ النَّارَ كَذَلِكَ الحِلْمُ يُطْفِئُ الغَضَبَ.

بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ المَاءُ وَالنَّارُ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ كَذَا لَا يَجْتَمِعُ الفِقْهُ وَالعَمَى فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ. بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا يَكُونُ مَطَرٌ بِغَيْرِ سَحَابٍ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ عَمَلٌ فِي مَرْضَاةِ الرَّبِّ إِلَّا بِقَلْبٍ نَقِيٍّ.

بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الشَّمْسَ نُورُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنَّ الحِكْمَةَ نُورُ كُلِّ قَلْبٍ وَالتَّقْوَى رَأْسُ كُلِّ حِكْمَةٍ وَالحَقَّ بَابُ كُلِّ خَيْرٍ وَرَحْمَةَ اللهِ بَابُ كُلِّ حَقٍّ وَمَفَاتِيحُ ذَلِكَ الدُّعَاءُ وَالتَّضَرُّعُ وَالعَمَلُ وَكَيْفَ يُفْتَحُ بَابٌ بِغَيْرِ مِفْتَاحٍ...»[1].

ويبدو أن عيسى عليه السلام بُعث لتصحيح مسيرة المؤمنين بالتوراة، ولقد أجمل الإمام الصادق عليه السلام شريعة عيسى حين قال: «كَانَ بَيْنَ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ شَرِيعَةُ عِيسَى أَنَّهُ بُعِثَ بِالتَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ وَبِمَا أَوْصَى بِهِ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى عليهم السلام، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الإِنْجِيلُ وَأُخِذَ عَلَيْهِ المِيثَاقُ الَّذِي أُخِذَ عَلَى النَّبِيِّينَ وَشُرِّعَ لَهُ فِي الكِتَابِ إِقَامُ الصَّلَاةِ مَعَ الدِّينِ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ وَتَحْرِيمُ الحَرَامِ وَتَحْلِيلُ الحَلَالِ وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي الإِنْجِيلِ مَوَاعِظُ وَأَمْثَالٌ وَلَيْسَ فِيهَا قِصَاصٌ وَلَا أَحْكَامُ حُدُودٍ وَلَا فَرْضُ مَوَارِيثَ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ تَخْفِيفُ مَا كَانَ نَزَلَ عَلَى مُوسَى عليه السلام فِي التَّوْرَاةِ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ فِي الَّذِي قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وَأَمَرَ عِيسَى مَنْ مَعَهُ مِمَّنِ اتَّبَعَهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ»[2].

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فقد جاء عيسى عليه السلام ليرفع الاختلاف الكبير الذي كان قد دَبَّ في بني إسرائيل حتى بلغ دينهم فتفرقوا مذاهب شتى، وأبرزها أربع:

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٣١٥-٣١٦.
(٢) تفسير العياشي: ج١ ص١٧٥.

الأولى: طائفة الصدوقيين من أولاد هارون، الذين توارثوا الولاية على الهيكل منذ عهد داود وسليمان، واهتموا بالقشور وشكليات الطقوس، وأضاعوا القيم فتراهم يرتكبون الموبقات ثم يأخذون على غيرهم استخفافهم ببعض الطقوس.

الثانية: طائفة الفريسيين، حيث عزفوا عن الدنيا، ومالوا إلى التصوف، وترفعوا على الناس، واغتروا بما لديهم من زهد ومعرفة.

الثالثة: طائفة السامريين الذين نفوا الكتب التي أضيفت إلى الكتب الموسوية في العهود المتأخرة.

الرابعة: طائفة الآسين وقد تأثروا ببعض المذاهب الفلسفية[1].

وقد جاء عيسى بن مريم ينفي كل هذا التكلف في الدين، ويعيد الناس إلى عبادة ربهم الواحد، ويأمرهم بالاهتمام بروح الدين وليس حدوده فقط، فقال فيما قال: «أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة، ويبتلعون الجمل!! إنكم تنقون ظاهر الكأس والصفحة، وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون. إنكم كالقبور المبيضة، خارجها طلاء جميل، وداخلها عظام نخرة»[2].

وخاطب الجماهير، وتحدث عن العلماء الفجار، قائلا: «بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ لَرَجُلٌ عَالِمٌ آثَرَ دُنْيَاهُ عَلَى عِلْمِهِ فَأَحَبَّهَا وَطَلَبَهَا وَجَهَدَ عَلَيْهَا حَتَّى لَوِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ فِي حَيْرَةٍ لَفَعَلَ وَمَا ذَا يُغْنِي عَنِ الْأَعْمَى سَعَةُ نُورِ الشَّمْسِ وَهُوَ لَا يُبْصِرُهَا كَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنِ الْعَالِمِ عِلْمُهُ إِذَا هُوَ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ مَا أَكْثَرَ ثِمَارَ الشَّجَرِ وَلَيْسَ كُلُّهَا يَنْفَعُ وَلَا يُؤْكَلُ وَمَا أَكْثَرَ الْعُلَمَاءَ وَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمَ وَمَا أَوْسَعَ الْأَرْضَ وَلَيْسَ كُلُّهَا تُسْكَنُ وَمَا أَكْثَرَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَلَيْسَ كُلُّ كَلَامِهِمْ يُصَدَّقُ فَاحْتَفِظُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْكَذَبَةِ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ مُنَكِّسُو رُءُوسِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ يُزَوِّرُونَ بِهِ الْخَطَايَا يَطْرِفُونَ مِنْ تَحْتِ حَوَاجِبِهِمْ كَمَا تَرْمُقُ الذِّئَابُ وَقَوْلُهُمْ يُخَالِفُ فِعْلَهُمْ وَهَلْ يُجْتَنَى مِنَ الْعَوْسَجِ الْعِنَبُ وَمِنَ الْحَنْظَلِ التِّينُ..»[3].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ إذ إن الفلاح لا يكون إلا بتقوى الله، وطاعة رسوله.

[٦٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أستوي أنا وأنتم عنده، فهو ربي وربكم، ولست بربكم،

---

(١) راجع عبقرية المسيح للعقاد: ص٤٠-٥٢ منشورات المكتبة العصرية. نقلا بتصرف واختصار.
(٢) عبقرية المسيح: ص١٢٨.
(٣) بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٠٧.

أو ابن ربكم ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الصراط المستقيم أن تسقط في ذاتك عبادة الأولياء أو عبادة الأصنام، أنّى كانت حجرية أم بشرية، وتعبد الله وحده.

[٦٥] [﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ اختلفوا في عيسى عليه السلام، منهم من جعله ثالث ثلاثة، ومنهم من عاداه وأراد قتله، ومنهم من آمن به وصدقه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا الاختلاف على عيسى عليه السلام كان سببا للعذاب الأليم، لأنه ظلم، وهكذا كل اختلاف في الدين نابع من الأهواء.

[٦٦] ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لو مات الإنسان وهو قائم يصلي أو في حالة عبادة أخرى، فطوبى له وحسن مآب، أما لو كان يعمل الخبائث، أو يظلم الآخرين، فيا للخسارة العظمى! إن ساعة الموت مصيرية لابد من أن نكون مستعدين لها دائما، لأنها تنزل بنا في أية لحظة، ولذا نجد في سورة مريم عليها السلام قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٣]، وقد قال يعقوب لبنيه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وفي الدعاء: «أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَجْعَلَ خَيْرَ أَمْرِي آخِرَهُ وَخَيْرَ أَعْمَالِي خَوَاتِيمَهَا وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلْقَاكَ»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٩٧ ص٤١٧.

ادخلوا الجنة أنتم وازواجكم تحبرون

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ[(١)] ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ[(٢)] مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ[(٣)] عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تتركز سورة الزخرف في إبعاد الإنسان عن محورية المادة، وبالذات في العلاقات الاجتماعية، وقد تلونا في الآية (٣٦) كيف أن الذي يعشو عن ذكر الله يقيض الله له شيطانا فهو له قرين، وهنا يبين القرآن أهمية الخِلَّة الربانية التي تمتد إلى يوم القيامة حيث يخاطب عباد الله بألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم الذين آمنوا وأسلموا لربهم، فيسرعون إلى دخول الجنة هم وأزواجهم يحبرون.

وبعد أن يفصل القول في نعم الجنة يذكِّرنا الربُّ بأنهم ورثوها بأعمالهم، مما يزيدهم نعمة

(١) تحبرون: تسرون فيها سروراً يظهر أثره على وجوهكم.
(٢) بصحاف: جمع صحفة، وهو الجام الذي يؤكل فيه الطعام.
(٣) لا يفتّر: لا يخفف، من الفتور بمعنى التخفيف.

إلى نعمتهم- بينما المجرمون في عذاب جهنم خالدين، لا يخفف عنهم، ولا ترجى لهم النجاة، وهذه هي العاقبة التي اختاروها لأنفسهم بظلمهم، وعندما طلبوا من مالك (الملك الموكل بجهنم) أن يقضي الله عليهم (فيموتوا) يقول لهم مالك: إنكم باقون هنا.

بينات من الآيات:

[٦٧-٦٨] يذكرنا الرب هنا بأمرين:

أولاً: بمحورية التقوى في الصداقة، لأنها هي الباقية حقا، وفي يوم القيامة حيث يبحث كل واحد عن خليل يشفع له ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]، فلا ينفع غير الأصدقاء في الله. فليس المطلوب صداقة كيفما اتفق، بل تلك الصداقة التي تمتد من الدنيا إلى الآخرة، إلى أن يدخلا في الجنة بسلام.

وفي مقابل هذه الصداقة هناك صداقة لا تتعدى حدود الزمالة أو المصلحة المشتركة، تنتهي بانتهاء الزمالة أو المصلحة. إن هذه الصداقة ليست بالضرورة سيئة إلا أنها محدودة، وتقوم في الغالب على أسس مادية، وهي معرضة للاهتزاز والزوال.

وهذا جانب من النظرة الشاملة إلى الحياة في الإسلام، التي تنظم حياة الإنسان وعلاقاته على أساس التقوى، لا على رمال متحركة، فالعلاقة المادية عقيمة سواء كانت في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع.

ثانياً: بمنهجية الآخرة. إذا أردنا أن نعرف صحة فكرة لا بد أن ننظر إلى عاقبتها، وعاقبة الأمور تتجلى في الآخرة بأظهر صورها، وعلينا أن نجعل ذلك مقياسا لعملنا في الدنيا، فما عاقبة التقوى إلا الجنة، وما نهاية الخلة الصالحة إلا الشفاعة والتقابل على سرر في الجنة، قد نزع الله ما في قلوبهم من غل، وهكذا فإن أي علاقة لا تنفع في الآخرة فهي ليست نافعة في الدنيا أيضا، وإنما أنت الذي تبني لنفسك قصرا في الجنة بعملك، أو تحجز لنفسك دركا في النار -والعياذ بالله-. والدنيا صورة مصغرة عن الآخرة، فالظلم ظلمات يوم القيامة، والغل والغش حيات وعقارب في النار، والنظرة الحرام نار في العين يوم القيامة، والكذب عقرب تلدغ اللسان.

وربنا سبحانه يوزع مشاهد القيامة على سور القرآن توزيعا ينسجم وموضوعاتها، فإذا كانت سورة الزخرف تتحدث عن علاقات الإنسان المادية تجد فيها ما يتناسب وهذا الموضوع، مثل نهاية العلاقات في الآخرة، وإنما يتحدث القرآن الكريم عن الآخرة قبل وبعد كل بصيرة يبيّنها، لأن النفس لو تركت من دون التذكرة بالآخرة لطغت ولتجبرت، ولم تنتفع بالبصائر،

ولا كيف كانت عاقبتها. تقول الرواية التاريخية: «كان عقبة بن أبي معيط يجالس النبي ﷺ فقال قريش: قد صبأ عقبة بن أبي معيط، فقال خليل له يسمى أمية بن خلف: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تتفل في وجهه، ففعل عقبة ذلك، فنذر النبي ﷺ قتله، فقتله يوم بدر جهدا، وقتل أمية في المعركة.. قالوا فيهما نزلت هذه الآية»[1].

ترى هل كانت عاقبة عقبة هذه السوأى لو لم تربطه بأمية تلك الخلة القائمة على غير أساس إيماني؟!

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بلى، لا بد للإنسان من صداقة، إذن فليبحث عمن يهديه إلى الحق، ويعينه على دينه ودنياه، هكذا أمرنا الإمام الصادق عليه السلام: «... وَاطْلُبْ مُوَاخَاةَ الأَتْقِيَاءِ وَلَوْ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ، وَإِنْ أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ فِي طَلَبِهِمْ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَفْضَلَ مِنْهُمْ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ وَمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى العَبْدِ بِمِثْلِ مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ بِصُحْبَتِهِمْ...»[2].

ونجد في النصوص الدينية الكثير من الأحاديث حول الصداقة. كيف تكون في الله؟ وما هي علامات الأخلاء المتقين؟ وما هي حدود التعاون بينهم؟ وما هي الحقوق المتبادلة بينهم؟ كل ذلك لتنظم حلقات المجتمع الإسلامي رصينة مباركة، وتتنامى روح التعاون بينهم في كافة الحقول، في السلم كما في أيام المقاومة ضد الغزاة والطغاة، حين تقوم طلائع حزب الله قياما واحدا لله، لمحاربة أعداء الله، ومن أجل تطبيق حكم الله في الأرض، عندئذ يحتاجون إلى قيم تنظيمية وبرامج للتعاون، فلا يجدون أفضل من هذه النصوص التي تغنينا عن الكثير من الأساليب التنظيمية التي يستوردها البعض من هنا وهناك.

بلى، الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها، وإن تجارب الآخرين في تنظيم المقاومة لمواجهة الغزاة والطغاة هي ثروة إنسانية مشتركة لا باس بالانتفاع بها، ولكن بشرطين:

أولاً: أن نبني تنظيما على أسس إسلامية طاهرة، اعتمادا على الزخم الهائل من بصائر الآيات والأحاديث التي وردت في ذلك.

ثانياً: أن نهذّب ما نستفيده من تجارب الآخرين بما لدينا من قيم وتعاليم.

وإن البحث عن الخليل الإيماني صعب، ومهم في الوقت ذاته، ولذلك نجد التحريض

---

(١) راجع تفسير القرطبي: ج١٦، ص١٠٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٧١، ص٢٨٢.

عليه شديدا، ويكفينا هنا الحديث التالي ناصحا في هذا الحقل:

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الخليلين المؤمنين، والخليلين الكافرين: «فَأَمَّا الخَلِيلَانِ المُؤْمِنَانِ فَتَخَالَّا حَيَاتَهُمَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَبَاذَلَا وَتَوَادَّا عَلَيْهَا فَمَاتَ أَحَدُهُمَا قَبْلَ صَاحِبِهِ فَأَرَاهُ اللهُ مَنْزِلَهُ فِي الجَنَّةِ يَشْفَعُ لِصَاحِبِهِ فَقَالَ يَا رَبِّ خَلِيلِي فُلَانٌ كَانَ يَأْمُرُنِي بِطَاعَتِكَ وَيُعِينُنِي عَلَيْهَا وَيَنْهَانِي عَنْ مَعْصِيَتِكَ فَثَبِّتْهُ عَلَى مَا ثَبَّتَّنِي عَلَيْهِ مِنَ الهُدَى حَتَّى تُرِيَهُ مَا أَرَيْتَنِي فَيَسْتَجِيبُ اللهُ لَهُ حَتَّى يَلْتَقِيَا عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ جَزَاكَ اللهُ مِنْ خَلِيلٍ خَيْراً كُنْتَ تَأْمُرُنِي بِطَاعَةِ اللهِ وَتَنْهَانِي عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ.

وَأَمَّا الكَافِرَانِ فَتَخَالَّا بِمَعْصِيَةِ اللهِ وَتَبَاذَلَا عَلَيْهَا وَتَوَادَّا عَلَيْهَا فَمَاتَ أَحَدُهُمَا قَبْلَ صَاحِبِهِ فَأَرَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْزِلَهُ فِي النَّارِ فَقَالَ يَا رَبِّ فُلَانٌ خَلِيلِي كَانَ يَأْمُرُنِي بِمَعْصِيَتِكَ وَيَنْهَانِي عَنْ طَاعَتِكَ فَثَبِّتْهُ عَلَى مَا ثَبَّتَّنِي عَلَيْهِ مِنَ المَعَاصِي حَتَّى تُرِيَهُ مَا أَرَيْتَنِي مِنَ العَذَابِ فَيَلْتَقِيَانِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ جَزَاكَ اللهُ مِنْ خَلِيلٍ شَرّاً كُنْتَ تَأْمُرُنِي بِمَعْصِيَةِ اللهِ وَتَنْهَانِي عَنْ طَاعَةِ اللهِ..»[1].

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ لا خوف عليهم من موقف يدوم خمسين ألف سنة، ولا خوف عليهم من النار، ولا حزن عندهم من التقصير في الدنيا، كلا.. إنهم لم يخسروا فرصهم في الدنيا حتى يحزنوا كما يحزن غيرهم.

[٦٩] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ ولعل الإسلام هنا يعني التسليم للقيادة الشرعية.

[٧٠] ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾ لقد كانوا يؤثرون على أزواجهم ومن يحيط بهم من عشيرتهم الأقربين عبر التربية، واليوم يجدون فائدة هذا التأثير، فلا يفرق بينهم وبين أزواجهم، كما أنهم يشفعون لأزواجهم ومن اتصل بهم في الدنيا بعمل صالح أو علم نافع، إذ يدعون لهم فيستجاب لهم، وهذه حقيقة الشفاعة، أما سببها فهو تواصل الخيرات بين المؤمنين، فمن أخذ من أحد علما نافعا في الدنيا استفاد في الآخرة، ومن اتبع إمام هدى انتفع بشفاعته، ومن خدم أهل الصلاح لصلاحهم شفعوا له عند ربهم، وهكذا.

وقد ورد في الروايات أن المؤمن إذا أدخل الجنة يسمح له بأن يدخل معه من يريد، وفي بعض الروايات أن المؤمن يشفع في مثل ربيعة ومضر، وأن المؤمن ليشفع في صديقه إذا مات

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص١٧٣، تفسير القمي: ج٢ ص٢٨٧.

قبله وأدخل الجنة[1].

والحبور هو السرور والبهجة لانتهاء العناء، وقال البعض: إنه لذة السماع، وإذا جعلنا معنى الحبر الكرامة فإنها تعني سموا في المقام، وفرحا في القلب، وسرورا في العين، ولذة في السماع، وزينة وطيبا.

[٧١] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ دخول الجنة هو يوم عيد المؤمنين، ففي الجنة يطاف على المؤمنين بصحاف الذهب وأكواب كانت قواريرا، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من أنواع الملذات، فمن الحور إلى الغلمان إلى صنوف الأكل والرحيق والسندس، وما تلذ الأعين، فكل شيء جميل وجذاب، وقد أجمل القول لأن التفصيل فوق مستوى عقولنا نحن البشر.

وقد جاءت في تفسير الآية أحاديث بحرمة اتخاذ أواني الذهب والفضة، لأنها كرامة للمؤمن في الآخرة. قالوا: الصفحة ما تتسع لإطعام خمسة، أما الكوب فقالوا: إنه الكوز بلا عروة ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خوف من الموت، ولا من التحول إلى النار.

[٧٢] ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يدخل الله المؤمنين الجنة بما عملوا، فالجنة ليست بالتمني ولكن بالسعي والجد والعمل، وليس أي عمل، كلا.. إنما العمل الخالص لله، ولعل كلمة الوراثة هنا تشبه كلمة الشكر التي تقال لمن عمل صالحا، وهو يورث بهجة روحية.. وقلما يحدثنا القرآن عن النعم المادية في الجنة أو في الدنيا إلا ويشفعها ببيان النعم المعنوية التي هي أعمق لذة وأدوم سرورا.

[٧٣] ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ الفاكهة هي ما يأكل الإنسان تفكها وليست هي الغذاء الأساسي. إنها فاكهة كثيرة يأكل المؤمنون منها، للتنعم واللذة، وليس للحاجة والضرورة.

[٧٤] وفي مقابل المؤمنين هناك المجرمون ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ فالإجرام سبب للخلود، إذ ليست كل الذنوب تؤدي إلى الخلود في عذاب جهنم.

---

(١) عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي حَدِيثٍ: مَا اسْتَفَادَ امْرُؤٌ مُسْلِمٌ فَائِدَةً بَعْدَ الإِسْلَامِ مِثْلَ أَخٍ يَسْتَفِيدُهُ فِي اللهِ ثُمَّ قَالَ يَا فَضْلُ لَا تَزْهَدُوا فِي فُقَرَاءِ شِيعَتِنَا فَإِنَّ الْفَقِيرَ لَيَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ ثُمَّ قَالَ يَا فَضْلُ إِنَّمَا سُمِّيَ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِناً لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ عَلَى اللهِ فَيُجِيزُ أَمَانَهُ ثُمَّ قَالَ أَمَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ فِي أَعْدَائِكُمْ إِذَا رَأَوْا شَفَاعَةَ الرَّجُلِ مِنْكُمْ لِصَدِيقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»، راجع وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٣٣.

[٧٥] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ فلا أمل للمجرمين من الفكاك من العذاب حيث لا يخفف عنهم، وهم مبلسون فيه لا يرجون الخلاص.

[٧٦] فهل ظلمهم الله حين أدخلهم هذا المصير؟ كلا.. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ بعث الله لهم أنبياء، وتعاهدهم بالنعم، وأمهلهم بأن أعطاهم الفرصة بعد الفرصة، وحين يأخذهم الجليل بالعذاب، ويكبهم في النار، فهل هو ظالم لهم؟! كلا..

ولا بد أن نتلو هذه الآيات وكأننا المعنيون بها حتى ننتفع بها.

[٧٧] ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾

وجاء في بحار الأنوار: قال السيد ﷺ عنه: وفي الحديث: «أَنَّ أَهْلَ النَّارِ إِذَا دَخَلُوهَا وَرَأَوْا نَكَالَهَا وَأَهْوَالَهَا وَعَلِمُوا عَذَابَهَا وَعِقَابَهَا وَرَأَوْهَا، -كَمَا قَالَ زَيْنُ العَابِدِينَ عليه السلام: - مَا ظَنُّكَ بِنَارٍ لَا تُبْقِي عَلَى مَنْ تَضَرَّعَ إِلَيْهَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّخِفِيفِ [التَّخْفِيفِ] عَمَّنْ خَشَعَ لَهَا وَاسْتَسْلَمَ إِلَيْهَا تَلْقَى سُكَّانَهَا بِأَحَرِّ مَا لَدَيْهَا مِنْ أَلِيمِ النَّكَالِ وَشَدِيدِ الوَبَالِ، يَعْرِفُونَ أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ فِي ثَوَابٍ عَظِيمٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَأْمُلُونَ أَنْ يُطْعِمُوهُمْ أَوْ يَسْقُوهُمْ لِيَخِفَّ عَنْهُمْ بَعْضُ العَذَابِ الأَلِيمِ. كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾. قَالَ: فَيَحْبَسُ عَنْهُمُ الجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُجِيبُونَهُمْ بِلِسَانِ الإِحْتِقَارِ وَالتَّهْوِينِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قَالَ: فَيَرَوْنَ الخَزَنَةَ عِنْدَهُمْ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ المُصَابِ فَيَأْمُلُونَ أَنْ يَجِدُوا عِنْدَهُمْ فَرَجاً بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ.

كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. قَالَ: فَيَحْبَسُ عَنْهُمُ الجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُجِيبُونَهُمْ بَعْدَ خَيْبَةِ الآمَالِ: ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾. قَالَ: فَإِذَا يَئِسُوا مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ رَجَعُوا إِلَى مَالِكٍ مُقَدَّمِ الخُزَّانِ وَأَمَّلُوا أَنْ يُخَلِّصَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الهَوَانِ.

كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، قَالَ: فَيَحْبَسُ عَنْهُمُ الجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَهُمْ فِي العَذَابِ.ثُمَّ يُجِيبُهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ المَكْنُونِ: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ قَالَ: فَإِذَا يَئِسُوا مِنْ مَوْلَاهُمْ رَبِّ العَالَمِينَ الَّذِي كَانَ أَهْوَنَ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَكَانَ قَدْ آثَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْهِ هَوَاهُ مُدَّةَ الحَيَاةِ وَكَانَ قَدْ قُرِّرَ عِنْدَهُمْ بِالعَقْلِ وَالنَّقْلِ أَنَّهُ أَوْضَحَ لَهُمْ عَلَى يَدِ الهُدَاةِ سُبُلَ النَّجَاةِ وَعَرَّفَهُمْ بِلِسَانِ الحَالِ أَنَّهُمُ المُلْقُونَ بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى دَارِ النَّكَالِ وَالأَهْوَالِ وَأَنَّ بَابَ القَبُولِ يُغْلَقُ عَنِ الكُفَّارِ بِالمَمَاتِ أَبَدَ الآبِدِينَ وَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ فِي أَوْقَاتٍ كَانُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ المُكَلَّفِينَ بِلِسَانِ الحَالِ الوَاضِحِ المُبِينِ: هَبْ أَنَّكُمْ مَا صَدَّقْتُمُونِي فِي هَذَا المَقَالِ، أَمَا تُجَوِّزُونَ أَنْ

أَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَكَيْفَ أَعْرَضْتُمْ عَنِّي وَشَهِدْتُمْ بِتَكْذِيبِي وَتَكْذِيبِ مَنْ صَدَّقَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَهَلَّا تَحَرَّزْتُمْ مِنْ هَذِهِ الضَّرَرِ الْمُحَذَّرِ الهَائِلِ. أَمَا سَمِعْتُمْ بِكَثْرَةِ الْمُرْسَلِينَ وَتَكْرَارِ الرَّسَائِلِ.

ثُمَّ كَرَّرَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرَافَقَتَهُمْ فِي النَّارِ بِلِسَانِ الْمَقَالِ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾. فَقَالُوا: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾. فَيَقِفُونَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ذُلَّ الهَوَانِ لَا يُجَابُونَ، وَفِي عَذَابِ النَّارِ لَا يُكَلَّمُونَ ثُمَّ يُجِيبُهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَيْأَسُونَ مِنْ كُلِّ فَرَجٍ وَرَاحَةٍ وَيُغْلَقُ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ عَلَيْهِمْ وَيَدُومُ لَدَيْهِمْ مَآتِمُ الهَلَاكِ وَالشَّهِيقُ وَالزَّفِيرُ وَالصُّرَاخُ وَالنِّيَاحَةُ»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٣٠٤-٣٠٥.

وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا[1] أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ[2] يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

هدى من الآيات:

ينذر القرآن الذين يعاندون الرسالة، فلا يتبعون الحق، بأن عنادهم سوف يسلط عليهم عذابا لن يحيد عنهم.

وإذا عاند الإنسان الحق فإنه سوف ينكر كل شيء حق بلا تورع، وقد رأينا كيف أن بعض الفلاسفة في التاريخ أنكر الوجود الذي هو أظهر وأجلى شيء عرفه البشر، فقالوا: إن ما

---

(١) أبرموا: أحكموا، وحاكوا المؤامرات ضد الحق.

(٢) وقيلِهِ: أي قول الرسول.

نراه لا يعدو كونه خيالات.

ثم يبيّن ربُّنا سَفَه ما يقوله المشركون من أن لله ابنا، وذلك بأن يرد عليهم الرسول ﷺ أنه أول العابدين لله، وأن كل شيء مخلوق لله، وليس من شيء قائم بذاته، إنما الله القائم على كل شيء، فلولا أنه يمسك السماوات والأرض لزالتا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده! وكما في عالم الطبيعة كذلك في الاجتماع البشري، فلو أراد الله أن يفقر أحدا! هل يغنيه أحد! أو أراد أن يضله هل يهديه أحد!

وآخر الآيات تتحدث عن الله الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم، الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، ولا يحتاج إلى ابن، وأننا إليه راجعون، وأن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون شفاعة، فلن تشفع لهم الجنة ولا الأصنام، ولكن الشفاعة عند من يكذبون بهم من الرسل والأنبياء.

وهؤلاء الذين يكذبون بالرسل إنما يكذبون بالله، ولئن سألتهم من خلق الخلق وخلقهم ليقولن الله. إنهم يعترفون بالله تكوينيا، فهو الذي خلقهم وخلق كل الخلق، ولكن لا يؤمنون بالله تشريعيا، إذ أرسل إليهم الرسل، وأيدهم بآياته، فما فائدة إيمانهم بأن الله خالقهم، إذ لم يؤمنوا بأن الله هو الوحيد الذي يجب أن يُشرِّع، لأن شرعه سبحانه يتناسب مع أهداف الخلقة، ولا أقدر على التشريع إلا مَن خلقنا.

وأخيرا يحدِّد السياق العلاقة المثلى مع هؤلاء القوم المتمثلة في العفو عنهم، والدعوة إلى السلام، وترك أمرهم إلى يوم القيامة.

بينات من الآيات:

[٧٨] إتماما للحديث عن النار، وعقب أن يرد عليهم مالك بأنهم ماكثون أبدا في النار، يبيِّن لهم سبب ذلك، قائلا: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

عن ابن عباس: «إن المراد من الأكثر هنا هو الكل». ولعله فهم من الآية أن عادة البشر هي كراهية الحق إلا من عصمه الله، ونستلهم من ذلك أن على الإنسان أن يتجاوز في ذاته هذه الكراهية بعزم الإرادة حتى يبلغ الحق، أما إذا استرسل مع هواه فسوف يقوده إلى الباطل.

[٧٩] لا ينفع التحدي والعناد شيئا، لا بد من التسليم والطاعة، وإذا زعم الكافرون أنهم قادرون على مواجهة الحق وأهله، بالكيد المتين، والعزم الشديد، والمكر الخفي، فليعلموا

بأن الله أمتن كيدا، وأشد عزما، وهو خير الماكرين ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ إذا كانوا قرروا أن لا يؤمنوا بالله، فقد قررنا وأبرمنا أمرا، فكان أمرنا أنهم في النار خالدون، ماكثون فيها خاسئون، والإبرام هو القرار الذي لا تراجع فيه أو تردد.

[٨٠] بعد أن قهر الله كبرياءهم، بإنذارهم بنار جهنم، وتصوير ذلهم وخزيهم، ورد طلباتهم حتى بالإعدام للنجاة من عذاب النار.. وبعد أن أوصل ذلك بإنكار الحق وهدَّدهم بأن تحدِّيه لا يجديهم نفعا وأنبأنا بأن كراهية الحق حالة عامة وعلينا معالجتها في أنفسنا، بالخوف من عاقبة الكفر بالحق.

أقول: بعد أن أسقط ربنا هذه الحواجز التي تفصل البشر عن الإيمان بالحق، أخذ ينسف تبريرا يحتمي إلى ظله الكفار، حين يزعمون أنهم قادرون على إخفاء كفرهم عن الله بالنفاق.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ﴾ نسمع سرَّهم الذي يحدثون أنفسهم به فقط ونجواهم الذي يتحدثون به في مجالسهم الخاصة.

﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وليس رسل الله يكتبون عليهم أعمالهم فقط، بل هم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم حاضرون، وفي الروايات: أن الملائكة الكتبة تجلس في حنك الإنسان، فما يلفظ من قول إلا كان عليه رقيب عتيد. ولكي نقتلع جذور النفاق من أنفسنا فليس أفضل من استشعار علم الله بالسر والنجوى.

جاء في الدعاء: «إلهي وَسَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِالقُدْرَةِ الَّتي قَدَّرْتَها، وَبِالقَضِيَّةِ الَّتي حَتَمْتَها وَحَكَمْتَها وَغَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ اَجْرَيْتَها اَنْ تَهَبَ لي في هذِهِ اللَّيْلَةِ وَفي هذِهِ السّاعَةِ كُلَّ جُرْمٍ اَجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْبٍ اَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ قَبيحٍ اَسْرَرْتُهُ، وَكُلَّ جَهْلٍ عَمِلْتُهُ، كَتَمْتُهُ اَوْ اَعْلَنْتُهُ، اَخْفَيْتُهُ اَوْ اَظْهَرْتُهُ، وَكُلَّ سَيِّئَةٍ اَمَرْتَ بِإِثْباتِهَا الكِرامَ الكاتِبينَ الَّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما يَكُونُ مِنّي وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي، وَكُنْتَ اَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرائِهِمْ، وَالشّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ، وَبِرَحْمَتِكَ اَخْفَيْتَهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ..»[١].

[٨١] وعاد القرآن ينفي الشرك، وأن يكون للرحمن ولد، لكي لا يظن الإنسان أن بمقدوره الفرار من حكومة الله إلى ظل الشركاء، كلا... ليس أمام البشر إلا طريق واحد، هو طاعة الله، وتحمل مسؤولياته.

ثم إن سورة الزخرف تطهِّر قلب الإنسان من عبادة الثروة والسلطة، بينما الشرك تجسيد

(١) البلد الأمين: ص١٩١، من دعاء كميل.

لهذه العبادة، فالمشركون إنما عبدوا الأنداد لأنهم زعموا أنها رمز المال والبنين، وهكذا نجد السياق فيها يدحض الأفكار الشركية، ويستجلي بصائر التوحيد.

ومن تلك الأفكار ما زعمته النصارى في نبيهم أنه ابن الله، وقد بين القرآن إنما هو عبد أنعم الله عليه، ولكي يحصن القرآن المسلمين من الغلو في دينهم، كما فعلت الأمم السابقة، فإن هذه الآية تبين أن نبينا محمداً ﷺ ليس إلا عبداً لله، بل هو أوّل العابدين له، وكيف يكون العبد رباً أو ولداً لله؟!

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ولا ريب أن محمداً أعظم الأنبياء، فإذا كان هو أذل -تذللاً- العابدين، فكيف يكون غيره ابناً لله؟! تعالى الله عما يصفون. وهكذا نفت الآية الكريمة الشريك عن الله ببلاغة نافذة.

وهنا قال كثير من المفسرين الكثير من الآراء، منها:

«إن كلمة ﴿إِن﴾ هنا نافية، ومعناها: ليس للرحمن ولد. وأوردوا على هذا بمثل إن النافية لا تدخل على فعل، وعند نفي الولد فلا فرق في توحيد العبودية بين أوّل العابدين وسواه! ثم المناسب لهذا النفي الربط بـ«و» بدل «ف» إذ لا تفريع في ﴿إِن﴾ النافية! ويبدو أن معنى النفي قد يُفهم من مجمل تركيب الجملة على تفسير، وليس من كلمة ﴿إِن﴾.

وقال البعض إنها شرطية لكن ﴿الْعَابِدِينَ﴾ تنفي العبادة بأنها هنا من (عبد) إذا اشتدت أنفته، فإن كان له ولد تولد عن ذاته، فهو والد كسائر من يلد، فمتجزّئ فمحدود كسائر الخلق، فليس إذن إلها يعبد فأنا أوّل المتأنفين لعبادته، ولأنني أعبده مخلصاً فليس له ولد؟ وأوردوا على هذا؛ نعم ﴿الْعَابِدِينَ﴾ بمعنى الأنفين وارد لغة ولكنها شاذة، وذكرها دون قرينة تصرفها عما يعرف غير فصيح ومستبعد.

وأكثر المتأخرين تابعوا السدّي بأن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أحق الناس بعبادة ذلك الولد لأني ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، فإن السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده»[1]. أي إن ﴿إِن﴾ شرطية و﴿الْعَابِدِينَ﴾ بالمعنى المعروف. وينبغي أن يُضاف ما يفيد النفي لأن القرآن حاسم في ما يتعلق بالتوحيد فيقال مثلاً: وبما أن أول العابدين لا يعبد رحماناً هكذا ولا ولداً له، فليس إذاً للرحمن ولد. ويمكن أن ينتصر بأنه الظاهر العرفي، ويمكن أن يورد عليه أن تصليب نفي الولد يتطلب استبدال ﴿إِن﴾ المجوِّزة للنفي والإثبات بـ(لو) الامتناعية.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢٧ ص٢٣٠.

واعتذر البعض بأن هذا من باب الإنصاف والتلطف في الحوار. ولا أستحسن هذا التفسير، بالرغم من ميل كثير من المتأخرين إليه، لأنه لا ينسجم مع النهج الذي نعهده في بصائر القرآن في قضايا التوحيد، والله العالم.

ويمكن اعتبار ﴿إِن﴾ هنا وصلية ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ سواء بالتجزيء أو تشريفا لخصوصية النبوة وبعض الامتيازات، فقد كانوا الأكثر عبادة ورفعة من عبد الرحمان فاتخذهم الله ولدا تشريفا كما تحكي هذا التوهم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦]. ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ في رتبة العبودية وكما أنني الأوّل في درجات العصمة والولاية والرسالة بين الانبياء، إذن فأنا أوّل وأولى مَن يُتخذ ولدا لهذه الكرامة العليا. لكن هل يكون العبد ربّاً، وهل يظهر من الأنبياء تجاه الرب إلا العبودية؟ فإذن العبودية تنفي النسبة التشريفية بالولد، كما تنفي النسبة الذاتية بالطبع.

وهذا التفسير يبدو لي واضحا ومتفقا مع سائر الآيات، كما هو متفق مع مساق تفسير الرعيل الأول من المفسرين..

ومن جهة أخرى يبدو أن الآية تنفي أيضا الأسس والتوالي الفاسدة لنسبة الولد إلى الله سبحانه، ذلك أنهم زعموا أن الأعظم مالا يكون الأقرب إلى الله، وتسقط عنه المسؤوليات، كلا.. إذا كانت الولادة صحيحة-وهي غير صحيحة- فإن الأقرب إلى الله هو الرسول، وليس أصحاب المال، ونحن حين نرى أقرب الناس إلى الله أشدهم خوفا منه، وأكثرهم عبادة له، وأعظمهم تمسكا بالدين، فإننا نهتدي ألا شريك له، ولا يجوز لغير الرسول- بطريقة أولى- أن يتهرب من المسؤولية بدعوى أنه ابن الله أو منتم إلى ابن الله.

إن من أهم الدواعي إلى الغلو في الدين، وادّعاء الصلة النسبية، وإن تشريفا بين ربّ العرش سبحانه والأنبياء عليهم السلام كعزير عند اليهود، والمسيح عند النصارى- التهرب من المسؤولية، بدعوى أن ابن الله ينجيهم من عذاب الله، ويفدّيهم بنفسه للخلاص من نقماته، وبدعوى أنهم أولاد الله، بانتمائهم نسبيا أو سببيا إلى الله.

ألم يزعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه؟ أوَلَم يتخذوا من تلك العقيدة الفاسدة تبريرا لعدوانهم على سائر الناس، والقول بأنه ليس عليهم في الأميين سبيل؟! كذلك زعم الجاهليون العرب أن انتسابهم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام يكفيهم فخرا، ومن الله قربى!

أولم يزعم بعض المسلمين أن مجرد حبهم للرسول وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه يغنيهم عن العمل؟!.

كلا.. ليس للرحمن ولد، والدليل على ذلك أن الرسول هو أول العابدين لله، وإذا كان له ولد لم يكن أول من يعبد الله، ذلك الرسول الأقرب إلى الله. والملائكة ليسوا أولاد الله، لأنهم عباده المكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون. وعيسى عليه السلام ليس ولد الله، لأنه ليس إلا عبدا أنعم الله عليه.

ويبقى سؤال: كيف ذكر الرسول أنه أول العابدين وقد جاء متأخرا زمنيا عن سائر الأنبياء المخلصين في طاعة الله؟ تجيب النصوص الدينية عن ذلك بما يلي:

إن نبي الله محمداً صلى الله عليه وآله أول من عبد الله وسبحه، وقد جاءت الروايات مؤكدة على ذلك؛ فقد روي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ فِي وَصْفِ المِعْرَاجِ سَاقَهُ، إِلَى أَنْ قَالَ صلى الله عليه وآله: «قُلْتُ يَا مَلَائِكَةَ رَبِّي: هَلْ تَعْرِفُونَّا حَقَّ مَعْرِفَتِنَا؟

فَقَالُوا يَا نَبِيَّ الله: وَكَيْفَ لَانَعْرِفُكُمْ وَأَنْتُمْ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ خَلَقَكُمْ، أَشْبَاحَ نُورٍ مِنْ نُورِهِ، فِي نُورٍ مِنْ سَنَاءِ عِزِّهِ، وَمِنْ سَنَاءِ مُلْكِهِ، وَمِنْ نُورِ وَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَجَعَلَ لَكُمْ مَقَاعِدَ فِي مَلَكُوتِ سُلْطَانِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ السَّمَاءُ مَبْنِيَّةً، وَالأَرْضُ مَدْحِيَّةً، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ رَفَعَ العَرْشَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ وَأَنْتُمْ أَمَامَ عَرْشِهِ تُسَبِّحُونَ وَتُقَدِّسُونَ وَتُكَبِّرُونَ.

ثُمَّ خَلَقَ المَلَائِكَةَ مِنْ بَدْءِ مَا أَرَادَ مِنْ أَنْوَارٍ شَتَّى. وَكُنَّا نَمُرُّ بِكُمْ وَأَنْتُمْ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُهَلِّلُونَ وَتُكَبِّرُونَ، وَتُمَجِّدُونَ وَتُقَدِّسُونَ، فَنُسَبِّحُ وَنُقَدِّسُ وَنُمَجِّدُ وَنُكَبِّرُ وَنُهَلِّلُ بِتَسْبِيحِكُمْ وَتَحْمِيدِكُمْ وَتَهْلِيلِكُمْ وَتَكْبِيرِكُمْ وَتَقْدِيسِكُمْ وَتَمْجِيدِكُمْ. فَمَا أُنْزِلَ مِنَ اللهِ فَإِلَيْكُمْ وَمَا صَعِدَ إِلَى اللهِ فَمِنْ عِنْدِكُمْ فَلِمَ لَانَعْرِفُكُمْ..»[1].

وجاء في الرواية عن المفضل قال: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِالله عليه السلام: «يَا مُفَضَّلُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَهُوَ رُوحٌ إِلَى الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَهُمْ أَرْوَاحٌ قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ بِأَلْفَيْ عَامٍ. قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ عليه السلام: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ الله وَطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَوَعَدَهُمُ الجَنَّةَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَوْعَدَ مَنْ خَالَفَ مَا أَجَابُوا إِلَيْهِ، وَأَنْكَرَهُ النَّارَ. فَقُلْتُ: بَلَى»[2].

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ؛ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله: بِأَيِّ شَيْءٍ سَبَقْتَ

---

(١) بحار الأنوار: ج١٥ ص٨.

(٢) علل الشرائع: ج١ ص١٦١.

الأَنْبِيَاءَ وَأَنْتَ بُعِثْتَ آخِرَهُمْ وخَاتَمَهُمْ؟ فَقَالَ ﷺ: «إِنِّي كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِرَبِّي وأَوَّلَ مَنْ أَجَابَ حَيْثُ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟، فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ نَبِيٍّ قَالَ: بَلَى فَسَبَقْتُهُمْ بِالإِقْرَارِ بِاللهِ عَزَّ وجَلَّ»[1].

وفي الدعاء عن الإمام الهادي عليه السلام يصف الرسول ﷺ: «خَلَقَكُمُ اللهُ أَنْوَاراً فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِينَ»[2].

[٨٢] ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ لو أنهم عرفوا شيئا من عظمة ربهم لما خرقوا له بنين وبنات، ولما شبَّهوه بأنفسهم في الأمثال والصفات. إنه هو الله رب السماوات والأرض، ورب القدرة العظيمة. وفي الحديث: «رَبُّ المَثَلِ الأَعْلَى عَمَّا بِهِ مَثَّلُوهُ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ وَلَا يُوصَفُ وَلَا يُتَوَهَّمُ»[3].

[٨٣] ربما ضرَّ المزيد من الاهتمام بجدال المشركين، ويكفي أن ندعوهم إلى الهدى، ونبيّن لهم الحجج، فإذا عموا عنها تركناهم يخوضون في غيهم، ويلهون أنفسهم بأفكارهم الضالة، ويلعبون في الحياة بلا هدف حكيم، حتى يلاقوا يوم الجزاء العادل الذي يعدهم الله.

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ ولعل الخوض هنا يساوق اللهو وهو ما يصرف الإنسان عن الواقع، بينما اللعب هو السعي المنظم لأهداف غير رشيدة حسبما يبدو لي.

وحين يبتعد الإنسان عن هدى ربه فهو بين فكرة باطلة يلهو بها عن الحق وسعي دؤوب لغير الأهداف المشروعة، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. أما المهتدون إلى ربهم فعقولهم تستنير بضياء المعرفة، وتزداد ولها إلى الحقائق، أما سعيهم فهو دائب في سبيل تحقيق الفلاح والرضوان.

وبتفكر أعمق سنصل إلى الحقيقة التالية: إنه الإيمان بالله وحده الذي يجعل الفكر يعمر بهدف سام، هو معرفة الله أكثر فأكثر، كما يجعل عمل الإنسان ذا معنى وذا هدف مقدس هو ابتغاء مرضاة الله.

[٨٤] إنه الله الذي وسعت رحمته وقدرته وهيمنته وتدبيره السماوات والأرض، يدبرّهما بذات النظام الحسن الحكيم، فلا فطور ولا خلل لا في أصغر موجود ولا أكبر.

(١) الكافي: ج٢ ص١٠.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٦١٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٣٠.

إن وحدة التدبير دليل على وحدة الخالق، ووحدة الحاكم والمهيمن، وهي حجة بالغة ضد أولئك الذين زعموا أن للأرض آلهة وللسماء إلهاً، فما لله لله وما لقيصر لقيصر، كلا.. كل شيء لله، واليه المصير.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ وآيات الله تهدينا إلى بالغ حكمته وعلمه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهل ينبغي أن يخرق لله ولد أو يشرك به شيء؟ كلا.. والعجيب أن حالة الجدل قد بلغت بالبعض إلى اتخاذ هذه الآية الكريمة مادة للجدل، كما جاء في الحديث التالي:

في الكافي: عَنْ هِشَامِ بْنِ الحَكَمِ قَالَ: قَالَ أَبُو شَاكِرٍ الدَّيْصَانِيُّ: «إِنَّ فِي القُرْآنِ آيَةً هِيَ قَوْلُنَا». قُلْتُ: مَا هِيَ؟ فَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

فَلَمْ أَدْرِ بِمَ أُجِيبُهُ. فَحَجَجْتُ فَخَبَّرْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَقَالَ: هَذَا كَلَامُ زِنْدِيقٍ خَبِيثٍ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: مَا اسْمُكَ بِالكُوفَةِ فَإِنَّهُ يَقُولُ فُلَانٌ، فَقُلْ لَهُ: مَا اسْمُكَ بِالبَصْرَةِ فَإِنَّهُ يَقُولُ فُلَانٌ، فَقُلْ: كَذَلِكَ اللهُ رَبُّنَا: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ وَفِي البِحَارِ إِلَهٌ وَفِي القِفَارِ إِلَهٌ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَهٌ. قَالَ: فَقَدِمْتُ فَأَتَيْتُ أَبَا شَاكِرٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: هَذِهِ نُقِلَتْ مِنَ الحِجَازِ»[1].

[٨٥] ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وهذه الآية تدفع إشكال سابقتها، فهو إله في السماء، وإله في الأرض، إلا أن السماوات والأرض ملكه، وتحت قبضته.. وتبارك مصدر البركة ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

[٨٦] وحين تقوم الساعة، ونرجع إلى الله، فهل يملك الشركاء المزعومون الشفاعة؟ كلا.. ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كما أنه في عالم التكوين ليس هناك الله وابنه، فكذا في عالم التشريع، فإنه لا شفيع عند الله إلا من شهد بالحق، فالفضل آنئذ لله، والقدرة له وحده، وهو يمنع من قدرته ما يشاء دون أن تنقص قدرته مقدار ذرة، ومن دون أن يصير ذلك صاحب قدرة ذاتية، وليس باستطاعة أحد أن يقف أمام الله، فالكل مهما أوتوا عبيد له سبحانه، وإنه لا يشفع أحد لأحد إلا من شهد بالحق.

وفي الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في هذه الآية: «هُمُ الَّذِينَ قَدْ عُبِدُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ لِمَنْ عَبَدَهُمْ»[2].

[٨٧] وهؤلاء الذين عبدوا غيره، ولم يشفع لهم أحد، لأن الله لا يقبل الشفاعة لأحد

(١) الكافي: ج١ ص١٢٨.
(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٢٨٩.

إلا من شهد بالحق له سبحانه، هؤلاء.. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فالله يحاكمهم، وأفضل حكم فطرتهم، فيقول لهم: من خلقكم؟ ولا يملكون أن يقولوا غيره سبحانه.

لقد كانوا يعترفون بأن الله خالق السماوات والأرض، ولكنهم كانوا يزعمون -مع ذلك- وجود قدرة ذاتية لسواه، شأنهم شأن أغلب البشر اليوم حيث إنهم يغترون بمظاهر القوة عند الطغاة والمتجبرين، فيخضعون لهم، ويذرون حكم الله الحق إلى أحكامهم الجائرة.

[٨٨] لقد بلغ الاهتمام بشأن الدعوة عند الرسول ﷺ حدا جأر إلى الله، وأخذ يشكو إليه عدم إيمان قومه ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولعل التعبير بـ ﴿قَوْمٌ﴾ للدلالة على أنهم اجتمعوا على ترك الإيمان.

[٨٩] فكيف ينبغي التعامل مع قوم لا يؤمنون؟

تحدد الآية الأخيرة من هذه السورة العلاقة السليمة معهم، قائلة: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إنها علاقة العفو عن جرائمهم بحقه، والسلام معهم، والمؤمن يحمل في داخله قلبا يسع الدنيا ويزيد، لأن نظره إلى الآخرة، ولا يأبه بما يجري حوله هنا.

سُورَةُ الدُّخان

* مكية.
* عدد آياتها: ٥٩
* ترتيبها النزولي: ٦٤
* ترتيبها في المصحف: ٤٤
* نزلت بعد سورة الزخرف.

فضل السورة

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الدُّخَانِ فِي فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ بَعَثَهُ اللهُ مِنَ الآمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ وأَظَلَّهُ اللهُ تَحْتَ عَرْشِهِ وحَاسَبَهُ حِساباً يَسِيراً وأَعْطَاهُ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤١).

الإطار العام

الإنسان؛ الكائن الهادف

عبر (٥٩) آية قصيرة نسبياً تطالعنا سورة الدخان الكريمة بثلاث موضوعات أساسية؛ ليلة القدر، والفتن الكبرى، وصور عن الجزاء الأوفى في الآخرة.

ماهي العلاقة بين هذه الموضوعات؟

كل شيء في الخليقة مقدر سلفاً، ولكل جزيئة منها غاية محددة سلفاً، أوَ يمكن لهذا الإنسان الأكمل خلقاً بينها أن يُترك سدىً؟ كلا؛ الذرة المتناهية في الصغر -حسب علمنا- مخلوق مُقَدَّر بعلم، ومُسَيَّر لهدف؛ وكذلك المجرة المتناهية في السعة -حسب علمنا- مخلوق مُقَدَّر بعلم، ومُسَيَّر لهدف.. أفلا يكون لهذا الإنسان تقدير وهدف؟

لعل عقلانية الخليقة هي محور السورة. تعالوا إذن نوصّل فروع بصائر السورة بهذا المحور:

إن القرآن أنزل في ليلة القدر -المباركة- لأنه ينذر باسم مُقَدِّر هذا الخلق، وألاّ يزيغوا عن ذلك التقدير الحكيم، الذي قضي في ليلة القدر، حيث ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أمراً من عند الله، الذي أرسل الأنبياء لينذروا الناس به.

وكانت تلك رحمة من الله أن ينذر الناس ألاّ يتجاوزوا تلك السنن والأقدار، فيتعرضوا للخطر (الآيات: ١-٦).

وبعد أن يذكرنا بعظمة الخالق يقول: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾؛ وهو سبب كفرهم بهذه الرسالة، وسيبقى ضلالهم حتى يأتيهم العذاب، ﴿ فَارْتَقِبْ -يوم العذاب- يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ -حيث يتساءلون ما هذا- هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾،

فينادون: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾. وهيهات أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقد أنذرهم بما فيه الكفاية: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾. ويأتيهم الخطاب: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ ولعل هذا العذاب هو العذاب الأدنى، الذي يأخذهم ليكون نذيراً للعذاب الأكبر. وهذا بدوره من شواهد القيامة، ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ -الله- ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ -فيومئذ لاينفع الاستغفار- إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الآيات: ٧-١٦).

ويسوق القرآن قصة فرعون لتكون شاهدة على مجمل هذه البصائر التي سبقت تقدير الله الحكيم: إنذار الرسل، نزول العذاب، الجزاء الحسن الذي أتاه بني اسرائيل. وتلك هي فتنة كبرى تعرض لها قوم فرعون فلم يفلحوا حيث جاءهم النبي موسى عليه السلام بالبلاغ المبين، فلما رجموه بالتهم، دعا عليهم، فجاءه النصر، حيث أغرق الله فرعون وقومه ليتركوا وراءهم ثرواتهم دون أن تذرف السماء عليهم دمعة. أوَليسوا كانوا خاطئين، حيث زاغوا عن القدر الحكيم، والصراط المستقيم. تلك هي سنة الجزاء، ودليل على أن الله خلق كل شيء بالحق؟ (الآيات: ١٧-٢٩).

وكذلك فقد نجى الله بني اسرائيل من العذاب المهين، واختارهم على علم؛ واستحقاق لديهم على العالمين.

كيف يُترك الإنسان سدىً، وبلا محاسبة، وكيف تكون حياته الدنيا خاتمة المطاف، ولقد أهلك الله قوم تبع، حيث كانوا مجرمين، وفي هذا دليل على حكومة الله العادلة على مجريات التاريخ، كما أنه يكشف عن جانب من عقلانية الخليقة، وأن الله لم يخلق السماوات الأرض: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وعدم علمهم دليل جهلهم، لاعدم صحة هذه الحقيقة (الآيات: ٣٠-٣٩).

ويفصل الذكر الحكيم جانباً من جزاء الله في يوم القيامة، ويقول: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾. في ذلك اليوم لا ينفع الأنداد الذين يشركون بهم، ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾، وحتى لو أنهم نصروهم فإنهم لا ينصرون (الآيات: ٤٠-٤٢).

وبعد بيان طعام شجرة الزقوم، وكيف يقيَّد المجرم إلى عذاب النار، يعرض الرب لنا جانباً من نعيم الله للمتقين، ويختم القرآن السورة بأن تيسير الكتاب كان بهدف تذكيرهم؛ فمنهم من يتذكر ومنهم من ينتظر: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ (الآيات: ٤٣-٥٩).

وهكذا ينذر القرآن عباده بالجزاء الأوفى الذي هو رمز حقانية الخليقة، وعدالة الله وتقديره الحكيم.

يوم تأتي السماء بدخان مبين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ[1] كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ[2] يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)﴾.

هدى من الآيات:

إن الصيغة التي ورد فيها الحديث عن ليلة القدر لا يختص بها وحدها، وإنما ينصرف إلى حقيقة مهمة أيضا، وهي أن الإنسان محاط بتدبير الله قضاء وقدرا، وهاتان الكلمتان تَرِدان في كثير من النصوص الشرعية كتابا وسنة وعلى ألسن المؤمنين، فماذا تعنيان؟

القدر هو السنن الإلهية التي تحكم الكون، فالنار تحرق، والماء يطفئ النار و...، وأما القضاء فهو الحكم الإلهي القاطع بإجراء هذه السنن أو تعطيلها، ففي هذه السنن يظل فراغ لا قانون فيه، وهو ما نسميه اليوم بالصدفة، ذلك أن إرادة الله فوق القانون، وقد أثبت العلم بعد

---

(١) يفرق: يبين ويميز ويفصّل.

(٢) فارتقب: انتظر.

التجارب المتكررة على مختلف القوانين هذه الحقيقة.

فمن واقع الإنسان اكتشف العلماء دواء لعلاج فيروس الإنفلونزا، واعتقدوا أنهم بواسطته يستطيعون السيطرة عليه سيطرة تامة، ولكنهم وجدوا أن عشرات الألوف من الناس يموتون بسببه بالرغم من تعاطيهم ذلك الدواء، والسبب أن أجسامهم لاتستجيب لمفعوله.. فالدواء إذن ينفع ولكن ليس إلى الأبد إنما في حدود معينة.

ومثل آخر من واقع الطبيعة أن الخبراء بعد التفكير والتجريب والتخطيط أطلقوا (أبولو-١٣) إلى الفضاء، وبعد أن وصل إلى المكان المعين تعطّل عن العمل، مما يدل على وجود هامش لا قدرة للإنسان في السيطرة عليه، بل قد يبدأ الهامش من الإنسان نفسه فإذا به يفقد السيطرة على ذاته فضلا عن عمله، فربما يختل توازنه الذهني، وربما يتعطل شيء في جسده.

ومن المعايشات اليومية قد يدفع الإنسان صدقة أو يعمل خيرا في أول يومه، فيعرض له حادث مميت ينجو منه، بينما يموت في يوم آخر بسبب تافه. أليس كذلك؟ إذن فهناك قوة غيبية تدبر شؤوننا، ولا يوجد شيء في الحياة يسمى بالصدفة، إنما هي تدابير إلهية فوق الإرادات والسنن.

رُوِيَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَدَلَ مِنْ عِنْدِ حَائِطٍ مَائِلٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، فَقِيلَ لَهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَفِرُّ مِنْ قَضَاءِ اللهِ؟ فَقَالَ عليه السلام: **أَفِرُّ مِنْ قَضَاءِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ**»[1].

فقدر الله أنَّ الجدار المائل يسقط، والذي يجلس عنده يتضرر، وقد وهب الله للإنسان العقل الذي يتعرف به إلى هذه الحقيقة، أما قضاؤه فإنه تعالى يبعث في عقل الإنسان كَشَبَهِ الهزة الكهربائية تثيره وتذكره، وابتعاد الإمام عليه السلام عن الجدار كان بقضاء الله عزَّ وجلَّ.

ونقل لي أحد الأشخاص قائلا: كنت واقفا في الشارع أبحث عن سيارة توصلني إلى نقطة معينة في إحدى العواصم، وفي الأثناء توقفت إلى جانبي سيارة أجرة، ولكن السائق رفض جلوسي في المقعد الأمامي إلى جانبه، الأمر الذي منعني عن الركوب في هذه السيارة، فأقلتني سيارة أخرى، وبينما كنا نسير رأينا جمعا من الناس وكأن حادثا ما وقع في الشارع، وحيث نزلت لمعرفة الخبر وجدتها سيارة الأجرة التي رفض صاحبها ركوبي في المقعد الأمامي، وقد تحطمت ومات السائق والراكب الذي كان إلى جانبه.. فالقدر الطبيعي لهذا الشخص أنه يموت، ولكن القضاء يتدخل ليبدل الأمر، وينقذ هذا الإنسان.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٩٧.

وأمثال هذه القصص والحوادث تتكرر بكثرة في حياتنا اليومية، ونحن نعايشها أو نسمع عنها، ولكننا لا نبصر ولا نعتبر. وفي هذه السورة تركيز على هذا الوعي؛ أن في الكون يدا غيبية جبارة تدبر شؤونه. وذلك لا يعني أنها وحدها تفعل كل شيء مباشرة، وأنه لا نظام في الحياة، كلا.. إنما النظام موجود، ولكن هناك أيضا من يجريه ويهيمن عليه فيجريه أو يعطله متى شاء، وهو الله عز وجل، فإذا بالنار التي تحرق يتعطل قانونها في قصة إبراهيم عليه السلام، وإذا بالعصا تصير حية كأنها جان، وهكذا الكثير من الشواهد الأخرى.

بينات من الآيات:

[١] ﴿حمٓ﴾ بالإضافة إلى كون الكلمات المقطعة رموزا وإشارات تهدينا إلى القرآن ذاته، أو أنها رموز بين الله وأوليائه -وهو أفضل ما قيل فيها-، فإنها تنسجم بتناغمها وأجراسها اللفظية مع طبيعة السورة ذاتها نفسيا وأدبيا.

[٢-٣] وفي هذه السورة يقسم ربنا بعد تلك الحروف بالقرآن نفسه، الذي يتألف منها ومن أشباهها، للدلالة على مدى عظمته وجلالة قدره ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر في شهر رمضان، التي عدلت بخيرها وبركتها ألفا من الشهور.. وإنما أنزل الله الكتاب لهداية الناس إلى الحق بترغيبهم فيه وتحذيرهم من عواقب الضلال والباطل.

وقد تساءل المفسرون: كيف نزل القرآن في ليلة القدر وقد تنزلت آياته على امتداد ثلاثة وعشرين عاما، وقد بيّن ربنا حكمة تنجيم القرآن بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

قالوا -حسب النصوص-: إنه أنزل جملة واحدة إلى مقام سام في السماء الرابعة جعله الله مسجدا لملائكته حيث يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدا، يسمى بالبيت المعمور، وقد جعل الله الكعبة بإزائه[١].

ومن هنا فللقرآن نزولان: الدفعي والتدريجي على مدى (٢٣) عاماً، والنزول الدفعي كان في ليلة القدر أي في شهر رمضان إلى البيت المعمور وعلى قلب النبي صلى الله عليه وآله ولا تنافي بين النزولين، كما لاتنافي بين النزول الدفعي في شهر رمضان وبدء النزول التدريجي في رجب.

ولأن الرسول كان على علم بما في الملأ الأعلى (البيت المعمور) أو أن النزول تم مباشرة،

(١) راجع بحار الأنوار، ج٩، ص٢٣٧ وما بعدها.

لذلك أمره الله بألا يعجل في بيان القرآن: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦].

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ والإنذار هو هدف القرآن وسائر الرسالات الإلهية، ذلك أن الأمم تبدأ بالانحراف عن هدى الله حتى تقف على شفا حفرة من النار والعذاب، فيبعث الله لها بمنذر وكتاب لإنقاذها.

[٤-٥] وقد شرف الله ليلة القدر بأمرين:

أولاً: حيث أنزل فيها كتابه الكريم الذي بعث به الإنسانية مقاما محمودا أهلهم به لجناته ورضوانه والزلفى من مقامه الأعلى.

وإنما شرف الزمان بما يقع فيه من حوادث عظيمة، وهل هنالك حادثة أعظم من وحي رب العزة؟! أوَ سَمعت كيف كادت السماوات يتفطرّن من فوقهن لما مر بهن وحي الله العظيم؟! أوَ مَا قرأت أن القرآن لو أنزل على الجبال لتصدعت؟!

حقا إنها ليلة مباركة عظمت وشرفت في السماوات والأرض، ويحق لنا أن نكرّمها بالعبادة.

ثانياً: لقد جعل الله ليلة القدر ليلة الوحي في كل عام حيث ينزل فيها ملائكته كل عام والروح من كل أمر، وحيث يستقبل الأنبياء ومن بعدهم الأوصياء وصيا بعد وصي رسل الله الذين يفصلون لهم ما قدره الله لعباده جميعا.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ شؤون العباد ليست تماما بأيديهم، بل لعل أغلبها بيد القدر.. والتفريق -حسب ما قال البعض- هو تفصيل ما أجمله الله في غيب علمه من حكم الخلق وأهدافه.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ فالأمر إذن يرسل من عند الله كما القرآن، أي إن القرآن منهاج عملنا في عالم التشريع، بينما قدر الله وقضاؤه يرسمان خريطة حياتنا في عالم التكوين، فكما يقدّر الله في ليلة القدر ما يتصل بحياتنا جزءاً جزءاً كذلك يرسل الأنبياء ليفصلوا منهاج حياتنا كلمة كلمة.

[٦] وهذا التدبير الإلهي رحمة بالغة ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إن اليد الإلهية التي تسير شؤون الكون يد رحيمة وكريمة، ومن هنا كانت البصيرة القرآنية إلى الحياة توحي بالاطمئنان والثقة، فالمسلم الصادق يسلم لله، وتطمئن نفسه لقدره وقضائه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]. فهو لا يخشى من الطبيعة والناس من حوله ولا من المشاكل، لذلك فهو ينفق

في سبيل الله ما استطاع دون الخوف من الفقر، ويرجو من الإنفاق زيادة الرزق، ويقدم على الأمور، ولا يخشى العقبات والمشاكل، بل ويرجو من ذلك تسخير الطبيعة في صالحه، ولذلك فهو قليل الفشل، لأن الفشل أكثر ما يأتي من خشيته.

ومن مظاهر الرحمة أن ليلة القدر فرصة للعباد أن يُسهموا في رسم أقدارهم بالدعاء وتجديد العهد مع الله، كم هي فرصة لرسم مصيرهم الأخروي. ثم إن رحمة الله لا تنتهي عند حدٍّ معيَّن، إنما تتسع أيضا لحاجات الإنسان المتجددة التي تعكسها دعواته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي يسمع دعاء عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنواياهم، ثم يستجيب لهم أولا يستجيب لحكمة يعلمها.

[٧-٨] وربُّنا هو ربُّ الكون بأسره، ولكن بعض الناس يشرك به، ويقسم الخليقة على آلهة شتى، وهذه النظرة الضالة للحياة ليس سببها عدم ظهور آيات الربوبية في الكون من حولهم، وإنما لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى المعرفة العميقة واليقين ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بلى؛ إن الموقنين هم الذين ينظرون للحياة نظرة توحيدية خالصة من الشرك، فلا يؤمنون بإله إلا الله عز وجل، إذ هو تعالى الذي يُقدِّر الأشياء كلها وهو المدبر والمهيمن وحده ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فهو المتصرف في مصائر الخلق، وَمَنْ هذه صفته هو الإله، والأولى بالعبادة من كل أحد سواه، ومادام ربنا هو الذي يملك الموت والحياة فلماذا نخشى غيره ونخضع له؟! لماذا نتبع الطاغوت؟! ولماذا نقلد آباءنا؟!.

إنهم ليسوا بآلهة حتى نعبدهم، إنما هم عباد مثلنا خلقهم الله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سواء عبده الآباء أم أشركوا به، ونحن يجب أن نتخذ هذه الحقيقة مقياسا لتقييم الأجيال وليس العكس، وذلك لكي لا يؤثر علينا انحراف الآخرين تأثيرا سلبيا.

[٩] والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا يضل البشر عن هذه الحقائق، ويشركون بالله؟

والإجابة: لأنهم يظنون أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، فهي الهدف في اعتقادهم، وهذا يقودهم إلى الشك في المستقبل حيث الدار الآخرة، وَمَنْ فَرَّغ حياته من الآخرة فقد أفقدها هدفها، وجعلها مجرد لعب ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ إن المؤمن لا يتخذ الدنيا دار لعب ولهو، لأنه يعتقد بالمسؤولية والحساب عن كل قول وفعل يصدر منه، بل عن كل حديث له مع نفسه، بينما الذين يشكون في الآخرة يقودهم شكهم إلى النظرة الساذجة والهازلة إلى الحياة الدنيا.

[١٠] والقرآن يحذِّر هؤلاء من العاقبة التي سوف يلاقونها نتيجة هذه النظرة للحياة،

فالشك في الآخرة لن يلغي المسؤولية فيها ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ فكأنها تشتعل نارا ولكن من دون ضياء، وذلك أن النار في يوم القيامة لا نور فيها وبالذات في جهنم، إنما هي ظلمات فوق ظلمات.

وفي المجمع: «إن رسول الله ﷺ دعا على قومه مضر لما كذبوه فقال: اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فأجدبت الأرض، فأصابت قريشا المجاعة، وكأن الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، وأكلوا الميتة والعظام»[1].وقد وعد الله رسوله بإنزال العذاب على المرتابين والمشككين في الجزاء.

[١١] وحين ينزل هذا العذاب فإنه يغمر الناس من كل ناحية ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ جزاء لما قدمتموه في الدنيا من الأعمال والاعتقادات المنحرفة، فإذا بهم يستغيثون الله ويتضرعون إليه طمعا في النجاة، ولكن دون جدوى.

[١٢] ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ وهذه من طبيعة البشر. إنه لا ينتبه حتى يرى العذاب مباشرة، بينما زوِّد بالعقل لاستشفاف المستقبل، وتجنب الخطر قبل فوات الأوان.

وسواء أريد بهذه الكلمة المنذرة العذاب الذي يغشى المجرمين في الدنيا أو عذاب الآخرة فإن موقف الشاك في الآخرة منها واحد، إذ إنه لا يتذكر إلا والعذاب يغشاه فلا تنفعه الذكرى، على أن عذاب الدنيا لحظة بل لسعة بل ظلال من عذاب الله في الآخرة، نعوذ بالله منهما.

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٨٠.

وألا تعلوا على الله

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ[1] إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا[2] إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[3] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾.

هدى من الآيات:

يتعرض البشر إلى نوعين من الفتن في حياته:

الأول: الفتن اليومية، وهي تشبه سائر متغيرات حياة الفرد التي تتكرر عليه، فهو كما يجوع فيشبع، ويظمأ فيرتوي، ويضحى فيسكن إلى مأوى، فإنه يصطدم بهذا النوع من الفتن،

---

(١) البطشة الكبرى: الأخذ الشديد في يوم القيامة.

(٢) أدوا: أي أعطوا من الأداء كما يقال (أد الأمانة).

(٣) رهواً: أي ساكناً على حاله بعد أن خرجتم منه، بأن يبقى على حاله ذي طرق وسبل حتى يطمع فرعون في عبوره فيغرق، وذلك لأن ضربه بالعصى بقصد إرجاعه إلى ما كان، كان بيد موسى.

ومن طبيعة الحياة أنها تحدٍّ من جانب واستجابة للتحدّي من جانب آخر، وهنا يكمن الابتلاء، وإنما يكتسب الإنسان الخبرة والإرادة والقوة، كما ينمو وتنمو معه المواهب من خلال تحدي المشاكل والعقبات.

الثاني: الفتن الكبرى التي يتعرض لها الفرد أو المجتمع، وهي تتجدد في كل عصر، بيد أن قرار الإنسان فيها يكون مصيريا، فالفرد الذي ينتمي إلى حركة إصلاحية، ويتدرج في مراحل التوعية والتنظيم والعمل، حتى يبلغ مكانا حسّاسا فيها. إن كل لحظة تمر به من عمره الحركي تُعَدُّ لحظة خطيرة تحمل الفتنة والابتلاء، ولكنه لا يتعرض للفتنة الكبرى إلا حينما يقع في قبضة السلطات الظالمة، فيتعرض لألوان التعذيب الوحشي أو الانحراف الخادع، فإن صمد ولم يكشف لهم عن أسراره كتب خلوده ومجده بألمه، وربما بدمه.

وصور اجتماعية لهذا النوع من الفتن نجدها في حياة الأمم، ولكن ليس عند الفتن التي نسمّيها بالتحديات والتحديات المضادة التي تتعرض لها في اقتصادها وفي سياستها وتركيبتها، وإنما عند المواجهة الحاسمة، حين تقف هذه الأمة أمام عدو أقوى منها سلاحا، وأرقى تقدما، وأكثر عددا، فإن صمدت فإنها تكتب مجدها، وإن انهزمت فإنها تقرر مصيرها.

وكشاهد على هذا اللون من الفتن في التاريخ الفتنة التي تعرض لها موسى عليه السلام وقومه من جهة وفرعون وملؤه وجنده من جهة أخرى، التي انتهت بفشل هؤلاء الذين لم يرتفعوا إلى مستوى تحدي الكبرياء الكاذبة في أنفسهم، فانحرفوا وانتهت حضارتهم للأبد.

إذن فالفتن الكبرى مصيرية وحاسمة، والسؤال هنا: كيف يصمد الإنسان أو المجتمع أمامها؟ إنه يحتاج إلى إرادة قوية، وهي لا توجد عند الإنسان في لحظة واحدة، وإنما بالتدريج والتربية، فكما أن البحر الطمطام الذي يمتد طولا وعرضا يتكون من القطرات الصغيرة، وهكذا الصحراء المترامية الأطراف تتكون من ذرات الرمل، فكذلك إرادة الإنسان تصنع من مجموع إرادات صغيرة، هو يتمكن من اتخاذ الموقف الصعب إذا مارس المواقف الأقل منه في الحياة.

وكمثال على موقف الإنسان من الفتنة الكبرى واتصال ذلك بمواقفه السابقة دعنا نستعرض قصة رجلين: أحدهما سقط في الفتنة، بينما انتصر الآخر، فهذا هو عمرو بن العاص حسبما يقول عنه ابن قتيبة الدينوري في كتابه الإمامة والسياسة: «لما انتهى إليه كتاب معاوية وهو بفلسطين، استشار ابنيه عبد الله ومحمدا، وقال: يا ابني، إنه قد كان مني في أمر عثمان فلتات لم أستقبلها بعد، وقد كان من هروبي بنفسي حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية عني،

وقد قدم على معاوية جرير ببيعة علي، وقد كتب إليّ معاوية بالقدوم عليه، فما تريان؟ فقال عبدالله وهو الأكبر: أرى والله أن نبي الله قبض وهو عنك راض، والخليفتان من بعده كذلك، وقتل عثمان وأنت غائب، فأقم في منزلك، فلست مجعولا خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة، أوشكتما أن تهلكا فتستويا فيها جميعا، وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش، وصاحب أمرها، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل، يصغر أمرك فالحق بجماعة أهل الشام، واطلب بدم عثمان، فإنك به تستميل إلى بني أمية.

فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأما أنت يا محمد فقد أمرتني بما هو خير لي في دنياي، ثم دعا غلاما له يقال له وردان، وكان داهية، فقال له عمرو، يا وردان احطط، يا وردان ارحل، يا وردان احطط، يا وردان ارحل، فقال وردان: أما إنك إن شئت نبأتك بما في نفسك، فقال عمرو: هات يا وردان، فقال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت مع عليّ الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة، فأنت واقف بينهما، فقال عمرو: ما أخطأت ما في نفسي، فما ترى يا وردان، فقال، أرى أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك، فقال عمرو: أالآن حين شهرتني العرب بمسيري إلى معاوية؟!»[1].

وذهب عمرو إلى معسكر معاوية تاركا آخرته لدنياه، ثم لما دنت منه الوفاة وكان في فلسطين قال لمن حوله: احملوا جسدي إلى صحن الدار، فلما حمل وطرح على الأرض نظر إلى السماء فقال: لست بذي عذر فأعتذر، ولا بذي قوة فأنتصر، فافعل بي ما تشاء، ومات.

ونجد في مقابل هذه الهزيمة صورة للصمود أمام فتنة الحياة، عند عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي وقف مع الحق في حرب صفين وهو يناهز التسعين من العمر، ولما رأى الإمام علي عليه السلام شيخوخته أمره أن يشد ظهره، وحواجب عينيه حتى لا يبدو للناس ضعيفا، فبرز رضي الله عنه للقتال، وقال مخاطبا عمرو بن العاص: «يَا عَمْرُو بِعْتَ دِينَكَ بِمِصْرَ فَتَباً لَكَ فَطَالَ مَا بَغَيْتَ الإِسْلَامَ عِوَجاً».

ثُمَّ قَالَ: «ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ رِضَاكَ فِي أَنْ أَقْذِفَ بِنَفْسِي فِي هَذَا الْبَحْرِ لَفَعَلْتُ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ رِضَاكَ فِي أَنْ أَضَعَ ظُبَةَ سَيْفِي فِي بَطْنِي ثُمَّ أَنْحَنِيَ عَلَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي لَفَعَلْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّا عَلَّمْتَنِي أَنِّي لَا أَعْمَلُ عَمَلًا الْيَوْمَ هَذَا هُوَ أَرْضَى لَكَ مِنْ جِهَادِ هَؤُلَاءِ الْقَاسِطِينَ وَ لَوْ أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَمَلًا هُوَ أَرْضَى لَكَ مِنْهُ لَفَعَلْتُهُ»[2] وحارب

(١) الإمامة والسياسة: ج١ ص١١٧ تحقيق الشيري.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٤٨٩.

حتى استشهد مع الحق.

ولكن! لماذا اختار عمار رضي الله عنه هذا الموقف، بينما اختار ابن العاص الهزيمة أمام الفتنة؟

والجواب: لأن عمار كان دائما مع الحق، وحتى في دقائق حياته، ومنذ إيمانه بالرسول صلى الله عليه وآله، حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَا خُيِّرَ عَمَّارٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ -كلاهما في الله- إِلَّا اخْتَارَ أَشَدَّهُمَا»[1].

وربما عناه الإمام علي عليه السلام بقوله: «كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللهِ وكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ... وكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ يَنْظُرُ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى فَيُخَالِفُهُ»[2].

فلا عجب إذن أن تنتهي حياة هذا العظيم بالشهادة، بينما يموت ابن العاص على فراش الذنّب والرذيلة، لأن ابن العاص كان يخشى من شهرة العرب -حسب قول ابن قتيبة- أكثر من خوفه من الله، وكان يبحث عن الرئاسة قبل سعيه لرضى ربه، إن تلك الصفات التي تكرست في نفسه عبر عشرات من المواقف الانهزامية أمام ضغوط الدنيا وإغراءاتها كونت أرضية هزيمته المصيرية باختيار الدنيا على الدين.

ومن هنا نعي أهمية المواقف اليومية ومدى تأثيرها على مستقبل الإنسان، فلا ريب أن الاختيارات اليومية للأصعب في الله، هي التي صنعت إرادة عمار حيث التزم بالخيار الصعب في نهاية الخط، بينما صنعت الاختيارات البسيطة للخطأ الهزيمة الحاسمة أمام الفتنة الكبرى في حياة الآخر.

وفرعون مع ملئه وجنده -الذين تحدثت عنهم آيات هذا الدرس- إنما فشلوا في الفتنة الكبرى لأنهم كانوا ينهزمون أمام الفتن الصغيرة، وهذه من أهم العبر التي نستفيدها من سورة الدخان.

بينات من الآيات:

[١٣-١٤] اختتم الدرس السابق بتصوير الكافرين يدعون ربهم لكشف العذاب عنهم زاعمين أنهم مؤمنون، وهنا يؤكد ربنا أنهم كاذبون، أولم يكفروا بالنذير؟ بلى، إنهم يعيشون اللحظة، فإذا رأوا العذاب جأروا إلى ربهم، وإذا استجاب لهم تراهم ينكثون. إنهم أبناء الظرف

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٣٢٠.
(٢) نهج البلاغة: حكمة: ٢٨٩.

الحاضر، وليسوا ممن يملك بصيرة المستقبل أو تجربة الماضي.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أي بعدت واستحالت بالنسبة لهم، لأنهم حين رفضوا الإيمان قبل العذاب لم يكن رفضهم منطقيا إذ لم يقصِّر الرسول في بيان الحق والدعوة إلى الله، حتى عذرهم بأن الأمر كان غامضا. ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ولكنهم عصوه ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ إذ صاروا يختارون ما توحي به شهواتهم ومصالحهم وقيادتهم الباطلة على أمره، وأكثر من ذلك اتهموه ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ فهو ينتمي إلى الآخرين في نظرهم، وهذه تهمة يوجهها الطغاة إلى كل مصلح ومجاهد، حيث يسمونه متآمرا، ويتهمونه بالارتباط بجهات خارجية، ومن جهة أخرى اتهموه بالجنون لما يقدم عليه من أعمال جريئة. حقا إنهم اعترفوا بأنه عالم وشجاع، ولكن منعهم غرورهم من الاعتراف بعظمته ففسروا حكمته بالتعلم، وبطولاته بالجنون، وإذا عرفنا أن رسالته لم تكن ناشئة من الثقافة المنتشرة في مجتمعه فإن اعترافهم ماض في أنه رسول، وحين عرفنا أن شجاعته كانت محسوبة فإن كلامهم اعتراف بأنه توكل على الله فأيده ربه.

[١٥] ولكن مع ذلك قد يرفع الله العذاب عن عباده رحمة بهم، ذلك أن من أهداف إنزاله على الناس إعادتهم للحق، وتصحيح مسيرتهم الخاطئة، عبر بعثهم نحو نقد الذات، كما يقول تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الانعام:٤٢]. فإذا ما تضرعوا رفعه الله عنهم لإقامة الحجة التامة عليهم، وبيان زيف ادعائهم بأنهم تائبون حقا.

﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ وربنا يعلم بحقيقتهم ولكنه يرفعه عنهم بلطفه، فإذا بهم يعودون لما نهوا عنه، مما يجعلهم يستحقون أشد العذاب.

[١٦] وربنا يؤكد بأن العودة إلى المعصية والانحراف تستلزم إرجاع العذاب ولكن بصورة أشد وأقسى، وليس بهدف هدايتهم، بل انتقاما منهم هذه المرة ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ إن العذاب الذي يراه الظلمة في الدنيا ليس سوى نموذج مبسط من العذاب الذي ينتظرهم بعد الموت.

[١٧] ووقوع هؤلاء طعمة للبطشة الكبرى نتيجة طبيعية لفشلهم أمام أعظم فتنة يتعرض لها البشر، وهي فتنة التسليم للقيادة، حيث تولوا عن الرسول وخالفوا أمره، فلن يكون مصيرهم ولا مصير أمثالهم بأفضل من أسلافهم الذين تحدوا قيادة الرسل. ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ وانبعاث القيادة الرسالية المتمثلة آنذاك في موسى عليه السلام وضع المجتمع كله أمام فتنة كبرى، فهو إما يختار الانحطاط والدمار باتباع الباطل بقيمه ورموزه، وإما يتبع الحق برسالته وقياداته.

[١٨] وقد بيَّن موسى عليه السلام الهدف الأول من رسالته وهو تحرير الإنسان من العبودية للطاغوت، وقد أشارت آيات عديدة إلى أن صبغة رسالة الله إلى موسى كانت تحرير بني إسرائيل من طغيان آل فرعون، إذ كانت هذه أعقد مشكلة حضارية في ذلك العصر، وقد تحدَّت رسالات الله جميعا بؤر الانحراف وعقد المشاكل، فإذا كانت عقدة الحضارة العلو في الأرض، كما نجده في مجتمع عاد، فإن أخاهم هودا نهاهم عن أن يبغوا الفساد في الأرض، وأن يبطشوا بطش الجبارين، أما إذا كانت العقدة الفساد الخلقي كما عند قوم لوط نهاهم رسولهم من ذلك، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:٥٥]، وهكذا. وهكذا جاء موسى محررا لبني إسرائيل من طغيان فرعون، وقال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٦-١٧].

وهنا يقول ربنا: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ يعني المستضعفين الذين استعبدتهم الفراعنة. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فلست أريد من تحرير المستضعفين شيئا لنفسي، وإنما أنا أؤدي أمانة الرسالة، وألتزم بها كما يريد الله عز وجل.

[١٩] أما الهدف الأخر لموسى عليه السلام فهو القضاء على الاستكبار بكل أبعاده وصوره، وإعادة الإنسان إلى واقعه الحقيقي، وهو واقع العبودية لربه تعالى، وتكبُّر فرعون وقومه على موسى لم يكن تكبرا عليه وحسب، وإنما كان تكبرا على القيم الحقة، ومن ثَمَّ طلبا للتعالي حتى على الله، وموسى عليه السلام أكد على هذه الفكرة في دعوته لهم.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وإذا كان فرعون قد نصب نفسه إلها أعلى للناس ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فإن دعواه هذه باطلة يدحضها موسى بالحجج والبراهين الواضحة.

[٢٠] وحيث يتوقع موسى عليه السلام موقف الرفض والظلم ضد الدعوة الصادقة من قبل فرعون وقومه أكد بأنه لن يخشى أحدا، لأنه يستعيذ بالله منهم.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ وتكشف هذه الآية الكريمة عن سياسة الطغاة في مواجهة الرسالة، وعموم الأفكار المخالفة لهم، وهي سياسة البطش، ذلك لأنهم لا يملكون قوة المنطق حتى يواجهونها، فيواجهونها بمنطق القوة.

ولعل في الآية تحذير مبطن من قبل موسى، حيث أنذرهم بأنه سوف يستعين بالله في مواجهتهم، وهل تصل أيديهم له لو نصره الله؟، بالطبع كلا..

والرجم حسبما يظهر لي يستبطن معنى اغتيال شخصية الرسول بالإشاعات الباطلة، ثم اغتيال شخصه بطريقة يساهم كل الناس في قتله فيضيع دمه بينهم حتى لا يترك مجالا لوليه بالثأر.

وهكذا تجمع بين معنيين أشار إليهما المفسرون لكلمة الرجم: الرجم بالحجارة، والرجم بالشتم، والواقع أن الرجم الأول هو نتيجة الرجم الآخر.

[٢١] ثم إنه عليه السلام بين لهم خطأ منطق القوة في مواجهة المنطق الحق، وأن المنطق الموضوعي هو قبول الرسالة والإيمان بها، أو اعتزال صاحبها وتركه والناس حتى يحكم الزمن بصدقه أو كذبه ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾.

[٢٢] ولكنهم رفضوا إلا منطق الجريمة ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ فالذنب بالنسبة إليهم ليس عرضا يقعون فيه بسبب الغفلة أو النسيان، وإنما هو أساس تقوم عليه حياتهم، فهم مرتكزون في الجريمة.

وهذه الآيات وكثير من الآيات القرآنية التي تحدثنا عن معاناة الأنبياء مع أقوامهم، تؤكد ثلاث مراحل تمر كل رسالة بها، المرحلة الأولى هي بعث النبي واختلاطه بالناس وسعيه لهدايتهم، والمرحلة الثانية هي تكذيبهم له واعتزاله عنهم، أما المرحلة الثالثة فهي حلول العذاب عليهم من قبل الله مباشرة، أو على أيدي المؤمنين بقيادة الرسول أو من يمثله في المجتمع، وإنما ينبغي اعتزال المجتمع الكافر لكي لا يشمل العذاب المؤمنين، أو للإعداد للصراع في مواجهة الكافرين.

[٢٣] وقد أمر ربنا موسى عليه السلام والذين آمنوا معه بالانفصال عن فرعون وقومه تمهيدا لحلول العذاب عليهم، وأكد ربنا على أن يكون الاعتزال في ظروف سرّية حتى تتم العملية بنجاح، فكان الليل أكثر مناسبة للحركة.

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ من قبل فرعون وجنده، ذلك أنهم يرفضون أي حركة تحررية في المجتمع. ولعل الحكمة من إضافة كلمة ﴿لَيْلًا﴾ لجملة ﴿أَسْرِ﴾ التي هي تكفي دلالة على الحركة بالليل، لتوضيح أن كل السفر ينبغي أن يكون بالليل.

[٢٤] وحيث انفلق البحر لموسى وبني إسرائيل، وعبّروا من خلاله للطرف الآخر من اليابسة، أمره الله أن يتركه على حاله منشطرا، لكي يتبعهم الظلمة من خلاله فإذا توسطوا البحر جميعهم أغرقهم ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وقد ذكروا لكلمة الرهو معنيين:

الواسع والساكن (الخافض والوادع) ومعنى ذلك أن يترك الطريق كما هو واسعا وادعا ليغري فرعون بالسير فيه تمهيدا لهلاكه وقـومـه.

[٢٥-٢٧] واستجاب موسى لأمر الله فجمع بني إسرائيل وأخبرهم بالأمر، فتحركوا ليلا، وعندما وصلوا الماء ضربه موسى عليه السلام بعصاه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] وسار بنو إسرائيل بأسباطهم الاثني عشر على الفروق، وقد تبعهم فرعون وجنده، فلما توسطوا البحر التقى الماء بأمر الله فأغرقوا بأجمعهم، وخلفوا وراءهم كل ما جمعوه من حطام الدنيا الزائلة، فخسروا بفشلهم أمام الفتنة الكبرى نعيم الدارين وهكذا ذهب آل فرعون وخلفوا وراءهم حضارتهم المادية التي أطغتهم عن القيم الإلهية. لقد اجتهدوا لاستصلاح الأراضي وإنشاء بساتين على جانبي النيل، تجري فيها عيون الماء من قنوات متصلة بالنيل، ووراء جنات الأشجار كانت الأراضي الخصبة التي تزرع فيها أنواع الحبوب، وقد أعطتهم هذه الثروة الزراعية أموالا طائلة بنوا بها بيوتهم المرفهة المؤثثة بكل وسائل الراحة في ذلك اليوم، وقد طار صيتهم في الآفاق، ونالوا مقاما كريما.

وقد بلغت حضارتهم مستوى تجاوزت مرحلة الصعوبات، وبلغت مرحلة التفكه والتلذذ فنقلوا جميعا إلى النيل كعبة آمالهم، ومعبد غرورهم وكبريائهم، وأهلكوا ثمة دون أن يمس حضارتهم سوء ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ فأصبحوا عبرة لغيرهم عبر الأجيال، بينما ينبغي للإنسان أن يعتبر بغيره لا أن يكون نفسه عبرة للآخرين.

[٢٨-٢٩] ثم يقول ربنا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إن هذه سنة تجري في الحياة على كل من يترك القيم، ويرفض هدى الله، وما هذه النهاية المريعة التي صار إليها فرعون وجنده وملؤه إلا صورة لعاقبة كل أمة ترفض قيادة الحق، وتسلم زمامها لقيادة الطغاة.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وهؤلاء بدورهم ممتحنون بهذه الأشياء فلا بد أن يتجاوزوا الفتنة بنجاح، وإلا فلن يكون مصيرهم أحسن من سابقيهم، الذين دمرهم الله. ولعل الآية تشير إلى وراثة بني إسرائيل لأرض مصر بعد هلاك آل فرعون، وتدل على ذلك آيات أخرى.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قد يصل الأمر بالإنسان -وبالذات الحاكم- أن يعتقد بأن الحياة متوقفة عليه، وأنه مركز الكون، ولكن الحقيقة ليست كذلك، فهو لو تغير من موقعه أو انتهى أجله لا يطرأ أي تغير على الطبيعة سوى ذهابه، الذي لا يغير شيئا من سننها أو واقعها.

إن الكثير من الناس يريدون الطبيعة بقوانينها وسننها تتبع أهواءهم، وتتكيف مع مصالحهم وطريقة تفكيرهم، بينما العكس هو الصحيح، لأنها تتحرك باتجاه الحق.

بلى، إن الحياة قد تتأثر لموت المؤمن الولي لله، أما الطغاة فإنهم لا يتأثر شيء من الحياة والمجتمع بذهابهم حزنا ولا بكاء، بل بالعكس يفرح الناس بموتهم لأنهم مصدر بليتهم وتخلفهم، كما تبتهج الطبيعة، لأنها لا تنسجم مع من يخالف الحق.. ثم إنهم عندما يحل بهم العذاب لا يعطون فرصة أخرى أبدا ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ[1] ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[2] وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ[3] ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ[4] يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ[5] إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ

---

(١) بمنشرين: بمبعوثين.
(٢) قوم تبع: كان تُبّع ملكاً مؤمناً وقومه كافرين، وكانوا كثيري الأموال والقوى.
(٣) شجرة الزقوم: هي شجرة تعطي ثماراً بشعة مرّة.
(٤) كالمهل: النحاس المذاب أو ما أشبهه.
(٥) فاعتلوه: عتله إذا دفعه بشدة وعنف، أي فادفعوه من أطراف النار.

وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ[1] وَإِسْتَبْرَقٍ[2] مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

ينظر المؤمن إلى الحياة نظرة عقلانية تنعكس على سلوكه الشخصي الاجتماعي وعلى تعامله مع الطبيعة، فهو يؤمن بالعدالة الإلهية التي تحكم الخلق جميعا، ويرى أن لكل شيء هدفا خلق من أجله، فللسماء هدف، وللأرض هدف، ولكل مخلوق هدف.

وإن سنَّة الجزاء التي تتجلى في جميع أبعاد حياة البشر مظهر لتلك الهدفية، التي يشير إليها ربنا الكريم، ولكن في الجانب الاجتماعي منه، مما يثير السؤال: لماذا لا يتركز الحديث عن الفرد؟.

والجواب: لأن تفاعل الأفراد مع بعضهم، ومن ثَمَّ انصهارهم في بوتقة المجتمع- لا يدع المفسر أو الموجه يتحرك عن الفرد الواحد، في تحليله أو توجيهاته، فالمجرم لا يكون وحده مجرما، إنما يمارس الجريمة ضمن مجموع متجانس وبنية اجتماعية معينة، ولو حدث أن اقترف الجرم شخص واحد فإنك تجد آثار المساهمة الاجتماعية واضحة فيه، بالسكوت والتشجيع تارة، وبالتعاون تارة أخرى، ولذلك فإن الذي يتحمل الجزاء ليس الفرد في غالب الأحيان وإنما المجتمع بأكمله.

وعندما يبيِّن القرآن حكمة الجزاء يضرب لنا مثلا من واقع المجتمعات الغابرة التي جزيت بأفعالها على الرغم من قوتها وكيدها، وهذا الجانب من التاريخ البشري يعكس هدفية الحياة وعقلانيتها.

إن الذي يعمل شيئا لا يستطيع الهروب من الجزاء، فهو إن لم يلحقه عاجلا فسوف يلقاه

---

(١) سندس: هو الحرير الرقيق.

(٢) استبرق: هو الحرير الخشن، ولكلٍ فضل، فالأول ألين مساً والآخر أكثر جمالًا في العين.

آجلا، وفي دعاء كميل نقرأ تعبيرا عـن هذه الحقيقة عند قول الإمام علي عليه السلام: «وَلا يُمْكِنُ الفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ»[1].

ومن فكرة الجزاء نهتدي إلى أن الدنيا دار ابتلاء، وأنه لا بد من دار أخرى للجزاء، ذلك أننا نجد البعض يموتون دون أن يلقوا جزاءهم في هذه الحياة، أو يلقونه بأقل مما يستحقون.. فهل هذا -على سبيل المثال- كان جزاء شمر الذي أدخل الحزن على قلوب الملايين عبر التاريخ بقتل سيد شباب أهل الجنة أن يُقتل قصاصا وحسب؟! كلا.. إن لهم جزاءً أكبر من ذلك في دار أخرى يلقى فيها الجميع جزاءهم الواقعي.

إن منهج طرح القرآن للموضوعات المختلفة منهج حكيم للغاية، فهو من جهة يحدثنا عن جزاء المجتمعات السابقة، ومن جهة يحدثنا عن هدفية الخلق، ثم يذكرنا بيوم القيامة، وهذه الموضوعات الثلاثة حينما تتفاعل عبر النظرة الواحدة للحياة تنسجم مع بعضها، وتصير صورة واحدة متكاملة، فربنا عاقب الأمم الغابرة مما يهدينا إلى أنه خلق الخلق لغاية لو زاغوا عنها عوقبوا بشدة، ومن ثم يهدينا إلى أنه سوف يجازي الأفراد في الآخرة الجزاء الأوفى.

ولكن لماذا لا يضرب لنا القرآن أمثالا من حياة الأفراد، كفرعون الذي أغرق في النهر، أو قارون الذي خسف به وبداره الأرض، أو إذا تكلم عنهم بمفردهم كان الحديث إشارة وحسب؟

والجواب: إن النظر إلى جزاء أمة سيكون أجدى من النظر إلى جزاء فرد واحد، لأن جزاء الأفراد قد يفسر بالصدفة، ولكن جزاء الأمم وبتلك الصور المتميزة دليل على حكمة الباري، وأنه المدبِّر للخليقة.

بينات من الآيات:

[٣٠-٣١] بنو إسرائيل مثل حي لجزاء الأمم على أفعالهم خيرا أو شرا، والقرآن ذكر هذا المثل لأن حياة بني إسرائيل تشبه إلى حد بعيد مسيرة الأمة الإسلامية من حيث إنهم كانوا أمة مؤمنة بنوا حضارة رسالية ثم انحرفوا كما هو حال المسلمين، وإذا فضلهم الله على علم على العالمين فإن هذه النعمة ليست من قبيل الرزق الذي يهبه الله بلا سعي، وإنما هي من قبيل الكسب، وبنو إسرائيل بلغوا هذه الدرجة السامية بعملهم لا بعنصرهم، وهذا بدوره يؤكد عقلانية العالم، والحكمة الإلهية التي يقوم عليها، ومن ثم يؤكد وجود الجزاء في الآخرة.

---

(١) البلد الأمين: ص١٨٨، من دعاء كميل.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وأيُّ إهانة أعظم من أن يسلب الإنسان حريته، ويصير عبدا للطغاة، يسحقونه لتعلو مكانتهم، ويسلبونه لكي يبذروا ويسرفوا؟!

إن فرعون هو الآخر لقي جزاءه العادل في الدنيا لضلاله وانحرافه، فهو من جهة كانت علاقته مع الناس العلو والاستكبار، وكانت علاقته مع الطبيعة علاقة التبذير والإسراف.

وكلمة ﴿عَالِيًا﴾ لا تدلُّ هنا على العلو في الإسراف، وإنما العلو على الناس، وربُّنا عزَّ وَجَلَّ يبيِّن ذلك في آية أخرى حين يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، أي الذين لا تكون علاقتهم مع الآخرين الاستكبار والتعالي، ولا مع الطبيعة الفساد، وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا.

[٣٢] أما النعم الإلهية الأخرى على بني إسرائيل بعد النجاة من حكم الطاغوت، فهي تفضيلهم على سائر الأمم، واختيار الله لهم حملة لرسالته، لا لشيء فيهم سوى أنهم تجاوزوا الفتنة الكبرى في الحياة، وأثبتوا جدارتهم -بالسعي- لهذه المنزلة.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بجدارتهم، وتميزهم بإيمانهم وصالح أعمالهم.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذن فعلينا وعلى الأمم التي تنشد التقدم أن لا تسعى للاستعلاء في الدنيا، فلكي نحقق هذه الغاية علينا أن نوفر عوامل الحضارة في أنفسنا، كالتزكية، والتعاون، والتعود على الخشونة، والمثابرة في العمل، والصبر، والاستقامة على الحق، وعندها سوف يوفقنا الله، ويفضلنا على غيرنا، وسنتقدم، ومعنى العالمين -حسب المفسرين- الناس المعاصرين لهم، إذ إن الله فضل المسلمين على غيرهم حين امتثلوا أحكام الله فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

[٣٣] وتفضيل الله لأمة من الناس على غيرهم لا يعني أنهم يبقون الأفضل للأبد، أو أنهم يبعدون عن دائرة الامتحان والابتلاء، كلا.. فربنا أعطى بني إسرائيل آيات القدرة والعلم والفضيلة، ورزقهم النصر على عدوهم، وتواتر عليهم أنبياؤه ورسله، ولكن هذه النعمة كانت تحمل في طياتها ألوانا من الامتحان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ الابتلاء سنة ثابتة في الحياة لا يغيرها شيء، بلى، قد ينتقل الإنسان الفرد أو المجتمع من حال العسر إلى حال اليسر، ولكنه يبقى معرضا للامتحان في الحالين سواء، فإذا كان القهر والعذاب الذي حل ببني إسرائيل بلاء بالسيئة، فإن الإغراءات التي تنطوي عليها سائر النعم التي أعطيت لهم بعد النصر كانت بلاء بالحسنة، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وهذا النوع من الابتلاء قد يكون أعظم خطورة على الإنسان من الأول، وقد رأينا في تاريخ البشرية كيف أن الكثير من الناس يصمدون أمام الإرهاب والتعذيب، ويتحدون الطاغوت بصلابة واستقامة، ولكنهم ينهارون أمام الإغراء، ولذلك يجب على الإنسان أن يحذر النعم كحذره من النقم وأشد من ذلك، ولن يفلح في حياته إلا إذا جعل حقيقة البلاء أمامه في كل حال، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ واحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ»[1]، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ لِيَرَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ»[2].

[٣٤-٣٥] وبعد هذه الأفكار التمهيدية ينتهي السياق إلى البصيرة الأم في الدرس ليؤكد العدالة والجزاء، ويستنكر مزاعم الكفار والمشركين بأن الدنيا هي آخر المطاف.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ لأنهم لا يدرسون التاريخ، ولا ينظرون إلى الحياة نظرة موضوعية، وإلا لاهتدوا إلى حكمتها، وأنها قائمة على أساس العدل، مما يؤكد وجود الدار الآخرة، والموتة الأولى هي الوفاة التي زعموا أنها النهاية فلا نشأة بعدها ولا حياة، كما قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩].

[٣٦] وإذ أنكروا البعث والنشور حاولوا تبرير هذا الاعتقاد بطلب، قالوا: ﴿ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ولو أن الله يحيي آباءهم ما كان ذلك يجعلهم يؤمنون، لأنهم يتشبثون بهذه الفكرة تبريرا لكفرهم، ولو بطلت نظريا أو عمليا لبحثوا لهم عن تبرير آخر للإصرار على الضلالة.

[٣٧] لذلك فإن القرآن لا يجاريهم، وهل يغيّر ربنا سنته في الكون للإجابة عن تساؤل تافه للمشركين؟ كلا.. وإنما يوجه أنظارهم إلى الآيات الكفيلة بهداية من يريد إلى الإيمان بالبعث، وذلك بإثارتهم نحو التفكير في سنة الجزاء الحاكمة في الكون من خلال دراسة شواهدها في التاريخ، فهؤلاء قوم تبع ومن يسبقهم من الأقوام لقوا جزاءهم حينما اختاروا سبيل الضلال والجريمة ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ وتُبّع أحد ملوك اليمن الصالحين، اقتفى آثار أحد الأولياء، وتبعه في مسيرته، وفي الأخبار نهي عن لعنه، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَا تَسُبُّوا تُبَّعاً فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ»[3]. وإنما الذين أجرموا قومه فأخذهم

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٥١.

(٢) نهج البلاغة: حكمة: ٣٥٨.

(٣) بحار الأنوار: ج١٤ ص٥١٣.

الله بالعذاب، وحيث يندرج هذا الجزاء في سنة إلهية كونية فإن العذاب قد ينال كل بشر إذا انتحل الإجرام.

[٣٨-٣٩] وسنّةُ الجزاء ليست أمرا شاذا عن طبيعة الحياة، إنما هي نابعة من صميم الخلق، ذلك أن الله خلق السماوات والأرض لغاية سامية، الأمر الذي يقتضي الجزاء ويحتمه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ إنما خلق الله كل شيء لهدف محدد، مهما كان ذلك الشيء صغيرا وتافها في نظر الإنسان، وقد تقرَّر في علم الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) أن كل شيء في الإنسان يؤدي دورا معينا، ولا يكون الإنسان كاملا إلا به، حتى الشعرة الواحدة، بل حتى جزيء الخلية المتناهية في الصغر، فهل يعقل إذن أن يكون ربنا قد خلق الإنسان بأكمله عبثا؟! كلا.. إن له هدفا في الحياة، وهو مسؤول عن كل شيء أمام ربه، ولكن هذه الحقيقة الواضحة تبقى غامضة لدى الجاهلين والضالين.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وسيلة وغاية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعدم علمهم ليس لأنهم لا يرون الآيات المادية إلى هذه الحقيقة، وإنما لأن هذه الآيات لا تتحول في ضمائرهم وأذهانهم إلى بصيرة، ذلك أن نظرتهم إلى الحياة نظرة قشرية مجردة، وإنما الذين ينظرون إليها ببصيرة الإيمان يهتدون إلى لبابها الحق.

[٤٠-٤٢] وحيث ميز الله الإنسان عن سائر خلقه بالعقل، وكرمه بالحرية، فهو مسؤول أمامه عن العمل وفق الغاية التي خلق من أجلها، فإن تحمل مسؤوليته نَعَّمَهُ في الجنة، وإن نكص عنها عَذَّبَهُ في النار.

ومع أنه تعالى جعل سنَّة الجزاء جارية في الحياة الدنيا، إلا أنها أكثر تجليا في الآخرة، حيث تنصب الموازين، ويفصل بين الصالحين والأشرار.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا اليوم ضرورة حتمية تقتضيها عدالة الله، وإذ يُسَمِّيه ربنا ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ فلأنه اليوم الذي يحكم فيه الحق بعيدا عن التبريرات أو التأجيل، فهو يوم حاسم في حياة كل إنسان، ويُعَدُّ فيصلا يتقرَّر فيه مصيره الأبدي.

وإذا أعطى ربنا الحرية الكاملة للإنسان في اختيار الحق دون أن تستطيع أية قدرة سواه تعالى إكراهه باتجاه معاكس لما يريد، كان من أبرز معاني الفصل أن يتحمل المسؤولية شخصيا حتى يكون يومئذ مفصولا عن سائر الناس.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بلى، قد يضغط من حول الإنسان

عليه باتجاه معين، ولكن الموقف الحاسم يبقى رهن إرادته وحده، ولكي يتجنب التأثر بالضغوط السلبية صوب الباطل يجب عليه أن يلقي نظرة إلى الآخرة، حيث يخذله الجميع وينفصلون عن نصرته، بل لا يجدون إلى ذلك سبيلا، ويقف هو وحده بحمله.

ثم إن السياق القرآني ينعطف بعد هذا التخويف ليثير فينا الأمل والرجاء، حينما يذكرنا برحمة الله إلى جانب عزّته، فبعزّته جعل سنة الجزاء، وبرحمته جعل الشفاعة والمغفرة لهذا الإنسان الضعيف، فقد استثنى من بين سائر الناس الذين تتقطع بهم الوشائج، ويرتهنون بأعمالهم السيئة، أولئك الذين تشملهم رحمته عزّ وجلّ فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ فهداه إلى الإيمان، ووفقه للعمل الصالح في الدنيا، وغفر له ذنوبه، وشفع فيه أولياءه في الآخرة، فإنه تغنى عنه شفاعة الصالحين، وينصره الله على العقبات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال الشّحام: قال لي أبو عبد الله عليه السلام ونحن في الطريق في ليلة الجمعة: «اقْرَأْ فَإِنَّهَا لَيْلَةُ الجُمُعَةِ قُرْآناً فَقَرَأْتُ: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ فَقَالَ أَبو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: نَحْنُ واللهِ الَّذِي رَحِمَ اللهُ وَنَحْنُ واللهِ الَّذِي اسْتَثْنَى اللهُ لكِنَّا نُغْنِي عَنْهُمْ»[1].

[٤٣-٤٦] وكنتيجة لحكم الله في يوم الفصل يحدثنا القرآن عن صورتين متناقضتين، وهما صورة أصحاب النار الذين يعانون ألوان العذاب، وصورة أهل الجنة الذين يتقلبون في نعيمها.

أما عن النار فإن من أشدّ أنواع العذاب فيها شجرة تنبت في أصلها، ويمتد منها غصن لكل شخص فيها، اسمها الزقوم، وهي تجسيد لذنوب أهلها وآثامهم.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ وحيث يشعر أهل الجحيم بشدة الجوع يبحثون عن الأكل، فيجدونه في هذه الشجرة، ولا يجدون بُدّاً من التقامه، وبمجرد أن يصل إلى جوفهم يصير كالرصاص والنحاس المذاب تنشوي منه وجوههم حتى تسقط أشفار عيونهم، وتتقطع منه أمعاؤهم حتى يتقيّحون دما، وربنا يشبّه لنا الزقوم بالمهل لتقريب المعنى إلى أذهاننا المحدودة، وإلا فهي أشد وأعظم من ذلك ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ والحميم هو الماء الحار جدا، وحيث يصل المعدن كالرصاص أو النحاس إلى حد من الغليان يصير فيه كالماء فإن حرارته لا تطاق.

[٤٧] ولون آخر من العذاب يتجرعه المجرمون حينما يأمر الله زبانية النار بسحبهم إلى

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٦ ص١١١.

وسطها وإهانتهم ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ والإعتال هو السحب بغلظة وإيذاء، وإن كان المعني من ظاهر الآية أبو جهل إذ جاءت الصيغة بالمفرد، إلا أنها تشمل كل مجرم، وصيغة المفرد بيان للخذلان الذي يلقاه أهل النار من أقرانهم وسادتهم في الدنيا حيث لا ناصر ولا معين لهم فيها.

[٤٨-٤٩] وبعد سحب كل واحد منهم إلى سواء الجحيم، يأمر الله ملائكة العذاب بإهانته ماديا، بصبِّ العذاب على رأسه، وهو أكرم موضع لدى الإنسان، ومعنويا بالكلمات الجارحة، وهذا جزاء الاستكبار في الدنيا على الحق والمؤمنين ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ وحيث الدلالة في ﴿مِنْ﴾ تنصرف للتبعيض، تدل الآية على أن العذاب لا يُصبُّ مرة واحدة، وإنما مرات ومرات بلا انقطاع، مبالغة في الإيذاء، وهل ينتهي الأمر إلى هذا الحد وحسب؟ كلا.. إنما يهان بالكلام أيضا فيقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾

وروي في جوامع الجامع أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ ولاَ أَكْرَمَ مِنِّي»[1]. وفي تفسير علي بن إبراهيم قال: «إِنَّ ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى أَبِي جَهْلٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَقُولُ: أَنَا العَزِيزُ الكَرِيمُ فَيُعَيَّرُ بِذَلِكَ فِي النَّارِ»[2].

والمعروف عند المفسرين: «إن ذلك إهانة واستهزاء إلى جانب العذاب المادي، وهو نظير لإكرام الله المؤمنين في الجنة بالسلام عليهم إضافة لنعيمها»، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وهذا تفسير صواب، ولكن يبدو لي تفسير آخر للآية وهو: أن الله لم يخلق الإنسان ليلاقي هذا المصير السيئ، وإنما خلقه ليرحمه فيعيش كريما معززا، ولكنه اختار هذا المصير، واشتراه بعمله السيئ، إذ لم يستطع الاستقامة على الفطرة والصبر على الحق، والآية جاءت تذكيرا لهذه الحقيقة.

[٥٠] أما عن السبب الذي يوصل الإنسان إلى الذلّ بعد العزّة، وإلى الهوان بعد الكرامة، فهو شكه في الجزاء، لأن الشك فيه يجعله يعيش بعيدا عن المسؤولية والرقابة تجاه سلوكه وأعماله ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون والشك أعدى أعداء الإيمان، لأنه ينتهي إلى الكفر والجحود، ويعطّل طاقات الإنسان وقدراته أن يوجهها في صناعة المستقبل الأبدي، فهو إنما يلتزم بالحق، ويضحّي من أجله بكل شيء، عند إيمانه بأن هذه التضحيات سوف ترد عليه في

(١) تفسير جوامع الجامع للشيخ الطبرسي: ج٣ ص٣٢٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٨ ص٣١٣.

الآخرة في صورة الثواب، فكيف يضحّي إذا شك في الجزاء؟.

وقد حذَّر الإمام علي عليه السلام من خطر الشك فقال «لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا وَيَقِينَكُمْ شَكّاً إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا»[1]، ومشكلة أكثر الناس أنهم يعلمون الحق ويؤمنون به، ولكنه لا يتحول في حياتهم إلى منهاج عمل، لجبْنِهم وفرارهم من تحمل المسؤولية، فإذا بهم يشككون أنفسهم.

إن على الإنسان أن لا يشك بأن هواجس الشيطان تحيط به من كل جانب، بل ويستعد لمواجهتها، بخوف العاقبة السوء، وعزيمة الإيمان.

[٥١-٥٣] وفي مقابل هذه الصورة يبيّن لنا القرآن الحكيم نعيم المتقين وكرامتهم عند الله، وتختلف نعم الآخرة عن الأخرى الدنيوية. إنها خاصة بالمتقين، وهم الذين يحفظون أنفسهم عن المحرمات، ويؤلمون أنفسهم بترك الهوى، وبالصبر على المصائب وألوان الأذى في الله، وأخيرا بالاستقامة على الحق حتى الموت، ذلك أن طريق الجنة محفوف بالصعاب والمكاره، يقول الإمام علي عليه السلام وهو يوبّخ الذين يريدون الجنة بلا ثمن: «أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ هَيْهَاتَ لَا يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»[2].

نعم، إن الإنسان لا يستطيع بلوغ طموحاته اليومية، بالتمنيات والأحلام، فكيف يبلغ بها الجنة وهي أسمى الطموحات، وأعلى الأهداف؟! ثم إن الإنسان يحقق طموحاته في الدنيا بالسعي، بينما لا يكفي السعي وحده لدخول الجنة، إنما لا بد من العمل الصالح الذي يخلص صاحبه فيه نيته، إذ لا يتقبل الله إلا من المتقين، والكثير من الناس يصلون ويصومون ويحجون وينفقون ولكن عبثا، ولا يبلغون بذلك جنات الخلد، لأنها ليست خالصة لله، وكيف ترفع الصلاة المحاطة بالشرك والسهو؟! وكيف يتقبل الصيام رياء وسمعة؟! وكيف يكون سعي الحاج مشكورا وحجه مبرورا وهو يخضع للطاغوت؟! ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. وفي الأخبار أن العبادة أو الشعيرة التي يمارسها صاحبها لغير وجه الله تصير يوم القيامة حجرا تصك بها جبهته.

ونتساءل: من هو المتقي إذن؟

إن المتقي هو الذي يتحول فعل الخير في حياته إلى سلوك مستمر، أما الذي يفعل الخير إذا حقق مصالحه وأهواءه، وأما إذا مُحّص بالبلاء تركه، فإنه ليس بمتق.. وربنا وعد المتقين وحدهم

(١) بحار الأنوار: ج٢ ص٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٤ ص٨٩.

بالمقام الأمين عندما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ والأمن والسلام من أهم الحاجات النفسية للبشر، ولا يبلغ غاية الاطمئنان في الدنيا والآخرة إلا المتقون، ذلك أنه لا يحصل إلا بذكر الله عزَّ وجلَّ، وباتباع منهاجه في الحياة، فقد أسس الله الكون على الحق والعدالة، ومن يتبع المنهج الرباني وحده يستطيع العيش مطمئنا وفي مقام أمين من المكاره.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ تلك الأجسام النضرة الناعمة تميس في الجنان الخضرة بين العيون الرقراقة، وعليها ثياب الزينة من سندس (حرير ناعم لطيف) ومن إستبرق (حرير ضخم يتلألأ) وتراهم يتقابلون في مجالس الأنس لا يشوب صفاء قلوبهم حقد أو حسد أو غل أو كبر، فهم إخوان متحابون كما كانوا في الدنيا ترفرف على رؤوسهم رحمات الله وبركاته، ونعم أجر العاملين.

[٥٤] ويستمر القرآن في بيان جزاء المتقين فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وكذلك تكتمل نعم الجنة بالزواج من نساء جميلات يتجلى جمالهن في العيون الواسعة الحوراء، ولعل صيغة الماضي في الزواج تدل على أن الله زوج الحور العين لأوليائه بعلمه في الدنيا، بما قاموا به من عمل، بلى، لكل زواج مهر، ومهر زيجات الجنة الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا.

[٥٥] ومن نعيم الجنة أن يجد أهلها ما يطلبون دون أدنى تعب ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ بعكس الدنيا تماما حيث لابد للإنسان فيها من السعي لكي يصل إلى رغباته، والتنازل عن شيء للظفر بشيء آخر، وصدق أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ**»[1].

أما في الجنة فالمتقون آمنون من كل هذه العيوب والنواقص.

[٥٦] ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي ذاقوها في الدنيا، وهذه الآية إشارة لنعمة الخلود، وهي من أعظم النعم والغايات التي يتمناها البشر، والى جانب هذه المنة يذكرنا ربنا بنعمة عظيمة أخرى، وهي الوقاية من النار، التي يعدها القرآن في موضع آخر فوزا عظيما، حيث يقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٤٥.

﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ تلتقي كلمة ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مع تعبير ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ في نقطة مهمة، وهي أن التقوى التي كانت تحجز هؤلاء عن ارتكاب المعصية في الحياة الدنيا، هي التي تكون واقية لهم من العذاب في الآخرة.

[٥٧] ومع ذلك يؤكد ربنا بأن هذا الجزاء ليس نتيجة التزام الإنسان بتعاليم رسالة الله، لأن ذلك واجب طبيعي عليه فطرة وعقلا، فهو خالقه ورازقه ومالكه الذي يهب له الحياة لحظة بلحظة، ويأتي هذا التأكيد والتذكير ليعين المتقين على مواجهة الغرور والعجب.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وبدون هذا الفضل الإلهي لا يفوز بشر أبدا، ولا ينجو من العذاب، وفي الحديث القدسي قال عزَّ من قائل: «فَلَا يَتَّكِلِ الْعَامِلُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لِثَوَابِي فَإِنَّهُمْ لَوِ اجْتَهَدُوا وَأَتْعَبُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي عِبَادَتِي كَانُوا مُقَصِّرِينَ غَيْرَ بَالِغِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ كُنْهَ عِبَادَتِي فِيمَا يَطْلُبُونَ عِنْدِي مِنْ كَرَامَتِي وَالنَّعِيمِ فِي جَنَّاتِي وَرَفِيعِ دَرَجَاتِيَ الْعُلَى فِي جِوَارِي وَلَكِنْ فَبِرَحْمَتِي فَلْيَثِقُوا وَبِفَضْلِي فَلْيَفْرَحُوا وَإِلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِي فَلْيَطْمَئِنُّوا فَإِنَّ رَحْمَتِي عِنْدَ ذَلِكَ تَدَارَكُهُمْ وَمَنِّي يُبَلِّغُهُمْ رِضْوَانِي وَمَغْفِرَتِي تُلْبِسُهُمْ عَفْوِي فَإِنِّي أَنَا اللهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَبِذَلِكَ تَسَمَّيْتُ»[1]، وحتى الأنبياء والأولياء إنما يدخلون الجنة بفضل الله، وحتى أعمالهم الصالحة، إنما هي فضل من الله عليهم. أوَلَم يقل ربنا مخاطبا سيد البشر محمد ﷺ: ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٧].

[٥٨] وقبل أن يختم ربنا سورة الدخان يصف كتابه الكريم، وهو المنهاج الذي يبلغ بالإنسان درجة التقوى ثم الجنة، وبالتالي هو فضل الله الذي ينجي به من النار إذا ما استذكر به واتبع آياته الميسرة ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هكذا يلخّص ربنا هدف كتابه في التذكرة، لأنه بما فيه من مواعظ ومعارف إنما جاء ليذكر الإنسان بعهده مع ربه. أوَلَيس أعدى أعداء البشر في الحياة الغفلة؟ بلى، وما وظيفة الأنبياء والرسل عليهم السلام سوى تبليغ هذه التذكرة وبيانها للناس.. ولو لا أن الله سبحانه قد يسّر القرآن لم يكن البشر يعقلون حرفا منه، كيف وهو يذكرنا بالغيب المحجوب علمه عنا، بتلك السنن الثابتة لحقائق الخلق، بصفات الرب، بأشراط الساعة، بما في الحياة الآخرة التي قد تبعد عنا ملايين السنين، وفي الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْلَا تَيْسِيرُهُ لَمَا قَدِرَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِحَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ وَهُوَ كَلَامُ مَنْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ»[2].

(١) الكافي: ج٢ ص٦٠.

(٢) تفسير روح البيان، للبروسوي: ج٨ ص٤٣٣.

وقد نستوحي من هذه الآية بصيرتين:

١- أن الله جعل القرآن عربيا بلغة الرسول وقومه تيسيرا لفهمه، وبالتالي التذكر به. أورأيت لو كان القرآن بلغة أخرى هل كان يفهمه العرب بيسر وسهولة؟ ثم هل كانوا يتعظون به؟ كلا.. ومن هنا فإن المنهاج الأفضل لتيسير فهم القرآن للمسلمين غير العرب ليس ترجمته، وإنما تعليمهم لغة القرآن نفسه.

٢- أن للرسول دورا مهماً في بيان القرآن، وتقريب الأذهان إلى معانيه التي لا تتيسَّر إلا بكلامه ﷺ، ومن هنا فإن أي منهج يبتعد عن السنة الشريفة (أحاديث الرسول وأئمة الهدى) في فهمه وتدبره لمعاني الوحي سوف ينتهي إلى تفسيرات وتأويلات خاطئاً أو قاصرة. أولم يضل الكثير ممن حاولوا فهم القرآن من خلال الفلسفات البشرية في متاهات خطيرة.

[٥٩] وكالكثير من السور يختتم الباري عزَّ وجلَّ هذه السورة، بإنذار مبطن لأولئك الذين لا يستجيبون لدعوته، ولا يتذكرون بآياته، بأن تأخير الجزاء ينسجم وطبيعة الحياة الدنيا حيث إنها دار امتحان وبلاء، فهو لا يعني بأن الله يهملهم، بل العذاب آت ولا بد من ارتقابه ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ارتقب نصر الله، وليرتقبوا خذلانه، ارتقب بعملك الصالح جزاء الله الحسن، وليرتقبوا بسيئاتهم الانتقام، بل، إن الزمن في مصلحة الحق وأهله، ولا يمر رَدَح منه إلا ويقرب أهل الباطل من العذاب.

سُورَةُ الجَاثِيَة

* مكية.
* عدد آياتها: ٣٧
* ترتيبها النزولي: ٦٥
* ترتيبها في المصحف: ٤٥
* نزلت بعد سورة الدخان.

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الجَاثِيَةِ كَانَ ثَوَابُهَا أَنْ لَا يَرَى النَّارَ أَبَداً وَلَا يَسْمَعَ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَلَا شَهِيقَهَا وَهُوَ مَعَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله».

(بحار الأنوار: ج٨٩ ص٣١٠)

الإطار العام

منهج التكامل الإيماني

طف بفكرك آفاق السماوات، وأقطار الأرض... ماذا ترى؟، ألا ترى آيات الله تتجلى في كل شيء؟، إذن لماذا يكفر هؤلاء الناس؟ تجيب سورة الجاثية -التي نستلهم من إطارها أنها تعالج حالة الإفك عند البشر- تجيب عن ذلك ببساطة: إن الآيات ليست لكل الناس، إنما هي للمؤمنين، ولقوم يوقنون، ولقوم يعقلون (الآيات: ١-٥).

وإذا كفروا بهذه الآيات؛ فبماذا عساهم يؤمنون؟ إنهم لا يؤمنون بشيء فويل لهم، ولكل أفاك أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصر مستكبراً (الآيات:٦-٨).

وقد تنفذ آية في أفئدتهم ولكنهم لا يتفاعلون معها بسبب ما في نفوسهم من الاستكبار، وهناك يتخذونها هزواً؛ إيغالاً في الجحود.

كيف نعالج هؤلاء؟ لا بشيء يمكن شفاؤهم، بل بشِّرهم بعذاب أليم ومهين (الآية:٩)، في جهنم التي تأتيهم من ورائهم، فلا يستطيعون لها رداً (الآية:١٠).

ثم يذكرنا السياق بتلك الآيات التي تهمنا مباشرة، فهذا البحر كيف سخَّره الله مطية للسفن، ومخزناً للطعام والزينة، وآية تبعث نحو شكره.. كما سخَّر لنا ما في السماوات والأرض، كل ذلك نعمة وفضل منه علينا، لعلنا نبلغ هدفاً سامياً هو التفكر (الآيات:١١-١٣).

ولكن كيف نفكر تفكيراً سليماً؟

الجواب: لابد أن نتجنب التأثر بالبيئة الضالة، ولا نأبه بهؤلاء الذين يكفرون، لأنهم لا يرجون أيام الله، فلهم أعمالهم التي سيجزون بها، ولن تصلكم سيئاتهم، كما لن تصلهم صالحاتكم (الآيات:١٤-١٥).

والبعض ينتظر شيئاً مجهولاً حتى يهتدي ولكن عبثاً. إذا لم تكن أنت الذي تبتغي الهدى فلن تنتفع بكل وسائل الهداية، وإليك مثلاً من بني إسرائيل؛ لقد آتى ربنا بني إسرائيل الكتاب، والحكم، والنبوة -من وسائل الهداية-، ورزقهم من الطيبات -من النعم المادية- وفَضَّلهم على العالمين، ولكنهم إذ اتبعوا شهواتهم غرقوا في الخلافات، وضلوا عن الطريق بغياً بينهم (الآيات:١٦-١٧).

وهذا الكتاب الكريم من عند الله، الذي أنزل ذلك الكتاب، فلا فرق بينهما، والذي لا يؤمن بعد نزول هذا الكتاب،وينتظر مثل التوراة لن يبلغ الفلاح أبداً.

وفي هذا الكتاب بصائر وهدى ورحمة، ولكن هل ينتفع به كل الناس؟، لا؛ بل الذين يريدون ذلك ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الآيات: ١٨-٢٠).

ومن التمنيات الباطلة؛ الوهم الذي يعيشه الكثير من الناس، حيث يزعمون أنهم والمؤمنون سواء.. كلا؛ ليس الذين اجترحوا السيئات، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أولا تعلمون أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، فكيف يجعلهما سواء، أليس ذلك باطلا؟ إنه يجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون (الآيات: ٢١-٢٢).

ويبقى سؤال: لماذا ينتهي البعض إلى هذا المصير الأسوأ؟ لأنهم يتخذون آلهتهم أهواءهم، فتراهم لا يتبعون الهوى فقط، بل يطيعونها إلى حد التقديس.

وحين يُضِّل الله الذين يؤلهون أهواءهم يسلبهم مصادر العلم من العقل والأحاسيس، وآنئذٍ لا أحد قادر على هدايتهم.(الآية: ٢٣).

ويتخبطون في ظنونهم خبط عشواء، فإذا بهم يقولون: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، ويتحدَّون النذر إذا قالوا لهم: احذروا الآخرة، ويحتجُّون -إذا تليت عليهم آيات الله- أن ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين. وهكذا يحجبون أنفسهم عن الحقيقة ببعض الشروط التعجيزية، وسواء آمنوا أم لم يؤمنوا، فإن الجزاء واقع.. الله يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لاريب فيه. وهل يضرون ربهم لو كفروا ولله ملك السماوات والأرض؟ والمبطلون يخسرون يوم تقوم الساعة (الآيات: ٢٤-٢٦).

هنالك يتزيل الكفار عن المؤمنين، بل يتميَّز الكفار فيما بينهم -كما المؤمنون- إذ ترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون (الآيات: ٢٧-٢٨).

هنالك يتجلى الفرق بين الناس حسب أعمالهم. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات

فيدخلون الجنة، بينما يُحاكم الكفار ويُسألون: لماذا استكبرتم عن التسليم لآيات الله، وكنتم قوماً مجرمين، وزعمتم أنكم لستم على يقين من الساعة -بينما الساعة لا تحتمل الريب.. إنها حق - في ذلك اليوم تبدو سيئات أعمالهم، كما أن الحقائق التي استهزؤوا بها تحيق بهم، أما نسيانهم للحقائق - وهو واحد من الأفعال القلبية- فإنه يقابل بنسيان مثله، ويقال لهم: اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا (الآيات: ٢٩-٣٤).

وفي خاتمة السورة يعود السِّياق ويبيِّن أن جزاء اتخاذ آيات الله هزواً.. النار، وسببه الاغترار بالحياة الدنيا، ولله الحمد أولاً وأخيراً على رحمته وعدله، وله الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم (الآيات: ٣٥-٣٧).

ويل لكل أفاك أثيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ[1] مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ[2] ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ[3] أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ[4] أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(١) يبث: ينشر.

(٢) تصريف الرياح: صرفها هنا وهناك، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً.

(٣) أفاك: صيغة مبالغة بمعنى كثير الإفك، أي الكذب.

(٤) رجز: الرجز هو أشد العذاب.

هدى من الآيات:

نقرأ في أوَّل سورة الجاثية أن هناك آيات في الكون لقوم يؤمنون، ومن ثم يوقنون بها، وأخيرا بها يعقلون، وهذا التدرج في هذه الآيات يزيدنا معرفة بمنهج التكامل، ففي البدء يجب أن يؤمن الإنسان بالآيات ويسلّم لها، ومن ثم يتحول إلى حالة اليقين بعد أن يرى آياته سبحانه في الكون، ويرى الانسجام التام بين رسالة الله في الأرض وآياته في السماء والأرض، ومن بعد اليقين يتحول إلى مرحلة العقل.

ومن معاجز القرآن الكريم تشابه الآيات، وهذا يعني أن كل الآيات تسير في خطوط متقاربة، تنتهي إلى هدف واحد، فالتالي لآي الذكر الحكيم يتراءى له أن كل الآيات ذات بعد واحد، إذ إن الكلمات هي الكلمات، والأهداف هي ذاتها الأهداف، وحتى تركيب الكلمات والموضوعات العامة التي توحي إليها العبارات وتشير إليها واحدة، ولكن عند التدبر العميق يتبيَّن لنا أن وراء هذه الوحدة وهذا التشابه حقائق متنوعة، وليس معنى ذلك تناقضها، أو أنها ليست من سنن الله التي تنبع من قاعدة واحدة وتنتهي إلى هدف هو التوحيد.

وسُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لآية فيها تصوِّر لنا منظر الأمم في يوم القيامة وهم يجثون على ركبهم خشعا خضعا لله، كل أمة تدعى إلى كتابها، وآيات هذا الدرس وما بعدها تعمق فينا الإيمان بالله سبحانه وتعالى والإيمان بالبعث، وبالرغم من أن هذه الحقيقة واحدة في مختلف السور إلا إن كل آية من آيات القرآن الكريم في هذا الموضوع تثير في البشر إحساسا خاصا، وتضرب على أوتار معينة في قلبه، ومن ثم تعالج أمراضا محددة، ولذا يجب قراءة القرآن كله، وبالرغم من أن قراءة سورة واحدة أو مجموعة آيات تفيد الإنسان وتنفعه إلا أن قراءة كل القرآن ضروري، لأن نواقص البشر كثيرة ومتنوعة ولا علاج لها إلا في القرآن.

بينات من الآيات:

[١] ﴿حمٓ﴾ سبق أن قلنا إن الحروف المقطعة ربما تكون إشارة للقرآن ذاته أو أسرارا بين الله وأحبائه، وقال البعض: «إن ﴿حمٓ﴾ اسم للسورة، وإشارة إليها»[1].

[٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ العزيز الذي لا يغالب ولا يقهر، والحكيم الذي لا يخطأ. وبما أن الكتاب تنزيل من الله فلتخشع له الأفئدة، ولتتطأطأ أمامه الأفكار. أوَلَيس ربنا عزيزا فكتابه تجلٍّ لتلك العزة؟، وهل ينبغي للعاقل أن يغالب كتاب ربه، ولا يخشى غضبته

---

(١) كالرازي في تفسيره، ج٢٧، ص٢٦.

التي لا تحتملها السماوات والأرض؟!

وربنا حكيم، وكتابه آية حكمته، أفلا ينبغي أن نستوحي الحكمة منه؟

[٣] ﴿إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إن الآيات الكثيرة المبثوثة في الكون تجعل الإيمان عميقا في نفس البشر، والمهم أن تزيدنا الآيات إيمانا به سبحانه، إذ إن الله ضمَّن كل شيء حقيقة العبودية، فإذا ما نظرنا فيه وصلنا إلى تلك الحقيقة، فنؤمن بالله، وتخشع له قلوبنا.

ولكن يختص بمعرفة هذه الحقيقة المؤمنون الذين لا تمنع حجب الكبر والعناد قلوبهم عن معرفة ما تهدي إليه الكائنات من حقائق.

[٤] ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ ألا ترى كيف يذرأ الله الخلق من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات، وكيف يطورّه خلقا من بعد خلق، نطفة فعلقة ثم مضغة ثم عظاما فكسا العظام لحما ثم أنشأه خلقا آخر؟ ألا ترى كيف يخلقنا العليم القدير في بطون أمهاتنا خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وأجرى علينا الغذاء، وبعد أن ولدنا حننَّ علينا قلوب الآباء والأمهات؟ ألا ترى كيف خلقنا بتمام الخلقة، في أحسن تقويم؟

وليس خَلْقُنا فحسب، بل كل الأحياء، إذ إن الله كما البشر خلقهم بواسطة الانسلال، كذلك الشجر، فالبذرة تنبت الشجرة، وهذه الشجرة تحمل بذرا، ولو زرعت هذه البذرة لأنبتت شجرا.. وهكذا.

وحين خلق الله الإنسان زوَّده بمختلف الحاجات، وأودعه العقل ليسخِّر به الحياة، ويتغلَّب على بعض قوانينها.

﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فتجد في الأرض أحياء حسب طبيعة الأرض وحاجات تكامل الأحياء فيها.

إن طريقة بثِّ الله للدواب وانتشارها وتكاثرها، كل ذلك آيات لقوم يوقنون، واليقين درجة أعلى من الإيمان، ويبدو من الآية السابقة أنها تدعو إلى النظر في عموم الآيات وذلك يؤدي إلى الإيمان، بينما الآية هذه التي تدعو إلى اليقين تثير فينا التطلع إلى تفصيلات الحياة.

[٥] ﴿وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كذلك في اختلاف الليل والنهار آيات لمن يتبصر الأحداث والظواهر، ويعقل ما وراء هذا التدبير الحكيم لتتابع الليل والنهار، وكيف سخر الله الشمس وأقمارها لتخدم حياة البشر فوق هذا الكوكب، دون أن يستطيع أي واحد منها تغيير مساره قَدْر بوصة أو يتقدَّم ساعة عن مواقيته أو يتأخر ساعة.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تفيض أشعة الشمس بما تحمل من بواعث الحياة على الأرض الهامدة، وينهمر الغيث حاملا مواد أساسية من الفضاء المحيط، ويرسل الرب الرياح لواقح، فيرزق عباده بكل ذلك بقدر ما يشاء.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ إن الله يصَرِّف الرياح حيثما يريد، بعضها مبشرات بالرحمة، وبعضها بالعذاب، وينشر اللقاح أو يسقط الورق، أو يحمل الغيث أو البرد... وهكذا الرياح كما الغيث مسخَّرات بإذن الله، تجري بأمره حيث أصاب، كل ذلك ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالذين يستوعبون دروس الخليقة، ويحفظون المعلومات ليضيفوها إلى بعضها، ويتفكرون فيها جميعا ليعرفوا السنن التي تجريها والأنظمة التي تسيِّرها، هم أولئك الذين يصلون عن طريق الآيات الإلهية إلى الحقائق الكبرى.

ولعل هذا التدرُّج من الإيمان إلى اليقين إلى العقل يوحي بأن الإيمان هو تسليم النفس البشرية للحق، واليقين درء للشكوك والظنون، وترسيخ للسكينة في النفس، أما العقل فهو لوعي تفاصيل الحقيقة للمحافظة على اليقين والزيادة فيه.

وبتعبير آخر: يكون الإنسان ضالا، فإذا أطاع القلب الشيطان يصبح كافرا، وإذا خرج الملك حتى أتم الشيطان هيمنته على القلب فقد أمسى صاحبه جاحدا مطبوعا على قلبه بالكفر، أما إذا هزم القلب شيطانه، وأسلم لربه، فقد آمن، وإذا ازدادت هيمنة الملك على القلب حتى ثبته الله على الإيمان، وألزمه كلمة التقوى، وطرد الشيطان بما له من وساوس وشكوك، فقد أصبح موقنا، واليقين درجات فكلما ازداد المؤمن عقلا عن ربه وعلما بآياته سبحانه يزداد يقينا.

[٦] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الكون يدور كله حول الحق، والقرآن يؤكد هذه الحقيقة فكل آيات الله في الطبيعة تقودنا إليه ولكن إذا لم يؤمن الناس بالحق..

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار الله بعد عرض هذه الآيات ليس إنكارا لله فقط، بل هو أيضا إنكار للآيات نفسها، وهل في الكائنات شيء أشد ظهورا من تلك الحقيقة التي تشترك في الشهادة عليها والدلالة إليها كل الكائنات؟! وإذا أنكرناها فقد أنكرنا كل شيء. أوليس في كل شيء آية لله؟.

هكذا جاء في دعاء الإمام الحسين عليه السلام: «عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٩٥، ص٢٢٦، دعاء عرفة، الإمام الحسين عليه السلام.

[٧] وفي الآية التالية ينذر الله من لا يتبع هداه بالويل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

ويطرح السؤال التالي: ما هي علاقة هذه الآية بما تليها؟. يبدو أن هنالك علاقة واقعية ونفسية:

ألف: فالعلاقة الواقعية أن الذين لا يؤمنون بالله ولا يغمر قلوبهم نور المعرفة الإلهية سيأفكون عن الحق، ويقولون الكذب، بل إن كل عمل يعملونه وكل خطوة يخطونها وكل هاجس من هواجسهم يحملهم إلى الإفك والإثم، ومثلهم مثل الآلة الحاسبة التي تركب على أساس خاطأ فإن كل عملياتها خطأ، وكذا الآلة الطابعة التي تركب الحروف فيها على أساس خاطأ فكل كلمة تكتبها تخرج خاطأ، ذلك أن الإيمان بالله لا غيره هو الذي يحلُّ طلاسم الحياة وأسرارها، كيف وجد هذا الكون الهائل، وإلى أين يصل، وإلى أين ينتهي، وما حكمة خلقه، وما هي غاية وجودنا فيه؟

بلى، إن الإنسان الذي يسلب منه الإيمان لا يستطيع أن يعرف طبيعة الحياة، ولا يصمد أمام مشاكلها، ويمضي حياته في الكدح العابث.

بـاء: العلاقة النفسية وهي أن قلب الإنسان وعقله وفطرته قد خلق كل ذلك على أساس معرفة الله ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ولكن بسبب العمل الفاسد الذي يرين على القلب ينتكس الإنسان، وتتراكم عليه حجب الضلالة والعصبيات والعقد فلا يرى الحقائق.

ولذلك جاء في الدعاء المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِلَهِي قَلْبِي مَحْجُوبٌ وَنَفْسِي مَعْيُوبٌ وَعَقْلِي مَغْلُوبٌ وَهَوَائِي غَالِبٌ وَطَاعَتِي قَلِيلٌ وَمَعْصِيَتِي كَثِيرٌ وَلِسَانِي مُقِرٌّ وَمُعْتَرِفٌ بِالذُّنُوبِ فَكَيْفَ حِيلَتِي يَا سَتَّارَ الْعُيُوبِ وَيَا عَلَّامَ الْغُيُوبِ وَيَا كَاشِفَ الْكُرُوبِ اغْفِرْ ذُنُوبِي كُلَّهَا بِحُرْمَةِ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ يَا غَفَّارُ يَا غَفَّارُ يَا غَفَّارُ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**»(١).

فقلب الإنسان يحجب بالغفلة، وسبب كل ذلك تراكم الذنوب، لهذا يجأر المؤمن منها، ويدعو الله بغفران ذنوبه، حتى يعود القلب إلى فطرته النقية. ويزيل الله سبحانه الحجب عن القلب بطرق شتى، منها إثارة حب الذات عبر التخويف والترهيب، وبيان أن الابتعاد عن الحق لا ينفع الإنسان شيئا، بل هو الويل وعذاب الخزي لكل أفاك أثيم، والويل هو الهلاك، وهو واد في جهنم، ممتلئ قيحا، والويل في الآخرة تجسيد للويل في الدنيا، وقد أعدَّه الله المنتقم الجبار لكل أولئك الذين يأفكون الكذب باستمرار على الله عزَّ وجلَّ، ويجترحون السيئات.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩١، ص٢٤٢.

[٨] ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ يُصِرُّ على كفره استكبارا على الحق الذي يسمعه. إنه يسمع آيات الحق ولكنه يمر.. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ ونستلهم من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أن شدة وضوح آيات الله هي إلى درجة تكاد تكره الإنسان على الإيمان، ولكن المستكبر الذي عقد عزمات قلبه على الإفك العقيدي والإثم العملي يستعمل شتى السبل ليستكبر على الحق، وليقاوم آثار الهداية، كالذي يحجب عن نفسه عبق الأزهار في فصل الربيع، أو أشعة الشمس في ظهيرة يوم قائض، إنه بحاجة إلى مزيد من الجهد حتى يمكنه البقاء بعيدا عن تأثير أشعة الهدى في قلبه.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يتناسب والإصرار على الكفر وأتراح الإثم.

[٩] وبالرغم من أن الكافر يحجب نفسه عن آثار الهدى تدخل حريم قلبه، الذي يغلفه بسور من استكباره وإفكه وإثمه، فإن موجات من الهدى تخترق الحجب، وتستقر في فؤاده، ولكنه سرعان ما يتخذ منها موقف الاستهزاء والسخرية النابعة من احتقار الحق وأهله.. هنالك تتم حجة الله عليه إذ إنه استصغر الحق بعد علمه به.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وهذا الجزاء ينسجم والاستكبار أو الاستهزاء.

[١٠] ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أن جهنم تنتظرهم، وإذا زعموا أن بمقدورهم النجاة من جهنم بأموالهم أو أولادهم فقد زعموا باطلا ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ ولن تغني عنهم آلهتهم شيئا ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فليس في يوم القيامة لهذه الأصنام الحجرية أو البشرية قيمة حتى تنقذكم من النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والعذاب العظيم يتناسب وما عبدوا من دون الله، إذ إنهم اقترفوا جريمة عظيمة بالشرك فعاقبهم ربهم بعذاب عظيم.

[١١] ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ الهدى هو الطريق المستقيم الذي ينجيك من عذاب جهنم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ لماذا يكرّر ربنا عزَّ وجلَّ موضوع العذاب أربع مرات:

- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧].
- ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨].
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٩].
- ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

- ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾؟.

لعل السبب هو تراكم العقد النفسية على القلب، التي يُعَدُّ كل واحدة منها حجاباً سميكاً دون نفاذ نور الهدى، ولا بد من خرقها جميعاً بالإنذار الشديد بألوان العذاب ومراحله.

وفي هذه الآيات الكريمة تقابل بليغ بين أربع درجات للصالحين: الإيمان واليقين والعقل والإيمان بالآيات، بينها وبين أربع دركات للطالحين هي:

أولاً: الأفاك الأثيم الذي يسمع آيات الله فلا يؤمن بها (ربما استرسالاً مع شهواته) فإنه يبشر بعذاب اليم.

ثانياً: الذين يتخذون آيات الله هزواً ويسخرون منها توغلاً في الاستكبار فلهم عذاب مهين (جزاء تعاليهم واستكبارهم).

ثالثاً: الذين يتخذون من دون الله أولياء فلهم عذاب عظيم لعظم ذنبهم (أوليس الشرك ظلماً عظيماً).

رابعاً: الذين يكفرون بآيات الله فلهم عذاب من رجز أليم (ولعل كل آية يكفرون بها تكون عليهم رجزاً أليماً).

[١٢] وبعد أن يمطر الله الذين يكذبون بآياته بالإنذار تلو الإنذار، لعل قلوبهم تخشع للحق، يذكرهم بآياته في الآفاق، وبنعمه التي أسبغها عليهم، وإن التفكر في ذلك يهدينا إلى حسن التدبير، وبديع الصنع، ثم إلى أن خالق هذا الخلق ومنظم أمره عليم حكيم، وأنه لم يبدأه عبثا، ولا يتركه سدى، وهنالك نبلغ حقيقة الجزاء التي تحاول النفس البشرية الهرب منها خشية منها، وإشفاقا من ثقلها.

وهكذا ينتقل المؤمنون من التفكر في خلق الله إلى خشية عقابه، كما قال ربنا سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٢].

هكذا نرى كيف أن التفكر في الخلق أوصلهم إلى خشية النار، وهنا بعد أن ينذر الله الكفار المستكبرين بالنار يعرج بنا إلى آياته فيقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ البحر على

عظمته مسخر للإنسان، أفلا يدلنا على النظم والتدبير؟

ولقد ذكر نا السياق بفوائد ثلاث لتسخير البحر:

أولاً: الملاحة التي تنقل الناس والبضائع إلى الآفاق ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

ثانياً: صيد الأسماك واستخراج الثروات الأخرى ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

ثالثاً: الاهتداء من واقع تسخير البحر إلى رحمة الله بالإنسان وكرامته له فينبعث لربه شكرا وخضوعا.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فالهدف من النعم تكامل روح الإنسان، وتسامي نفسه.

[١٣] ثم انظر إلى ما في السماوات من آيات القدرة، ومعالم الحكمة، وكيف أن قانون الجاذبية ونظام الأفلاك ومجاري الشمس وأقمارها والنجوم وما حولنا يخدم حياة الإنسان فوق الأرض. أفلا يهدينا ذلك إلى أن لوجود البشر هدفا لا بد أن نتعرف إليه ثم نسعى لتحقيقه؟

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وكذلك ما في الأرض من أوكسجين الهواء، إلى أملاح الأرض، ذلك ما فيها من معادن مختلفة تنفع الناس، وإلى ما فيها من أحياء، كلها تخدم حياة الإنسان وسعادته. مَنِ الذي سخَّر كل ذلك للبشر، أوَلَيس الله؟ أفلا نعبده؟!

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والتفكر هو إثارة العقل، لكي يربط المعلومات ببعضها، ويرتقي من خلالها إلى الحقائق الكبرى، وبالرغم من أن ما في الحياة كلها آيات تشير إلى تلك الحقائق إلا أن مَنْ لا يستثير عقله لا يستفيد منها شيئا.

[١٤] ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ على المؤمن أن يَعُدَّ نفسه أعلى من الذين لا يؤمنون، لأنهم كالأعمى والأصم، فإذا قاموا بعمل سيء فعليه أن يغفر لهم، ومن المعلوم أن ذلك لا يعني ترك المسؤولية تجاههم، بل ينبغي ألا يسارعوا في محاربتهم، بل يدعوا ذلك للإمام عليه السلام أو القيادة الشرعية لكي يرى الظرف المناسب للمواجهة، ويومئذ يجزي الله الذين كفروا بما كانوا يكسبون، ومادام المجرم لا يفوت ربه فلماذا البدار إلى أخذه، إذ قد تكون المبادرة سببا لفشل خطط كثيرة.

وهذا التفسير يتناسب وما ذكره المفسرون من سبب نزول الآية، من محاولة البعض من أصحاب الرسول أخذ المخالفين بالشدة، مما كان يسبب حرجا للرسول، وعلى ذلك يمكن تفسير قوله سبحانه ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ بأنها أيام نصرة للمؤمنين، حسب ما احتمله البعض.

[١٥] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يجده في الجنة. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ مغرما عليه يوم القيامة. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ففريق في الجنة، وفريق في السعير. وهذه الآية تبيّن لنا أهمية المسؤولية، وأن كلا مسؤول عن عمله، فلا ينبغي البدار إلى العقاب، ولا انتظار الثواب العاجل، بل لا بد أن يتمتع المؤمن برؤية مستقبلية تضفي عليه الطمأنينة والسكينة والحكمة في التحرك.

ثم جعلناك على شريعة من الأمر

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا(١) السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾.

هدى من الآيات:

تشترك الأمة الإسلامية وبنو إسرائيل في عهدهم الرسالي في القضايا الجوهرية، بالرغم من بعض الفوارق، فلقد فضَّل الله الأمة الإسلامية على سائر الأمم بالرسالة الخاتمة، كما فضَّل الله بني إسرائيل على من عاصرهم برسالته التي أنزلها على موسى بن عمران عليه السلام، كما فضلهما على الناس ببينات من الأمر، تبصِّرهم سبيلهم المستقيم، وتوفر لهم فرصة الوحدة، ولكن لم تكن الرسالة لتعصم الناس عن أن يختلفوا لو لم يرد الناس أنفسهم ذلك، ومن هنا فقد اختلف

---

(١) اجترحوا: أي اقترفوا وارتكبوا، والاجتراح: الاكتساب.

الناس من بعد موسى عليه السلام كما اختلفوا بعد نبينا محمد صلى الله عليه وآله بغيا بينهم، وليس لنقص في عوامل الوحدة المتوافرة لديهم من عند الله سبحانه.

ولعل سبب المقارنة بين بني إسرائيل والأمة الإسلامية يوجز في أمرين:

الأول: ما سبق من حديث الرسول الدال على أن الأمة الإسلامية ستحذو حَذْوَ بني إسرائيل حَذْوَ القِذَّة بالقِذَّة، والنَّعل بالنَّعل، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

الثاني: للدلالة على أن ما جرى عند بني إسرائيل يشبه القانون الاجتماعي أو السنة الحياتية التي تتكرر عادة بين الأمم إلا من عصم الله.

ونستوحي من هذه الآيات بصيرتين:

الأولى: لقد وفَّر الله لبني إسرائيل كل أسباب السعادة، فأعطاهم الكتاب والحكم والنبوة، وفضلهم على العالمين، وآتاهم بينات من الأمر، وأعطاهم العلم والوعي، ولكنهم اختلفوا من بعد ذلك بغيا، وجرُّوا على أنفسهم الويلات، مما يدلُّ على أن البغي ليس ذا طابع فردي، لأن من يظلم يشجع الآخرين على الظلم، وتنتشر عادة البغي حتى يظن كل واحد أن من «لا يظلم الناس يظلم»[1]، أو «إذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب».

ثم إن الظالم لا يلبث أن يبحث عن فلسفة لظلمه، ومحور يجتمع الظالمون حوله، وينظمون ويسنُّون شرائع له، وينصبون له أعلاما يدعون الناس إلى الرضوخ له، وهكذا يبدو الظلم عملا فرديا يرعاه الحرص والتعالي، وسرعان ما يتحول إلى تيار اجتماعي منظم، له مؤسساته وقوانينه ودعائمه وقياداته و...، حتى يصبح الناس فريقين: طبقة ظالمة مستكبرة متسلطة، وطبقة مظلومة مستضعفة مقهورة، وتلك الطبقة قد تختلف صورها، ولكن جوهرها واحد، كأن تتسمّى باللوبي، أو الإقطاعيين، أو اتحاد الشركات، أو الحكومة، وغير ذلك.

الثانية: وحينما ينحرف الناس، وتتسلط عليهم طبقة مستكبرة مستضعفة، تظلل الناس بسحابة سوداء من الإرهاب والإعلام المضلل، لا بد أن يقف الصالحون؛ أنبياء كانوا أم تابعين لهم- متسلحين بالشجاعة والاستقامة، ويرفعوا أصابعهم إلى السماء مشيرين إلى الله الواحد الأحد، فإذا رأى الله منهم الصبر على البلاء نصرهم بعزته.

---

(١) إشارة إلى قول الشاعر زهير:

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

بحار الأنوار، ج٣٢، ص٤٠٩.

بينات من الآيات:

[١٦] إن تنظيم العلاقة الاجتماعية على محور الحق هو الأساس لبناء المدينة العادلة، والكتاب النازل من عند الله يهدف هذا النمط من نظم العلاقة. والحكم يقتضي وجود حاكم ومحكوم وأداة حكم، وهكذا نلاحظ آيات (الحكم) في سياق الحديث عن الرسل والربانيين والأحبار.

إن الحق هو الهدف، أما وسيلة المجتمع المؤمن لبلوغه فهو الرسول الذي يحكم بالكتاب المنزل من عند الله، فهو الميزان (الكتاب والرسول معاً).

فإذن حكم الله هو حكم الرسول الذي جاء بالكتاب ويحكم بالكتاب، ومن لم يحكم به فهو ليس بمؤمن بالله ولا عامل بشريعة الله، ولا طالب للعدل. وبتعبير آخر؛ إنه كافر وفاسق وظالم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

أولاً: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، والإنجيل، والزبور، التي أثارت عقولهم، وبرمجت حياتهم.

ثانياً: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ فلقد جعل الله في بني إسرائيل ملوكا حاكمين.

ثالثاً: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ فقد جعل الله في بني إسرائيل أنبياء كثير منذ يعقوب عليه السلام حتى عيسى عليه السلام، وهذا العدد من الأنبياء نعمة كبيرة لبني إسرائيل وفخر عظيم، لأن عظمة الأمة تقاس بعدد ونوعية النخبة الطيبة فيها، وعالمنا اليوم يقيس تقدم الأمم بنسبة الكفاءات فيها، وهكذا أضحت بنو إسرائيل أمة متقدمة على سائر الأمم في عصرهم، ثم إن الله يحفظ الناس ويمنع عنهم العذاب بأنبيائهم وصالحيهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأمّا نحن كمؤمنين يجب أن نعرف أنه كلما كثر فينا الصالحون والعلماء الربانيون والرساليون المخلصون أمسينا أقرب إلى الانتصار بإذن الله.

رابعاً: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فقد رزق الله بني إسرائيل رزقا حسنا بعد أن أمرهم بدخول باب حطة إلى القرية المقدسة التي بارك فيها.

خامساً: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الحضارة عن غيرهم من سائر الأمم من قبلهم ومن كانوا في زمانهم، ولعل في الآية إشارة إلى أن هذا التفضيل كان بسبب تلك النعمة الآنفة، فلما زالت زال فضلهم.

[١٧] سادساً: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يبدو أن الأمر في لغة القرآن يعني ما يُعزم فيه إدارة المجتمع ويكون محل اشتغال القيادة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ

أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٨٣]. فقد أعطى الله بني إسرائيل بصيرة الأمر وبيِّناته (أي تفصيلاته) فعرفهم كيف يصرفون حياتهم، وكيف يتعاملون مع غيرهم، وكيف يرتبون اجتماعهم.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾ وقد اختلف الناس بعد بعثة الأنبياء عليهم السلام بسبب البغي، ومحاولة جماعة التسلط على الآخرين واستلاب حقوقهم الاقتصادية والسياسية. فلذلك اختلفوا عمداً وعن سابق إصرار، وبعد وضوح الحقيقة لهم. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩].

وقد اختلفوا ولم يكن اختلافهم لنقص في رسالتهم أو شحة طعامهم، إنما كان ببغيهم بالرغم من وجود العلم الذي كان جديرا بفض خلافاتهم لو تجنبوا البغي، ولقد كان العلم عند وصي موسى يوشع بن نون عليه السلام، وكان الناس يعلمون ذلك، إلا أنَّ حب الرئاسة وهوى السلطة أدّى دورا خبيثا في إزالة الحق عن مرساه، والولاية عن مستقرها، فاختلفوا أشد اختلاف.

ويضرب القرآن صفحا عن ذكر ويلات الاختلاف، من حروب داخلية تؤدي إلى زعزعة أساس المدنية، وغلبة الأعداء الخارجيين.

ولا ريب أن العلم هنا هو علم الدين الذي يقضي على الاختلاف بين أصحاب الرسالة، ولا يعني أي معلومات كانت، لأن سلاطين الجور يحاولون أبدا الاستغناء عن علماء الدين بمن يُسمَّى عالما من أصحابهم، ويغرونهم ليصنعوا لهم فلسفة ومذهبا.

والاختلاف بعد الانبياء يتمثل في تحدّي الرسالة أو الرسول وعدم التسليم لها. وهكذا يتَّبع الذين في قلوبهم زيغ ما تشابه من الكتاب دون محكماته، وإنما يفعلون ذلك ابتغاء الفتنة والتمرد على الرسالة والرسول. قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إن الله سيقضي بينهم بالحق، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تعجل عليهم، واطمئن إلى أن الحق باق برغم التشويش عليه.

[١٨] ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ الشريعة: الطريقة الواضحة، فقد جعل

الله الرسول ﷺ على الطريق الحق، والدين الواضح ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن لا يتَّبع شريعة الله فإنه يتبع ﴿أَهْوَاءَ﴾ قوم لا يؤمنون بالله، وهذه مشكلة العلماء الذين باعوا دينهم (شريعة الله) بالدنيا فاتبعوا أهواء الطغاة، ومن هنا فإن مسؤولية العلماء الاستقامة على هدى الله، بالرغم من كل الضغوط التي يمارسها أصحاب القوة والثروة.

وإذا بقي العلماء صامدين أمام أهواء الجاهلين فإنهم يكونون مقياسا للحق، ومحورا لأهله، وقيادة موثوقة للثائرين من أجله.

أما إذا اتَّبعوا أهواء أولي القوة والمال فسوف يضيع الحق، ويختلف الناس من بعد ما جاءتهم شريعة الله بغيا بينهم، كما فعلت بنو إسرائيل من بعد نبيهم، ودالت دولتهم، وزالت الفضائل التي فضلهم الله بها.

ونستفيد من الآية أن أهم بنود الشريعة هي التي تمنع الاختلاف، وتحقق العدالة، وتقاوم البغي، ولا ريب أن كل ذلك موجود في نظام الحكم عند الدين.

[١٩] ثم يهدِّد ربنا هؤلاء العلماء الغاوين الذين يتبعون أهواء الظالمين:

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يوم القيامة، فلا يدفعون عنك العذاب، إذا أطعتهم وصاروا يستغلونك من أجل تضليل الناس، بل دخولهم النار.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فالأفحش ظلما يتولى جمعهم، ويذيقهم من ويلات ظلمه ما يشاء، ثم يتسلسل الظلم نازلا حتى يصبح كل واحد منهم ظالما لمن دونه، ومظلوما ممن فوقه، لا يذوقون برد العدالة والأمن أبدا.

ومَنْ أيدَّهم دخل في حزبهم، واحتمل وزْر أعمالهم الذي يتجسد في الآخرة عذابا شديدا، أما في الدنيا فيشمله ظلمهم الناشئ في مجتمعهم.

وقد دلت آية كريمة على أن الله يولِّي الظالمين بعضهم -قد يكون أشدهم ظلما-، حيث يقول ربنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وفي الحديث المعروف: «..كما تكونون يولى عليكم»[1].

أما العلماء الذين يواجهون الظلم فإنهم ينجون من آثاره في الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فهو سبحانه يؤيِّد المتقين بنصره في مقاومة الطغاة.

(١) مستدرك سفينة البحار: ج٧ ص٤٣٥.

[٢٠] ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ واضحة تهدي القلوب والعقول، وطريقة للرؤية الصائبة، ومنهج للتفكير السليم ﴿وَهُدًى﴾ فالقرآن لا يكتفي ببيان البصائر، بل يقربنا حتى نلامسها، ونتفاعل معها، ونشهدها عن كثب، وهذا هو الهدى.

والهدى يكون بدليل، كمن يهتدي بالنجوم في ظلمات البر والبحر، وبصائر الوحي تهدي من ضلال الجهل والحيرة.

وإنما مَثَلُ المهتدي إلى الحق المنتفع ببصائر القرآن مَثَلُ مَنْ يستفيد من عينه، بينما مَثَلُ الضال مَثَلُ الذي يمشي مكباً على وجهه فلا يجد الطريق. فالمهتدي يستفيد من عقله.

والله يهدي عباده إلى سبل السلام بهداية العقل والوحي، ومن وسائل الهداية أنه ذكَّر الناس بمصير الغابرين، ليعلموا -يتبصروا- أن أسباب هلاكهم قد يقتضي هلاك من يعمل بمثل ما عملوا. وما دمنا وإياهم نعيش في أرض واحدة، وتحكمنا السنن ذاتها (والأنظمة الإلهية) فلابد أن نخشى مصيرهم.

إن القرآن بصائر وللاهتداء بها ينبغي للمؤمن أن يتدارسها حتى يكون على بصيرة، فإذا مرَّت به وساوس الشيطان تذكر واستعان بالله تعالى واستفاد من بصائر الوحي حتى يميِّز بين وساوس الشيطان وثقافات البشر، وبين حقائق الإيمان وبصائر الوحي، فإذا به مبصر يشاهد الحق حقاً فيتبعه، والباطل باطلاً فيجتنبه.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إذ أنقذهم من الغواية والاختلاف، وهداهم إلى شريعته الواضحة السمحاء. أما الذين لا يوقنون، ومن ثَمَّ لا ينفذون أوامره في الأوقات الحرجة، وبالذات عند اختلافهم، فإن القرآن لا يغني عنهم شيئا فلا ينتفعون بهديه ولا يرتفع الخلاف، ولعل الآية هذه تشير إلى ما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

[٢١] لأن الدنيا دار ابتلاء فهي دار غرور يخيَّل للإنسان أن المجرم والمحسن فيها سواء، وما هي إلا فتنة قصيرة الأمد، وبعده يتميَّز المحسن بالثواب، والمجرم بعقاب شديد.

ويوغل البعض في التمني والغرور حين يزعم أن الآخرة -كما لبعض الحالات في الدنيا- يتساوى بها المحسن والمسيء، وهكذا تسول له نفسه الاسترسال في السيئات دون رادع كلا، إن ذلك حكم جائر بعيد عن سنن الله في الخليقة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ والاجتراح: الاكتساب، ونستوحي من الآية

أن اجتراحهم للسيئات هو الذي جعلهم يظنون هذا الظن السيئ، ذلك لأن الشيطان يزين للإنسان عمله.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ كلا فحياة المؤمن زاخرة بالاطمئنان، والفلاح، والأمل، بينما يجعل الله صدر الكافر حرجا ضيقا، ويمنع عنه الالتذاذ الكافي بنعيم الدنيا، ويجعله يأكل كما تأكل الأنعام، ويجعله عرضة للعذاب.

أما بعد الموت فإن الملائكة يستقبلون المؤمنين بالترحاب، بينما يغلظون على المجرمين، ثم يتميزُّون إلى الأبد عن بعضهم، فهؤلاء في الجنة متنعمون، وأولئك في العذاب الأليم.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وعند هذه الآية تتلاشى الأماني التي يعيشها بعض المسلمين، ويبرِّرون بها اجتراحهم للسيئات، فبعض يقول: سيغفر لنا، وبعض يزعم أنه يتوب قبيل وفاته، وبعض يتشبَّث ببعض الطقوس ويزعم أنها تغنيه عن الالتزام بالواجبات. كلا.. إن ربنا عدل لا يجور، ولا يمكن أن يتساوى عنده المحسن والمسيء.

[٢٢] حين نتفكر في خلق الله في السماء التي تظلنا، وفي الأرض التي تقلنا، وفي الظواهر الطبيعية، وفي الدورات النباتية، وفي التفاعلات الحياتية، وفي كل شيء، فإن حقيقة واحدة تتجلى بوضوح وهي: أن كل شيء حق، ويدبِّر بحق. أرأيت الذي يزرع الشعير هل يحصد حنطة. كلا.. ولماذا لا نتمنى للخامل أن يحصل على علم وافر، وثروة طائلة؟ وكيف لا يحلم أحد أن تلد البقرة حصانا، أو أن يطير الفيل في الجو كالغراب؟

لماذا العلم يتوغَّل في عمق الأشياء لمعرفة الأسباب والنتائج، أو خصائص المعادن والنبات، أوَلَيس لأن كل شيء خلق بحق، ويجري ضمن سنة عادلة؟!

فكيف نتمنى إذا أن نجترح السيئات ويكدح ذلك المؤمن في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد، ثم نجني نحن وهو ثمرات متشابهة. هل رأيت مثالا واحدا في عالم الخليقة حتى تقيس نفسك به مثلا؟

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ويتجلَّى هذا الحق في حياة الإنسان من خلال سنة الجزاء ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بلى، قد يتأخر الجزاء أو تخفى علاقته بالعمل، قد يشرب المرء ماء ملوثا ثم يصاب بمرض خطير بعد مدة، ولا يصدِّق أن شربه ذلك الماء كان سبب إصابته بالمرض. قد يعيش مجتمع التخلف ولا يعترف أن خموله، وتمزقه، وجهله سبب ويلاته، ولكن سنة الجزاء جارية، علمنا بها أم لا، وصدقنا بها أم لا.

أرأيت من اتخذ إلهه هواه

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً(1) فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)﴾.

هدى من الآيات:

يستعرض السياق في هذا الدرس وبعده صفات الكفار، كيف أنهم اتخذوا أهواءهم آلهة عبدوها من دون الله لما أطاعوها، وكيف ختم الله على سمعهم وقلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فمن يهديهم من دون الله؟! وأنهم كفروا بما وراء الحياة حتى يحيي الله أمواتهم فيرونهم عيانا، ولكن إذا قامت القيامة وجثوا على ركبهم ذلا وخشوعا فهل من محيص؟!

بينات من الآيات:

[٢٣] هناك علاقة وثيقة بين العقل والإيمان، فالعقل ينبعث من المشكاة ذاتها التي

---

(١) غشاوة: غطاء.

ينبعث منها الإيمان، فمن اتبع عقله هُدِيَ إلى الإيمان، ومن آمن أنقذ عقله من براثن الهوى، أما مَنِ اتّبع هواه فقد عطّل عقله، ولن يهتدي إلى الإيمان، ويكون كمن أوصد منافذ قلبه حتى لا يصل إلى الحقيقة، ولن يصل إليها، وحين يتبع الإنسان هواه تكثر أنانيته وشهواته، حتى لا يرى إلا نفسه وما يخدمها مباشرة، ويبلغ به حب الذات حدَّ العبادة، إذ يجعل ما تشتهيه نفسه شرعا يلتزم به، وحينئذ يسجن في زنزانة نفسه، ولا يؤمن بغيرها، ولا يقدر أن يسمو بها إلى حالة الإيمان برب العالمين.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ لماذا يقول ربنا: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ ولا يخاطب من اتبع هواه مباشرة؟

والجواب:

أولاً: لأن مثل هذا الإنسان ليس من السهولة أن يميِّز خطأه، بل هو كالميت لا يستحق خطابا.

ثانياً: لكي يتخذ المخاطب حذره، فلا يقع فيما وقع فيه عابد هواه، ويتعلم عبادة ربه من عابد هواه، كما قيل لذلك الحكيم: من أين تعلمت الأدب؟ قال: ممن لا أدب له، عمل ما ساءني فلم أعمل مثله؟ كذلك يكفينا عبرة النظر إلى عاقبة من يعبد هواه، فلا ندع شهواتنا الطاغية تستدرجنا إلى هذا المصير، بل نعُدُّ الهوى أشد أعدائنا، ونعُدُّ الوقوف أمامه شجاعة بالغة.. على أن أكثر الناس يطيعون أهواءهم بقدر معين، إلا أن من يتخذ هواه إلهه عبرة لهم، ليعرفوا عاقبة الاسترسال مع الهوى.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إنه ما أضلهم إلا من بعد أن أعطاهم العلم، فاختلفوا بغيا بينهم، وقيل على علم من الله أنه يستحق الإضلال بسبب جحوده بعد اليقين، وكفرانه بنعمة الهدى، ويؤول كلا التفسيرين إلى معنى واحد.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يسمعون ولا يعون الحقائق، لأن الله أبعدها عنهم، وهل يعطي ربنا دينه من يعرف أنه يكفر به سلفا؟!

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فعندما يبصر الآيات لا يرى ما وراءها من العبر، وما قيمة ظواهر الآيات إذا لم يهتد الإنسان إلى معانيها، أَوَ تنتفع من سماع لغة لا تعرفها، أَوَ ينتفع الأمّي إذا نظر في كتاب، وهل يهتدي غير الطبيب إلى حقيقة المرض من رؤية أعراضه؟

كذلك نظرات الذين يعبدون أهواءهم تذهب عبثا، لأن تركيزهم إنما هو على ظواهر

الأمور، ولا يريدون بلوغ الحقائق فهم محجوبون عنها.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام في صفة هؤلاء: «أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا واصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا ومَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ وأَمْرَضَ قَلْبَهُ فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ ويَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ وأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ ووَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا ولِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا وحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا»(١).

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ لقد أنعم الله على الإنسان بالعقل، وآتاه البينات، فإن اهتدى فلنفسه، وإن أساء، واتبع هواه، وانحرف عن هدى عقله، وكذب بالبينات، سوف يضله الله.

أرأيت من يعطيه العقل من بعد الله، ومَن يَمُنُّ عليه بهدى البينات.

والآية تحذّرنا من مغبة الاسترسال مع الذنوب إلى أن تسد علينا منافذ الهدى كليا فلا مناص من النار، وقد قال ربنا: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ فِي النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِنْ تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّوَادُ وَإِنْ تَمَادَى فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ حَتَّى يُغَطِّيَ الْبَيَاضَ فَإِذَا غَطَّى الْبَيَاضَ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَداً وَهُوَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾»(٢).

وجاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «مَا شَيْءٌ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنَ الْخَطِيئَةِ، إِنَّ الْقَلْبَ لَيُوَاقِعُ الْخَطِيئَةَ فَمَا تَزَالُ بِهِ حَتَّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ فَيَصِيرَ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ وأَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ»(٣).

وجاء في رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً مِنْ نُورٍ وفَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ ووَكَّلَ بِهِ مَلَكاً يُسَدِّدُهُ وإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ سُوءاً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ وسَدَّ مَسَامِعَ قَلْبِهِ ووَكَّلَ بِهِ شَيْطَاناً يُضِلُّهُ»(٤).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بهؤلاء وتعتبرون بهم.

[٢٤] ويبرّر هؤلاء عبادتهم لأهوائهم بقولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٩.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٣.
(٣) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣٢٨.
(٤) الكافي: ج٢، ص٢١٤.

﴿يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ لا شيء وراء ظاهرة الحياة والموت، ولا حتى الله الذي قدَّرهما، وما الدهر سوى الطبيعة، وهل للطبيعة إرادة وحكمة؟! أفلا ينظرون إلى السماوات والأرض وما فيهما من عظمة التدبير ودقة التقدير؟! أفلا يهديهم العقل إلى أن لكل تدبير مدبر، ولكل تقدير مقدر؟!

ويبدو أن مرادهم من الموت فناء جيل، والحياة نشأة جيل من بعدهم، فالزمان في زعمهم يميت الأولين، ويحيي من بعدهم الآخرين، وهكذا في دورة متتابعة لا يعرف مبتداها ولا منتهاها، وتبقى الأسئلة حائرة: من أين جئت، إلى أين أسير؟ وينادي لست أدري!

ويبدو أن هذه النظرية يفرزها القلب المختوم عليه بسبب عبادة الهوى، وهي تحلل الإنسان من كل قيد، وتطلق عنانه في اتباع الشهوات حتى النفس الأخير، وهي نظرية قائمة على أساس الفراغ العقائدي.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يتخيّلون أن لا بعث ولا حساب. أفينبغي أن نرسي بنيان أفكارنا وأساس مجمل ثقافتنا على قاعدة الظن بعيدا عن العلم؟! ولكن ماذا يملك من عبد هواه، وأضله الله، سوى الظنون؟! إن العلم أعظم نعمة، وهو من عند الله، فلو سلبه من أحد، أترى يعرف شيئا؟ هل يقدر الحائط -مثلا- أن يعي ما في الحقل، أم المكيال ما في البيدر؟! ولماذا؟ مستحيل أن يعرفا، أوَليس لأن الله لم يرزقهما العلم؟ كذلك محال أن يعرف مَنْ عبد هواه بداية الخلق ونهايته، لأنه قد سلب منه هذا العلم، وقد تم إضلاله على علم.

الذي يرى الرياض الجميلة تتوق نفسه إليها، ولكن الأعمى يظل يتخيّل، ويقول ليس ثمة شيء أبدا. دعه في ضلاله أبدا.

[٢٥] ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ حتى تكاد تلزمهم بالحقيقة تهربوا منها دون أن يملكوا حجة، بل: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وهل إذا أحياهم يؤمنون؟

كلا.. إنهم يبررون بذلك تهربهم من مسؤولياتهم.

[٢٦] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ من بعد العدم، بالقدرة التي خلق بها السماوات والأرض من العدم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ وليس الدهر كما زعموا أنه يهلكهم.

ويبدو أن هناك فرقا بين الموت والهلاك: فالموت هو انفصال الروح عن الجسد، أما الهلاك

فهو اندثار الشيء، وهو يتناسب مع الزوال بعذاب ومع الظروف التي تمحو آثار الميت وكأنه قد تلاشى، كما استُخدم الهلاك في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، وقوله تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فهلاك يوسف اندثار رسالته، وعدم التقيد بها، وهلاك المرء انتهاء دوره حتى أن الكلالة يتقاسمون إرثه، وكذا في الآية الثالثة حيث يتم تلاشي كل شيء إلا وجه الله، كما قال ربنا سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. والله القادر على الإحياء والإماتة هو القادر على البعث والنشور.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذا كان يوم القيامة لا ريب فيه، فلماذا نرى أكثرهم لا يعلمون بها؟.

بلى، يوم القيامة لا ريب فيه واقعا، أي لا محالة واقع، وليس في ذلك تردد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بهذا الواقع، ولا يغيّر جهل البشر من الواقع شيئا، فنحن نجهل - مثلا - وجود منظومة شمسية في آخر آماد هذا الفضاء، فهل يجعل جهلنا بها وجودنا عدما؟ كلا.. ولعل هذه الآيات في القرآن تعالج حالة نفسية عند البشر أنه يزعم أن مجرد شكه في شيء يجعله في حل من الالتزامات المرتبة على وجوده، ومن ثَمَّ يتجاهل أشياء واضحة بزعم أنه يدرأ عن نفسه أخطارها، كالنعامة التي تخفي رأسها زاعمة أنها إذا لم تر الصياد فإنه لا يراها! كلا.. الواقع واقع، سواء آمنت بـه أو لم تؤمن، فإذا كان ذلك الواقع كيوم القيامة الرهيب فإن تجاهله مأساة حقيقية للإنسان.

[٢٧] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أولئك الجاهلون يزعمون أن تكذيبهم بالساعة واستهزاءهم بها يكفيهم، كلا.. يقول ربنا: إن ملك السماوات والأرض لله، والله لا يعطي شيئا منها لأحد باطلا، وإنما رزقهم منها ما يمتحنهم به، فإذا عملوا باطلا فإنهم يخسرون يوم القيامة. أليست الدنيا مزرعة الآخرة؟ أليس ما بأيدينا من قوة ومال وبنين هو رأسمالنا الوحيد، فإذا لم نصلح أمره بل جعلناه في يد اللهو والباطل فإن ذلك الخسران؟

[٢٨] ويقص علينا حالة الأمم التي قالت وعملت باطلا في ذلك اليوم الرهيب، ويقول: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الجثو: هو الجلوس على الركب بخشوع وذُلّ.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ إن الكتاب هو كتاب أعمال الأمم.

وهناك سؤال: لماذا يقول ربنا: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾، ولم يقل: كل فرد يدعى..؟.

ولعل الجواب أن القرآن الحكيم يشير إلى حسّ التوافق مع المجتمع في الإنسان، التي تجعل المجموع مسؤولا عن كل فرد، كما أن الفرد له مسؤولية تجاه المجموع، ذلك لأن كثيرا من أعمال الفرد وعاداته إنما المسؤول عنها المجموع، ونستطيع أن نشبّه التجمع بقافلة ركاب، فلو سقطت في الوادي لهلك أهلها جميعا.

والقرآن يسفّه حالة الانسياق وراء المجتمع، قال الإمام موسى عليه السلام لفضل بن يونس: «أَبْلِغْ خَيْراً وَقُلْ خَيْراً وَلاَ تَكُنْ إِمَّعَةً. قُلْتُ: وَمَا الإِمَّعَةُ؟ قَالَ عليه السلام: لاَ تَقُلْ أَنَا مَعَ النَّاسِ وَأَنَا كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا هُمَا نَجْدَانِ نَجْدُ خَيْرٍ وَنَجْدُ شَرٍّ فَلاَ يَكُنْ نَجْدُ الشَّرِ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنْ نَجْدَ الخَيْرِ»(1).

ونستفيد من الحديث أنه لا يوجد في الإسلام حتميات اجتماعية، ومن الممكن تغيير الثوابت والحتميات الاجتماعية بإصرار أبناء المجتمع، ولكن من عادة الناس اتباع الحالة الاجتماعية، إلا من عصمه الله، ولذلك فهم مشتركون في الجزاء.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لو قال ربنا: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ لاحتمل أن يكون الجزاء من غير جنس العمل، ولكن حذف الباء يؤكد أن الجزاء هو العمل ذاته الذي اجترحه الإنسان.

[٢٩] ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ نطق الكتب قد يكون بسبب وضوح الأعمال، وقد يكون النطق بالمعنى الظاهر للكلمة، أي إن الكتاب يفرز الصوت، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا المعنى في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١]. ففي يوم القيامة تجسيد حي لعمل الإنسان، فربما عرض عليه الصوت والصورة لعمله، والفرق بين كتابة العمل في الدنيا عنه في الآخرة أنه في الدنيا تكتب ظاهر الأعمال، بينما في الآخرة تثبت بخلفياتها، وبكل مقاديرها ونسبها، إذ تكتب صلاة الاثنين، ولكن لكل صلاة خصوصياتها، فصلاة هذا أكثر إخلاصا وخشوعا وتأنيا من الآخر، وكذا في سائر الأعمال.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والاستنساخ هو إعادة كتابة الأصل، فالأصل عند الإنسان، والكَتَبَةُ من الملائكة يكتبون ما يعمل، ويدل على ذلك قوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

(1) تحف العقول: ص٤١٣.

وهذا يقودنا إلى أن الأعمال تنعكس على ظاهر الإنسان في القيامة، فقد جاء في القرآن عند بيان حالة المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]. ويحفظ الله الأعمال أيضا على قلب الإنسان على شكل نكت سود لا نراها، ولكن الله يعلمها، وقد ينطقها يوم القيامة، كما ينطق الله أعضاء الإنسان، ولعل هذا أحد مصاديق الاستنساخ، والعلم الحديث بدأ بمعرفة الحقائق بواسطة أعضاء الإنسان، وبواسطة بصماته، وبواسطة ضغط الدم في جهاز كشف الكذب، وبواسطة تقاسيم الوجه، ومتى ما علم الإنسان أن أعماله تصور له في الآخرة وتجسد فإنه قد يؤوب إلى الله إذا كان غافلا، لأن الكثير إنما يعملون السيئات وهم في غفلة عن الآخرة.

فلله الحمد وله الكبرياء

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾.

هدى من الآيات:

كان الحديث في الدرس السابق عن جثو الأمم خضوعا وذلة يوم القيامة، منتظرة كتابها، ويتصل الحديث هنا بذلك الدرس عن طريق بيان انقسام الأمم يومئذ فريقين: مؤمنين وكافرين.

ونتساءل: لماذا يؤكد الله سبحانه على تمايز البشر عند الحساب؟.

لبيان أن كل إنسان يُصنَّف حسب عمله وسلوكه، لا حسب صفاته أو لونه أو انتمائه أو حسب وحدته الجغرافيـة أو حالته التاريخية أو حتى انتمائه الديني.

والتمايز في الآخرة مختلف عنه في الدنيـا، فعليه ينبغي أن نصنِّف الأمـم والمجتمعـات

والأفراد على أساس أعمالهم فقط (مؤمن وكافر)، إذ هو التصنيف الواقعي.

وتستعرض الآيات الأخيرة صفات الكفار، كيف استكبروا عن آيات الله وكانوا مجرمين، وكذبوا بالساعة، واتخذوا آيات الله هزوا، وغرتهم الحياة الدنيا، ومن ثَمَّ استحقوا عذاب الآخرة.

بينات من الآيات:

[٣٠] يميِّز الله الناس يوم القيامة فريقين:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ الرحمة في الدنيا للمؤمنين تختلف عنها في الآخرة، ففي الدنيا قد يشوبها البلاء والامتحان، وفي الآخرة تأتيهم صافية من كل كدر، ولعل هذا هو إيحاء كلمة ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ حيث تحيط بهم رحمة الله من كل صوب، كما إن في قوله: ﴿رَبُّهُمْ﴾ لمسة حنان وعطف، وإشارة إلى رحمات الله في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا فوز فوقه، فقد نجوا من عذاب شديد، وضمَّهم الرب في ضيافته، وأدخلهم في بحار رحمته. أفيتصور القلب فوزا أعظم منه؟ تعالوا نسمو إلى حالة التطلع إلى هذا الفوز العظيم، لعلنا ندركه بتوفيق الله.

[٣١] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فإنهم يدخلون النار، ويطالبون بالاعتراف بجرمهم المتمثل في استكبارهم ذلك الذي أرداهم في جهنم.

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ في هذه الآية مصطلحات ثلاثة: الكفر والاستكبار والإجرام. أما الاستكبار: فهو منطلق الكفر؛ بينما الجريمة: عاقبته، ذلك لأن الإنسان إذا استقبل آيات الله من دون حجب، ومن دون مفاهيم وعقائد مسبقة، فإن فطرته وعقله يقودانه إلى تقبلها، ولكن إذا ما استقبل الإنسان آيات ربه بواسطة نظارة الاستكبار السوداء، ورأى نفسه أكبر من الحق، أو أن ذاته هي المحور وليس الحق، فإنه لن يتقبلها، ومتى ما جعل الإنسان نفسه فوق الحق أو عَدَّها هي الحق، فإنه سوف يتجاوز الآخرين ويظلمهم ويجرم بحقهم، ونقرأ في الروايات ما يهدينا إلى ذلك:

١ - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكِبْرُ أَنْ تَغْمِصَ النَّاسَ وتَسْفَهَ الحَقّ»[1].

٢ - وعنه عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ أَعْظَمَ الكِبْرِ غَمْصُ الخَلْقِ وسَفَهُ الحَقِّ، قَالَ

(١) الكافي: ج٢ ص٣١٠.

قُلْتُ: وَمَا غَمْصُ الخَلْقِ وسَفَهُ الحَقِّ؟ قَالَ يَجْهَلُ الحَقَّ ويَطْعَنُ عَلَى أَهْلِهِ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَازَعَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ رِدَاءَهُ»(١).

[٣٢] ولكي نتخلَّص من الكفر والاستكبار والإجرام يجب أن نجعل الحق هو المحور، وأن نتذكر بالآخرة، ونخشى الجزاء فيها.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لم ينكرون الآخرة على شدة وضوحها، فالإنسان يرى بفطرته أن الجزاء واقع، كما يرى تحقيق ذلك في الدنيا، فمن يظلم يبتليه الله، بينما يحصل المحسن على جزاء حسن، ولكنه يرى أن سنّة الجزاء ليست دائمة في الدنيا ولا وافية مما يهديه إلى يوم الجزاء الأوفى.

وحين يراجع قلبه يراه مقتنعا به، إلا أنه يجحد به لاستكباره عنادا وعتوا، ويتساءل: ما الساعة؟ أيان مرساها، وما أشراطها، وكيف يبعث الله الرميم، وكيف تتمثل الأعمال فيها تمثلا؟

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ كذلك يجعلون جهلهم بالساعة (كيف ومتى..) عذرا لإنكارها، بينما العقل يدعوهم إلى الإيمان بالحقيقة إذا توافرت لديهم الشواهد، ثم السعي لمعرفة المزيد من تفاصيلها. أرأيت لو تكاملت الحجة على وجود مدينة في أقصى الشرق، ولكن لا تعرف عنها شيئا كثيرا، فهل تنكر وجودها رأسا أم تعترف بها ثم تبحث عن التفاصيل؟

والواقع: أن كثيرا من الناس ينكرون حقائق الرسالة لأنهم لا يعرفون التفاصيل عنها، بل تراهم يعادونها بمجرد جهلهم بأبعادها، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا»(٢).

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ هكذا شككوا أنفسهم حتى زعموا أنهم لا يملكون إلا الظن دون اليقين، ولكن هَبْ أنهم يظنون أفلا تدعوهم عقولهم إلى أخذ الحيطة والحذر؟! فالظن ليس مبررا للجحود بالساعة. أوَلَيس مجرد الظن بوجود أسد في الغابة كافيا لأخذ الحيطة؟ وكذا الظن بالساعة يجب أن يدفعنا إلى تجنب خطرها.

[٣٣] ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ سيئات الأعمال هي حقائقها، غير البادية يوم الدنيا، تبدو لهم ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، بلن

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣١٠.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ٤٤٧.

عرفوا آماد قبحها، وعاينوا جسيم عاقبتها.

ونتساءل: لماذا قال ربنا: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، ولم يقل: وبدا لهم سيئات عملوها؟.

ربما لأنهم في الآخرة لا تبدو لهم الأعمال السيئة بنفسها، ولكن نتيجة عمل السيئات من آثار مدمرة أو تجسمها كالحيَّات والعقارب والحميم والعذاب.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ففي الآخرة تنزل بهم نتيجة الاستهزاء، وتحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم، وقد قال البعض أن كلمة ﴿وَحَاقَ﴾ مشتقة من مادة الحق، ويكون معناها آنئذ أن ذلك الذي سخروا منه -زعما بأن باستطاعتهم التهرب منه- قد نزل بهم، وأصبح حقا واقعا لا مناص من الاعتراف به.

[٣٤] ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ لقد تغافلوا عن الآخرة ونعيمها حتى كأنهم نسوها، وهناك يغفل عنهم حتى لكأنهم منسيون، فلا يقدَّر لهم خير، ولا يدفع عنهم ضر، جزاء وفاقا لتناسيهم الحق، وإمعانا في إذلالهم عقابا على استكبارهم.

وبالطبع لا يعني نسيان الله جهله بهم، كما لا يدل نسيانهم جهلهم بالآخرة، قد ذُكِر في الرواية «جَاءَ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقَالَ: لَوْ لاَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الاخْتِلاَفِ وَالتَّنَاقُضِ لَدَخَلْتُ فِي دِينِكُم. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عليه السلام: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وَقَوْلُه: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وَقَوْلُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]... إلخ.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ يَعْنِي إِنَّمَا نَسُوا اللهَ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَمْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ فَنَسِيَهُمْ فِي الآخِرَةِ أَيْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ ثَوَابِهِ شَيْئاً فَصَارُوا مَنْسِيِّينَ مِنَ الخَيْرِ. وَكَذَلِكَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ يَعْنِي بِالنِّسْيَانِ أَنَّهُ لَمْ يُثِبْهُمْ كَمَا يُثِيبُ أَوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ كَانُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا مُطِيعِينَ ذَاكِرِينَ حِينَ آمَنُوا بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَخَافُوهُ بِالغَيْبِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ فَإِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عُلُوّاً كَبِيراً لَيْسَ بِالَّذِي يَنْسَى وَلَا يَغْفُلُ بَلْ هُوَ الحَفِيظُ العَلِيمُ وَقَدْ يَقُولُ العَرَبُ قَدْ نَسِيَنَا فُلَانٌ فَلَا يَذْكُرُنَا أَيْ إِنَّهُ لَا يَأْمُرُ لَهُمْ بِخَيْرٍ وَلَا يَذْكُرُهُمْ بِهِ..»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٩٨-٩٩.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ وكثيراً ما يؤكد الله عدم النصرة في الآخرة، لأنه لا ينجّي من عذاب الله ناصر -إن وجد فعلاً- فلا الطواغيت والأخلاء ولا الثقافة الفاسدة والأهواء تنصرنا من الله، وتنجينا من عذابه، وهذا غاية الضعف والمسكنة في الآخرة، فالإنسان يقف فريدا، وأمامه النار، ولا يجد من يذب عنه، فتراه مستسلما.

[٣٥] لماذا يحيق بهم العذاب، وينساهم الله، ولا يجدون لهم نصيرا؟.

أولاً: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾.

ثانياً: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وتصوَّرتم أنكم فيها ماكثون، وكفرتم بآخرتكم ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ إنهم لا يخرجون من النار لأنها حاقت بهم، وصارت مأواهم، ولا يعاتبهم الله لأنه لا داعي للعتاب، مادام قد أدخلهم النار، والعتاب نوع من الإكرام وهم لا يستحقونه ماداموا قد استهزؤوا بالحق.

[٣٦] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربما لأن الله أراد أن ينهي سورة الجاثية التي كانت شديدة الوقع على النفوس بما فيها من آيات الانذار والعذاب بإعطاء الأمل، فلله الحمد لأنه تعالى يفعل ما يستحق الحمد، وله الحمد لأنه رب السماوات والأرض، إذ بث فيهما آياته، وجعلها هدى للمؤمنين، ولأنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وله الحمد رب العالمين لأنه خلقهم ورزقهم، وفطرهم على الإيمان، وهو بهم رحيم.

[٣٧] وكما أن له الحمد في السماوات والأرض فله السلطان والملك ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلماذا تتكبرون عن آياته، مادام هو واسع الكبرياء، وإن آيات كبريائه سبحانه تتجلى في كل شيء في السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فهو المقتدر القاهر على عباده، يجري فيهم سننه، ويمضي فيهم قدره، شاؤوا أم أبوا، ولكنه لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يظلم ولا يجور، ويعطي كل ذي حق حقه، سبحانه.

سُورَةُ الأَحقَاف

* مكية.

* عدد آياتها: ٣٥

* ترتيبها النزولي: ٦٦

* ترتيبها في المصحف: ٤٦

* نزلت بعد سورة الجاثية.

فضلُ السُّورة

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ كُلَّ لَيْلَةٍ أَوْ كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ سُورَةَ الأَحْقَافِ لَمْ يُصِبْهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِرَوْعَةٍ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وآمَنَهُ مِنْ فَزَعِ يَوْمِ القِيَامَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج٧ ص٤١١)

الإطار العام

ما هي حقيقة الوجود؟

لكي نبصر حقيقة الأشياء، لابد أن نعرف الحقائق الكبرى التي هي غيب كل حقيقة، وهي:

أولاً: حقيقة الخلق، وأن كل شيء قد أنشئ وقُدّر ودُبّر أمره من لدن عزيز حكيم.

ثانياً: حقيقة الواقعية، وأن الأشياء حق لا وهم ولا خيال.

ثالثاً: حقيقة الزمن وأن لكل شيء أجلاً.

ولكن لماذا لا يفقه أكثر الناس هذه الحقائق الواضحة، وحتى حين ينذرهم الله بإرسال الرسل تراهم يعرضون عنها؟ (الآيات: ١-٣).

لعل أهم قضية تعالج في القرآن هي هذه القضية، لأنه من دون معالجتها لا يبلغ الإنسان علماً ولا حكمة.

والسؤال: ما هي الحجب التي تغشى أبصار الخلق عن رؤية هذه الحقائق؟

إنها عديدة، ولعل السياق في سورة الأحقاف يعالجها مع التركيز على بعضها، شأنها شأن سائر السور.

أولاً: الشرك بدعوة غير الله، ويتساءل السياق: ترى هل ما يدعون من غير الله، خلقوا شيئاً من الأرض أم لهم مساهمة في إدارة السماوات؟

كلا؛ ثم إنهم لا يستجيبون لهم بشيء إلى يوم القيامة، ويعادونهم يوم الحشر (الآيات: ٤-٦).

ثانياً: كيل التهم، والأحكام المسبقة والباطلة على الرسالة والرسل، مما يحجبهم عن معرفة حقيقتها، فقالوا إنها سحر وإنه مفترٍ.

وكيف يكون مفترٍ والله يحيط قدره بمن يفتري، ويحيط بكل شيء علماً، وهو شهيد على صدق الرسالة؟ وهذا الرسول ليس بدعاً، فلقد بعث الله أنبياء سابقين.

ثم إن الرسول متمحض في رسالته، فما عليه إلا البلاغ. ثم إن بعض علماء بني إسرائيل قد شهد بصدقه، بينما استكبر الجاهلون (الآيات: ٧-١٠).

وقد يكون الحسد والضغينة والعصبية تجاه صاحب الدعوة سبباً للكفر بها، ولكن لماذا يحرم الإنسان نفسه من الحق لموقفه الشخصي ممن يدعوه إليه، وأساساً لماذا هذا الموقف الظالم الذي يصد الإنسان عن الهدى، ذلك أن الله لا يهدي القوم الظالمين؟

وكتاب النبي موسى عليه السلام الذي يتعصب البعض له، ويصدُّون عن النسخة الأكمل منه، ما نزل لتأييد الظلم، بل رحمة. وهكذا القرآن، فهو نذير للظالمين، وبشرى للمحسنين.

وأصحاب الرسالة بحاجة إلى الاستقامة لمواجهة تلك العقبات، وآنئذٍ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (الآيات: ١١-١٤).

والموقف السليم من الجيل الماضي يساهم في توفير فرص الإيمان، ويبيّن السياق وصية ربنا بالوالدين، كما يبيّن التطلع المشروع عند الإنسان في إنشاء ذرية صالحة.

ويَعِدُ التائبين في سنّ الأربعين المسلمين لربهم غفران الذنوب، ودخول الجنات.

أما المتمرد على والديه وهما يدعوانه للإيمان، لأن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين، فإنه مثل لمن أعاقته نزوة الشباب عن اتباع الحق الذي يدعو إليه آباؤه وهو بالنتيجة مثل للظالم الذي منعه تمرده على أبيه عن اتباع الحق لمجرد أنه دعوة أبيه (الآيات: ١٥-١٨).

وبعد أن يبيّن القرآن أن درجات الناس على قدر أعمالهم، يعرض لنا صورة أهل النار تستقبلهم جهنم بلظاها، وهم يحاكمون هنالك، لأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا. ويبدو أن الإسراف في اللذات عقبة أخرى في طريق الإيمان. ولعل الإسراف في الاستمتاع بالطيبات سببه الاستكبار في الأرض، وعاقبته الفسق عن حدود الشريعة (الآيات: ١٩-٢٠).

وأية عقبة كأداء كالاسترسال مع العادات البالية والتقاليد الباطلة، كما فعلت عاد حيث أعرضوا عن أخيهم هود عليه السلام وهو ينذرهم بالأحقاف ويستعجلونه العذاب، ولكن حين

استقبلهم عارض في الأفق، زعموا من فرط غفلتهم أنه عارض ممطرهم، بينما كان ريحاً تدمّر كل شيء بأمر ربها (الآيات: ٢١-٢٥).

لماذا كفرت عاد؟ هل لفقر وحاجة؟ أم لنقص في وسائل المعرفة من السمع والأبصار؟ كلا؛ إنما لجحود آيات الله والاستهزاء بها، فكانت عاقبتهم الدمار.

أفلا نعتبر بمصيرهم قبل أن نصبح عبرة لمن يتعظ من بعدنا؟ أفلا نزور الأطلال التي بقيت من القرى الهالكة، وننتفع بالآيات التي صرفها الله لإيقاظنا من الغفلة؟

إن هذه الآية التي يعتمد عليها الإنسان في كفره بربه، ويزعم أنها مانعته من عذاب الله، هلا منعت عن تلك القرى العذاب؟! (الآيات: ٢٦-٢٨).

وترى بعضهم يستعيذون بالجن، ويزعمون أنهم يكفونهم العذاب، بينما الجن كما الإنس أنذروا بالرسالة، ولقد صرف الله نفراً منهم فاستمعوا للقرآن فأصبحوا منذرين، ودعوا قومهم للاستجابة للرسالة، وبيّنوا لهم أن من لا يُجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض (الآيات: ٢٩-٣٢).

وتبيّن الآيات الأخيرة من السورة قدرة الله على إحياء الموتى، وأن الكفار يؤمنون بذلك حين يرون العذاب، وأن على الرسول الصبر في دعوته دون أن يستعجل لهم، لأنه مهما طال بهم العمر فإن مكثهم في الدنيا يشبه ساعةً إذا قيس بالخلود في النار.(الآيات: ٣٣-٣٥).

والذين كفروا عما أنذروا معرضون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ[1] مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ[2] كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)﴾.

هدى من الآيات:

حينما يكون تنزيل الكتاب من الله بما له من عزة تفرض الكتاب وتحفظه، ومن حكمه البالغة تجعله هدى وضياء، فإن ذلك الكتاب يعكس ما في الخليقة من حق ثابت وأجل مسمى. ولأنه حق فهو ثابت قد يتجلى فيه اسم العزة الإلهية ولأنه إلى أجل مسمى فهو متغير تهيمن عليه الحكمة الإلهية.

---

(١) أثارة: بقية.

(٢) تفيضون فيه: أي ما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه أنه سحر.

وفي الكتاب إنذار بخطر الكفر ولكن الكافرين يعرضون كلما أنذروا. فويل لهم حين يعرضون كما ينذرهم بالخطر الداهم.

وإعراضهم من التوحيد إلى الشرك -وهل خلق ما أشركوا به شيئاً فأين هو؟-، وإعراضهم من الحق إلى الباطل. وهل هناك كتاب أو إثارة من علم عندهم يدل على صدقهم؟.

ويحسبون أنهم بشركهم يهربون من عقاب أفعالهم، كلا.. إنها ضلالة كبرى أن يدعوا من دون الله من لا يستجيب لهم إلى يوم القيامة من الأصنام والأموات، والشركاء المزعومون غافلون عن دعاء هؤلاء.

ويوم القيامة -حيث بعث الأموات الذين أشركوا بهم تراهم- يعادون المشركين ويكفرون بعبادتهم. وإعراض المشركين يبلغ بهم درجة من الجحود أنهم إذا تليت عليهم آيات الله البينات يكفرون بها ويزعمون إنها سحر (من فرط تأثيرها عليه) وهكذا لا يميزون بين الآية والسحر.

وربما اتهموا الرسول بالافتراء والله يأمر نبيه بأن يبين لهم عظيم ذنب الافتراء. وإذا كان -وحاشا لله- النبي مفترياً فمن ينجيه من عذاب الله المحيط به وهو شهيد على الجميع.

وهو تعالى لا يؤاخذ أهل الأرض بألوان العذاب بسبب كفرهم وإعراضهم لأنه هو الغفور الرحيم.

بينات من الآيات:

[١] تبدأ هذه السورة المباركة بكلمة قصيرة، مقطعة تشبه سائر المقطعات القرآنية التي مررنا بها في السور المتقدمة، وسبق الحديث عن تفسيرها، وهي: ﴿حمٓ﴾.

[٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سُمّي الكتاب كتابا لأنه مكتوب مثبت، وكذلك القرآن، فهو مكتوب ودائم وثابت، ولهذا سمي باسم ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، وثبات القرآن يختلف كثيرا عن سائر الكتب لأنه كما قال الرسول الأعظم ﷺ: **«فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ»**[1].

والسؤال: لماذا لا يقاس القرآن بالكتب البشرية؟ لماذا بينهما مسافة لا تحد؟.

والجواب: لأنه نزل من الله، والله هو العزيز الحكيم، فبعزّته يفرض الكتاب على الإنسان

(١) بحار الأنوار: ج٨٩ ص١٧.

والطبيعة فرضا، وبحكمته يجعله كتاب هداية وبصيرة، ومصدر توجيه للإنسان إلى الحق وإلى ما فيه صلاحه.

وفيما يلي من الآيات يحدثنا القرآن الحكيم عن تجليات اسمي العزة والحكمة في الكون، وعن الظواهر ذات الدلالة الواضحة على عزة الرب وحكمته، ونحن لا بد أن نفقه تلكم التجليات وهذه الظواهر، لأن فهمنا للخليقة من حولنا لا يكون فهما عميقا إلا إذا كان فهما مترابطا متفاعلا، فلا بد أن نربط -مثلا- بين ارتفاع القمر ونزوله وبين المد والجزر في البحر، كما نربط بين طلوع الشمس وبين التفاعلات الكيماوية التي تحدثها في أوراق الأشجار، فالكائنات حقائق مترابطة يتصل أدنى شيء منها بأقصاها، والكبير والصغير والقريب والبعيد في ذلك سواء، كلهم متفاعلون مع بعضهم يجري ربنا عليهم حكما واحدا ونظاما مطرّدا، ولا نستطيع أن نفهم القوانين الثابتة التي تجري في الخلق إلا بفهم ذلك التفاعل، فالقانون الذي تتحرك على أساسه أكبر مجرات الفضاء هو نفس القانون الذي تتحرك وفقه الكريات المتناهية في الصغر داخل الذرة المتواضعة، ثم إن كل ذلك التواصل والتفاعل والخضوع للسنن الواحدة يهدينا إلى الحقيقة العظمى ألا وهي التوحيد. إن ربنا العزيز الحكيم هو الخالق لها جميعا، وهو المدبر لها.

ويبدو أن منهج القرآن لإنماء هذا الوعي الشمولي للكائنات الذي يشكل مستوى رفيعا من تكامل عقل الإنسان يتمثل في أن القرآن يذكرنا باسم من أسماء الله الحسنى، ثم يتدرج نازلا من ذلك الاسم إلى مختلف الظواهر التي يتجلى فيها ذلك الاسم الكريم، في عالم الطبيعة (الآفاق) وعالم الإنسان (الأنفس)، في حاضر الإنسان أو ماضيه أو مستقبله، لكي تتماوج بنور الله أشعة فكره صاعدة من بعض ظواهر الخلق إلى أسماء الخالق، ونازلة من أسماء الرب إلى سائر الظواهر، ومن ماضي البشرية إلى حاضرها وإلى مستقبلها، فتتسع آفاق معرفته، وتغور في أعماق الغيب بصائر وعيه، ويسمو في درجات اليقين عقله، وتزكو بنور الإيمان نفسه، ويهديه الله إلى نوره الأبهى، قويا عزيزا كما إن ربه قوي عزيز، ويصبح حكيما خبيرا كما أن ربه حكيم خبير، كل ذلك بمعرفة أسماء الله الحسنى.

وربما تدرَّج المنهج القرآني بصورة عكسية، فيبيِّن ظاهرة في آفاق العالم أو أغوار النفس أو أبعاد التاريخ، ثم يذكر اسما من أسمائه الحسنى. ونهايات الآيات القرآنية مثل:

- ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

- ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

مفاتح حيوية ونافعة جداً لو تدبرّنا فيها، لأن الرب يذكرنا بظاهرة ثم يربط بينها وبين اسم من أسمائه الحسنى، فإذا وعيناه حق الوعي عرفنا تجلياته في سائر الظواهر أيضا.

وحيث ذكر السياق في الآية الثانية أن هذا الكتاب منزل من الله، والله هو العزيز الحكيم بيّن في الآية الثالثة بعض تجليات العزة والحكمة، فقال:

[٣] ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لقد خلقها على عظمتها الهائلة فهو إذا قوي عزيز، ولأن بناءها كان قائما على أساس الحق فهو إذا حكيم.

ونستوحي من هذه الآية أن حكمة الله اقتضت محدودية الخليقة، فلكل شيء فيها أجل معدود، وحد محدود، وهكذا يكون الزمان جزءاً من حقيقة الخليقة، وربما انفتحت أمامنا آفاق واسعة لو تدبرنا أكثر فأكثر في حرف الباء الذي يستخدم للاستعانة، وتساءلنا: لماذا ذكره السياق فيما يتصل بالأجل كما ذكره عند الحديث عن الحق.

فهل يمكن أن نستنتج أن الحق والأجل هما ركيزتا الخلق، على أن يكون الحق هو المعبرّ عن النظام الحق الذي يُسَيِّرُ الخليقة، والأجل هو الجانب المادي للخليقة (والزمن جزء من وجود الإنسان)، ثم هل نستطيع أن نقول أن الحق تجل لاسم الحكمة، والأجل لاسم العزة؟.

أنّى كان فإن الله يشير في مواقع عديدة من القرآن إلى مثل ذلك، فيقول -مثلاً- في سورة الأعراف [آية: ٥٤]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ويقول في سورة فصلت [آية: ٩-١٠]: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

ولا بد أن نعيش هذه الحقيقة فيما يتصل بموقفنا من الوقت الذي هو جزء من حقيقتنا، وأن وعي الزمن ركيزة أساسية في حكمة البشر، وسلامة عقله، وتنامي حضارته.

لا بد أن نعرف أننا -نحن البشر- كسائر الأشياء الأخرى، يحدونا الليل والنهار، ويتعقبنا الموت، وإذا ينبغي علينا أن نخاف ونخشى، ليس لأن حياتنا الدنيا ستنتهي ويقفل الموت أبوابها، بل لأن النهاية ستلقي بنا وإلى الأبد في واحدة من اثنتين إما روضات النعيم وإما حفر الجحيم.

ولأهمية العلم بهذه الحقيقة كان الإمام علي عليه السلام يذكر بها أبناءه وأنصاره في مواعظه

البليغة، فترى يذكر بها -مثلا- في وصيته لابنه الحسن عليه السلام حيث يقول في أولها: «مِنَ الوَالِدِ الفَانِ المُقِرِّ لِلزَّمَانِ المُدْبِرِ العُمُرِ المُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا السَّاكِنِ مَسَاكِنَ المَوْتَى وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً إِلَى المَوْلُودِ المُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ غَرَضِ الأَسْقَامِ وَرَهِينَةِ الأَيَّامِ وَرَمِيَّةِ المَصَائِبِ.....

ثم يشرع فيها عليه السلام، وكان مما قاله خلالها: «وَذَلِّلْهُ -قلبك- بِذِكْرِ المَوْتِ وقَرِّرْهُ بِالفَنَاءِ وبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا وحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي والأَيَّامِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ المَوْتِ هُوَ مَالِكُ الحَيَاةِ وأَنَّ الخَالِقَ هُوَ المُمِيتُ وأَنَّ المُفْنِيَ هُوَ المُعِيدُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً المُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ المُثْقِلِ والمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ المُسْرِعِ وأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ووَطِّئِ المَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ فَلَيْسَ بَعْدَ المَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ولَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ولِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ولِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ وأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ ودَارِ بُلْغَةٍ وطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ وأَنَّكَ طَرِيدُ المَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ ولَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ ولَابُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وبَيْنَ ذَلِكَ فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ وذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ وتُفْضِي بَعْدَ المَوْتِ إِلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَكَ وقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ وشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ولَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ.

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ.

واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وإِنْ كَانَ وَاقِفاً ويَقْطَعُ المَسَافَةَ وإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً واعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ ولَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ»[1].

هكذا أشبع عليه السلام وصيته بتلك الحقيقة، ولو نظرنا في خطبه ورسائله وحكمه في نهج البلاغة لرأينا أن أغلبها يركز على تلك الحقيقة وتحوم حولها.

وهكذا القرآن الحكيم يذكر البشر بالموت والنشور والحساب والجزاء، وأن الإنسان محدود، وأنه إذا جاءه أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، ولكن أكثر الناس لا يعقلون هذه الحقيقة، سادرين في الغفلة حتى ينتهي أجلهم، ويفاجئهم الموت.

---

(١) نهج البلاغة: رسالة ٣١.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والعلاقة متينة بين خاتمة الآية وفاتحتها، حيث إن الذين كفروا يعلمون أن الله لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، ثم تترى عليهم نذر ربهم فيعرضون، فهل هم غافلون عما تشير له آيات التدبير والحكمة! فالإنذار يستثير الانتباه إلا أنهم معرضون فلا ينتفعون بالنذر.

[٤] وقد يتهرب الإنسان من هذه الحقيقة بالشرك الذي هو حجاب بين الإنسان وبين فهم الحقائق، فيزعم بأن شيئا ما يستطيع إنقاذه من قبضة الموت أو الحساب من بعده.

قال الإمام علي عليه السلام: «مَا رَأَيْتُ إِيمَاناً مَعَ يَقِينٍ أَشْبَهَ مِنْهُ بِشَكٍّ عَلَى هَذَا الإِنْسَانِ إِنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ يُوَدِّعُ إِلَى القُبُورِ وَيُشَيِّعُ وَإِلَى غُرُورِ الدُّنْيَا يَرْجِعُ وَعَنِ الشَّهْوَةِ وَالذُّنُوبِ لا يَقْلَعُ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِابْنِ آدَمَ المِسْكِينِ ذَنْبٌ يَتَوَكَّفُهُ وَلَا حِسَابٌ يَقِفُ عَلَيْهِ إِلَّا مَوْتٌ يُبَدِّدُ شَمْلَهُ وَيُفَرِّقُ جَمْعَهُ وَيُؤْتِمُ [يُوتِمُ] وُلْدَهُ لَكَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحَاذِرَ مَا هُوَ فِيهِ بِأَشَدِّ النَّصَبِ وَالتَّعَبِ...»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَقِيناً لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكٍّ لَا يَقِينَ فِيهِ مِنَ المَوْتِ»[2].

إن الناس كلهم يموتون، وهذه حقيقة لا شك فيها، ولكن أغلبهم يتصورون في خبيئة أنفسهم أنهم يبقون ويخلدون في الدنيا، ولعل سبب ذلك هو فظاعة تصور الموت وما وراءه من حساب دقيق وجزاء أوفى، ولذلك تراهم يتشبثون بأي تبرير ليقنعوا أنفسهم بأنهم لا يموتون أو لا يحاسبون، وهنا تنعقد نطفة الشرك والتوسل بغير الله ابتغاء إنقاذهم من مصيرهم المحتوم، فقد يتصورون المال منقذا لهم من الموت، فتراهم يجمعون البلايين من الدنانير، ويحرصون في الحصول على الأكثر، بالرغم من أن تلك الأموال الهائلة تكفيهم وتكفي ذرياتهم إلى عشرات الأجيال، ولكنهم لا يريدون المال للعيش به، وإنما لسد النقص الذي يشعرون به في أنفسهم، إنهم فعلا يفتشون عن الخلود، ويخافون العاقبة المرة، يقول تعالى موضحا هذه الحقيقة: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢-٣]، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

وقد يتصورون السلطة سببا للفرار من الموت، ووسيلة للهروب من الفناء، قال تعالى عن فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، وقد يتصورون أن القوة المحدودة التي يملكونها تحجز عنهم

(١) بحار الأنوار: ج٦ ص١٣٧.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٩٤.

أمر الله فيهم بالموت أو الحساب أو العذاب، قال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢].

ولكن كل تلك التصورات زائفة، ولهذا يقول الرب: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، فأنت كنت تخاف من سكرة الموت، وحتى تخلص نفسك منها ولو عبر عملية الخداع الذاتي أشركت بالله ما ليس لك به علم، والآن هل يمكن أن يغني عنك ذلك الشريك شيئا؟ كلا.. فهي قد جاءتك، وستذوق مرارة الموت، وتتحسَّس عنفه وفظاعة نزعاته.

وفي الحقيقة: لو يتفكر الإنسان ويتعمقّ في واقع أمر الشركاء يعلم بفطرته أنهم لا يغنون عنه شيئا، ولكنه يشبه ذلك الغريق الذي يتشبث بكل عشبة، مع علمه بعدم جدوائيتها، وإنما يريد أن يقنع نفسه بأنه يعمل على إنقاذها.

كلا.. إن فطرة الإنسان تهديه إلى أن الشريك الذي يتخذه من أجل إنقاذ نفسه لا بد أن يكون ذا قوة كافية، لا بد أن يخلق شيئا في الأرض (حتى يتساوى مع خالق الكائنات ولو بقدر محدود) أو يمتلك سلطة ما في إدارة السماوات.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهم يعرفون -حقا- أن شركاءهم ليسوا كذلك، ولا لهم علاقة بالله يوظفونها لمصلحة المشركين إذا فأين حجتهم في ذلك؟

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ فأي كتاب من الكتب السماوية دلَّ على أن لله شريكا؟

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ وأي بقية من بقايا العلم، دلت على أن له شريكا؟

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إذا كان بإمكانكم أن تأتوا ببرهان فأتوا به، من كتاب يتلى أو حديث يروى؟

ولكن مَنْ لا برهان له يتشبث بأفكار باطلة، مع علمه بكذبها، وإنما لكي يخلِّص نفسه من مواجهة الحقيقة المرة، وهذه ضلالة خطيرة، فهو كمن يفقد عزيزا ويصعب عليه امتصاص صدمة فقده فيبادر قائلا: كلا.. إنه غير ميت.

[٥] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن

﴿دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ هكذا هم الشركاء. إنهم لو دعاهم الإنسان إلى يوم القيامة لما استجابوا له، بل هم غافلون عن دعائه يشغلهم شأنهم الخاص عن شؤون الداعين، وسواء كان الشركاء الحجرية، أو الأموات ممن يزعم الشركاء المشركون أنهم شفعاؤهم يوم القيامة، أو الأصنام البشرية التي تعبد من دون الله، فإن لكل واحد منهم سببا لغفلته عمن يدعونهم، أما الأحجار فإنها لا تعي شيئا، وأما الأموات فهم عند ربهم مجزيون بأعمالهم، وأما سلاطين الجور والمترفون وأشياعهم فهم لاهون بمصالحهم عن مصالح من يشرك بهم.

[٦] ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ ويوم القيامة يكفر المشركون بشركائهم، ويعادونهم، ويقولون لهم: أنتم الذين ضيعتمونا، وأدخلتمونا النار، وقد قال ربنا سبحانه في آية كريمة يصور لنا العلاقة بين الطرفين يوم القيامة: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

[٧] وأما الرسالة، فكيف كانوا يتعاملون معها؟.

والجواب: إنهم من أجل رفض الأفكار القرآنية السليمة كانوا يلفقّون تهما ويلصقونها بها ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ إنها واضحة بينة، حتى لتكاد تكرههم بقبولها، ولكنهم يصدون عنها بقوة، ويمنعون عن أنفسهم نورها بإصرار، كالذي يهرب من الغيث أن يصيبه رذاذه أو الشمس أن تحوطه أشعتها.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ حينما يأتيهم الحق يقولون بكل وقاحة: إنه سحر مبين، لماذا؟ لأنه يهيمن عليهم، ولا يدعهم -لاستطالة حجته- يواجهونه بدليل وبرهان. إنهم يقولون: هو سحر، فيقال لهم: ما هو دليلكم على بطلانه؟ فيقولون: ليس عندنا دليل، ولكنه سحر!

هكذا يعادي الإنسان الحق، حتى إنه يتهم نفسه بفقدان الإرادة والوعي ويقول: أنا أصبحت مسحورا، كل ذلك ليخلّص نفسه من مسؤولية الإيمان بالرسالة.

[٨] والبعض الآخر يقول: إنه افتراء على الله، وإذا كان قولهم أنه سحر دل بوضوح على مدى تأثير الرسالة عليهم وأخذها بمجامع قلوبهم، وسد الطريق أمام تخرّصاتهم، حتى إنهم اعترفوا بقدرتها وبعجزهم عن مقاومتها، فإن كلمتهم التي زعموا بها أن الرسالة افتراء دلت على أن الرسول لم يكن يدعو الناس إلى نفسه بل إلى ربه، مما دعاهم إلى اتهامه بأنه مفتر ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ ولكن الرسول ﷺ هو أول من كان يعلم بوخامة الافتراء، وأنه لو افترى

حديثا على الله فسوف يعذبه عذابا شديدا، وكان يعترف بذلك ضمن ذكر آيات القرآن.. فكيف يدين نفسه بنفسه؟! كيف يفتري على الله الكذب، ثم يقول: إن جزاء الذين يفترون على الله الكذب أنهم لا يفلحون، ولهم عذاب شديد؟!

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فالرسول ﷺ يعلم يقينا بأن الله محيط به علما، وإنما يفتري على الله الكذب من لا يؤمن به، ومن لا يعلم بأنه يحيط به علما، ويعلم ما يدور بينه وبين الآخرين من حديث، علنا أو سرا ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من تخرُّصات أو تهم حول الرسالة، وهو يحاسبكم عليها جميعا ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ويبدو أن هاتين البصيرتين (علم الله بما يسترسلون فيه من كلام، وشهادته عليه) هما العلاج النفسي والحجة البالغة عليهم. أوَلَيس كل واحد منهم يؤمن في قرارة نفسه بكذبه، ولكنه غافل عن أبعاد جريمة نكرانه للحق، فيذكرهم القرآن بالله الذي يحيط علما بما يقولون، ويشهد عليهم شهادة تتمثل بنصره للحق وتأييده لنبيه وخذلانه للباطل وأهله.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ما هي العلاقة بين المقطعين: ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، و﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؟

ربما العلاقة هي أن الله شهيد على الإنسان، يعلم انحرافه وضلاله، ولا يرضى عنه ويبغضه، ولكن لأنه غفور رحيم فهو يمهله لفترة معينة.

إذن لا تقل أيها الإنسان: أنا سأكفر بالله وليأخذني إن كان يحب رسالته، لأنه غفور رحيم، يتركك تعصي لمدة معينة رحمة بك، وإذا لم ترعو ولم تراجع نفسك ولم تعد إلى الحقيقة فإنه يأخذك أخذ عزيز مقتدر.

قل ما كنت بدعا من الرسل

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا(١) مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

هدى من الآيات:

الحق هدفنا، والحق القديم الذي يصدِّقه الرسول الجديد يتبع، بينما الباطل المبتدع لا بد من نبذه، حتى ولو احتفظ بطراوة الحداثة.

يبدو أن هذه الحقيقة هي محور الدرس الذي يفتتح بأن نبينا الأكرم جاء خاتما لسلسلة الأنبياء الكرام فهو ليس بدعا، وهو لا يدَّعي الألوهية إنما إبلاغ رسالات ربه، ويصدِّقه شاهد من بني إسرائيل؛ فكتابه امتداد لتلك الرسالة التي أوحيت إلى موسى عليه السلام، وإنما استكبر عنه البعض لظلمهم والله لايهدي القوم الظالمين.

وحين يبادر الصالحون للإسلام يرفضه المستكبرون، ويقولون: لو كان خيرا ما سبقونا

(١) بدعاً: جديداً بديعاً.

إليه! ثم يتهمون الرسالة بأنها إفك قديم، لأنهم لم يهتدوا بها.

وفعلا الرسالة ذات امتداد في عمق التاريخ لأنها تصدّق ما نزل على موسى إماما ورحمة.

ثم يأمر القرآن بالاستقامة على التوحيد ومواجهة البدع وهي ثمن الجنة.

بينات من الآيات:

[٩] للناس في الرسالات والرسل مذاهب ثلاثة:

الأول: النفي المطلق، وإذ لم يعرف هؤلاء كيف يبعث الله الرسل اتبعوا جهلهم وأهواءهم وأنكروا الرسالة رأسا.

الثاني: إن صلة الرسل بربهم صلة تكوينية، بمعنى أن الرسل عليهم السلام هم قطعة منفصلة عن الإله ونازلة إلى الدنيا.

وبهذا يزعمون أنهم يحلون المشكلة ويعرفون كيف يتم الاتصال بين الخالق والمخلوق، إذ إن هذه الصلة كانت قديمة، وهي أساسا صلة تكوينية، فكيف يكون واحد منهم يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويشبههم في كل شيء من حياته، كيف يكون أعلى وأفضل منهم؟! لا بد أن يكون جنسه مختلفا عن جنسهم، وذاته غير ذواتهم، ولا بد أن يكون من أنصاف الآلهة ومن طبيعتها.

الثالث: إن الأنبياء والرسل هم مثل سائر البشر، ولكن الله تعالى ميزهم بالرسالة، حيث جعلها فيهم جعلا، ولو شاء لسلبها منهم، فهي تشبه المصابيح في الغرفة فإن لم يكن وهاجا لن يحول الغرفة إلى واقع نوراني، إنما سينعكس النور عليها مادام الضوء متقدا.

هكذا الرسالة، فما دام روح القدس مؤيدا للنبي فهو نبي، فإذا افترضنا -جدلا- أن ربنا أراد -بمشيئته المطلقة- أن يسلب روح القدس منهم فإنهم يصبحون كسائر الناس.

وعلم الرسل هكذا، ليس علما ذاتيا، وإنما هو مضاف إليهم من عند الله الذي يهب لهم موجات من المعرفة تلو موجات من العلم بقدر ما شاء، وإذا أراد أن يسلبها منهم فإنه على ذلك قدير.. ولهذا ينبغي أن لا نذهب بعيدا فيما يتصل بالأنبياء عليهم السلام، بل نعرف أنهم يعلمون ما يشاء الله ويجهلون ما سوى ذلك، فكيف لم يكن يعقوب عليه السلام وهو من أنبياء الله العظام يعلم بمكان يوسف عليه السلام؟! وكيف لم يكن إبراهيم عليه السلام يعلم بأن السكين الذي وضعه على أوداج

إسماعيل لا يفريها؟!

الجواب ببساطة: لأن الأنبياء بشر، والله يغيّب عنهم ما يشاء من العلم.

وهذا يفسر قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. فغيب الله له وليس لأحد، وهو علام الغيوب، وعنده مفاتح الغيب، ولا يعلم الغيب إلا هو، ولكنه يعطي قدرا منه لأنبيائه لحكم معينة.

وهكذا تحل عقدة الغرابة من ابتعاث الرسل، وتعالج المعضلة التي يتشبث بها الكافرون، والتي كانوا يعودون إليها كلما بعث إليهم نبي جديد مع أنه سبقه إخوانه في الرسالة.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إن بعض الظواهر الكونية تتكرر كل يوم، وبعضها كل أسبوع، وبعضها تتكرر كل سنة، وبعضها كل قرن، ومن الظواهر التي تتكرر بين فترة وأخرى الحروب، فهي إحدى الظواهر الاجتماعية التي تقع عادة بين الحين والآخر، ونحن نعترف بوجودها بالرغم من غرابتها الشديدة، لأنها واقعة وتقع في المستقبل.

وهكذا بالنسبة للرسل، فهم حتما وجزما يُرسَلوُن من قبل الرب، مادامت العوامل المؤيدة لإرسالهم متوفرة.

وهنا يأمر الله عزَّ وجلَّ رسوله الأكرم ﷺ بأن يوضح للناس هذه الحقيقة، فكونه رسولا مبعوثا من قبل الله ظاهرة متكررة وسنة جارية، ولا داعي للغرابة. ولكن -من جهة أخرى- ليس علم الرسول من ذاته.

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فهو لا يعلم ما يفعل به ولا بهم إلا بقدر ما يشاء الله، بمعنى أنه لا يدري كل ما يفعل به وبهم إلا في حدود رسالته، لأن الرسول ﷺ بشر كسائر الناس لا يعلم ماذا سيحدث مستقبلا بذاته بل، إن الرسول -مثلا- يعلم أن الناس جميعا سيموتون ونحن كذلك نعلم ذلك، أما معرفة التفاصيل والاطلاع على دقائق الأمور فإن الله سبحانه يزيده منها بقدر مشيئته الحكيمة.

والرسول -كما يبدو من هذا المقطع من الآية- لا يعلم كل التفاصيل المستقبلية، وإنما عليه أن يتّبع الوحي الذي ينزل عليه حسب الحكمة الإلهية.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير هذه الآية، ويبدو لي أنها ظاهرة بل صريحة فيما قلناه آنفا، فإن عدم معرفة الرسول بما يفعل به أو بهم لا يشمل ما يوحى إليه من غيب، ولا ريب أنه سبحانه أوحى إليه أن له عند ربه مقاما محمودا، وأن

المجرمين من أعدائه في سقر.

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ فأنا لست كفيلكم، ولا وكيلا عنكم.

وهذه الفكرة تتكرر كثيرا في القرآن الحكيم، وذلك لما لها من أهمية في دفع الإنسان للإيمان بالرسالة وتحمل المسؤولية، لأن الإنسان الذي تدعوه إلى الله لو علم بحقيقة أنك لست مسؤولا عنه، وأنه هو المسؤول عن نفسه، فإنه ربما يكون ذلك مشجعا له على التحرك الذاتي، وبالتالي يهتدي إلى الحق.

[١٠] عندما يكون الخطر كبيرا يكفينا أدنى احتمال في وقوعه لكي نتخذ التدابير اللازمة لدرئه. أرأيت لو خشيت من انفجار يقع في بيتك أفلا تتركه فورا، حتى ولو كان افتراض وقوعه بنسبة ٥٪ فقط؟

إن أكثر إجراءات السلامة في أوقات الحرب بل حتى أيام السلم تهدف درء احتمالات ضئيلة، إلا أن أهميتها تنبع في أن الأخطار التي تهدف درءها عظيمة.

إننا لا نتخذ إجراءات وقائية كبيرة إذا خشينا الإصابة بنزلة برد طارئة، حتى ولو كان الخوف بنسبة ٥٠٪، ولكننا نتقي خطر الموت حتى ولو كان بنسبة ١٠٪ أو حتى ١٪. أليس كذلك؟

وكما في الجانب السلبي كذلك في الجانب الإيجابي، فلا ريب أننا لا نعير اهتماما لاحتمال حصولنا على ربح ضئيل، وإن كانت إمكانية ذلك كبيرة مثلا بنسبة ٩٠٪، ولكن كلما ازداد الربح فإن اهتمامنا باحتمالاته يزداد حتى يصل إلى الاهتمام به إذا كان بنسبة ٠١ و ٠٪ إلا ترى كم هي نسبة حصول الإنسان على الجائزة في عملية اليانصيب، لا ريب أنها أقل من واحد بالألف، ولكن لماذا يهتم بها الناس؟ أليس لأن الجائزة كبيرة يسيل لها اللعاب؟

والآن دعنا نتساءل: أولا تستحق الحياة الأخرى، بما تحمل من إنذار بعذاب شديد خالد، ومن بشارة بنعيم عظيم دائم، الاهتمام بها وبإمكانية وقوعها حتى ولو كان بنسبة ضئيلة جدا؟! كيف وأن نسبة احتمالها مرتفعة حتى عند الجاحدين بها لتواتر الأدلة عليها؟!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ فكم تكون خسارة البشر عظيمة عندما يكفر برسالة ربه، ويتحدى خالقه ورازقه ومن إليه مصيره؟! إن هذا التساؤل يهزنا من الأعماق ويجعلنا نبدأ مسيرة الشك المنهجي فيما نسترسل فيه من الأفكار والقناعات.

وحتى بالنسبة إلى المؤمنين برسالات الله ينبغي أن يكسروا حالة الجمود الفكري،

ويتساءلوا في أنفسهم: كم هي عظيمة رسالات ربهم، وكم حظهم عاثر لو استخفوا بها أولم ينفذوا كل تعاليمها؟ حقا: إنه يسقط عنا -نحن المؤمنين- حجاب العادة الذي يمنع إيماننا من التسامي، كما يسقط عن الآخرين حجاب الاستكبار الذي يمنعهم عن رؤية شواهد صدق الرسالة، فتراهم - مثلا - يغفلون عن شهادة العلماء بصدق الرسالة، ولا يسألون أنفسهم: كيف أسلم علماء بني إسرائيل للرسالة الجديدة، كأمثال عبد الله بن سلام الذي كان معروفا عندهم بالصدق والنزاهة؟

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ﴾ بالرغم من مخالفة الإيمان ظاهرا لمصلحته. أليس يفقد مكانته عند قومه كقائد، ويصبح جنديا في جيش الإسلام؟

﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الحق، فلم تؤمنوا به بالرغم من البينات التي تواترت على صدقه.

بلى، إن الحجاب الكبير الذي يحجز نور الإيمان عن قلوبهم هو استكبارهم في الأرض، وظلمهم للناس. أوليس الظلم ظلاما دامسا؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[١١] ما الذي يمنع الظالمين من الإيمان بالرسالة؟ إنه استكبارهم على الناس، واعتقادهم بتميزهم عنهم، حتى لو سبق طائفة منهم إلى الإيمان بالرسالة كفروا بها ترفعا عن التساوي معهم، وقالوا: كيف نسمح لأنفسنا أن نكون عند الناس من اللاحقين، بينما يسبقنا إلى الرسالة من هم أدنى منا؟ إذا دعنا نكفر بها خشية العار!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ لقد كانت القبائل العربية في الجاهلية شديدة الخلاف بينها، تتعالى على بعضها، ولا ترضى أن تعترف بأية فضيلة لبعضها، فإذا آمنت قبيلة كفرت المنافسة لها حتى لا تسجل لخصمها نقطة عليها.

مثلا كانت قبيلة غفار البدوية تُستَصغَر من قبل قريش، وتسميها الحلفاء استهانة بها، فلما أسلم أبو ذر الغفاري وأسلمت معه قبيلته قالت قريش: «غفار الحلفاء!! لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه»[1]. وهكذا كفرت بنو عامر وغطفان وتميم وأسد وحنظلة وأشجع، وقالوا لمن أسلم من غفار وجهينة ومزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا إليه رعاة البقر إليهم إذ نحن أعزّ منهم[2].

كما أن اليهود الذين استوطنوا الجزيرة العربية بزعم انتظارهم للنبي الموعود فيها كفروا

---

(١) قال ابن المتوكل أن الآية نزلت فيهم (تفسير القرطبي: ج١٦ ص١٨٩).

(٢) قال الكلبي والزجاج وحكي عن ابن عباس أن الآية نزلت فيهم (تفسير القرطبي: ج١٦ ص١٩٠).

بالنبي بعد إيمان العرب به، وقالوا: لو كان خيرا ما سبقونا إليه.

كما أن قريشا كفرت بالرسالة حين رأت مبادرة الموالي من أمثال بلال وصهيب وعمار إليها. إنهم كانوا يبحثون عن دين يقوي نفوذهم في الطبقات الدنيا لا أن يساويهم بها.

وهكذا اليوم نجد الدعوات الإصلاحية التي يستجيب لها المحرومون والمستضعفون تلقى الصد من قبل والمترفين والمستكبرين، بدعوى أننا أعرف منهم وأعلى مقاما فلا يجوز أن نعترف بحقوقهم أو بميزتهم علينا في السبق إليها. أوَلَيس السابقون هم المقربون؟!

كما أن بعض السفهاء يخالفون الحق ويمنعون عن أنفسهم خيراته لمجرد أن منافسيهم سبقوهم إلى الإيمان به. إن ذلك من بقايا العصبيات الجاهلية التي تمنع نور الهدى.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ بسبب عصبياتهم وظلمهم واستكبارهم فإنهم يبحثون عن تبرير لجحودهم يقنعون به الضعفاء منهم، بل ويريحون نفوسهم التي تلومهم أبدا على ترك الحق، فتراهم يتهمون الرسالة بالإفك.

﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وهكذا يتسافل الجاهل في دركات الكفر ابتداءً من ظلمه للناس واستكباره عليهم، ومرورا بالتشبث بدليل ضعيف أنه لو كان خيرا ما سبقونا إليه، وانتهاء بوضع نظرية معادية واتهام الرسالة بأنها إفك قديم، كما قالوا بأنها أساطير الأولين.

[١٢] كلا.. إنها رسالة الله الواحدة التي تشهد حقائق التاريخ بصدقها، وأعظم ما يصدقها أن بعضها مصدق البعض.

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ فهو برنامج للاقتداء، ورحمة لمن اقتدى به ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ فهو ليس إفكا قديما كما زعموا، بل صدق شهدت أحداث التاريخ على نفعه العام للإنسانية. أفلا ترون كيف كان كتاب الله النازل على موسى لبني إسرائيل، أنقذهم من الضلالة والاستضعاف والحرمان حين طبقوه؟

﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فالطغاة والمستكبرون والمترفون الذين ظلموا الناس لا يمكنهم اتخاذ القرآن وسيلة لاستثمار الآخرين كما تهواه أنفسهم، بل جاء الكتاب لإنذارهم ولإنقاذ المحرومين من ظلمهم.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ من أية طبقة كانت، فإذا آبَ أولئك إلى رشدهم وتابوا وأحسنوا فإن لهم البشرى كما للمحرومين.

[١٣] التوحيد هو عبادة الله أبداً، وعدم التسليم للآلهة المزعومة التي تعبد من دون الله باسم السلطة السياسية أو النظام الاقتصادي أو الضغوط الاجتماعية، وإنما يتبيَّن توحيد الإنسان عندما يتعرض لإرهاب السلطة وترغيب الثروة ومقاطعة المجتمع إذا استقام على الدين. والكتاب بشرى للمحسنين الذين يتحلون كل تلك الصعاب.

ولعل سياق الآية يدل على ضرورة الاستقامة أمام البدع الجديدة التي تخلقها القوى المتسلطة، وتتهم الرسالة بأنها إفك قديم سعيا وراء تغيير بعض بنودها الذي يخالف مصالحها، كلا.. لا بد من الاستقامة على أحكام الدين بلا تحريف أو تأويل أو نقص أو زيادة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

[١٤] بالرغم من إرهاب الطغاة فإنه لا خوف عليهم، لأن العاقبة لهم، وغدا حين ينتصر الحق لا يحزنون على ما فاتهم من الخيرات.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وحين يدخلون الجنة يعلمون أن الثمن الذي قدموه لها كان زهيدا نسبة بما حصلوا عليه من ثواب الله العظيم.

ونستوحي من كلمة ﴿جَزَآءًۢ﴾ هنا أن الجنة لا تعطى بالتمنيات، إنما هي ثمن الاستقامة والصبر والتحدي.

ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا[١] بَلْ

(١) عارض ممطرنا: أي شيئاً كالسحاب ذي المطر عرض في أفق السماء.

هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لكي ينظم الإنسان علاقة سليمة مع والديه والجيل السابق لا بد أن يختار الرشد الذي يدعونه إليه، ويترك الغي، أما التمرد الذي يحدو إليه النزق، والذي يدفع بعض الأبناء إلى اتهام آبائهم بالرجعية، والافتراء على الدين الذي يدعون إليه بأنه من أساطير الأولين، فإنه سَفَهٌ وطيش لا يقل سوءاً عن تقديس الآباء وتقليد عاداتهم، ورد الدعاة إلى الإصلاح.

في هذا الدرس يوصينا الرب بالإحسان إلى الوالدين الذي هو عنوان العلاقة السليمة، حيث إنه الطريق القويم بين التقليد الأعمى والتمرد الطائش.

كما يذكرنا بأن عاقبة الطيش والتمرد النزق على الآباء هي الخسران.

بينما نقرأ في الدرس التالي قصة الذين اتبعوا آباءهم الضالين، ولم يستجيبوا لداعي الله هود الذي أمرهم بالإصلاح، فكانت عاقبتهم الدمار.

وتُعَدُّ العلاقة السليمة مع الآباء سمة إيمانية، كما أن العلاقة الشاذة عقبة كأداء في طريق الإيمان.

بينات من الآيات:

[١٥] بم تتميَّز الوصية عن الحكم؟ ولماذا نجد في القرآن التعبير بالوصية حينا وبالحكم حينا؟ لعل الوصية تتصل بالقيم التي هي محتوى الأحكام فتكون توجيها عاما، بينما يعبر عن النظام، الذي هو منهج تطبيق القيم بالحكم. فإذا كان التعبير بالحكم فلا بد من الالتزام بحدوده وحروفه وتفاصيله بدقة وصرامة، بينما إذا جاء التعبير بالوصية فلا بد من الالتزام بالقيم بأية طريقة ممكنة، وبالمنهج الذي يراه العرف مناسبا.

وحين يأمر ربنا بالعدل فإن التعبير يأتي بصيغة الأمر: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ذلك لأن العدالة قيمة تتحقق بالأحكام المفصلة، والنظام الشامل، أما إذا كان الحديث عن الإحسان فإنه يأتي بصيغة الوصية، لأن الإحسان يتحدد بالعرف وحسب ظروف كل شخص ومنهجه.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ لا بد أن يهتم الإنسان -أي إنسان- بوالديه أنّى كانا اهتماما يبلغ درجة الإحسان، وهي فوق أداء حقوقهم القانونية.

ويختلف الأمر بالإحسان عن الأمر بالطاعة اختلافا كبيرا، ذلك أن الإحسان ينبعث من اليد العليا، بدافع الإحساس بالاستقلال والقدرة، وصاحبه يقدّر متى وكيف وبأي قدر يمارسه، بينما الطاعة حالة التسليم والخضوع وفقدان الاستقلال وحسب الأمر الموجه إليه دون أن يكون لصاحبه الحق في تقدير أي أمر منه.

ولم يأمر الإسلام بطاعة الوالدين بل بالإحسان إليهما، لأن الطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر، ولا يستطيع الوالدان أن يحرما حلالا أو يحللا حراما، بل أمر بالإحسان إليهما، وقد يتجلى الإحسان في قبول أمرهما في ما لا يخالف الشرع والعقل، ويكون فيه فائدة عائدة إليهما.

والدليل الذي يبينّه السياق للوصية بالإحسان إلى الوالدين يعم المؤمنين والكافرين، البرين والفاجرين، حيث يعزو السياق ذلك إلى الجهود الكبيرة التي بذلاها في سبيل تنشئة الولد.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ فمنذ الساعات الأولى من الحمل يمتص الجنين طاقات الأم مما يعرضها للإرهاق والأخطار، وكلما تقدم بها الحمل زادت الصعوبات الجسدية، كما تزيد عندها المخاوف والهموم.

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وقد تكون الولادة عسرة مما تجعل الأم تقول: يا ليتني مت قبل هذا اليوم وكنت نسيا منسيا. ثم إن ذلك لا يتم عبر فترة بسيطة، بل يمتد أشهرا عديدة، مما يجعل دين الأم عظيما في ذمة الولد ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ فخلال تسعمئة يوم تقريبا تنشغل الأم بوليدها. أفلا ينبغي للولد بعد أن يشتد عوده وتخور طاقات أمه أن يحسن إليها؟

بلى، وهذا من ديدن الرجل الصالح الذي قد تستمر رعاية الوالدين إليه حتى يبلغ أشده، بل ويبلغ أربعين سنة وتكتمل رجولته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ ومتى يبلغ الإنسان أشده، هل عندما يصل إلى سن البلوغ الشرعي الذي هو عند الفتى كمال سن الخمسة عشر أو الاحتلام، وعند الفتاة كمال التاسعة من عمرها، أم عندما تبلغ سن الرشد الذي قيل أنه بلوغ الثامنة عشر؟

قال البعض: «إن الإنسان لا يبلغ أشده إلا عند سن الأربعين، بيد أن الأقرب إلى ظاهر

الآية هو بيان نوعين من البلوغ:

الأول: البلوغ الأولي الذي يجعل الفرد مستعدا لدخول الحياة.

الثاني: البلوغ الأتم الذي يحدث عند سن الأربعين حيث يكتمل نمو خلايا المخ، وتراكم تجارب الحياة، ويكون الإنسان في قمة عمره حيث ينحدر من بعدها شيئا فشيئا إلى نهايته، ومن هنا جاء في الحديث أن الشيطان يمسح يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبي وجه لا يفلح »[1].

ويؤيد ذلك أن الإنسان يمثل في العقد الأربعين من عمره دور الولد الذي أكمل الوالدان دورهما في نموه وتطوره، كما يمثل الوالد الذي ذاق -بدوره- الصعوبات التي تحملها والداه في أمره فعرف قدرهما، ووعى قدر النعم التي أسبغها الله عليه. فطفق يشكر الله شكرا جزيلا، ولكنه كلما ازداد وعيا بالحياة ومشاكلها عرف عجزه عن أداء شكر الله فأخذ يدعو الله أن يوفقه لشكرهما بفضله، لأن منبعث الشكر الرؤية الإيجابية إلى الحياة، وهي تطلق قدرات الإنسان من عقال اليأس والتشاؤم والسلبية، وتزرع في قلبه حب السعي، وروح النشاط، وهمة التقدم، والتطلع إلى الأهداف السامية.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ ونستوحي من الآية مقياسين لصلاح العمل: المقياس الذاتي الذي يتمثل في فائدة العمل وصحته بحكم العقل والعرف، والمقياس الشرعي الذي يتمثل في مرضاة الله التي نعرفها بالقيم الدينية.. والمؤمن يتطلع لتحقيق العمل الصالح في ذاته الذي يقربه شرعا إلى الله، وهو بالطبع ليس كل عمل صالح، بل الذي يقع ضمن استراتيجية الرسالة، فمثلا: تعبيد الطرق عمل صالح، إلا أنه قد لا يكون مرضيا عند الله، كما لو ابتغى الفرد منه علوا في الأرض أو فسادا، كذلك حين يكون هذا الفعل الصالح معارضا لعمل أولي كالدفاع عن الوطن أو مقاومة الطاغية.

وهكذا يدعو الإنسان السوِّي ربه التوفيق للقيام بعمل صالح مرضي عنده وليس كل عمل صالح، كما يدعو إلى أن يكون امتداده في الحياة وذريته من الصالحين. لقد سهر الآباء لتربية هذا الجيل على الفضيلة والتقوى، وأنفقوا في سبيل إنشاء المدارس والمعاهد، وتوفير الثقافة الحكيمة، وبناء الجوامع ومراكز التوعية والتوجيه، وقد أثمرت جهودهم في بناء هذا الجيل الصالح. أفلا نسعى نحن في سبيل بناء الجيل الصاعد على ذات الأسس الصالحة؟ بلى، إن ذلك هو الشكر العملي على نعمة الصلاح التي أسبغها علينا الرب.

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ج٤ ص٦٤.

﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ إن صلاح الذرية يكرّس مكاسب هذا الجيل الحضارية، ويبقى لهم الذكر الحسن، ويكون بمثابة صدقة جارية تغدق عليهم الثواب وهم مستريحون في أجداثهم، ولعله لهذه الأسباب جاء التعبير القرآني ﴿لِي﴾، بلى، إن فائدة صلاح الذرية لي قبل غيري.

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ فخلال رحلة العمر ذات الأربعين ربيعا أزاغته الذنوب عن صراط ربه العزيز الحميد، وقد ذهبت الآن غشاوة السهو عنه، كما تلاشت لذّات الشهوات، وأزالت طوارق الزمن سكرة الشباب، واكتمل عقله، وعرف أن طريق الفلاح ينحصر في التوبة إلى الله عز وجل.

لقد قرأت أخيرا في مجلة غربية واسعة الانتشار مقالا يدعو من بلغ الأربعين ألاّ يحاول تغيير عاداته، ويبدو أن الكاتب كان يعتمد في ذلك على أن الإنسان في مثل هذا الوقت لا يملك إرادة التغيير، وهذا ينسجم مع النظرة المادية إلى الإنسان، وتلخيص دوافعه في الشهوات الدنيوية التي تتراجع عند سن الأربعين ويتلاشى بعضها مما لا يجد دافعا نحو التغيير، بينما البصيرة القرآنية تدعونا إلى التوبة عند سن الأربعين، حيث يكتمل العقل، وتلتهب جذوة الضمير، وتتهيأ فرصة الإصلاح، وتتنامى دواعي الخير وبواعث الفضيلة فيه.

وهكذا يكون عقد الأربعين أفضل مناسبة للثورة الذاتية، بالتوبة إلى الله، والتسليم للشريعة التي تخاطب العقل، وتذكي دواعي السعي للآخرة التي يكون صاحب الأربعين أقرب إليها من غيره.

﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فإذا دعتني سكرة الشباب إلى التمرد رَدَحاً من الزمن فها أنا ذا اليوم أعترف بالذنب، وأخضع لك يا ربِّ خضوعا تاما، وأفتش في صفحات تاريخي، فإذا وجدت فاحشة هنا وخطيئة هناك، وظلما للناس، وغصبا للحقوق، وانحرافا في العقيدة وزيفا في الثقافة، وعادات سيئة وما أشبه، فإني أسعى لتغييرها والتخلص من وزرها وتبعاتها بتوفيقك. أوَلَيس كل ذنب وزيغ وانحراف يخلف أثره في قلب الإنسان، دعنا إذا نتخلص منه بالتوبة، لنطهر القلب من أدرانه، والسلوك من سيئات العادات، ونترك جانبا الاستخفاف بالقيم، والتهاون بالواجبات والسهو عن الصلاة والزكاة و..

[١٦] وبالرغم من ابتعاد هذا الفريق من الناس حينا عن الصراط السوِّي فإن توبتهم مقبولة، ويتقبل الله حسناتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويدخلهم الجنة مع الصالحين من عباده.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ وإنما يتقبل الله من المتقين، وقد يتقبل من

غيرهم بعد توبتهم حيث يَعُدُّهم كالذين لم يذنبوا أبدا وهم المتقون من عباده.

وقال المفسرون: «إن المراد من أحسن الأعمال الواجبات والمندوبات، بينما المباحات لا ثواب عليها بالرغم من حسنها».

وقد يقال: إن لقبول الحسنات أيضا شروطا لا تتوافر فيها جميعا فلا يتقبل الله منها إلا الأحسن، مما يبعث الإنسان إلى السعي لتحقيق كل شروط العمل الصالح. مثلا لا يقبل الله من الصلاة إلا ما التفت العبد فيها إليه، فلنقم الصلاة بحيث يتقبلها الله جميعا لا جزء منها هو الأحسن ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أوَ ليسوا قد تابوا إلى الله منها توبة نصوحا، والله سبحانه هو التواب الرحيم؟

﴿فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أولئك الصالحين الذين أخلصوا لله حياتهم، وأية كرامة أعظم لأمثالنا أن يدخلنا الله في الصالحين من عباده ونحن ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا؟!

﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

[١٧] ويضرب القرآن مثلا من واقع الصراع بين الأجيال، حيث يتمرَّد الجيل الصاعد على قيم الحق وتقاليد الصلاح عند الجيل السائد، لنعتبر به وألا نهلك باتباعه.

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ بينما الدين أوصانا بالإحسان إليهما نجد هذا الفاسق يضجر من والديه اللذين هما أصل وجوده وكل خير فيه، ويقول لهما: أف لكما.

وكلما يحذره الوالدان من مغبة الإيغال في الخطيئة ينهرهما، ويكفر بالجزاء قائلا:

﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ بعد الموت للحساب، كلا.. إنه وعد مكذوب، ثم يستشهد بما درج عليه الجاحدون للجزاء: بأن القرون المتطاولة قد مضت، ولمَّا يخرج منهم أحد. أرأيت ميتا أحياه الله بعد أن أقبر وأوقفه للجزاء؟! كذلك لا أخرج أنا.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أفلا يعلم أن الحياة الآخرة تأتي بعد انقضاء الحياة الأولى، ويومئذ يبعث الله الأولين والآخرين معا، ويحقق وعده الحق؟

وهكذا يتمرَّد الفاسق على تربية الوالدين وهما يبذلان كل جهد ممكن لإقناعه بالحق، فإذا شعرا بالفشل استغاثا بالله أن يعينهما في إصلاح ابنهما الضال ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ والتربية الحق هي التي تزرع في قلب الولد خشية الله، إذْ ما قيمة السعادة في الدنيا إذا أعقبها الشقاء الأبدي؟!

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ونستلهم من هذه الآية المنهج السليم لتربية الطفل الذي كان يتبعه الوالدان المؤمنان، الذي أنشأ الله به ذلك الجيل الصالح الذي احترم الجيل الماضي بالإحسان إليه والاستغفار له، كما عمل في سبيل إنشاء جيل صالح بالدعاء والعمل. وهذا المنهج قائم على أساس توسيع رؤية الطفل ليرى الحياة الأخرى فيوازن بينها وبين الدنيا في قراراته، فيسعى لهما سعيا عادلا، ولا يترك إحداهما للأخرى، لأنهما في الواقع حياة واحدة ممتدة من اليوم حتى يوم الجزاء.

بَيْدَ أن بعض الآباء يخفقون في هذا السبيل، وعليهم ألا يقلقوا فقد أدوًّا مسؤوليتهم، وما جعل الله لهما سلطانا يكرهان به ولدهما على اتباع الحق. كيف وقد خاطب الله رسوله الكريم: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد خلق الله الناس أحرارا يبتليهم، ولعلنا نستفيد من هذه الآية أن مسؤولية الدعاة وحملة الرسالة تقتصر على البلاغ، وحتى لو كانت لديهم قوة رادعة فلا يستحسن التوسل بها لإكراه الناس على اتباع الرشد، فبالرغم من أن للوالدين السيطرة الطبيعية على الولد إلا أنهما حين يقومان بدور الداعية يستفرغان الجهد في إقناعه بالحجة، وليس بإكراهه، وعادة ينجحان، أما إذا فشلا فذلك أمر يعود إلى وجود حرية القرار عند الولد الذي قد يتمرَّد على الحق بحجة أنه تقاليد بالية وأفكار رجعية.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ويبدو من هذه الكلمة أنه متمرِّد على الماضي، ويتهمه بأنه يمثل الخرافة والدجل، وهذا شأن صراع الأجيال الذي يحرم الجيل الصاعد من ثقافة الجيل السائد وتجاربه وعبره وعظاته، ويقضي على التواصل الحضاري الذي هو عنوان تقدم الأمم.

وقد كان لهذا النفس المشؤوم آثاره السيئة علينا نحن المسلمين في العصر الحديث، حيث لم يميِّز الشباب بين السمين والغث من تجارب آبائهم فرفضوها، وسعوا نحو تقليد الأجانب، فكانوا كالغراب الذي حاول تقليد الطاووس في مشيته فلم يفلح فضيع المشيتين!

إن من لا يملك أصالة لا يستطيع الانتفاع بتجارب الآخرين، لأنه لا يملك مقياسا سليما يميز به ما ينفعه من تجاربهم وما يضره، فيكون كمن يبني على الرمال سرعان ما ينهار بناؤه. وقد دلت تجارب التاريخ على أن الأمم ذات الأصالة هي الأقدر على احتواء تجارب غيرها من الأمم المتمردة على تاريخها ومكاسب حضارتها.

ونحن اليوم بانتظار ذلك الجيل المؤمن الذي يعيش بثلاثة أبعاد: متفاعلا مع حاضره، مستفيدا من ماضيه، متطلعا لمستقبله.

[١٨] الدين والكفر قديمان عند البشر، فكما كان منذ القدم رجال صالحون ملتزمون بالدين كان آخرون يكفرون به، فإذا كان كل قديم رجعية فإن الكفر هو الآخر قديم! وهذه الأفكار التي يروجها الجاهليون باسم التقدمية موغلة في الرجعية، إذ إنها تدعو إلى حالة البدائية حيث لم يكن لدى أهلها التزام بالقيم والعادات الصالحة، وهذا الذي يكفر بالبعث ويدّعي أنه من أساطير الأولين سوف يحشر مع أولئك الكفار من الأولين، حتى يتبيّن له أن الكفر -وليس الدين- هو من أساطير الأولين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ وكيف حق القول عليهم؟.

لقد كفروا فطبع الله على قلوبهم، وسلبهم توفيق الإيمان، فظلوا كافرين حتى أدخلهم الله النار في الأمم الغابرة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ وعلينا أن نعتبر بمصيرهم فلا نبادر إلى الكفر فيغلق الله علينا باب التوبة إلى الأبد، ولا يقولنّ الواحد: أكفر الآن فإذا أردت الإيمان فالطريق مفتوح أمامي. كلا.. إن فرصة الإيمان محدودة، وقد تسلب منك حتى الأبد.

وفي هذا درس للداعية ألا يهلك نفسه أسفا على بعض الناس إن لم يؤمنوا، فلعلهم ممن طبع الله على قلبه فلا يستطيع الإيمان أبدا.

[١٩] ولكي لا يزعم الإنسان أن تقسيم الناس على الجنة والنار اعتباطي، يزيدنا السياق هدى بأن أعمال الناس هي التي تسوق أصحابها إلى المصير النهائي إما الجنة أو النار، وتأكيدا على ذلك أن للجنة درجات كما للنار دركات، ومنازل أهل الجنة أو أهل النار تحدد بأعمالهم أيضا، حتى لا يدع للشك مجالا في أنهم لا يظلمون، بل هم يجزون بما كانوا يعملون.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ يبدو أن المراد من ﴿وَلِكُلّٖ﴾ أهل الجنة وأصحاب النار لكل درجته ومنزلته حسب عمله ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي ليجزيهم أعمالهم جزاء تاما وافيا ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا هنا، يره هناك بدرجاته المتعالية في الجنة، ومن يعمل مثقال ذرة شرا هنا، يره هناك بعذاب دركات النار.

[٢٠] ولا يدع كتاب ربنا الحكيم الإنسان في غمة من أمره بل يكشف له أسباب الكفر فيبيّن له علاجها، لكي لا تكون للناس حجة بعد البيان، ذلك أن النار شيء عظيم، فكيف يلقي

رب الرحمة عبده العاصي فيها دون أن يتم عليه الحجة كاملة ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ هنالك حيث تستعد النار لاستقبال أفواج الكفار والعصاة بألسنة اللهب المتصاعدة والشهقات الواسعة التي تبتلع الملايين، هنالك إذ تتوضح الحقائق، فلا غفلة، ولا استرسال ولا تبرير، ولا إمهال، هنالك تقال لهم كلمة الحق التي لو عرفوها في الدنيا إذا ما أمهلوا، ولا تشبثوا بالأعذار التي لا تغني شيئا.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فهذا هو السبب المباشر للمأساة. الوقت والطاقة والفراغ وسائر النعم هي ذخيرة الإنسان ليوم الحساب، فمن بذرها للمتعة العاجلة في الدنيا فماذا يبقى له ليوم فاقته؟

إنما السعيد من قدم شيئا مما عنده لحياته الخالدة، وقسم وقته وطاقاته بين السعي للدنيا والعمل للآخرة، ولم يكن همه التمتع بكل ما يملك في دنياه فيكون مثله كذلك الشاب الذي أبلى شبابه في اللذّات فإذا تقدم به العمر إلى خريف الحياة لم يجد إلا الحرمان والألم والحسرات.

ولكن ما الذي يدعو الإنسان إلى التبذير بالطيبات في الدنيا، هل الحاجة الضرورية؟ كلا.. ذلك أن حاجات الإنسان محدودة، ويمكن له توفيرها ببعض قدراته. إنه يوفّر لقمة عيشه وسكناه وأمتعته بأيسر الجهد، إنما لهث البشر يكون عادة وراء الكماليات. إنه يختار ألذ الطعام، وأرفه المساكن، وأرقى المتاع، حتى ولو كان على حساب آخرته، فيظلم الناس بالسرقة والغش، وقد يصبح أداة للطغاة من أجل الحصول على الكماليات، ولأن الكماليات بدورها درجات ولا يمكنه أن يبلغ مداها فإنك تراه دائب اللهث وراءها، فإذا بنى قصرا ووجد قصر صاحبه أفخم عقد العزم على بناء ما هو أعظم من بناء صاحبه، وإذا اقتنى سيارة وعلم أن أخرى خير منها دخل السوق سعيا نحو شرائها بكل وسيلة ممكنة، وهكذا..

وهنا نتساءل: ما هو جذر التنافس على الكماليات بهذه الشدة، مع أن بعضها لا يمس شهوات الإنسان من قريب؟!

الجواب: إنه الاستكبار، حيث يبحث الإنسان أبدا عن التعالي على أقرانه بحق أو بباطل، وإذا نزع الإنسان رداء الكبرياء، وتسربل بالخشوع والقنوع، فإنه يقتلع جذر الانحراف من نفسه، هناك يكتفي بالضرورات وما يتيسر له من زينة الدنيا، فيقسّم طاقاته بعدالة بين حياته هنا وحياته الأبدية هناك. أما إذا استكبر فإنه يشتري هوان العذاب في الآخرة، ويقال لمثله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ والفسق هو الخروج عن الحدود، مما يدل على أن المستكبر بغير حق يتجاوز حدود الشرع مما يوجب له أليم العذاب.

الحياة بين الحكمة والمتعة

إن حياتنا في هذه الدنيا ذات حكمة تنبسط على كل ممارستنا فيها، مما يجعل لكل بعد منها هدفا محددا لو سعينا نحوه كانت الحياة شريفة. أما إذا فرّغنا أعمالنا من أهدافها، ومارسناها لذاتها، فإنها تصبح متعة زائلة. فمثلا: الطعام سبيلنا إلى القوة فمن طعمه لشهوة الأكل لا لبلوغ سلامة البدن وقوته كان ممن أذهب طيباته، والثياب وسيلة للستر والزينة فمن استهدف المفاخرة بها أذهب طيباته، وهدف التعلم العمل فمن تعلم العلم للعلم دون أي هدف آخر ضل سبيله وأضل عمله. ومن هنا ليس صحيحا أن نجعل الفن للفن، إنما لتوعية الناس، وتحسيسهم بالحقائق، وإثارة حوافز الخير فيهم، ومن دون ذلك يصبح الفن هراء، ويذهب بطيباتنا.

وحين يفقه الإنسان حكمة الحياة ومفرداتها يعتدل سلوكه فيها. يبصر الهدف من طعامه فيزهد فيما لا ينفع جسده، ويعرف الهدف من ثيابه فلا يفاخر ولا يبذر، ويضع علمه في خدمة قيمه، وإذا مارس الفن حقق أهداف أمته من ورائه. ألا ترى كيف كان يعيش رسول الله ﷺ والأئمة الصالحون من خلفائه عليهم السلام.

روي في الحديث أن عمر بن الخطاب قال: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي مَشْرَبَةِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّهُ لَمُضْطَجِعٌ عَلَى خَصَفَةٍ وَإِنَّ بَعْضَهُ عَلَى التُّرَابِ وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مَحْشُوَّةٌ لِيفاً فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ. ثُمَّ جَلَسْتُ فَقُلْتُ: يَارَسُولَ الله أَنْتَ نَبِيُّ الله وَصَفْوَتُهُ وَخِيَرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ وَكِسْرَى وَقَيْصَرُ عَلَى سُرُرِ الذَّهَبِ وَفُرُشِ الدِّيبَاجِ وَالحَرِيرِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ طَيِّبَاتُهُمْ، وَهِيَ وَشِيكَةُ الانْقِطَاعِ وَإِنَّمَا أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا**»[1].

أما الإمام أمير المؤمنين فيقول عنه حفيده الإمام الباقر عليه السلام: «واللهِ إِنْ كَانَ عَلِيٌّ عليه السلام لَيَأْكُلُ أَكْلَ العَبْدِ ويَجْلِسُ جِلْسَةَ العَبْدِ وإِنْ كَانَ لَيَشْتَرِي القَمِيصَيْنِ السُّنْبُلَانِيَّيْنِ فَيُخَيِّرُ غُلَامَهُ خَيْرَهُمَا ثُمَّ يَلْبَسُ الآخَرَ فَإِذَا جَازَ أَصَابِعَهُ قَطَعَهُ وإِذَا جَازَ كَعْبَهُ حَذَفَهُ ولَقَدْ وَلِيَ خَمْسَ سِنِينَ مَا وَضَعَ آجُرَّةً عَلَى آجُرَّةٍ ولَا لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ ولَا أَقْطَعَ قَطِيعاً ولَا أَوْرَثَ بَيْضَاءَ ولَا حَمْرَاءَ وإِنْ كَانَ لَيُطْعِمُ النَّاسَ خُبْزَ البُرِّ واللَّحْمَ ويَنْصَرِفُ إِلَى مَنْزِلِهِ ويَأْكُلُ خُبْزَ الشَّعِيرِ والزَّيْتَ والخَلَّ ومَا وَرَدَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ كِلَاهُمَا للهِ رِضاً إِلَّا أَخَذَ بِأَشَدِّهِمَا عَلَى بَدَنِهِ ولَقَدْ أَعْتَقَ أَلْفَ مَمْلُوكٍ مِنْ كَدِّ يَدِهِ وتَرِبَتْ فِيهِ يَدَاهُ وعَرِقَ فِيهِ وَجْهُهُ ومَا أَطَاقَ عَمَلَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وإِنْ كَانَ لَيُصَلِّي فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ أَلْفَ رَكْعَةٍ وإِنْ كَانَ أَقْرَبُ النَّاسِ شَبَهاً بِهِ عَلِيَّ بْنَ الحُسَيْنِ عليه السلام ومَا أَطَاقَ عَمَلَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ»[2]

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٣ ص٣٢٠.

(٢) وسائل الشيعة: ج١ ص٨٨.

وهكذا كان يربي النبي أصحابه. فقد ورد في الحديث أنه ﷺ دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الصّفة وَهُم يَرقَعُونَ ثِيَابَهُم بِالأَدَم[1] مَا يَجِدُونَ لَهَا رِقَاعاً، فَقَالَ: أَنتُمُ اليَومَ خَيرٌ أَمْ يَوم يَغْدُو أَحَدُكُم فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخرَى، وَيُغدَى عَلَيهِ بِجَفْنَةٍ وَيُرَاحُ عَلَيهِ بِأُخرَى، وَيَسْتُرُ بَيتَهُ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ؟ قَالُوا: نَحْنُ يَومَئِذٍ خَيرٌ، قَالَ: بَلْ أَنتُمُ اليَومَ خَيرٌ»[2].

[٢١] عذاب الدنيا أهون من جهنم، ولكنه شاهد عليها، ولقد استمتع الكفار بدنياهم، وأذهبوا فيها طيباتهم، فابتلوا بعذاب بئيس هنا قبل الآخرة. ألا يكفينا ذلك عبرة؟

هؤلاء قوم عاد ملأ قلوبهم حب الدنيا حتى حجبهم عن فهم حقائق الآخرة، فإذا بهم يعرضون عن النذر بالرغم من بلاغ إنذارهم.

ويبدو أن السياق يضرب لنا من قصة عاد مثلا على جملة البصائر التي تقدمت في هذا الدرس، التي منها: تشبث الإنسان بالتقاليد، وتوغله في شهوات الدنيا.

﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ دعنا نذكرهم لنتعظ بمصيرهم.

وكان هود من القبيلة ذاتها فكان إنذاره بليغا. أوليس يتحدث بلسانهم وحسب مستواهم العقلي؟ وبالإضافة إلى ذلك هو من أنفسهم يحب لهم الخير.

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ قالوا: الأحقاف هي الكثبان الرملية التي تتجمع هنا وهناك. وقالوا: إنها كانت وسط الجزيرة العربية بين نجد والأحساء وحضرموت وعمان. وقال بعضهم: كانت جنوب الجزيرة باتجاه اليمن أو في سواحل بحر العرب بين عمان وعدن، وقيل أنهم كانوا مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر.

ويبدو أن ذكر الأحقاف هنا للدلالة على أن الله أسبغ عليهم نعمة الماء والكلأ في موقع يندران فيه أي بين التلال الرملية المتحركة، وكان عليهم أن يشكروا نعمة الله، ويستجيبوا للنذر. أولا يرون طبيعة الأرض من حولهم، وكيف تكاد الرمال المتحركة تبتلع حضارتهم الهشة، ولكنهم اغتروا، وتجبروا، واستكبروا في الأرض بغير الحق، وفسقوا عن أمر ربهم فجاءتهم عاصفة رملية دمرت حياتهم.

﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ لعل المراد من هذه الكلمة: أن النذر توالت عليهم في فترات متعاقبة قبل بعثة هود، فبعضهم كانوا قريبين من عصره ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، بينما

(١) الجلد المدبوغ.
(٢) نور الثقلين: ج٥ ص١٧.

كان بعضهم بعيدين من عصره ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، والله العالم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ هذه هي الرسالة بصورة مختصرة، وهي تحتوي على سائر التعاليم، فمن عبد الله وحده تعبد بالشريعة التي أمر بها، ومن عبد الله وحده كفر بالطاغوت وكل مستكبر وظالم، ورفض التبعية، ومن عبد الله وحده لم يسترسل مع شهوات الدنيا حتى الهلاك ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

[٢٢] أما عاد فقد تشبثوا بالواقع الراهن رغم فساده، لأنهم زعموا أن مصالحهم تتعرض للخطر لو آمنوا بربهم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ وكأن آلهتهم التي كانت رمزا لقوى الظلم والاستكبار هي المقدسات التي أراد هود أن يصرفهم إفكا عنها.

وربما يوحي الاستفهام بأنهم لم يصدقوا أنفسهم كيف يجرأ أحد على مقاومة تلك الآلهة، لذلك تحدوا هودا بكل صلافة قائلين: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهكذا الذي يركن إلى المادة يستبد به الغرور إلى درجة تراه يتحدى من ينذره، ويستعجل لنفسه العذاب.

[٢٣] وكعادة الكفار بالغيب زعمت عاد أن هودا هو الذي ينزل عليهم العذاب، وأن بيده أمره، فنفى ذلك بصراحة: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ وإنما هو رسول يبلغهم أمر الله. ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وهذه مسؤولية أصحاب الرسالة الأساسية، بيد أن ذلك لا يعني أنه مجرد ساعي بريد، كلا.. بل له بدوره كلام ينصحهم به ألا يكذبوا بالرسالة: ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ذلك أن تحدي جبار السماوات والأرض، واستعجال عذاب الإبادة والتدمير، لا يكون إلا عن جهل مطبق.

[٢٤] وهاهي إرهاصات العذاب تلوح في الأفق. أرأيت الأعاصير الترابية كيف تبدو من بعيد؟ كأنها سحابة سوداء، وبما أنهم قد منع عنهم الغيث لفترة حتى أجدبت أرضهم استبشروا خيرا بما رأوا، وزعموا أنه غيث يستقبل أوديتهم العطشى.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ولعل تأخر المطر عنهم كان بهدف إنذارهم عمليا لعلهم يتضرعون إلى ربهم، كما كانت بين يدي غرق فرعون وجنوده آيات تهدف إيقاظهم من سباتهم، ولكنهم أصروا على كفرهم، فجاءهم النداء: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[٢٥] إنها عاصفة رملية مأمورة من عند الله بأن تدمر كل شيء مما عند قوم عاد في الوقت

المحدد، فهي إذا ليست هوجاء تمضي من دون أمر.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ تتصل ظواهر الطبيعة بعمل الإنسان حتى لا تكون حادثة صغيرة أو كبيرة إلا ولها علاقة بما يختلج في قلبه أو تكسبه يداه، أو تبلو به سرائره وتختبر إرادته، فحتى الأمواج الهادرة التي تحيط بالسفن الشراعية وهي تمخر عباب البحر ليست بعيدة عما يجري في داخل السفينة. أرأيت كيف تتساقط أغشية الشرك عن أبصارهم فيهرعون إلى الدعاء لكي ينقذهم الله من ورطتهم، كما يصف ربنا ذلك بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

بل، إن هذه البصيرة تجعل الإنسان يزداد تحسسا بالمسؤولية، واتقاء للأخطاء، وانضباطا في أعماله وأقواله ونياته ألا تفسق عن الحدود التي رسمها له الله. أوَليس كل شيء يحدث بأمر ربه؟ أوليس الله حكيما لا يقضي بشيء من دون استحقاق؟ إذا دعنا نكون حذرين، نتورع عن ما يغضب الرب، ونعتبر بمصير الغابرين.

إن الجهل والعناد والجحود لا تنفعنا شيئا، بل هي مسؤولة عن وقوع أكثر الناس في المهالك. إنهم يزعمون أن الطبيعة عمياء تصيب ضحاياها بلا قانون! كلا.. إنها مأمورة، وربها الذي يدبرها عليم حكيم.

وها قد نزلت الكارثة بقوم عاد بأمر الله، واجتاحت العاصفة ديارهم ودمرتهم ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ ودليل أن الريح كانت مأمورة أنها لم تأخذ إلا المجرمين منهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فهي سنة عامة لا تخص عادا وحدهم، فأي قوم مجرمين لا بد أن يحيق بهم عملهم يوما.

أما هود والمؤمنون معه فقد أنجاهم الله، قالوا: «إنهم اعتزلوا في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما يلين أعلى ثيابهم، وتلتذ الأنفس به، بينما كانت تمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا»[1].

وقد جاء في التاريخ.. «روي أن المهدي أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادي[2] لعطش الحاج هناك، فحفر أكثر من مائة قامة، فبينما هم يحفرون إذ خرقوا خرقا فإذا تحته هواء لايدرى قعره

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٢٠٧.
(٢) وهو حسب قول الحموي: «منزل في طريق مكة من القادسية إلى العذيب».

وهو مظلم، وللريح فيه دوي فأدخلوا رجلين. فلما خرجا تغيرت ألوانهما فقالا: رأينا هواء ورأينا بيوتا قائمة ورجالا ونساء وإبلا وبقرا وغنما، كلما مسسنا شيئا منها رأيناه هباء. فسألنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو. فقدم أبو الحسن موسى على المهدي فسأله عنه فقال: أولئك أصحاب الأحقاف هم بقية من قوم عاد، ساخت بهم منازلهم، وذكر على مثل قول الرجلين»[1].

(١) تفسير نور الثقلين: ج٥ ص١٨.

فاصبر كما صبر أولو العزم

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم (١) مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

(١) يجركم: أي يحفظكم.

هدى من الآيات:

يستمر السياق في الحديث عن سنة الله في الخليقة التي تتجسد في بعث الأنبياء عليهم السلام، كلما انحرف الناس عن المسيرة، وإنذارهم بمصيرهم المرتقب، ويشير إلى القرى التي أنذر أهلها بالأنبياء، وأنزل لهم الكتب لعلهم يهتدون، ولكنهم بَدَلَ أن يعبدوا الله ويعتمدوا عليه إذا بهم يعبدون الأنداد من دونه، فلم يغنوا عنهم -ساعة الانتقام- شيئا.

ويقصُّ علينا ربنا في هذا السياق كيف صرف إلى الرسول نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما آمنوا به ولوّا إلى قومهم منذرين، ولعل سبب ذكر هذه القصة في هذا السياق أن الكفار كانوا يزعمون بأن الجن أنصاف آلهة، وأنهم يدفعون عنهم الضراء. أوَلَمْ يقل ربنا سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فجاءت هذه القصة لبيان حاجة الجن أيضا إلى الرسالة.

بينات من الآيات:

[٢٦] عندما يفرُّ الجاحد -لآيات الله- من مسؤولية الاعتراف بالحق، والتسليم له، يلجأ -في زعمه- إلى ركن الغرور بالقوة والعلم، ويعتقد أن ما يملكه من أموال، ومن كيد، ومن مكر تغنيه شيئا عندما يحدق به خطر الدمار، بسبب كفره بالله ورسالته.

كلا.. إن مصير الغابرين من عاد، وثمود، وفرعون وهامان وجنودهما، وغيرهم يكفينا عبرة بأن قدراتنا المادية والعلمية إن هي إلا غرور.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ و(ما) في قوله: ﴿فِيمَآ﴾ بمنزلة (الذي) و﴿إِن﴾ نافية بمنزلة (ما)، والتقدير: ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه أي ما لم نمكنكم فيه، والمعنى: أنهم كانوا أقوى منكم، وأكثر منكم أموالا وكذا في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر:٨٢]. وإذا كانت قوتهم الشديدة لم تمنعهم من عذاب الله فلا ينبغي أن يظنوا أنهم بمأمن من العذاب.

وهكذا كانت الإمكانيات التي سُخِّرت لهم أكثر مما سُخِّرت لقريش، وربما لكل قوم يتلون الكتاب من بعدهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ وبما أنهم كانوا مزودين بهذه الأجهزة زعموا بأنها تنقذهم من عذاب الله. ذلك أن الإنسان يهلك إذا كان ضعيفا، أو جاهلا، أو غافلا، ولم يكن أولئك القوم كذلك، ومع ذلك أهلكوا عندما أراد الله.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ وإنما ينتفع الإنسان بهذه الجوارح إذا كان مؤمنا بآيات الله، أما إذا كفر بها فإنه سوف يخطئ المنهج السليم للانتفاع بها.. أرأيت الذي يملك أفضل وسيلة سير ثم يخطئ السبيل فهل تنفعه وسيلته لبلوغ غايته إذا كانت وجهة سَيْره خاطئاً؟! كذلك الذي لا يؤمن بالحقائق الكبرى ثم لا يستفيد من معرفته بالحقائق الجزئية التي تقع في إطارها ويكون مثله كالذي لا يعترف أن عدوه يمتلك قنبلة نووية، ثم يجد في معرفة عدد دبابات العدو.. إنه سيخسر المعركة قطعا حتى إذا عرف كل حقيقة في سلاح المدرعات عند العدو.

هكذا من لا يعتقد بقوة الله التي أرسلت على قوم عاد تلك العاصفة الهوجاء، التي دمرّت كل شيء بإذن ربها، أو التي أخذت فرعون وجنوده ونبذتهم في اليم نبذا. إن مثل هذا الرجل لن ينتفع شيئا بمعرفته مثلا بأصول الهندسة، أو كيفية تنظيم الجيش، لأن كل ذلك وضع في مواجهة أخطار بسيطة، أما مقاومة تغيير طبيعي هائل فإنه فوق قدراتنا المنظورة.. تماما كالذي يجهد نفسه في بناء خندق عميق في مواجهة سلاح ذري.. إنه مغرور لأن الخندق إنما أنشئ لمواجهة سلاح تقليدي وليس سلاحا ذريا.

وهكذا السمع والأبصار والأفئدة إنما هي أدوات لمواجهة أخطار عادية، ولا تنفع الذي يخالف إرادة الله شيئا ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من الحقائق الكبيرة التي جحدوها، وسخروا منها. إنها نزلت بهم كالصاعقة، وتنزل بمن يسير في خطهم الباطل.

[٢٧] لاتزال على الطبيعة من حولنا آثار تنطق بسنن الله في التاريخ، فهذه القرى من حولنا قد أهلكت بفعل ضلالتهم عن الحق. ولكن هل أهلكوا فجأة ومن دون نذر؟ كلا..

وكانت قريش تمر على قرى مدين وثمود عند رحلتهم صيفا نحو الشمال، وعلى قرى الأحقاف عند رحلتهم شتاء نحو الجنوب، وجاء القرآن يبصرهم بِعِبَرِ تلك القرى الخاوية على عروشها، وتلك الآبار المعطلة، وآثار القصور المشيدة.

وهكذا يستنطق كتاب الله حوادث التاريخ وآثار الغابرين، ويجعلها تحكي للإنسانية سيرة أسلافهم لعلهم يسعدون بتجاربهم ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ وفي أي بلد كنت طف على القرى الغابرة من حولك. قف على أطلالها، واستنطق آثار الأولين، وسائلهم: لماذا أهلكوا، فاستوعب عبر حياتهم قبل أن تكون عبرة لمن يعقل من بعدك، ذلك أن البلاد جميعا لا تخلو من آثار الغابرين الذين كتبوا عليها دروسا لم يتعلموها من أحد، ولو تعلموا بعضها

إذا ما أهلكوا ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ لنا كما لأولئك الغابرين، فلم تدمر حياتهم بلا سابق إنذار، وكانت النذر تترى عليهم بهدف صرف العذاب عنهم إذا اتبعوا النذر وعادوا إلى الرشد.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ ونستوحي من كلمة ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ أنهم كانوا مستبصرين في أول حياتهم، ماضين على الفطرة الأولى، فلما انحرفوا أنذروا بالعذاب لعلهم يرجعون إلى فطرتهم الأولى.

[٢٨] فلماذا تولوا عن النذر، ولم يستجيبوا لداعي الله، ولماذا لم يعتبروا بمصير من سبقهم؟

لأنهم اتخذوا من دون الله قربانا آلهة فزعموا أنهم ينصرونهم من عذاب الله، ولكن هيهات.

وهكذا يزعم الإنسان أن بمقدوره التمسك بذيل من يزعم أنهم مقربون إلى الله، من آبائه أو عظماء قومه لينجونه من مصيره، وهكذا يخدع نفسه ويظل في غروره حتى يأتيه العذاب فيكتشف متأخرا أنه كان في ضلال بعيد، وأنهم لا يستطيعون نصره أبدا.

﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ وكما أنهم لم يقدروا على نصرهم في الدنيا من الدمار فإنهم لا ينصرونهم في الآخرة من عذاب النار.

﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ لقد ضلت الآلهة عنهم فلم يجدوا لها أثرا عند نزول العذاب، شأنهم شأن كل دجل وخداع ترى له صورا، وتسمع جلبة، وتستقبل وعودا في الرخاء، أما عند الشدة فهي تتلاشى كما يتلاشى السراب عندما تقترب منه.

ولكن من المسؤول: الآلهة التي كثيراص ما وعدت أنصارها بالنصر ثم ضلت عنهم عندما دقت ساعة الانتقام، أم أولئك الذين خدعوا بهم؟ لاريب أن الذين قبلوا الانسياق مع ضلالات الآلهة هم المسؤولون، لأن الآلهة من دون الأنصار لا تعني شيئا. أرأيت لو لم يعبد أحد صنما هل يختلف الصنم عن أية حجارة أخرى؟ أو رأيت إن لم يتبّع الناس الطغاة هل هم يتميزون شيئا عن غيرهم؟

إذن المسؤول أولا الإنسان الذي يصنع الإفك، ويفتري على الله ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ﴾ قالوا: الإفك الكذب، وكذلك الأفيكة، والجمع الأفائك، وإفك الجماعة كان يتمثل في تقديس الآلهة والاعتقاد بقوتهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ولعل المراد من ذلك الأنظمة الفاسدة التي كانت تترتب على هذا الإفك، والتي كانوا يفترونها على الله كذبا.

وهكذا تكون الحالة الشركية والفساد العريض الذي يؤدي إليه نتيجة ثقافة الضلالة، وفساد الأخلاق والأنظمة والعادات، ويزعم البسطاء أن الكيان السياسي الفاسد والنظام الاقتصادي والاجتماعي المنحرفين قادرين على المحافظة على مصالحهم، ولكنهم يصطدمون فجأة بالواقع المرير الذي يفرزه هذا الإفك الكبير حين لا ينفعهم الندم.

وقد نستلهم من الآية أن الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، وكذلك الطغاة والمترفين الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الناس، إنما هم جميعا صورة مجسدة لمجمل ضلالة المجتمع وانحرافه.

[٢٩] ومن الناس من يتخذ الجن آلهة من دون الله، ويأفك القداسة لهم، فلا ينتفع بعِبَرِ الغابرين اتكالا عليهم، وقد يستعيذ بهم من دون الله، ويزعم أنهم يمنعونه عن سيئات عمله، ويغنون عنه من الله شيئا.

كلا.. الجن كالإنس خلق برأهم الله، وهم بحاجة إلى الرسالة، وإن الرسل الذين يبعثون إلينا هم النذر المرسلون إليهم أيضا.. وإذ يحدثنا السياق هنا عن قصة استماع الجن للقرآن وإيمان نفر منهم ثم انصرافهم إلى قومهم منذرين فإنه يصحح بذلك تلك الصورة المشوهة عنهم في أذهان كثير من الناس حيث يزعمون بأن الجن مصدر كل شر وخبث، كلا.. بل منهم المؤمنون الذين يحملون رسالات الله إلى قومهم.

ويبدو من خطاب القرآن إليهم في آيات عديدة أنهم مكلفون به، وأنهم متعايشون معه، ولكننا -نحن البشر- حتى الآن محجوبون عنهم، كما أنهم مجزيون على إيمانهم وأعمالهم كما الإنس سواء بسواء، فلا يجوز أن يستعيذ بهم الإنس لأنهم يزيدونهم رهقا.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الصرف يعني نقل الشيء وتبديله من حالة إلى اخرى، أي ألهمنا نفرا من الجن الحضور عندك، أو حملناهم على المرور بك من دون تقدير منهم.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قالوا: في أثناء عودة الرسول ﷺ من سوق عكاظ نزل بمكان يقال له: مجنة، نسبة إلى الجن، فبات فيه، وكان من عادته ﷺ أنه يبيت لربه ساجدا قائما، يتلو أجزاء القرآن يرتلها ترتيلا، وبينما كان يتلو القرآن مرَّ به نفر من الجن قالوا كانوا من أهل نصيبين، فإذا بهم يسمعون ذكرا عجبا.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ دعونا نستمع لهذا الذكر! ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ حين انتهى الرسول من قراءته ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ يبدو أنهم كانوا ذاهبين إلى مهمة ما، ولكنهم

حينما استمعوا إلى القرآن عادوا دون أن يقوموا بمهمتهم، لكي ينذروا قومهم.

[٣٠] وفيما يلي من الآيات نص الإنذار الذي حمله الجن إلى قومهم: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قالوا: إن الرسالة الحقيقية من بعد رسالة إبراهيم عليه السلام كانت رسالة الله إلى عبده وكليمه موسى عليه السلام، وأما الإنجيل فقد كان تكميلا للتوراة، كما قال الله عن لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، واستمرت رسالة موسى إلى أن بعث الله نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، وخلال هذه الفترة -بين الرسالتين- بعث الله أنبياء ولكن ضمن رسالة موسى عليه السلام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إن وحدة القيم والمبادئ والتعاليم والمناهج والشرائع في الرسالات الربانية شاهد صدق على أنها من عند الله الواحد، ولولا ذلك كيف تتناغم هذه المنظومة المتكاملة من المعارف والأنظمة عبر العصور المختلفة والبلاد المتفاوتة والرجال المتباعدين عن بعضهم في أكثر الأبعاد المادية؟

وهكذا اهتدى الجن إلى صدق الرسول من خلال النظر العميق في رسالته وأنها تنسجم مع جوهر رسالات الله السابقة، فهي صادقة كما أن ما سبقتها كانت صادقة.

ويا ليت شعري كيف كان يكفر بالقرآن من آمن حقا بالتوراة، والقرآن هو الصيغة الأكمل للتوراة؟!.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ والحق هو ذلك النور الذي يسطع على كل قلب سليم، وكل عقل متحرر، وكل فطرة نقية، وحين يذكرٌ القرآن به لا يجد الإنسان مبررا للكفر به، إذ يتوافق الكتاب مع حقائق العقل.

وهكذا استدل الجن على صدق الرسالة بمحتواها الحق، فعرفوا الرسول برسالته فصدقوا به.

﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ليس في الكتاب آية إلا وتهدينا إلى ما يحكم به العقل، إلا أن العقل لا يقدر على معرفة الشرائع الواضحة لتحقيق الحق، فمثلا عبادة الله والتحرر من الطاغوت والعدالة والتقدم والتعاون والسلام تلك هي الحقائق التي يذكر بها الشرع، ويشهد بها العقل، ولكن كيف نحققها؟ إن الإجابة عن ذلك تجدها في الرسالة التي تهدينا إلى السبل الواضحة والقويمة لبلوغ الأهداف السامية، تلك التي نسميها بالشريعة والأحكام.

[٣١] وما لبث المنذرون من الجن أن تحمّلوا مسؤولية الدعوة بإصدار الأمر بطاعة

الرسول بعد أن عرفوا صدقه قائلين: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ وأشاروا بكلمة ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ أنهم يريدون لهم الخير باعتبارهم من قومهم، ثم أمروا بطاعة الرسول لأنه يدعو إلى الله، وهكذا يؤدبنا القرآن ألا نكرم أحدا أو نطيعه إلا باسم الله وباعتباره داعيا إليه.

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ لعل الإجابة هي التسليم له بصورة مجملة، بينما الإيمان هو العمل برسالته ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ تلك الذنوب التي تراكمت علينا قد ذهبت لذاتها وتلاشت دوافعها، بينما بقيت تبعتها وآثارها على القلب، وعواقبها على المستقبل، لعلنا نسيناها، بيد أن كتاب ربنا قد أحصاها، لذلك كان الخلاص منها غاية منى الموقنين، وأعظم باعث لهم نحو الطاعة للقيادة الشرعية، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، وربما الشهادة في سبيل الله.

وتساءل المفسرون: لماذا قال ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، أوَلَيس الإسلام يجبُّ ما قبله، مما يعني أن الله يغفر كل الذنوب السابقة عليه؟ ومن هنا قال بعضهم: إن ﴿مِّن﴾ زائدة.

ولكن قال الآخرون: إن ﴿مِّن﴾ ليست زائدة، وإن مجرد الإسلام لا يطهرٌ صاحبه من تبعات كل الذنوب، بل كلما عمل الإنسان ببعض الواجبات سقطت عنه طائفة من الذنوب حتى لا يبقى منها إلا النزر اليسير، وانطلاقا من هذا التفسير الموافق لظاهر القرآن -حيث إن الظاهر ألا تكون أية كلمة أو حرف زائدة- يجتهد المؤمنون في الأعمال الصالحة لتذهب بالسيئات.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ومن ذا الذي يجير العبد من ربه المحيط به علما وقدرة؟! وإذا كان الجن بحاجة إلى من يجيرهم من عذاب الله، فهل يقدرون على إجارة أحد من الإنس ممن يستعيذون بهم؟!

حقا: إننا جميعا نبحث عن الأمن فهل نجده إلا عند ربنا الكريم، ولكن هل يجيرنا الرب من دون طاعة رسوله الداعي إليه؟

[٣٢] وهل يستطيع أحد أن يهرب من حكومة الله، ويخرج من حدود سلطانه؟ أنّى له ذلك وكل ذرة في وجوده قائمة به سبحانه.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يستطيع هربا من عاقبة كفره أنّى مضى من أطراف هذه الأرض التي هي في قبضة ربها. إنه لا يعجزه فرارا كما يعجز أحدنا الآخر بالانتقال من حدود سيطرته أو علمه ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ ينصرونه، بالرغم من أن الإنسان يزعم أن عشيرته أو أسرته أو حزبه وناديه يهرعون إلى مساعدته عندما يتعرض

للعذاب، ولكن ذلك لا ينفعه أمام عذاب الله الذي قد يشملهم جميعا.

بلى، الخلاص من العذاب ممكن بالهرب إلى الله من عذابه، والالتجاء إلى فناء عفوه، فرارا من سطوة انتقامه، ولكن ذلك مشروط بإجابة داعي الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ قد يضل الإنسان وهو يزعم أنه على هدى، ولكن ضلال البشر عن ربه لا يمكن تبريره أو إخفاؤه، إنه ضلال مبين، لأن القياس باطل تماما بين الله وخلقه. أليس كذلك؟ فكيف يمكن للإنسان أن يزعم أن من خلقه الله بقادر على إنقاذه من غضبة ربه الخالق الجبار؟!

[٣٣] والعذاب الأدنى في هذه الحياة شاهد صدق على العذاب الأكبر في الآخرة:

أولاً: لأنه ينسف بنى التبرير، والتشبث بالأعذار، والغرور بنعم الله، والاعتقاد بأن الله لا يعذب أحدا، كلا.. أو ليس قد عذب عادا الأولى، وثمود فما أبقى؟

ثانياً: لأنه يرينا صورة واضحة عن شدة عذاب الله، فإذا كان العذاب الأدنى ريحا تدمر كل شيء بإذن ربها فكيف بالعذاب الأكبر؟! إذا فإن ما أنذر به المرسلون من عظيم العقاب في اليوم الآخر حق لا ريب فيه.

ثالثاً: حينما نشهد عذاب الله للأمم الغابرة تلين القلوب، وتستعد لتقبل المواعظ الربانية، وكانت من قبل سادرة في غفلتها، محجوبة بغرورها وبانشغالها بالشهوات العاجلة والأماني والأحلام، لذلك كانت تلجأ إلى كهف التكذيب بالآخرة، واختلاق الشبهات حولها، فرارا من ثقل المسؤولية، ومسارعة في اللذات، ومضيا مع الشهوات حتى الثمالة.

وأكثر الشبهات شيوعا عندهم ما قالوا: كيف يعيد الله هذه الأعظم البالية وقد أضحت رميما تذروه الرياح؟! وكيف يحيي الله الموتى وقد فسد نظام أجسادهم، وماتت خلايا المخ عندهم، ولم نر أحدا منهم عاد إلى الحياة أبدا؟!

وهذه الشبهة تافهة جدا، إلا أنها تستمد قوتها من عزم البشر على التهرب من الإيمان بالآخرة خشية تحمل مسؤولياته الثقيلة، ولولا ذلك فإنها تتلاشى كما يتلاشى ظلام الليل حينما ينبلج فجر الحقيقة، بشرط ألا يحتجب الإنسان عنه بغشاوة الشهوات، دعنا نستمع إلى القرآن وهو يبدِّد هذه الشُّبهة بتساؤل يمسُّ أوتار الفطرة النقية مسا رقيقا: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أنها حقيقة ترى ليس بالعين وحدها، فإن البصر قد يزيغ، ولكن بالقلب الذي تجتمع لديه أحاسيس كل الجوارح ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾

بلى، لأننا نشهد في كل أفق من آفاق هذه الخليقة الواسعة تجدد الحياة بعد الموت، فهذا الربيع حيث تحيا الأرض بعد موتها، وتستيقظ الأشجار بعد همودها، تشهد بقدرة البارئ التي تحيط بكل شيء.

إن التنوع الهائل الذي يعجز البشر عن إحصائه في الخلق: من أقسام الأحجار والمعادن والأتربة وصنوف الأحياء، ومن الفيروس حتى الفيل، ومن أصغر خلية حية في البحر حتى الحوت العظيم، ومن أصغر حشرة طائرة حتى النسور والعقبان.

واختلاف البشر خلقا، وتقلبهم من حالة النطفة حتى بلوغ مرحلة الاكتمال.

ثم ما أوتينا علمه من عظيم خلق السماوات التي لو قيست أرضنا بها لكانت كحبة رمل في صحراء واسعة. كل ذلك يرينا جانبا من قدرة الله، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء أبدا.. فهل يستحيل عليه أن يحيي الموتى؟!

﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدرة الله تنبسط على الخليقة، حتى لا تدع شيئا يتصوره البشر إلا وقد خلقه ربنا، وأكمل خلقه، وخلق له صنوفا وأنواعا. سبحان ربنا وتعالى!

[٣٤] وما عسى أن ينفع التكذيب؟ هل يذهب نور الشمس لو احتجبت عنه؟! هل يدرأ خطر الموت عن نفسه من يكذب به، أم أنه بتكذيبه يقربه إلى نفسه أكثر فأكثر؟!

هكذا من يكذّب بالآخرة لا يدرأ عن نفسه عذابها، بل يزداد إثما بتكذيبه واستحقاقا للعذاب أكثر فأكثر. وحين يحس جحدة البعث بحرارة النار، ويرون بأم أعينهم جبالا من اللهب الذي يتميز من الغيظ في جهنم حتى لتكاد قلوبهم تنخلع من شهيقها وزفيرها، يومئذ يؤمنون بالعذاب، ولكن بعد فوات الأوان.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إنها عاقبة من كفر بالعذاب، وجحد بالبعث، وتساءل مستنكرا: كيف يحيي الله الموتى؟!

حقا: مجرد تصور تلك اللحظة التي يأتي الله بالكفار ليشهدوا جهنم ونيرانها الملتهبة يكفي للتصديق بها. أو تدري لماذا؟ لأن أساس الكفر بالآخرة قائم على الغفلة، والاسترسال مع الهوى، والاستهزاء بالحق، فيكون تصور هذا العذاب المهيب كافيا لزعزعة أساس الكفر، وتنبيه الإنسان إلى ضرورة التفكر الجدي، وإيقاف استرساله الخطير مع الشهوات، ومن ثَمَّ إسقاط حجب الغرور عن عينه ليرى بها الحقائق مباشرة.

[٣٥] لكي تمضي سُنَّةُ الامتحان في الكافرين كما أرادها الله بحكمته البالغة، لا بد أن يكتفي المنذرون بالبلاغ، ويصبروا على أذى قومهم دون أن يستعجلوا لهم العذاب.

ولكي لا يتحول الصراع مع الكفار إلى صراع ذاتي بين طائفة وأخرى، بل يبقى نقيا عن أية مصلحة مادية لأهل الحق حتى تتم الحجة على أعدائهم، لا بد من الصبر ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أوليس الرسول ﷺ منهم وهو أفضلهم، فيصبر كما صبر نوح عليه السلام عندما دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فلم يؤمن به إلا نفر قليل، وكما صبر إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار، وعندما هاجر إلى ربه، وعندما أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، وعندما حاول ذبح ابنه استجابة لأمر ربه، وكما صبر موسى عليه السلام في مواجهة أعتى طاغوت مع شعب خائر العزيمة كبني إسرائيل، وكما صبر عيسى عليه السلام على مكاره الدنيا بزهده ومقاومته لعتاة بني إسرائيل.

هؤلاء هم أولو العزم من الرسل الذين أخذ الله منهم ميثاقا غليظا، لأنهم كانوا أصحاب شريعة جديدة، لكل أهل الأرض، وكانوا بحاجة إلى صبر عظيم لتبليغها إلى الناس.

فقال ربنا سبحانه عنهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾[الأحزاب: ٧]. وهذه الآية تشهد على مدى الأذى الذي كان ينتظر هذه الصفوة الخالصة من الأنبياء فأخذ منهم ميثاقا غليظا على ضرورة الصبر عليه.

وقال ربنا وهو يبيّن أن هؤلاء الخمسة المطهرين هم أصحاب شريعة: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣]. وهكذا جاء في الحديث عن الإمام الباقر والصادق عليه السلام: «سَادَةُ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ خَمْسَةٌ وهُمْ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وعَلَيْهِمْ دَارَتِ الرَّحَى نُوحٌ وإِبْرَاهِيمُ ومُوسَى وعِيسَى ومُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وعَلَى جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ»[1]. أما عن سبب تسمية هؤلاء الخمسة بأولي العزم فقد جاء في حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لِأَنَّ نُوحاً بُعِثَ بِكِتَابٍ وشَرِيعَةٍ وكُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَ نُوحٍ أَخَذَ بِكِتَابِ نُوحٍ وشَرِيعَتِهِ ومِنْهَاجِهِ. حَتَّى جَاءَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بِالصُّحُفِ وبِعَزِيمَةِ تَرْكِ كِتَابِ نُوحٍ لَا كُفْراً بِهِ فَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَخَذَ بِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ ومِنْهَاجِهِ وبِالصُّحُفِ. حَتَّى جَاءَ مُوسَى بِالتَّوْرَاةِ وشَرِيعَتِهِ ومِنْهَاجِهِ وبِعَزِيمَةِ تَرْكِ الصُّحُفِ. وكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ بَعْدَ مُوسَى عليه السلام أَخَذَ بِالتَّوْرَاةِ وشَرِيعَتِهِ ومِنْهَاجِهِ. حَتَّى جَاءَ المَسِيحُ عليه السلام بِالإِنْجِيلِ وبِعَزِيمَةِ تَرْكِ شَرِيعَةِ مُوسَى ومِنْهَاجِهِ فَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ بَعْدَ المَسِيحِ أَخَذَ بِشَرِيعَتِهِ

(١) الكافي: ج١ ص١٧٥.

ومنهاجه حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة فهؤلاء أولو العزم من الرسل عليهم السلام»[1].

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لأن العذاب الذي يرونه يكفيهم، والأجل الذي يتمتعون فيه لا يسوى شيئا إذا قيس بذلك العذاب الرهيب الخالد ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ فإذا كان اليوم الواحد في الآخرة ألف عام، فما قيمة سبعين عاما إذا قيست بسني تلك الأيام؟! إنها في أفضل حال لحظات من نهار في عمر طويل، وهل يسعد من خسر كل عمره لقاء لحظات تمتع فيها؟!.

وهكذا ينبغي أن يتسلَّح المؤمن بحسابات أخروية، فلا يجزع من تأخير النصر، ويقول: كم سنة مرت ولمّاً ينصرنا الله! بل يحسب سنواته قياسا على أيام الآخرة وسنينها، هنالك يستطيع أن يتبع خطى أولي العزم من الرسل في الصبر والاستقامة. أليس يتبعهم في مسؤولية أداء الرسالة وبلاغها؟

كذلك نجد في النصوص الإسلامية التوصية بالصبر اتباعا لنهج الأنبياء، ففي رسالة مفصلة إلى أصحابه يقول الإمام الصادق عليه السلام: «فَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ الْأَمْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي دَخَلَ عَلَى الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وحَتَّى تُبْتَلَوْا فِي أَنْفُسِكُمْ وأَمْوَالِكُمْ وحَتَّى تَسْمَعُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ أَذًى كَثِيراً فَتَصْبِرُوا وتَعْرُكُوا[2] بِجُنُوبِكُمْ وحَتَّى يَسْتَذِلُّوكُمْ ويُبْغِضُوكُمْ وحَتَّى يُحَمِّلُوا عَلَيْكُمُ الضَّيْمَ فَتَحَمَّلُوا مِنْهُمْ تَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ والدَّارَ الْآخِرَةَ وحَتَّى تَكْظِمُوا الْغَيْظَ الشَّدِيدَ فِي الْأَذَى فِي اللهِ عَزَّ وجَلَّ يَجْتَرِمُونَهُ إِلَيْكُمْ وحَتَّى يُكَذِّبُوكُمْ بِالْحَقِّ ويُعَادُوكُمْ فِيهِ ويُبْغِضُوكُمْ عَلَيْهِ فَتَصْبِرُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ ومِصْدَاقُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي كِتَابِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ جَبْرَئِيلُ عليه السلام عَلَى نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وآله سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِنَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وآله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾»[3].

﴿بَلَاغٌ﴾ ألا يكفينا هذا البلاغ؟ بلى، لمن يأخذه مأخذ الجد ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين يتجاوزون الحدود بأعمالهم.

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٧.

(٢) عرك الأذى بجنبه أي احتمله.

(٣) الكافي: ج٨ ص٢.



سُورَةُ مُحَمَّدٍ



* مدنية.
* عدد آياتها: ٣٨
* ترتيبها النزولي: ٩٥
* ترتيبها في المصحف: ٤٧
* نزلت بعد سورة الحديد.

فضل السورة

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمْ يُذْنِبْ أَبَداً وَلَمْ يَدْخُلْهُ شَكٌّ فِي دِينِهِ أَبَداً وَلَمْ يَبْتَلِهِ اللهُ بِفَقْرٍ أَبَداً وَلَا خَوْفٍ مِنْ سُلْطَانٍ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ مَحْفُوظاً مِنَ الشَّكِّ وَالْكُفْرِ أَبَداً حَتَّى يَمُوتَ فَإِذَا مَاتَ وَكَّلَ اللهُ بِهِ فِي قَبْرِهِ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ فِي قَبْرِهِ وَيَكُونُ ثَوَابُ صَلَاتِهِمْ لَهُ وَيُشَيِّعُونَهُ حَتَّى يُوقِفُوهُ مَوْقِفَ الْآمِنِينَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكُونُ فِي أَمَانِ اللهِ وَأَمَانِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله»

(بحار الأنوار، ج٨٩، ص٣٠٣)

***

وعنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ حَالَنَا وَحَالَ أَعْدَائِنَا فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَإِنَّهُ يَرَاهَا آيَةً فِينَا وَآيَةً فِيهِمْ».

(تفسير نور الثقلين: ج٥ ص٢٥)

***

جاء في بعض الأحاديث قريباً من ذلك وفيها تحديد بني أمية، عن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «سُورَةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله آيَةٌ فِينَا وَآيَةٌ فِي بَنِي أُمَيَّةَ».

(بحار الأنوار: ج٢٣ ص٣٨٤)

الإطار العام

مميزات المؤمنين، ومثالب الكفار والمنافقين

الاسم الآخر لهذه السورة هو القتال، وبين الطاعة للنبي محمد ﷺ الذي ذُكِر اسمه المبارك في فاتحة السورة وللقيادة الشرعية عموماً، وبين قتال الكفار الذي يحتاج إلى الطاعة التامة للرسول تدور محاور هذه السورة التي تتميَّز بالتركيز على بيان الأمثال للناس، حيث تتوالى آياتها، تضرب مثالب الكفار والمنافقين، وتقابلها بصفات المؤمنين، ولعل الآية (١٧) مفارقة بين الفريقين تنطوي عليها السورة، مما يثير التساؤل: لماذا هذا التركيز في سورة القتال على الفرق بين الفريقين؟ الجواب: لسببين.

ألف: ربما لأن قلوب المؤمنين تعتمر بالرحمة الإيمانية، ومن الصعب تعبئة هذه القلوب بروحية الحرب إلا ببيان صفات الكفار السلبية، ليكون عداؤهم للكفر ومثالبه قبل أن يكون لأشخاص الكفار.

بـــاء: لأن القتال أفضل ميزان يُعرف به الرجال، ويتميَّز به المؤمنون عمَّن في قلوبهم مرض.

وإليك تفصيل الإطار العام للسورة:

١- في مستهل السورة يصرِّح السياق ببيان أن الله يُضِلُّ أعمال الكفار، بينما يصلح بال المؤمنين، ويغفر ذنوبهم، (الآيات: ١-٢) لماذا؟

٢- لأن أولئك اتبعوا الباطل، بينما سلَّم هؤلاء للحق. وهنا يؤكد ربنا ما يبدو أنه المحور الأساس للسورة، حيث يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (الآية: ٣).

وبعد أن يأمر بقتال الكفار بلا هوادة، واستمرار ذلك حتى تضع الحرب أوزارها

بظهور الحق كله على الباطل كله، ويختصر تبيان حكمة القتال في كلمة (الابتلاء)، بعدئذ يبيّن فضائل الشهداء في سبيل الله حيث يحفظ الله دماءهم، وسيهديهم، ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة.(الآيات: ٣-٦).

٣- وينصر الله الذين آمنوا إن هم نصروا دينه ورسوله، بينما يفشل الكفار، وتضيع جهودهم. أوَلَيس قد كرهوا ما أنزل الله؟! (فلهم التعس والفشل) وأحبط الله أعمالهم، حتى تلك التي تبدو صالحة، وحوادث التاريخ تشهد بهذه السُّنَّة. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الكفار؛ إذ كانت عاقبتهم أن دمَّر الله عليهم، حتى ما بقي منهم شيء؟ وهذه سُنَّة الله تجري فيمن يأتي بمثل ما جرى فيمن مضى، ولذلك كان للكافرين أمثالها.(الآيات: ٧-١٠).

٤- والله مولى الذين آمنوا يؤيدهم بنصره ويرعى شؤونهم، وأن الكافرين لا مولى لهم بالرغم من ولايتهم للأصنام والأنداد إلا أنها ليست بشيء.(الآية: ١١).

٥- الذين آمنوا وعملوا الصالحات يسيرون عبر منهج سليم نحو أهداف سامية، ولذلك يدخلهم الله الجنة، بينما الكفار يتمتعون بالدنيا بلا أهداف، ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم، لأنهم لم يسعوا في الدنيا لاتقائها.(الآية: ١٢).

وينسف القرآن أساس الاتكال على القوة الظاهرية التي يملكها الكفار، ببيان أن هناك قرى كانت أشد من قرية مكة أهلكها الله فلم يكن لها ناصر.(الآية: ١٣).

٦- المؤمنون على هدىً من ربهم، لا يمارسون عملاً إلا بحجة واضحة من الله، بينما الكفار يتبعون أهواءهم التي زينت لهم، وليسوا سواءً أبداً. هؤلاء يمضون على شريعة من الأمر واضحة، بينما أمر أولئك فرط، لأنهم يميلون مع رياح الهوى أنّى اتجهت.(الآية: ١٤).

٧- قرار المؤمنين وعاقبة أمرهم الجنة، بأنهارها المتنوعة التي تعطيهم الرُّواء، والقوة، والنشاط، واللذة، وبثمراتها المتنوعة، وبما فيها من نعمة روحية متمثلة في مغفرة الله، بينما ليس للكفار إلا النار بما فيها من ماء يغلي يقطع أمعاءهم.(الآية: ١٥).

٨- كل ذلك لأن الكفار أصموا آذانهم عن الحق، بينما اهتدى المؤمنون فزادهم الله هدى، وعلمهم كيف يتقون النار. أولئك لا يؤمنون حتى تأتيهم الساعة التي ظهرت علاماتها، بينما هؤلاء يستغفرون لبعضهم، لأنهم يعلمون ألا إله إلا الله، ويستغفرون لذنوبهم، كما للمؤمنين والمؤمنات.(الآيات: ١٦-١٩).

٩- بعد بيان هذه الصفات التي تبصّرنا الفروق بين المؤمنين والكفار، ترى السياق ينعطف لبيان المنافقين، حيث بيّن أمثالهم أيضاً، ويجعل القتال في سبيل الله محك التجربة لهم، فحين ينتظر المؤمنون حقاً وبفارغ الصبر الأوامر الإلهية بالقتال ترى أولئك إذا نزلت سورة محكمة وذُكِرَ فيها القتال ينظرون نظر المغشي عليه من الموت (خوفاً وحزناً). وهكذا يخرج الجهاد أضغانهم، ويظهر مرض قلوبهم.

وقد كان خيراً لهم لو أنهم صدقوا الله في ساعة الجد.(الآيات: ٢٠-٢١).

١٠- وإذا ملكوا السلطة -وهي مختبر آخر بعد الجهاد لحقيقة أنفسهم- تراهم يفسدون في الأرض، بمنع إعمارها، ونشر الرذيلة، والفسق، والظلم بين أرجائها، ويقطعون أرحامهم، كما فعلت بنو أمية وبنو العباس بآل الرسول ﷺ. أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم عن سماع الحق وأعمى أبصارهم عن رؤية شواهده.(الآيات: ٢٢-٢٣).

١١- والقرآن ميزان لمعرفة حقائق الناس، ولكن لمن تدبر فيه. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فلا تنفذ بصائر القرآن إلى أفئدتهم.(الآية: ٢٤).

١٢- ويهدينا السياق إلى سبب الضلالة بعد الهدى عند هذا الفريق من مرضى القلوب، الذين سقطوا في وهدة النفاق، ويقول: إن هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد أن عرفوا السبيل فإنما الشيطان سَوَّل لهم بأن زين لهم الضلال وأملى لهم.(الآية: ٢٥).

١٣- وإنَّ من مثالب المنافقين ومؤامراتهم القذرة أنك تراهم يقولون للذين كرهوا ما نزل الله من الهدى؛ نحن معكم، وسوف نطيعكم في بعض الأمر، ونتعاون على ضرب الإسلام، والله يعلم إسرارهم، كما يعلم إعلانهم.(الآية: ٢٦).

وأنهم يزعمون أن اتصالهم بالعدو يوفر لهم الحماية، ولكنهم ماذا يصنعون غداً حين تضرب ملائكة الموت وجوههم وأدبارهم، ولا ينفعهم يومئذ أعوانهم من المشركين، بل لا ينتفعون حتى من أعمالهم الصالحة، ذلك لأنهم اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه المتمثل في طاعة الرسول، والنصح للقيادة الشرعية، والتسليم لأوامر القتال الصادرة منها فأحبط الله أعمالهم.(الآيات: ٢٧-٢٨).

١٤- ويعتمد المنافقون على مبدأ السرية، ولكن أيحسبون أن الله لن يخرج أضغانهم، ويظهر مرض القلب الذي تنطوي عليه أنفسهم بالأمر بالقتال؟!

بلى؛ إن ربنا قادر على كشفهم الآن، بتغيير صورهم، بل إنك قادر على معرفتهم من

خلال تضاعيف كلماتهم، أو من ملامح صورهم.(الآيات: ٢٩-٣٠).

١٥- ويعود القرآن إلى الحديث عن القتال ببيان حكمته المتمثلة في الابتلاء، ويؤكد أن الكفار لن يضروا الله شيئاً، وسيحبط أعمالهم. ويأمر المؤمنين بطاعة الله والرسول والتسليم لأمره بالقتال، وأن لا يبطلوا أعمالهم.

أما الكفار الذين يموتون وهم كفار؛ فلن يغفر الله لهم.(الآيات: ٣١-٣٤).

١٦- ويشحذ الله عزيمة الاستقامة عند المقاتلين، ويدعوهم إلى الصمود، وألا يَهِنُوا ويدعوا إلى السِّلم الذليل وهم الأعلون بإيمانهم، وأن الله لن يَتِرَهُمُ أعمالهم.(الآية: ٣٥).

ويهوّن شأن الدنيا في أعينهم، ويبيِّن أنها الحياة الدنيا لعب ولهو، إلا ما طُلِبَ بها الآخرة ففيه الجزاء بشرطين؛ الإيمان والتقوى، إذا آمنوا واتقوا يؤتهم الله أجورهم، ولا يطلب منهم أموالهم.(الآية: ٣٦).

١٧- وفي خاتمة السورة يذكرنا السياق بضرورة الإنفاق في سبيل الله -وبخاصة أن القتال بحاجة إليه- وإذا طلب الله إنفاق أموالكم -وهذا امتحان صعب- فإنكم تبخلون، وبذلك يخرج الله أضغانكم، ومدى تشبثكم بالدنيا(الآية: ٣٧).

كيف وأنتم حين تُدْعَون لإنفاق بعض أموالكم فإن منكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء.

وفي نهاية السورة؛ نجد إنذاراً للمؤمنين بأنهم إن لم يتحملوا مسؤولية الرسالة ويتولوا، يستبدل الله بهم قوماً غيرهم.(الآية: ٣٨).

إن تنصروا الله ينصركم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ[1] ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[2] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا[3] ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾.

---

(١) بالهم: حالهم وشأنهم.

(٢) أثخنتموهم: أي أثقلتموهم بالجراح وظفرتم بهم، وقيل أي بالغتم في قتلهم وأكثرتم القتل حتى ضعفوا.

(٣) أوزارها: الوِزْر الثقل، أي أثقالها فإن للحرب أثقالًا كالسلاح ونحوها، وإضافتها إلى الحرب مجازية.

هدى من الآيات:

هل يكفي الإنسان مكسبا أن يمارس العمل أنّى كان؟ كلا.. بل لا بد أن يكون العمل على أساس الإيمان بالله وبرسله، والتسليم لما جاءت به الرسالة. أما الذين يكفرون بذلك فإن الله يضل أعمالهم.

هكذا تذكر آيات الدرس الأول من سورة القتال بالأسس الثابتة للعمل المقبول، وهي:

أولاً: الإيمان بما نزل على محمد ﷺ دون تمييز أو انتقاء.

ثانياً: اتباع الحق، ونبذ الباطل.

ثالثاً: الجهاد في سبيل الله.

وعن الأساس الثالث الذي يمحّص الله به قلوب المؤمنين، ويطهّر صفوفهم من المنافقين، يفصل السياق انسجاما مع الإطار العام للسورة المباركة، ويبيّن هنا درجات الشهداء حيث يتقبّل الله أعمالهم، ويهديهم، ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة التي وعدهم إياها وعرفهم بها.

ويحّرض ربنا على الجهاد الذي يَعُدُّه نصرا لدين الله، بأن يَعِدَ المؤمنين بالتأييد الظاهر المتمثل في النصر، والباطن المتمثل في الحق تثبيت الأقدام.

كما ينذر الكافرين الذين رفضوا قبول الرسالة ككل، فلم يتبعوا الحق، ولم يجاهدوا في سبيل الله -إذ المنافقين من فئة الكفار واقعا، وقد تشير لهذا الجمع بين الفئتين الآية الأولى حيث أشارت للكفر وإلى الصد- بزلزلة المواقف، وعدم ثبات القدم، كما بضياع الجهود، وضلال الأعمال، كما ينذرهم بإحباط العمل جزاء كرههم لما أنزل الله، ويأمرنا بالسير في الأرض لنرى بأنفسنا هذه الحقيقة، وكيف أن مخالفة الحق سبّبت في هلاكهم وتدميرهم كليا.

بينات من الآيات:

[١] لماذا يضل الله أعمال الكافرين؟ وكيف تتلاشى جهودهم، وتنهار مقاومتهم للرسالة الإلهية؟ أرأيت الذي يجدُّ السير في اتجاه الشرق وهو يبتغي مدينة في الغرب، هل يبلغ هدفه يوما؟ كذلك الذي يعاكس حركة التاريخ، ويخالف سنن الله في الحياة، ألم يخلق الله السماوات

والأرض بالحق، فكيف يحقق من ينشد الباطل هدفه؟.

لقد جاهد المترفون من النصارى أكثر من ألف عام ليثبتوا للناس أن الجنس لعنة، فهل استطاعوا تمرير ذلك؟ وحاول الماديون أن يلغوا الجانب الروحي في الإنسان، فهل قدروا؟ لماذا فشل هؤلاء وأولئك؟ لأنهم ساروا في الاتجاه المعاكس لسنن الله، لأن الله أودع في البشر الجنس، كما فطره على الإيمان، فهو لا يستطيع أن يتجرد عن المادة كليا ولا عن المعنويات، فذهبت جهود القوم سدى، لأنها رامت الباطل، وهكذا قاوم الجاهليون على امتداد الزمن بعثة الرسل فأضل الله أعمالهم، لأنها لم تكن في الإطار الصحيح.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلأنهم كفروا فقد أضل الله أعمالهم التي كانت ظاهرة الصلاح، فحتى لو سقوا الحاج، وعمروا المسجد الحرام، فإنها لم تكن نافعة، لأنها كما البناء الذي زلزل أساسه أو الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض.

فمن كفر بالله يكفر بقيم الرسالات، بالحرية والاستقلال والعدالة والمساواة والمنهجية العلمية و...، وهذه القيم أساس كل عمل صالح.

وهكذا لا ينبغي أن نغترَّ بظاهر التقدم الذي يحرزه هذا الفريق من الناس، لأنه ينطوي على تخلف خفي، ولا يزال بنيانهم على شفا جرف هار.

أرأيت كيف وظّفوا تقدُّمهم في انتهاب ثروات الشعوب، واستعباد المحرومين، والعلو في الأرض بغير الحق؟ أرأيت كيف أشعلوا نار الحروب، ودمروا الديار لكي يحركوا عجلة اقتصادهم ببيع الأسلحة؟ ألم تر كيف تسابقوا في صناعة اللعنة، وملؤوا ترساناتهم بأدوات التدمير ذات الشر المستطير؟ أليس ذلك شاهدا كافيا على تلك الحقيقة، أن أعمالهم قد ضلت عن طريقها، ولم تحقق أهدافا في رفاه الإنسانية وخيرها؟ كما أنهم حين صدُّوا عن سبيل الله، وقاوموا الرسالات الإلهية وامتداداتها، فشلوا وذهبت مساعيهم سدى، وهل ينفع سعي من أراد حجب ضوء الشمس بيده؟!

[٢] أما الذين آمنوا بالله، وآمنوا بكل تلك السنن الماضية في الكائنات والقيم المنبعثة منها، فإنهم اختاروا الإطار المناسب لعملهم، ومن ثم وفرّوا الضمانة المناسبة لبقاء أعمالهم، كمن يبني في الصحراء سورا منيعا يحفظ أرضه من الرياح السافيات والعواصف الهوج ثم يزرع ما يشاء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ضمن إطار الإيمان، وعلى أساسه، وانطلاقا من قيمه

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ الرسول الذي أكمل الله به رسالاته، فلم يفسدوا قلوبهم بالعصبية والحقد والعداء للرسول والتكبر عليه. وتشير الآية إلى ضرورة الإيمان بالنبي محمد ﷺ بصورة كاملة، فمن يزعم بأنه نبي العرب دون غيرهم، أو أنه قائد بشري لا يتميَّز بالعصمة الإلهية، أو أنه قد ينطق عن الهوى، أو يهجر حسب الظروف، أو ما أشبه، فإنه لم يؤمن حقا بمحمد ﷺ، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

الإيمان بمحمد ﷺ دليل لصدق الإيمان بالله، فمن استكبر عن هذا الإيمان فإنه قد كفر بالحق وهو أساس كل إيمان ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فلأنه حق من الله لا بد من التسليم له، لا على أسس باطلة، فلأن محمدا ﷺ خليفة الله في الأرض لا بد من طاعته والتسليم له، لا لأنه قائد عربي أو سيد قرشي أو عظيم من بني هاشم.

ومن آمن بالرسول انطلاقا من هذه القيمة -قيمة الحق- آمن كذلك بخلفائه الأئمة الأبرار، لأنهم الامتداد الصادق له، ومن آمن بالأئمة على هذا الأساس فإنه يؤمن بالفقهاء الصالحين، الذين هم ورثة الأنبياء وحجج الله بالنيابة.. وهكذا لا يجد المؤمن بالحق حرجا في نفسه من طاعة أولي الأمر الشرعيين ومن التسليم لكل ما هو حق، لأن مقياسه في كل ذلك سواء.

أما من آمن بالرسول بحوافز مادية فإنه ينفصل عن خط الرسول، ويمضي أنّى اتجهت حوافزه، فإذا وجد قائدا عربيا مخالفا للرسول أو سيدا قرشيا عاصيا لله أو عظيما هاشميا فاسقا فإنه لا يجد حرجا في اتباعه، بينما الله يأمره بالكفر بالطاغوت والثورة عليه.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يبدو أن هذا جزاء إيمانهم. أتدري لماذا؟ لأن الهدف الأسمى من تشريع الأحكام ابتلاء الإنسان في مدى طاعته للحق وتسليمه لمن أرسل به، فإذا أطاع الإنسان ربه، وسلَّم للقيادة الشرعية، فقد ابتلي بأصعب الأمور، ذلك لأن الطاعة في المسائل السياسية والاجتماعية، وحيث تعصف رياح الفتن، وتغتلم العصبيات، ويعلو غبار الشبهات. إن هذه الطاعة هي صعب مستصعب لا يحتمله إلا من امتحن الله قلبه للإيمان.

وإن كثيرا من الناس ممن سكن شيطان الكبر والعصبية في قلوبهم يفضِّلون أداء أحمز الأعمال الصالحة على لحظة واحدة من التسليم للقيادة الشرعية فيما يخالف أهواءهم أو يعارض آراءهم. من هنا يكفر الله سيئات من أطاع الله ورسوله وأولي الأمر الشرعيين تسليما لله ورضى بما فرضه عليه.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قالوا: «البال هو الحال أو الشأن، وأمور الإنسان، وأهم أحواله، وقال بعضهم: هو القلب، من قولهم: ما يخطر ببالي»[١].

وإصلاح البال: رخاء الحال بما يرضي القلب.

ويبدو أن ذلك يتعلق بالأعمال الصالحة التي أدّوها ضمن إطار الإيمان فأثمرت صلاحا في أنفسهم وما يتعلق بها من شؤون، لأنها كانت في الطريق السليم، ولو كانت في سبيل الكفر فإنها لن تثمر بل كان الله يضلها.

[٣] كيف نقيّم الناس، وعلى أي مقياس، هل بلغتهم أو وطنهم أو أنسابهم أو بقدر ما يملكون من مال وجاه وسلطة؟ كلا.. لأن كل ذلك جاهلية وتخلف، فهل تصادق كل من يتحدث العربية ولو كان خائنا شقيا؟ وأيهما أفضل لك من يسكن بلادا بعيدة ويسدي إليك خدمة أو جارك السيىء الذي دائما يؤذيك؟ وهل هما سواء عندك ابن عمك الذي يأكل أموالك بالباطل والقاضي الذي يرد حقك إليك؟ وماذا ينفعك غنى الثري الذي يمتص دماء المحرومين؟ وماذا يضرك فقر البائس الذي يعيش إلى جنبك بوداعة وطيبة؟ العقل يحكم بفساد تلك المقاييس جميعا، وإنما المقياس هو الحق، فمن اتبعه صاحبناه، ومن خالفه عاديناه، أنّى كانت سائر الوشائج بيننا وبينه.

وبما أن الكفار اتبعوا الباطل بما يحمل من أخطار عليهم وعلى الإنسانية فإننا نعاديهم، حتى ولو كانوا ينطقون بلغتنا، ويسكنون وطننا، أو كانوا من ذوي أقاربنا.

بينما المؤمنون الذين يتبعون الحق نستريح إليهم، لأن الحق ينفعنا جميعا، حتى ولو كانوا من الأبعدين لغة، ووطنا، وقرابة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ والعقل يعرف الحق، ولكن ليس بذلك الوضوح الذي يجعله مطمئنا بكل تفاصيله، بينما الوحي الذي يهدينا إليه العقل يفصل مجملات العقل تفصيلا مبينا. العقل يحكم -مثلا- بحسن العدل، ولكنه قد يتشابه عليه العدل في قضية فيقف حائرا، وهنا يفصل الوحي حكم العدل فيها بما يستثيره من دفائن العقل، ويكشفه من خبايا العلم، وما يبيّنه من أحكام الشرع.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ المثال: مجموعة الصفات التي يجسدها الشخص، فإذا قلنا: مثال فلان، أي جملة نعوته الحسنة أو السيئة، مما تستصحب على من يشابهه فيها، وهي في

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٢٢٤.

مقابل الذات، والذات لا تهمنا، لأن الناس في الذات لا يختلفون، إنما يهمنا الصفات التي تحيط بهذه الذات، وهي مثالهم.

وحين يعطينا القرآن مقياس الحق والباطل فإنه يبيِّن لنا أمثال الناس، وجملة صفاتهم، التي بها نستطيع أن نعرف كيف نتصرف مع هذا وذاك، فمن اتبع الحق واليناه، لأنه مثل حسن، ومن اتبع الباطل عاديناه، لأنه مثل سيء.

[٤] ولأن هنالك مثالين: مثال الحق المتجسد في المؤمنين، ومثال الباطل المتجسد في الكفار، فإن الصراع قائم بينهما، ويتحول إلى قتال، وعلى المؤمنين أن يستعدوا نفسيا للمواجهة.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ اللقاء هنا هو لقاء المواجهة الدامية، ولا يعني -فيما يبدو من سياق الكلمة في سائر الآيات- أي لقاء بين مؤمن وكافر.

وضرب الرِّقاب: تعبير عن أشد أنواع القتل وأوضح صوره، وبه يتجلى الغضب المقدس الذي تمتلئ به روح المؤمن المخلص للحق.

وقالوا: معناه: «اضربوا ضرب الرقاب». ولعل الكلمة توحي بضرورة حسم المعركة بأقوى الأسلحة، مما تُسَمَّى بالحرب الصاعقة التي عادة تقلل من الخسائر في الطرفين، بعكس حرب الاستنزاف التي قد تكون وبالا على الطرفين.

ولعل الحرب الصاعقة هي المرادة أيضا من آيات أخرى في الكتاب، كقوله سبحانه: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٧].

﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ قالوا: الثخن بمعنى الغلظة، ويطلق على الغلبة، ونقل عن لسان العرب: أثخن إذا غلب وقهر، وقال البعض: أنه بمعنى تراكم القتلى والجرحى فوق الأرض.

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي قيدّوهم بحبل أو ما أشبه بشدة كناية عن أسرهم.

ويستوحى من الآية أن مرحلة أخذ الأسرى متأخرة عن مرحلة القتال، فلا ينبغي أن ينشغل الجيش قبل قهر عدوه بالأسرى.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ هنالك يختار القائد بين أن يَمُنَّ على الأسير بإطلاق سراحه، حين لا يرى في إبقائه مصلحة أو يرى في إطلاق سراحه مصلحة هامة للمسلمين، وبين أن يقبل الفدية التي قد تكون قدرا من المال يفرض على العدو بإزاء كل أسير، وقد تكون بعض

التنازلات والضمانات أو ما أشبه، ولعل من معانيه القيام بتبادل الأسرى مع العدو.

وقال الفقهاء تبعا للنصوص الشرعية: إن هنالك خيارا ثالثا هو استرقاق الأسرى.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ والوزر هو الثقل، والحرب ثقيلة على الأمة بما فيها من مشاكل، كما أن ساحات القتال تشهد الأسلحة والأدوات والأجهزة القتالية وإذا توقف القتال أعيدت كليا إلى المخازن، وهذه كناية عن توقف الحرب، ولكن متى تتوقف حرب المسلمين مع أعدائهم بصورة كلية؟

إن من السذاجة الركون إلى السّلم في عالم تحكمه شريعة الغاب، يأكل القوي الضعيف، وينفق الأعداء قسما كبيرا من مواردهم في الاستعداد للحرب، بالرغم من أن النفوس تكره الحرب بطبعها، وتميل إلى الخفض والدعة، وقد ينخدع الإنسان بمظاهر الود والموادعة الحاكمة على الأجواء، فلا يَعُدّ نفسه للقتال، فيؤخذ على غرة.

لذلك أمرنا القرآن بالاستعداد أبدا للدفاع عن أنفسنا وعن الرسالة التي نحملها إلى الإنسانية المعذبة، فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فما دام المسلمون يرفضون التخلي عن قيمهم واستقلالهم وحقوقهم فلا بد أن يستعدّوا للدفاع المقدس، وقد يكون الاستعداد التام للدفاع أفضل وسيلة لتجنب ويلات الحرب، لأنه يردع الأشرار من الاعتداء.

لذلك جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ: «وَالجِهَادَ مَاضٍ مُذْ بَعَثَنِيَ اللهُ إِلى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ»[1].

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ فالله سبحانه الذي دمر عادا الأولى بالريح الصّرصر، وأهلك ثمود فما أبقى، ولم يذر أحدا من القرى المؤتفكة من قوم لوط، أوليس بقادر على أن يبعث على كل طاغية ومستكبر صاعقة من السماء فيهلكهم؟ بلى، وقد يفعل بهم عندما يبلغون آجالهم، لأنه ينصر دينه بما يشاء، كيف يشاء.

بَيْدَ أن حكمة الحرب التي يخوضها المسلمون تتلخص في إظهار خبايا المسلمين، وإبلاء سرائرهم.

أولاً: بفصل الصادقين منهم عن الكاذبين.

ثانياً: بتطهير قلوب الصادقين منهم من شوائب النفاق والمصلحية.

---

(١) مجمع البيان: ج٩ ص١٢٦.

وقد قال ربنا سبحانه -وهو يبيّن الهدف الأول-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقال تعالى -وهو يشير إلى الهدف الآخر-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وإذا كانت الحرب بوتقة تطهِّر المجتمع الإسلامي من العناصر الضعيفة والمنافقة، كما تطهر قلب كل من يخوضها من أدرانه، فإن علينا أن نتخذ منها مدرسة للبطولة والإيثار، لا ننشد منها فخرا ولا نصرا، وإنما نسعى لتزكية أنفسنا فيها، وتربيتها على الشجاعة والفداء، ونتبع في ذلك الإمام علياً عليه السلام حيث يقول: «وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا»[1]، ويقول وهو يوصي نجله محمد بن الحنفية حين يدفع به في أتون المعركة: «تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلْ عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ تِدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ وارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ وغُضَّ بَصَرَكَ واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ»[2].

وإذا كان الهدف الأساس من الحرب ابتلاء المؤمنين فإن النصر من عند الله، ينزله عليهم متى تمت حكمة الابتلاء، وعلم منهم الصبر والاستقامة، سواء توافرت عوامل النصر المادية، أم لا، ومعرفة هذه الحقيقة تزيد الجيش الإسلامي بطولة واستبسالا وصبرا واستقامة.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ لأنهم مضوا على النهج الإلهي، واستشهدوا في سبيل الله، فإن الله الذي لا تضيع عنده الودائع، الله الذي له ملك السماوات والأرض. إنه سبحانه يحفظ أعمالهم، ويؤيد بقدرته القضية التي ضحَّوا من أجلها، وهذا هو أهم ما ينشده العاملون في سبيل الله. ونستوحي من هذه الآية أن الدم المقدَّس الذي يرخصه صاحبه في سبيل الله هو السياج المنيع لقيم الرسالة.

وربما أشار إلى ذلك الحديث المأثور عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في فضل الجهاد في سبيل الله: «لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ: بَابُ الْمُجَاهِدِينَ يَمْضُونَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مَفْتُوحٌ وهُمْ مُتَقَلِّدُونَ بِسُيُوفِهِمْ والْجَمْعُ فِي الْمَوْقِفِ والْمَلَائِكَةُ تُرَحِّبُ بِهِمْ. ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ذُلًّا وفَقْراً فِي مَعِيشَتِهِ ومَحْقاً فِي دِينِهِ إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَغْنَى أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا ومَرَاكِزِ رِمَاحِهَا»[3].

[٥] الأمة التي تجاهد في سبيل الله لا تضيع جهودها، ولا تضلُّ أعمالها. إنها سوف تحقق

(١) نهج البلاغة: كتاب: ٤٥.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٨٦.
(٣) الكافي: ج٥ ص٢.

أهدافها، ولا يستطيع أحد أن يصادر حقوقها، وينهب ثرواتها.

أليست تقاوم المعتدي، وتصنع حول حقوقها وجهودها سورا منيعا من بطولات أبنائها ودماء شهدائها؟.

وهذه الأمة لا تضل طريقها، لأن الله يهديها بفضل جهادها في سبيله.

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إن الجبن أكبر حاجز دون فهم الحقائق، وكثير من الناس يبرِّرون الفساد والتبعية جبنا وفرارا من مواجهة السلطات الطاغية، وهكذا يخدعون أنفسهم، ويسلب الله عنهم نور الهداية، ويذرهم في ظلمات الجهل، أوَلَمْ يقل ربنا سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؟

بينما المجاهدون الذين يتقدمون بخطى شجاعة حتى الشهادة في سبيل الله، يتبصَّرون الحقائق بوضوح كاف، لأنهم مستعدون لمواجهتها أنّى كانت عواقب المواجهة.

وهذه الهداية التي يورثها الشهداء لأمتهم تتصل بالهداية في الآخرة حيث تبلغ بهم منازلهم في الجنة.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ إن الشهادة عنوان الاستقلال، وسور التقدم، وطريق الغنى، وسبيل العزة، وأمة تملك الشهداء لا تعدم هذه المكاسب.

إن الحياة السعيدة المطمئنة الصالحة رهينة الدماء التي تراق في سبيل الله.

وصلاح البال ورفاه الحال في الدنيا يتصل بصلاح بال الشهداء في الآخرة، بل صلاح بال من هم في خطهِّم وعلى خطاهم من أنصارهم ومن تجري فيهم شفاعتهم، حيث هم أحياء عند ربهم يرزقون.

وهكذا نستوحي من الآية أن المعني بها ليس فقط الشهداء أنفسهم، بل أمتهم أيضا وليس في الآخرة فحسب، بل في الدنيا أيضا، أوَلَيست الآخرة امتدادا للدنيا، وهما في النهاية حياة واحدة أولها هنا وآخرها هناك؟

وإننا نجد في النصوص الإسلامية التي وردت في فضل الجهاد توضيحا لهذه الشمولية للدنيا والآخرة، لأن المجاهدين كلمة تعمُّ الشهداء منهم والأحياء المنتظرين للشهادة، كما قال ربنا سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

[٦] ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ تلك الجنة التي كثيراً ما اشتاقوا إليها بما عرَّفها ربهم لهم، وربما شاهد كل واحد منهم منزله في الجنة قبل خروج روحه لينتقلوا إلى الدار الآخرة بكل رضى وطمأنينة، فقد جاء في حديث مفصل مأثور عن أمير المؤمنين عن النبي ﷺ: «وَإِذَا زَالَ الشَّهِيدُ مِنْ فَرَسِهِ بِطَعْنَةٍ أَوْ بِضَرْبَةٍ، لَمْ يَصِلْ إِلَى الأَرْضِ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ زَوْجَتَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَتُبَشِّرُهُ بِمَا أَعَدَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى الأَرْضِ تَقُولُ لَهُ: مَرْحَباً بِالرُّوحِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الْبَدَنِ الطَّيِّبِ أَبْشِرْ فَإِنَّ لَكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: أَنَا خَلِيفَتُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَنْ أَرْضَاهُمْ فَقَدْ أَرْضَانِي وَمَنْ أَسْخَطَهُمْ فَقَدْ أَسْخَطَنِي.

وَيَجْعَلُ اللهُ رُوحَهُ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ تَشَاءُ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ، وَيُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ سَبْعِينَ غُرْفَةً مِنْ غُرَفِ الْفِرْدَوْسِ، سُلُوكُ كُلِّ غُرْفَةٍ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالشَّامِ، يَمْلَأُ نُورُهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ، فِي كُلِّ غُرْفَةٍ سَبْعُونَ بَاباً عَلَى كُلِّ بَابٍ سُتُورٌ مُسْبَلَةٌ فِي كُلِّ غُرْفَةٍ سَبْعُونَ خَيْمَةً فِي كُلِّ خَيْمَةٍ سَبْعُونَ سَرِيراً مِنْ ذَهَبٍ»[1].

[٧] ويحرِّض القرآن الذين آمنوا واستعدوا لتنفيذ أوامر الرسالة، وعرفوا قيم الحق الذي أنزل من ربهم، يحرضهم على الجهاد في سبيل الله بنصر دينه، ويبشرهم لقاء ذلك بالفتح والثبات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ذلك أن الإيمان ليس مجرد العمل بالإسلام في حدود القضايا الشخصية، وإنما أيضا تحمل مسؤولية الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض.

وربما جاء التعبير بنصر ﴿اللَّهَ﴾ مع أن الله غني عن العالمين، ليكون شاملا لنصر كل ما يتصل بالإيمان بالله، في كل حقل، وفي كل عصر ومِصْر، حتى يكون المؤمن قواما لله، مستعدا للدفاع عن الحق أبدا في مواجهة أي شخص أو قوة.

وإنما جزاء النصر نصر مثله، فمتى نَصَرْت الله بتطبيق دينه على نفسك وأهلك والأقربين منك ومجتمعك، ودافعت عنه أعداء الله، فإن الله ينصرك بمقدار نصرك له. أما إذا اقتصر نصرك على بعض المجالات فلا تنتظر نصرا شاملا.

وهكذا تتسع آفاق هذه الآية لكل جنبات الحياة، ولا تختصر في الجهاد المقدس، بالرغم من أنه المثل الأعلى لها.

وثبات القدم هو التأييد الرباني الأسمى، لأن هزيمة النفس أنكر هزيمة، والحرب صراع

(١) بحار الأنوار: ج٩٧ ص١٣.

إرادات قبل أن تكون مقارعة الأسلحة، ومن كان أكثر صبرا، وأمضى إرادة، وأعظم ثباتا، فإنه يكون أقرب إلى النصر.

وصراع الإنسان مع هوى نفسه أعظم من صراعه مع أعدائه. ألم تكن مخالفة الهوى هي الجهاد الأكبر؟ والله سبحانه قد وعد المؤمنين بأن يعينهم في جهادهم مع أنفسهم إن هم نصروا دينه وجاهدوا أعداءه، وهذه أعظم نعمة من نصرهم على عدوهم الظاهر.

والواقع: أن سُنَّة الله قد قضت بأن القيم والشرائع التي أريقت الدماء من أجل تكريسها أشد ثباتا في النفوس وفي المجتمع من غيرها، وهكذا في كل أمر، فكل مكسب حصلت عليه بصعوبة لا بد أن تتشبث به بشدة، أما الذي ملك البلاد بغير حرب فإنه يهون عليه تسليم البلاد.

[٨] أما الكفر الذي يتشعب إلى شعب، فمنه الكفر بالله، ومنه الكفر بالرسول، ومنه الكفر ببعض ما أرسل به كالجهاد في سبيل الله، فإنه يؤدي إلى زلزلة الموقف، وضياع الجهد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ قالوا: التَّعْس هو الوقوع على الوجه، وكأنه تعبير عما يقابل ثبات القدم ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى الذي يبدو صالحا من أعمالهم، لأنه لم يكن على الطريق السوي.

[٩] ما هو سبب كفرهم وهلاكهم؟ إن جذر ذلك كرههم لرسالة الله المنبعث من كبرهم وتعصبهم وتقليدهم لآبائهم، فاتخذوا موقفا سلبيا من الرسالة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وبالذات فيما يخالف هواهم، أو يعارض مصالحهم كالسياسة والاقتصاد ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فإذا لم يُسلِّموا لولاية الله في السياسة والاقتصاد وسائر الأمور الأساسية لم تنفعهم صلاتهم وصدقاتهم، لأنها لم تكن ضمن الإطار الصحيح، وكان مثلهم كالذي زرع في غير أرضه أو سعى بغير هدى أو سار على غير طريقه.

إن عشرات السنين من الجهد قد تذهب بها ساعة من التهور أو الجبن أو اتباع الشهوة، كالذي يبني أعظم عمارة فوق أرض رملية! أرأيت كيف يقود طاغية مهووس بالسلطة باحث عن الكبرياء في الأرض شعبه الذي سلَّم له خوفا وطمعا في حرب طاحنة، تهدم البلاد، وتقتل الملايين، وتضيع مساعي عشرات السنين في بضعة أيام؟

وكم من مَثَلٍ يتجلَّى لنا في صفحات التاريخ لهذه المعادلة.

وليس الاقتصاد الفاسد بأقل خطرا من السياسة الفاسدة، فإن الاستغلال قد يذهب

بمكاسب الملايين من البشر، ولا يدعهم يستفيدون من مكاسبهم. أليس من الحكمة أن يصلحوا اقتصادهم حتى لا تحبط أعمالهم، ولا تذهب جهودهم سدى؟

قالوا: إن الجسم الذي يبتلى بالطفيليات لا تنفعه المقوّيات، إذ إنها بدل أن تقوّي الجسد تقوّي عدوه المتمثل في الطفيليات، وكذلك الاقتصاد المبتلى بالمستغلين لا ينشط إلا لمصلحتهم، وباعتبارهم أعداء الاقتصاد فإن دورة نشاطه لا تزيده إلا تخلفا، وهذا أحد معاني الإحباط.

وفي الأخلاق -كما في السياسة والاقتصاد- تصدق هذه المقولة، فإنك تجد البعض من الناس يفقدون في لحظة تهوُّر أو تَزَقٍ ما اكتسبوه من سمعة حسنة خلال عشرات السنين. أليس ذلك يعني الإحباط؟

وبكلمة: إنما ينفع العمل إذا كان أساسه سليما، أما العمل القائم على أساس منهار فإنه ليس لا ينفع فقط، بل قد يصبح خطرا على صاحبه. وأساس العمل الصالح: السياسة الصالحة، والاقتصاد الصالح، والقيم الراشدة في السلوك.

[١٠] والتاريخ أفضل مدرسة، والسير في الأرض لدراسة تجارب الأولين على الطبيعة أفضل منهج في هذه المدرسة، إذ يجعلنا نلمس الحقائق بصورة مباشرة بعيدا عن تفسيرات المتخلفين، وخرافات الأولين.

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ دعنا نسير في مناكب الأرض لنبحث عن آثار الأولين فيها، بشرط ألا تستوقفنا الآثار، بل العبر التي وراءها ﴿ فَيَنظُرُوا ﴾ بأم أعينهم على الطبيعة، دون وسائط نقل، وتفسيرات خاطئة ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ كان الدمار شاملا فوقهم، فلم يبق من أبنائهم وأموالهم وديارهم شيء، وهذه ليست خاصة بعصر دون عصر، إنما هي شاملة لكل العصور ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ فكل كافر لا بد أن ينتظر شيئا مشابها لذلك العذاب، لأن سنن الله لا تتغير.

[١١] ما الذي يضمن أعمال المؤمنين؟ إيمانهم بالله، ودخولهم في حصن ولايته، وهي الولاية الحق التي تشمل الخليقة. أما الكفار فقد بقوا خارج هذا الحصن المنيع فضاعت جهودهم، وتلاشت مساعيهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقد زعم الكفار بأن الآلهة المزّيفة تحفظهم وتحفظ أعمالهم فخاب سعيهم، لأن الآلهة ليست أبدا موالي بحق. إنهم ضعفاء مثلهم، وهل يحمي ضعيف ضعيفا؟ ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

مثل الجنة التي وعد المتقون

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا[2] ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ[3] وَمَثْوَاكُمْ[4] ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) غير آسن: غير متغير الطعم والريح.

(٢) أشراطها: علاماتها.

(٣) متقلبكم: أي تقلبكم في كافة أحوالكم.

(٤) مثواكم: حين ترجعون إلى بيوتكم للمنام والاستراحة.

هدى من الآيات:

لكي لاتتميَّع الحدود بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان، ثم تطال الكافرين والمؤمنين في محياهم ومصائرهم، تتوالى آيات الذكر ببيان الفروق الكبيرة بين الفريقين في الدنيا وفي الآخرة.

ولكي يستعدَّ المؤمنون لمواجهة الكفار عسكريا، بالرغم من اعتمار قلوبهم بالرحمة الإيمانية، لابد أن يعرفوا ماذا يعني الكفر، وما مصير الكفار؟

ألف: إن الله يدخل المؤمنين الجنة لماذا؟ لأنهم عرفوا حكمة الخلق فحققُّوها بأفعالهم، بينما استمتع الكفار بالحياة الدنيا، وأكلوا بلا هدف، كما تأكل الأنعام، فكان مصيرهم النار.

بـاء: والله ولي المؤمنين ينصرهم، بينما الكفار لا ناصر لهم، وشاهد ذلك أنهم أهلكوا فلم ينتصر لهم أحد.

جيم: والمؤمنون على هدى وبينة من ربهم. أما الكفار فقد زيِّن لهم سوء أعمالهم، واتبعوا أهواءهم.

دال: وفي الجنة أنهار مختلفة، تروي عطش المؤمنين، وتعطيهم القوة والنشاط واللذة، بينما الكفار يخلدون في النار، ويسقون ماء حميا يقطِّع أمعاءهم.

هـاء: وبينما طبع الله على قلوب الكفار حتى أنهم لا يفقهون ما يقال لهم فاتبعوا أهواءهم، نجد المؤمنين قد اهتدوا بضياء الوحي فزادهم الله هدى، وزوَّدهم بالتقوى حتى يتبعوا الحق من ربهم. وترى الكفار ينتظرون، بينما المؤمنون يهتدون، ولكن ماذا ينتظرون؟ الساعة، فهذه علاماتها قد جاءتهم، وإذا نزلت بهم فجأة ماذا ينفعهم الهدى؟

وينتهي الدرس بالتذكرة بالله الذي لو علم الإنسان أنه الله الواحد الأحد لاستغفر لذنبه ولم يتشبَّث بالأنداد من دونه ليخلِصوه من ذنوبه، كما استغفر للمؤمنين والمؤمنات الذين سوف يرتبط بهم إيمانيا، ويتخذ منهم موقفا لا عداء فيه ولا تقديس، والله يعلم أطوار حياة البشر وتقلباتهم، كما يعلم مثواهم.

بينات من الآيات:

[١٢] من يؤمن بالله، ولا يكتفي بالإيمان وحده، بل يجعل من صبغة حياته تفيض على

سلوكه، فله أجره عند ربه، وما أعظمه من أجر!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ تعالوا إلى حيث رسول الله ﷺ يرغِّبنا بكلامه الصادق العذب في جنات ربنا، حيث أعدَّها الله دارا لضيافته، ودعا إليها كرام خلقه، وها هو الرسول ﷺ يحدِّثنا، ألا تسمعون: «قَالَ ﷺ: فَيَدْخُلُ -المؤمن الجنة- فَإِذَا هُوَ بِشَجَرَةٍ ذَاتِ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ وَثِمَارٍ مُهَدَّلَةٍ يَخْرُجُ مِنْ سَاقِهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَيَنْطَلِقُ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَيَغْتَسِلُ مِنْهَا، فَيَخْرُجُ عَلَيْهِ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، ثُمَّ يَشْرَبُ مِنَ الأُخْرَى فَلَا يَكُونُ فِي بَطْنِهِ مَغْصٌ وَلَا مَرَضٌ وَلَا دَاءٌ أَبَداً وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾. ثُمَّ تَسْتَقْبِلُهُ الْمَلَائِكَةُ فَتَقُولُ: طِبْتَ فَادْخُلْهَا مَعَ الخَالِدِينَ. فَيَدْخُلُ فَإِذَا هُوَ بِسِمَاطَيْنِ مِنْ شَجَرٍ أَغْصَانُهَا اللُّؤْلُؤُ وَفُرُوعُهَا الحُلِيُّ، وَالحُلَلُ ثِمَارُهَا مِثْلُ ثَدْيِ الجَوَارِي الأَبْكَارِ. فَتَسْتَقْبِلُهُ المَلَائِكَةُ مَعَهُمُ النُّوقُ وَالبَرَاذِينُ وَالحُلِيُّ وَالحُلَلُ فَيَقُولُونَ: يَا وَلِيَّ اللهِ ارْكَبْ مَا شِئْتَ وَالبَسْ مَا شِئْتَ وَسَلْ مَا شِئْتَ.

قَالَ: فَيَرْكَبُ مَا اشْتَهَى وَيَلْبَسُ مَا اشْتَهَى، وَهُوَ نَاقَةٌ أَوْ بِرْذَوْنٌ مِنْ نُورٍ وَثِيَابُهُ مِنْ نُورٍ وَحُلِيُّهُ مِنْ نُورٍ، يَسِيرُ فِي دَارِ النُّورِ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ مِنْ نُورٍ وَغِلْمَانٌ مِنْ نُورٍ وَوَصَائِفُ مِنْ نُورٍ، حَتَّى تَهَابُهُ المَلَائِكَةُ مِمَّا يَرَوْنَ مِنَ النُّورِ، فَيَقُولُ: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ تَنَحَّوْا فَقَدْ جَاءَ وَفْدُ الحَلِيمِ الغَفُورِ. قَالَ: فَيَنْظُرُ إِلَى أَوَّلِ قَصْرٍ لَهُ مِنْ فِضَّةٍ مُشَرَّفاً بِالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، فَتُشْرِفُ عَلَيْهِ أَزْوَاجُهُ فَيَقُولُونَ: مَرْحَباً مَرْحَباً انْزِلْ بِنَا فَيَهُمُّ، أَنْ يَنْزِلَ بِقَصْرِهِ، قَالَ: فَيَقُولُ المَلَائِكَةُ: سِرْ يَاوَلِيَّ الله فَإِنَّ هَذَا لَكَ وَغَيْرُهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى قَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ.

فَتُشْرِفُ عَلَيْهِ أَزْوَاجُهُ فَيَقُلْنَ: مَرْحَباً مَرْحَباً يَاوَلِيَّ الله انْزِلْ بِنَا فَيَهُمُّ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ فَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: سِرْ يَاوَلِيَّ الله فَإِنَّ هَذَا لَكَ وَغَيْرُهُ. قَالَ: ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَى قَصْرٍ مُكَلَّلٍ بِالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ فَيَهُمُّ بِالنُّزُولِ بِقَصْرِهِ. فَيَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: سِرْ يَاوَلِيَّ الله فَإِنَّ هَذَا لَكَ وَغَيْرُهُ.

قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي قَصْراً مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ مُكَلَّلَا بِالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ فَيَهُمُّ بِالنُّزُولِ بِقَصْرِهِ. فَيَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: سِرْ يَاوَلِيَّ الله فَإِنَّ هَذَا لَكَ وَغَيْرُهُ. قَالَ: فَيَسِيرُ حَتَّى يَأْتِيَ تَمَامَ أَلْفِ قَصْرٍ كُلُّ ذَلِكَ يَنْفُذُ فِيهِ بَصَرُهُ وَيَسِيرُ فِي مِلْكِهِ أَسْرَعَ مِنْ طَرْفِ العَيْنِ. فَإِذَا انْتَهَى إِلَى أَقْصَاهَا قَصْراً نَكَّسَ رَأْسَهُ فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: مَالَكَ يَاوَلِيَّ الله. قَالَ: فَيَقُولُ: وَالله لَقَدْ كَادَ بَصَرِي أَنْ يُخْتَطَفَ. فَيَقُولُونَ: يَاوَلِيَّ الله أَبْشِرْ فَإِنَّ الجَنَّةَ لَيْسَ فِيهَا عَمًى وَلَا صَمَمٌ. فَيَأْتِي قَصْراً يُرَى بَاطِنُهُ مِنْ ظَاهِرِهِ، وَظَاهِرُهُ مِنْ بَاطِنِهِ، لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ ذَهَبٌ، وَلَبِنَةٌ يَاقُوتٌ وَلَبِنَةٌ دُرٌّ مِلَاطُهُ المِسْكُ، قَدْ شُرِّفَ بِشُرَفٍ مِنْ نُورٍ يَتَلَأْلَأُ، وَيَرَى الرَّجُلُ وَجْهَهُ فِي الحَائِطِ... قَالَ ﷺ: وَإِنَّ فِي الجَنَّةِ لَنَهراً حَافَتَاهُ الجَوَارِي. قَالَ: فَيُوحِي إِلَيْهِنَّ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَسْمِعْنَ عِبَادِي تَمْجِيدِي وَتَسْبِيحِي وَتَحْمِيدِي. فَيَرْفَعْنَ

أَصْوَاتِهِنَّ بِأَلْحَانٍ وَتَرْجِيعٍ لَمْ يَسْمَعِ الخَلَائِقُ مِثْلَهَا قَطُّ فَتَطْرَبُ أَهْلُ الجَنَّةِ. وَإِنَّهُ لَتُشْرِفُ عَلَى وَلِيِّ اللهِ المَرْأَةُ لَيْسَتْ مِنْ نِسَائِهِ مِنَ السَّجْفِ فَمَلَأَتْ قُصُورَهُ وَمَنَازِلَهُ ضَوْءاً وَنُوراً، فَيَظُنُّ وَلِيُّ اللهِ أَنَّ رَبَّهُ أَشْرَفَ عَلَيْهِ أَوْ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَتِهِ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَإِذَا هُوَ بِزَوْجَةٍ قَدْ كَادَتْ يَذْهَبُ نُورُهَا نُورَ عَيْنَيْهِ. قَالَ فَتُنَادِيهِ: قَدْ آنَ لَنَا أَنْ تَكُونَ لَنَا مِنْكَ دَوْلَةٌ. قَالَ فَيَقُولُ لَهَا: وَمَنْ أَنْتِ؟ قَالَ فَتَقُولُ: أَنَا مِمَّنْ ذَكَرَ اللهُ فِي القُرْآنِ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. فَيُجَامِعُهَا فِي قُوَّةِ مِائَةِ شَابٍّ وَيُعَانِقُهَا سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ أَعْمَارِ الأَوَّلِينَ، وَمَا يَدْرِي أَيَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا أَمْ إِلَى خَلْفِهَا أَمْ إِلَى سَاقِهَا، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا رَأَى وَجْهَهُ مِنْ ذَلِكَ المَكَانِ مِنْ شِدَّةِ نُورِهَا وَصَفَائِهَا. ثُمَّ تُشْرِفُ عَلَيْهِ أُخْرَى أَحْسَنُ وَجْهاً وَأَطْيَبُ رِيحاً مِنَ الأُولَى، فَتُنَادِيهِ فَتَقُولُ: قَدْ آنَ لَنَا أَنْ يَكُونَ لَنَا مِنْكَ دَوْلَةٌ. قَالَ فَيَقُولُ: لَهَا وَمَنْ أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا مَنْ ذَكَرَ اللهُ فِي القُرْآنِ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

قَالَ: وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ الأَزْوَاجِ خَمْسُمِائَةِ حَوْرَاءَ مَعَ كُلِّ حَوْرَاءَ سَبْعُونَ غُلَاماً، وَسَبْعُونَ جَارِيَةً، كَأَنَّهُنَّ اللُّؤْلُؤُ المَنْثُورُ، كَأَنَّهُنَّ اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ، وَتَفْسِيرُ المَكْنُونِ: بِمَنْزِلَةِ اللُّؤْلُؤِ فِي الصَّدَفِ لَمْ تَمَسَّهُ الأَيْدِي وَلَمْ تَرَهُ الأَعْيُنُ. وَأَمَّا المَنْثُورُ: فَيَعْنِي فِي الكَثْرَةِ وَلَهُ سَبْعُ قُصُورٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ سَبْعُونَ بَيْتاً، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيراً، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشاً، عَلَيْهَا زَوْجَةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ. ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ صَافٍ لَيْسَ بِالكَدِرِ، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ المَوَاشِي، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾، لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لَمْ يَعْصِرْهُ الرِّجَالُ بِأَقْدَامِهِمْ. فَإِذَا اشْتَهَوُا الطَّعَامَ جَاءَهُمْ طُيُورٌ بِيضٌ يَرْفَعْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ، فَيَأْكُلُونَ مِنْ أَيِّ الأَلْوَانِ اشْتَهَوْا جُلُوساً إِنْ شَاءُوا، أَوْ مُتَّكِئِينَ، وَإِنِ اشْتَهَوُا الفَاكِهَةَ، تَسَعَّبَتْ إِلَيْهِمُ الأَغْصَانُ فَأَكَلُوا مِنْ أَيِّهَا اشْتَهَوْا. قَالَ: وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾»[1].

هذا وطبيعة المتقين في الجنة تختلف عنها في الدنيا اختلافا شاسعا، فقد روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَّلِينَ مُكَلَّلِينَ مُطَوَّقِينَ مُسَوَّرِينَ مُخَتَّمِينَ نَاعِمِينَ مَحْبُورِينَ مُكَرَّمِينَ يُعْطَى أَحَدُهُمْ قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالشَّهْوَةِ وَالجِمَاعِ قُوَّةُ غِذَائِهِ قُوَّةُ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَيَجِدُ لَذَّةَ غَدَائِهِ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَذَّةَ عَشَائِهِ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَدْ أَلْبَسَ اللهُ وُجُوهَهُمُ النُّورَ وَأَجْسَادَهُمُ الحَرِيرَ بِيضُ الأَلْوَانِ صُفْرُ الحُلِيِّ خُضْرُ الثِّيَابِ...»[2].

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٢١٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٨ ص٢٢٠.

وقال ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَحْيَوْنَ فَلا يَمُوتُونَ أَبَداً وَيَسْتَيقِظُونَ فَلا يَنَامُونَ أَبَداً وَيَسْتَغْنُونَ فَلَا يَفْتَقِرُونَ أَبَداً وَيَفْرَحُونَ فَلَا يَحْزَنُونَ أَبَداً وَيَضْحَكُونَ فَلَا يَبْكُونَ أَبَداً وَيُكْرَمُونَ فَلَا يُهَانُونَ أَبَداً وَيَفْكَهُونَ وَلَا يَقْطِبُونَ أَبَداً وَيُحْبَرُونَ وَيُسَرُّونَ أَبَداً وَيَأْكُلُونَ فَلَا يَجُوعُونَ أَبَداً وَيَرْوَوْنَ فَلَا يَظْمَئُونَ أَبَداً وَيُكْسَوْنَ فَلَا يَعْرَوْنَ أَبَداً وَيَرْكَبُونَ وَيَتَزَاوَرُونَ أَبَداً وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الوِلْدَانُ المُخَلَّدُونَ أَبَداً بِأَيْدِيهِمْ أَبَارِيقُ الفِضَّةِ وَآنِيَةُ الذَّهَبِ أَبَداً مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ أَبَداً عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ أَبَداً يَأْتِيهِمُ التَّحِيَّةُ وَالتَّسْلِيمُ مِنَ اللهِ أَبَداً نَسْأَلُ اللهَ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

أما الكافرون فليس لهم سوى النار مثوى وحصيرا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ والسبب في دخولهم النار بدل الجنة هو أنهم استنفذوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، وغاروا في أوحال الشهوات، ولم يستهدفوا من وراء النعم الوصول إلى الغاية الأسمى أي الدار الآخرة، وهذا ما بينته الآية العشرون من سورة الأحقاف: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ونتساءل: ما معنى ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾؟

الجواب: المؤمن يأكل ليعمل، ويعمل للهدف، ويبتغي الهدف لله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، بينما القضية معكوسة عند الكافر الذي يعمل ليحصل على متعة الأكل وسائر الشهوات، فالهدف عنده الذي تتمحور حوله سائر نشاطاته هو الأكل. أليس ذلك حالة الأنعام؟

[١٣] تلك كانت النار وهي موعدهم في الآخرة، أما في الدنيا فقد يصيبهم الله بعذاب من عنده اليم ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ كانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون، وإذا بطشوا بطشوا جبارين، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين، وكانت الأنهار تجري من تحتهم، وكانوا يستخفون بالمؤمنين، ويقولون: إنهم لشرذمة قليلون.. ولكن ألم تر كيف فعل ربك بهم، ألم يصب عليهم سوط عذاب؟! بلى، فهل وجدوا لهم نصيرا؟!

ومن هذا السياق (علاقة الآية ١٢، بالآية١٣) نستوحي الحقيقة التالية: أن المؤمنين يتعاملون مع الأشياء -كل الأشياء- باعتبارها وسائل للوصول إلى الأهداف، فهم لا يعتمدون عليها، ولا يتخذونها أندادا لله، ولا يحجبهم حبهم لها أو تعاملهم معها عن الله ورسالاته وأحكامه. وبكلمة واحدة: إنهم يجعلونها وسيلة يسخّرونها لتحقيق الحكمة من خلقهم، ولا

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٢٢٠.

يجعلون أنفسهم سخرة لها، بينما الكفار ينظرون إلى الأشياء نظرة ذاتية، فيغترُّون بها، ويعتمدون عليها، ولكنها لن تغني عنهم شيئا.

[١٤] حين يفصل الكتاب بين المؤمنين والكافرين لا يفصل بينهما كعنوانين ظاهرين، بل كقيمتين واقعيتين، ينفصل على أساسهما من يتظاهر بالإيمان عن الفاسق والمنافق.

ذلك أن القرآن يتحدث غالبا عن الحق، وليس عن مظاهره، ولذلك فالكافر في آياته ليس دائما الذي يتظاهر به، بل قد يكون الذي يكفر - مثلا - بآية في القرآن أو يكفر عمليا بفريضة إلهية، لأن الحديث القرآني هو عن واقع الكفر لا ظاهره، مما يشمل كل من يوجد لديه هذا الواقع.

وهذه السورة تتميز بالصراحة في هذا الفصل، ولذلك جاء في الحديث المروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ حَالَنَا وَحَالَ أَعْدَائِنَا فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فَإِنَّهُ يَرَاهَا آيَةً فِينَا وَآيَةً فِيهِم»[1] أي إنها تتحدث بوضوح تام عن منهاج محمد وآله الحق، والمنهاج الباطل المخالف لهم.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ فدار مع الحق أينما دار، ولم يجعل ذاته أو هواه محورا لقراراته ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم﴾ كلا.. لا يستويان، إنه لفرق كبير بينهما، فأولئك محورهم الحق، وهؤلاء محورهم الهوى.

إن المؤمن يفكر ثم يتحدَّث، ويخطِّط ثم يعمل، بينما الكافر والمنافق يتحدَّثان بلا روية، ويعملان بلا هدف سليم، لأنهما لا يعتمد الحق مقياسا لشؤون حياتهما. أولم يقل الإمام علي عليه السلام: «لِسَانُ العَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ»[2].

إن المؤمن يعلم أنه قد يخطئ صراط الحق، ومن هنا فهو لا يتحرك إلا عن بينة، فلا يخطو خطوة إلا وهو يعلم أنه سيضعها في الموقع السليم، كمن يحمل مصباحا ويقدمه أمامه ثم يبدأ المشي، وبالعكس الكافر والمنافق. إنه يتخبط في ظلمات الباطل، لأن الدافع الأساسي له الهوى «وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ»[3].

وإن المؤمن يعيش حياة الصدق، لأنه يعيش في إطار الحق فلا يحتاج إلى التبرير والتلبيس والدجل، بينما يعيش أصحاب الهوى الالتواء والأعذار والزيف. إن ضمائرهم ترفض باطلهم

---

(١) نور الثقلين: ج٥ ص٢٤.
(٢) نهج البلاغة: حكمة ٤٠.
(٣) نهج البلاغة: حكمة ٢١١.

لولا أنه يزّين لهم، ويلبس بالحق، ويبرر بصنوف المعاذير. أرأيت الذي يطعم العسل لا يحتاج إلى خلطه بمادة أخرى، بينما الذي يجترع العلقم لا يستسيغه إلا إذا وضع فيه قطعة حلوى، كذلك الحق والباطل. فهل الحاكم المنتخب بنزاهة، والعامل بالعدل، والحكيم، والصادق، والصالح، بحاجة إلى الإعلام كالطاغية الظالم الطائش الفاسد؟

وهكذا نجد الدول كلما توغلت في الظلم أنفقت على الدعاية. كما نجد أكثر الفلسفات البشرية جاءت لتبرير واقع فاسد للناس فرادى أو جماعات، ففي العهد الماضي ابتدعت نظريات كثيرة كالمرجئة والقدرية لتبرير الواقع الفاسد للأفراد وحالات الترهل والكسل، كما انتشر في العصر الحديث الفساد الجنسي، وغطت الميوعة والمجون بلدانا كثيرة، وجاء البعض بنظريته الجنسية المعروفة لكي يبرّر للإنسان غرقه في أوحال الفساد واتباع الشهوات.

[١٥] لكي يتعمق الفصل بين فريقي المؤمنين والكافرين في أعيننا حتى لا نزعم أنهما سواء، ونستدرج -بسبب هذا الزعم- نحو الكفر، ولكي نرغب في الإيمان بما يلقيه على عواتقنا من مسؤوليات، ونحذر من الكفر بالرغم مما حفت به من شهوات، لكل ذلك يذكرنا السياق بمصير الفريقين، ويبين صفات الجنة والنار: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ هذه هي صفة الجنة ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين يتبعون الحق، ويتجنبون ما يسخط ربهم، ويحفظون أنفسهم من النار، وما يوجبها من سيئات. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ متنوعة أولا ﴿مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ غير متغير لطول المقام كما تتغير مياه الدنيا، ذلك أن الجنة طاهرة من النجاسات والجراثيم والأدران. وقال بعضهم: «إن هذا النهر وضع لرفع عطشهم». وأقول: بلى، وأيضا لتطهير أجسادهم وأرواحهم من شوائب الحياة الدنيا فإذا شربوا منها نظفت أبدانهم من كل جرثومة أو مرض كما طهرت قلوبهم من كل غل.. ونستوحي ذلك من عدم قابلية الماء للأسونة والتغيير. وإذا عرفنا أن الماء بذاته مطهر، فإن مقاومته للتأثر تعني أنه ماء مطهر لكل نجاسة، لأنه لو لم يكن كذلك إذا كان يتأثر بها، ويدل على ذلك أيضا الحديث الذي مضى آنفا عن رسول الله ﷺ.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فلا يعتريه شيء من العوارض التي تصيب الألبان في الدنيا، ونحن نعرف أن اللبن شراب يقوم بدور الطعام، أو طعام متكامل في صورة شراب سائغ إلا أنه قد يتغيّر بسبب سرعة اجتذابه للجراثيم. بَيْدَ أن لبن الآخرة يقاوم الجراثيم، فهو إذن غذاء سائغ هدفه بعث القوة في أبدانهم.

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ يتلذّذون بشربها، ولا يتأذون بها ولا بعاقبتها، بخلاف خمر الدنيا التي لا تخلو من المرارة والسكر والصداع، فإذا شربوها ازدادوا نشاطا وحيوية.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ خالص من الشمع والرغوة والقذى ومن كل ما يقللّ من قيمته، ومن جميع العيوب التي تكون لعسل الدنيا، فهو حلوى يتذوقونها. أوَلَيس تشتهي النفس بعد الطعام إلى الحلاء؟

هكذا تجري في الجنة هذه الأنهار تبعث البهجة والطمأنينة في نفوس أهل الجنة حيث لا يبقى في نفوسهم خوف من الجوع مستقبلا، أو حرص على الطعام في الحاضر. أرأيت من يعيش على شاطئ الفرات الفائض، هل يخشى العطش أو يحرص على تخزين الماء لمستقبله؟ كلا، هكذا أهل الجنة يبعث الله في نفوسهم الغنى بما تراه أعينهم من وفور النعمة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ﴾ لايتناولونها بعد جهد وعناء كما في الدنيا، لأنها متهدّلة عليهم. يقول الرسول الأكرم ﷺ -بعد تلاوته للآية الكريمة: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]-: «مِنْ قُرْبِهَا مِنْهُمْ يَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنُ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَشْتَهِيهِ مِنَ الثِّمَارِ بِفِيهِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ وَإِنَّ الأَنْوَاعَ مِنَ الفَاكِهَةِ لَيَقُلْنَ لِوَلِيِّ الله يَا وَلِيَّ اللهِ كُلْنِي قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَ هَذَا قَبْلِي»[1]. وحيث كان يتحدث عن شجرة طوبى قال ﷺ: «أَسْفَلُهَا ثِمَارُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَطَعَامُهُمْ مُتَذَلِّلٌ فِي بُيُوتِهِمْ، يَكُونُ فِي الْقَضِيبِ مِنْهَا مِائَةُ لَوْنٍ مِنَ الْفَاكِهَةِ، مِمَّا رَأَيْتُمْ فِي دَارِ [ثِمَارِ] الدُّنْيَا، وَمَا لَمْ تَرَوْهُ. وَمَا سَمِعْتُمْ بِهِ، وَمَا لَمْ تَسْمَعُوا مِثْلَهَا، وَكُلَّمَا يُجْتَنَى مِنْهَا شَيْءٌ نَبَتَتْ مَكَانَهَا أُخْرَى لامَقْطُوعَةٍ، وَلا مَمْنُوعَةٍ...»[2].

وبالرغم من وجود لحم الطير مما يشتهيه الإنسان فإنه لم يذكر في هذا السياق، ولعل منشأ ذلك شمول كلمة الثمرات لمثله إذ إن الثمرة هي التي تفرزها الأرض أو النبات ثم ينتفع بها الإنسان بلا صعوبة.. ولحوم الطير من هذا النوع والله العالم.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ حيث لا يبقى بينهم وبين معرفة الله والأنس بحضرته حجاب من ذنوب، وهذا أعظم نعمة إذ إن لذة الروح أعمق من لذة الجسد، وإن من عرف الله وناجاه وازداد معرفة به بلغت به الراحة، والطمأنينة والأنس، والحب، وانشراح القلب، ولذة الروح أبعد مداه.

روي عن علي بن الحسين عليه السلام: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَدَخَلَ وَلِيُّ اللهَ إِلَى جِنَانِهِ وَمَسَاكِنِهِ وَاتَّكَأَ كُلُّ مُؤْمِنٍ مِنْهُمْ عَلَى أَرِيكَتِهِ حَفَّتْهُ خُدَّامُهُ وَتَهَدَّلَتْ عَلَيْهِ الثِّمَارُ وَتَفَجَّرَتْ حَوْلَهُ الْعُيُونُ وَجَرَتْ مِنْ تَحْتِهِ الأَنْهَارُ وَبُسِطَتْ لَهُ الزَّرَابِيُّ وَصُفِّفَتْ لَهُ النَّمَارِقُ وَأَتَتْهُ الْخُدَّامُ بِمَا شَاءَتْ

(١) الكافي: ج٨ ص٩٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٨ ص١٣٧.

شَهْوَتُهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْأَلَهُمْ ذَلِكَ.

قَالَ: وَيَخْرُجُ عَلَيْهِمُ الْحُورُ الْعِينُ مِنَ الْجِنَانِ فَيَمْكُثُونَ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ إِنَّ الْجَبَّارَ يُشْرِفُ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ أَوْلِيَائِي وَأَهْلَ طَاعَتِي، وَسُكَّانَ جَنَّتِي فِي جِوَارِي أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ؟! نَحْنُ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُنَا وَلَذَّتْ أَعْيُنُنَا مِنَ النِّعَمِ فِي جِوَارِ الْكَرِيمِ.

قَالَ: فَيَعُودُ عَلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَعَمْ، فَأْتِنَا بِخَيْرٍ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ. فَيَقُولُ لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: رِضَايَ عَنْكُمْ وَمَحَبَّتِي لَكُمْ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. قَالَ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ يَا رَبَّنَا رِضَاكَ عَنَّا وَمَحَبَّتُكَ لَنَا خَيْرٌ لَنَا وَأَطْيَبُ لِأَنْفُسِنَا. ثُمَّ قَرَأَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖۚ وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾»[1].

إن الله خلق الإنسان وهو يحمل في جوانحه طموحا لا حدود له، فكلما حصل على نعمة هفت نفسه نحو نعمة أخرى، والرب يذكر النعيم الأخروي الذي وعده المتقين، ويعلم أن الإنسان لا يكتفي به، لهذا يعقب: ﴿وَمَغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أوليس الله ورضاه غاية آمال العارفين، ومنتهى طموح الراغبين؟ ونتساءل: أيهما أفضل أن ننتقل من الدنيا إلى الآخرة فنحصل على ذلك النعيم العظيم المعنوي والمادي، أو أن نلقى في النار على وجوهنا أذلاء خاسئين، مهانين مخزيين؟!

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حديث طويل، قاله للأحنف بن قيس، يصف فيه أهل النار: «فَكَمْ يَوْمَئِذٍ فِي النَّارِ مِنْ صُلْبٍ مَحْطُومٍ وَوَجْهٍ مَهْشُومٍ وَمُشَوَّهٍ مَضْرُوبٍ عَلَى الْخُرْطُومِ قَدْ أَكَلَتِ الْجَامِعَةُ كَفَّهُ وَالْتَحَمَ الطَّوْقُ بِعُنُقِهِ فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ يَا أَحْنَفُ يَنْحَدِرُونَ فِي أَوْدِيَتِهَا وَيَصْعَدُونَ جِبَالَهَا وَقَدْ أُلْبِسُوا الْمُقَطَّعَاتِ مِنَ الْقَطِرَانِ وَأُقْرِنُوا مَعَ فُجَّارِهَا وَشَيَاطِينِهَا، فَإِذَا اسْتَغَاثُوا بِأَسْوَإِ أَخْذٍ مِنْ حَرِيقٍ شُدَّتْ عَلَيْهِمْ عَقَارِبُهَا وَحَيَّاتُهَا وَلَوْ رَأَيْتَ مُنَادِياً يُنَادِي، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا، وَيَا أَهْلَ حُلِيِّهَا وَحُلَلِهَا، خَلِّدُوا فَلَا مَوْتَ فَيَنْدَهَا يَنْقَطِعُ رَجَاؤُهُمْ، وَتَنْغَلِقُ الأَبْوَابُ وَتَنْقَطِعُ بِهِمُ الأَسْبَابُ فَكَمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ شَيْخٍ يُنَادِي وَا شَيْبَتَاهْ، وَكَمْ مِنْ شَابٍّ يُنَادِي وَا شَبَابَاهْ، وَكَمْ مِنِ امْرَأَةٍ تُنَادِي وَا فَضِيحَتَاهْ، هُتِكَتْ عَنْهُمُ السُّتُورُ فَكَمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ مَغْمُوسٍ بَيْنَ أَطْبَاقِهَا مَحْبُوسٌ، يَا لَكَ غَمْسَةً أَلْبَسَتْكَ بَعْدَ لِبَاسِ الْكَتَّانِ وَالْمَاءِ الْمُبَرَّدِ عَلَى الْجُدْرَانِ وَأَكْلِ الطَّعَامِ أَلْوَاناً بَعْدَ أَلْوَانٍ لِبَاساً لَمْ يَدَعْ لَكَ شَعْراً نَاعِماً كُنْتَ مَطْعَمَهُ إِلَّا بَيَّضَهُ وَلَا

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص١٤٠، تفسير العياشي: ج٢ ص٩٦.

عَيْناً كُنْتَ تُبْصِرُ بِهَا إِلَى حَبِيبٍ إِلَّا فَقَأْهَا»[1].

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ إنهم لا يستسيغونه بل يضطرهم عطشهم الشديد إلى شرب الماء الذي يغلي حرارة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ وهنا ننقل حديثا رهيبا مأثورا عن الإمام الباقر عليه السلام يصف فيه بعضا من عذاب الكافرين: «ثُمَّ يُضْرَبُ عَلَى رَأْسِهِ ضَرْبَةً فَيَهْوِي سَبْعِينَ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى عَيْنٍ يُقَالُ لَهَا: آنِيَةٌ. يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾، وَهُوَ عَيْنٌ يَنْتَهِي حَرُّهَا وَطَبْخُهَا وَأُوقِدَ عَلَيْهَا مُذْ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ كُلُّ أَوْدِيَةِ النَّارِ تَنَامُ وَتِلْكَ الْعَيْنُ لَا تَنَامُ مِنْ حَرِّهَا وَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَا مَعْشَرَ الْأَشْقِيَاءِ ادْنُوا فَاشْرَبُوا مِنْهَا فَإِذَا أَعْرَضُوا عَنْهَا ضَرَبَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَقَامِعِ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ قَالَ ثُمَّ يُؤْتَوْنَ بِكَأْسٍ مِنْ حَدِيدٍ فِيهِ شَرْبَةٌ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُمْ تَقَلَّصَتْ شِفَاهُهُمْ وَانْتَثَرَ لُحُومُ وُجُوهِهِمْ فَإِذَا شَرِبُوا مِنْهَا وَصَارَ فِي أَجْوَافِهِمْ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ»[2].

والمتقون لهم من كل الثمرات، أما هؤلاء المجرمون فليس لهم سوى الزقوم مطعما.. يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ثُمَّ يُضْرَبُ عَلَى رَأْسِهِ ضَرْبَةً فَيَهْوِي سَبْعِينَ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى شَجَرَةِ الزَّقُّومِ شَجَرَةٍ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ غُصْنٍ مِنْ نَارٍ فِي كُلِّ غُصْنٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثَمَرَةٍ مِنْ نَارٍ كُلُّ ثَمَرَةٍ كَأَنَّهَا رَأْسُ الشَّيْطَانِ قُبْحاً وَنَتْناً تَنْشَبُ عَلَى صَخْرَةٍ مُمَلَّسَةٍ سَوْدَاءَ كَأَنَّهَا مِرْآةٌ زَلِقَةٌ مَا بَيْنَ أَصْلِ الصَّخْرَةِ إِلَى الصَّخْرَةِ [الشَّجَرَةِ] سَبْعُونَ أَلْفَ عَامٍ أَغْصَانُهَا يَشْرَبُ مِنْ نَارٍ وَثِمَارُهَا نَارٌ، وَفَرْعُهَا نَارٌ فَيُقَالُ لَهُ: يَا شَقِيُّ اصْعَدْ، فَكُلَّمَا صَعِدَ زَلِقَ وَكُلَّمَا زَلِقَ صَعِدَ. فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ سَبْعِينَ أَلْفَ عَامٍ فِي الْعَذَابِ وَإِذَا أَكَلَ مِنْهَا ثَمَرَةً يَجِدُهَا أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ وَأَنْتَنَ مِنَ الْجِيَفِ وَأَشَدَّ مِنَ الْحَدِيدِ فَإِذَا وَاقَعَتْ بَطْنَهُ غَلَتْ فِي بَطْنِهِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ فَيَذْكُرُونَ مَا كَانُوا يَأْكُلُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنْ طِيبِ الطَّعَامِ»[3].

هل نختار هذا المصير السيئ على عاقبة المتقين؟ وهكذا يبيّن القرآن مدى الفرق بين المؤمن والكافر، لكي لا ننظر إلى ظاهر الأمر ونزعم أنه يستوي هذا وذاك، أو تستوي حالة الإيمان وحالة الكفر، فننجر إلى الكفر بإهمالنا وغفلتنا، نعوذ بالله منه ومن مصير الكافرين.

[١٦] ولاتعي القلوب المحاطة بالهوى بصائر القرآن، أما من اتّقى حجب الشهوات تلّقى أنوار الهدى. أولم يقل: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

(١) بحار الأنوار: ج٦٥ ص١٧٢.
(٢) المصدر السابق: ص٣٢١.
(٣) المصدر السابق: ص٣٢١.

وهذه هي نقطة البدء، وعلينا أبدا العودة إلى المبادئ لحل ألغاز الحياة. فإذا كنت تبحث عن الجنة أصلح أولا منهج التفكير في نفسك، فلا تتبع الهوى واستمع إلى الحق وتفكر في آيات الله.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ لا لكي يفقه، وإنما ليجادل في آيات الله بغير هدى. وهنا انعطافة واضحة لمدارج النفاق. والنفاق درجات ويبدأ خفيا ويتدرَّج حتى يسلك في المنافقين إن لم يتدارك نفسه. فالآيات هنا تتحدث عن بذور النفاق ومرض القلب وليس المنافقين، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ عمَّاذا تحدث؟ وإلى أي شيء أشار؟ وما هي الأفكار التي ذكرها؟ وما هي الأوامر التي كلفنا بها، ولماذا؟

يقول ذلك فور خروجه من بيت الرسالة، لماذا؟

لأنه لم يقتنع -حيث لا تتناسب مع الأهواء والمصالح- بما قيل له فحاول أن يجد له تفسيرا وتأويلا يتناسب مع أهوائه. إنه لفرط عقده النفسية لا يرى الأمور إلا بصورة معكوسة، ولا يعتقد صدق متحدثيه، بل يبحث في أحاديثهم عن زوايا مبهمة يجعلها مادة تساؤله، ومناقشاته، وجدلياته، ويزعم أن ذلك من العلم ولا يعرف أنه دليل جهله وانغلاق قلبه.

إن الجدال والتشويش والتأويل (التحريف) هو من سمات المتهربين من القيام بما يتطلبه الإيمان ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فأصبحت لا تعي ولا تعقل. مضوا قدما في طريق الهوى ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ لأن الإنسان لا يمكن أن يخضع لشهواته، ويركب مطية أهوائه، وهو واعٍ بصير. إذ إنه آنئذ سيهتمُّ بتزكية نفسه وترويضها، كما الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي قال وهو يحكم إمبراطورية عريضة: «وإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ وتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ ولَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ ولُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ ونَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ ولَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ويَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ وأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ واجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ... اعْزُبِي عَنِّي فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي ولَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي وايْمُ اللهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً وتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً ولَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا»[1].

[١٧] ومن أراد أن يعيَ الحقائق، ويزداد بصيرة وهدى، ويستقيم على المنهج السليم، فعليه أن يسعى بنفسه نحو الهداية، لأن على الإنسان الخطوة الأولى وعلى الله التوفيق.

---

(١) نهج البلاغة: رسالة: ٤٥.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بحثوا عن الحق بأنفسهم، وسعت قلوبهم نحو البصيرة، أولئك الذين يأخذ ربهم بأيديهم في طريق الهداية، فيزيدهم هدى كما يثبّت أقدامهم أن تزلّ بفعل عواصف الشهوة ورياح الفتن.

﴿زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَـٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ تماما بعكس أولئك المنافقين الذين سبق الحديث عنهم، فبينما طبع الله على قلوب أولئك، زاد هدى هؤلاء. وبينما يتبّع أولئك أهواءهم، آتى هؤلاء التقوى بتنمية معارفهم ووعيهم، وتنبيههم في أوقات الغفلة، وتنمية إرادتهم وعزمهم، وإغنائهم بنعمة الحلال عما حرم عليهم. وبكلمة: توفيقهم لتجنب ما يسخط ربهم.

[١٨] لماذا -إذا- لا نخطو نحو ربنا الخطوة الأولى ليزيدنا هدى ويؤتينا التقوى؟ إنه الانتظار الساذج، والتسويف الخادع، كأننا نتوقع أن تكون الخطوة الأولى من غيرنا، وننتظر وإلى متى ننتظر؟ هل إلى قيام الساعة، حيث لا تنفع التوبة. فقد توافرت علائمها أفلا نبادر بالتوبة قبل فوات أوانها؟

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ قد تتمثل الساعة في يوم القيامة، أو عندما ينزل الله عذاب الاستيصال، أو عندما يفاجئ الإنسان أجله الذي لا مفر منه. المهم أنها تباغت البشر، بيد أنها ليست مفاجئة تماما إذ إن علاماتها قد ظهرت مما تكفينا دلالة عليها.

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أشراط الساعة، أي علائمها، فما هي علائمها؟

لقد اختلف المفسرون في تأويلها، قال بعضهم: «إنها بعثة الرسول، أولَمْ يقل ﷺ: بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِإِصْبَعَيْهِ ﷺ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»[1]. أولم يخطب في أصحابه قبل الغروب وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِثْلُ مَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا فِي مَا بَقِيَ مِنْهَا، إِلاَّ مِثْلُ مَا مَضَى مِنْ يَومِكُمْ هَذَا فِي مَا بَقِيَ مِنْهُ، وَمَا بَقِيَ مِنْهُ إِلاَّ الْيَسِيرَ»[2] مما يدل على إننّا نعيش في نهايات الدنيا.. ومن علامات ذلك بعثة خاتم الرسل الذي لا نبي بعده إلى يوم القيامة.

وقال بعضهم: «إن أشراط الساعة هي ما ذكر في النصوص من انتشار الفساد ولا ريب أن ذلك أيضا من علامات قيام الساعة التي تقوم على شر خلق الله».

بَيْدَ أن أشراط الساعة -حسب ما يبدو- تعم كل الشواهد التي تهدينا إلى قيامها، وتختلف الشواهد حسب الأشخاص والأمم والعصور. فلا ريب أن ما جرى على الأمم

---

(١) بحار الأنوار، ج٦، ص٣١٥.

(٢) تفسير الآلوسي: ج٢٦ ص٤٨، الدر المنثور: ج٦ ص٥٠.

الماضية من عذاب التدمير من أشراط الساعة التي تهدينا إلى وقوعها، وحتى موت الأعزاء ورحيلهم الأبدي عن الدنيا يمكن أن يكون منذرا لنا حتى نبادر بالتوبة.

بلى، هناك علامات الساعة ذكرت في النصوص توحي بضرورة انتظار قيام الساعة عندما ينتشر الفساد وينحسر الصلاح كما جاء في الحديث المأثور عن عبد الله بن عباس قال: «حَجَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حَجَّةَ الوَدَاعِ فَأَخَذَ بَابَ الكَعْبَةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ ﷺ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟. وَكَانَ أَدْنَى النَّاسِ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ سَلْمَانُ ﵁ فَقَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ ﷺ: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ القِيَامَةِ إِضَاعَةَ الصَّلَاةِ، وَاتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ، وَالمَيْلَ مَعَ الأَهْوَاءِ، وَتَعْظِيمَ المَالِ، وَبَيْعَ الدِّينِ بِالدُّنْيَا، فَعِنْدَهَا يُذَابُ قَلْبُ المُؤْمِنِ وَجَوْفُهُ [فِي جَوْفِهِ] كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ، مِمَّا يَرَى مِنَ المُنْكَرِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ».

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، إِنَّ عِنْدَهَا أُمَرَاءَ جَوَرَةً وَوُزَرَاءَ فَسَقَةً وَعُرَفَاءَ ظَلَمَةً، وَأُمَنَاءَ خَوَنَةً. فَقَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ الله؟. قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَاسَلْمَانُ، إِنَّ عِنْدَهَا يَكُونُ المُنْكَرُ مَعْرُوفاً وَالمَعْرُوفُ مُنْكَراً، وَاؤْتُمِنَ الخَائِنُ وَيُخَوَّنُ الأَمِينُ، وَيُصَدَّقُ الكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ الصَّادِقُ.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَاسَلْمَانُ، فَعِنْدَهَا إِمَارَةُ النِّسَاءِ، وَمُشَاوَرَةُ الإِمَاءِ، وَقُعُودُ الصِّبْيَانِ عَلَى المَنَابِرِ، وَيَكُونُ الكَذِبُ طَرَفاً، وَالزَّكَاةُ مَغْرَماً، وَالفَيْءُ مَغْنَماً، وَيَجْفُو الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، وَيَبَرُّ صَدِيقَهُ، وَيَطْلُعُ الكَوْكَبُ المُذَنَّبُ». قَالَ سَلْمَانُ: «وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ الله»؟ قَالَ ﷺ: «إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَاسَلْمَانُ، وَعِنْدَهَا تُشَارِكُ المَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي التِّجَارَةِ، وَيَكُونُ المَطَرُ قَيْظاً وَيَغِيظُ الكِرَامُ غَيْظاً، وَيُحْتَقَرُ الرَّجُلُ المُعْسِرُ، فَعِنْدَهَا يُقَارِبُ الأَسْوَاقُ إِذَا قَالَ هَذَا: لَمْ أَبِعْ شَيْئاً، وَقَالَ هَذَا: لَمْ أَرْبَحْ شَيْئاً. فَلَا تَرَى إِلَّا ذَامّاً لله.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَاسَلْمَانُ، فَعِنْدَهَا يَلِيهِمْ أَقْوَامٌ إِنْ تَكَلَّمُوا قَتَلُوهُمْ، وَإِنْ سَكَتُوا اسْتَبَاحُوهُمْ لِيَسْتَأْثِرُوا بِفَيْئِهِمْ، وَلَيَطَؤُنَّ حُرْمَتَهُمْ، وَلَيَسْفِكُنَّ دِمَاءَهُمْ، وَلَتُمْلَأَنَّ قُلُوبُهُمْ رُعْباً فَلَا تَرَاهُمْ إِلا وَجِلِينَ خَائِفِينَ مَرْعُوبِينَ مَرْهُوبِينَ. قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَاسَلْمَانُ. إِنَّ عِنْدَهَا يُؤْتَى بِشَيْءٍ مِنَ المَشْرِقِ وَشَيْءٍ مِنَ المَغْرِبِ يُلَوَّنُ أُمَّتِي فَالوَيْلُ لِضُعَفَاءِ أُمَّتِي مِنْهُمْ وَالوَيْلُ لَهُمْ مِنَ الله لَا يَرْحَمُونَ صَغِيراً وَلَا يُوَقِّرُونَ كَبِيراً وَلَا يَتَجَاوَزُونَ عَنْ مُسِيءٍ أَخْبَارُهُمْ خَنَاءٌ جُثَّتُهُمْ جُثَّةُ الآدَمِيِّينَ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَاسَلْمَانُ.

وَعِندَهَا تَكْتَفِي الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ، وَيُغَارُ عَلَى الغِلْمَانِ، كَمَا يُغَارُ عَلَى الجَارِيَةِ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا، وَيُشْبِهُ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ، وَالنِّسَاءُ بِالرِّجَالِ، وَيَرْكَبْنَ ذَوَاتُ الفُرُوجِ السُّرُوجَ، فَعَلَيْهِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَعْنَةُ اللهِ. قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، إِنَّ عِندَهَا تُزَخْرَفُ المَسَاجِدُ كَمَا تُزَخْرَفُ البِيَعُ، وَالكَنَائِسُ، وَيُحَلَّى المَصَاحِفُ، وَتَطُولُ المَنَارَاتُ، وَتَكْثُرُ الصُّفُوفُ بِقُلُوبٍ مُتَبَاغِضَةٍ، وَأَلْسُنٍ مُخْتَلِفَةٍ.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَعِندَهَا تُحَلَّى ذُكُورُ أُمَّتِي بِالذَّهَبِ، وَيَلْبَسُونَ الحَرِيرَ، وَالدِّيبَاجَ، وَيَتَّخِذُونَ جُلُودَ النُّمُورِ صِفَاقاً. قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، وَعِندَهَا يَظْهَرُ الرِّبَا، وَيَتَعَامَلُونَ بِالغِيبَةِ وَالرِّشَاءِ، وَيُوضَعُ الدِّينُ، وَتُرْفَعُ الدُّنْيَا.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، وَعِندَهَا يَكْثُرُ الطَّلَاقُ، فَلَا يُقَامُ للهِ حَدٌّ، وَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً. قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، وَعِندَهَا تَظْهَرُ القَيْنَاتُ[1]، وَالمَعَازِفُ وَيَلِيهِمْ أَشْرَارُ أُمَّتِي.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَاسَلْمَانُ، وَعِندَهَا تَحُجُّ أَغْنِيَاءُ أُمَّتِي لِلنُّزْهَةِ، وَتَحُجُّ أَوْسَاطُهَا لِلتِّجَارَةِ، وَتَحُجُّ فُقَرَاؤُهُمْ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، فَعِندَهَا يَكُونُ أَقْوَامٌ يَتَعَلَّمُونَ القُرْآنَ لِغَيْرِ اللهِ، وَيَتَّخِذُونَهُ مَزَامِيرَ، وَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ اللهِ، وَيَكْثُرُ أَوْلَادُ الزِّنَا، وَيَتَغَنَّوْنَ بِالقُرْآنِ، وَيَتَهَافَتُونَ بِالدُّنْيَا.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، ذَاكَ إِذَا انْتُهِكَتِ المَحَارِمُ، وَاكْتُسِبَتِ المَآثِمُ، وَسُلِّطَ الأَشْرَارُ عَلَى الأَخْيَارِ، وَيَفْشُو الكَذِبُ، وَتَظْهَرُ اللَّجَاجَةُ، وَيَفْشُو الحَاجَةُ، وَيَتَبَاهَوْنَ فِي اللِّبَاسِ وَيُمْطَرُونَ فِي غَيْرِ أَوَانِ المَطَرِ، وَيَسْتَحْسِنُونَ الكُوبَةَ[2] وَالمَعَازِفَ، وَيُنْكِرُونَ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى يَكُونَ المُؤْمِنُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَذَلَّ مِنَ الأَمَةِ، وَيَظْهَرُ قُرَّاؤُهُمْ وَعُبَّادُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمُ التَّلَاوُمَ، فَأُولَئِكَ يُدْعَوْنَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ الأَرْجَاسَ، وَالأَنْجَاسَ.

قَالَ سَلْمَانُ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَارَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، فَعِندَهَا لَايَخْشَى الغَنِيُّ إِلَّا الفَقْرَ، حَتَّى إِنَّ السَّائِلَ لَيَسْأَلُ فِيمَا بَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ لَايُصِيبُ أَحَداً يَضَعُ

---

(١) القينات: المغنيات.

(٢) الكوبة: نوع من آلات اللهو والطرب.

فِي يَدِهِ شَيْئاً. قَالَ سَلْمَانُ: وَ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ يَا سَلْمَانُ، عِنْدَهَا يَتَكَلَّمُ الرُّوَيْبِضَةُ. فَقَالَ-سَلْمَانُ-: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ يَارَسُولَ اللهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قَالَ ﷺ: يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ العَامَّةِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّمُ، فَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا، حَتَّى تَخُورَ الأَرْضُ خَوْرَةً، فَلَا يَظُنُّ كُلُّ قَوْمٍ إِلَّا أَنَّهَا خَارَتْ فِي نَاحِيَتِهِمْ، فَيَمْكُثُونَ مَاشَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَنْكُتُونَ فِي مَكْثِهِمْ فَتُلْقِي لَهُمُ الأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا.

قَالَ -سَلْمَانُ-: ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ، ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الأَسَاطِينِ فَقَالَ ﷺ: مِثْلَ هَذَا فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ ذَهَبٌ وَلَا فِضَّةٌ فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا»[1].

ولعل هذا النص والنصوص المشابهة تحثنا على مقاومة الفساد ومناهضة الانحراف حتى لا تبغتنا الساعة بدمارها سواء كانت الساعة النهائية للعالم (يوم القيامة) أم ساعة أمتنا أم ساعة الأفراد ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ هل ينتفع التلميذ في المدرسة حين يجيب عن الأسئلة خارج قاعة الامتحانات؟ كلا.. وهكذا لا تنفع التوبة بعد قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

[١٩] إذا كان الانتظار والتسويف، وتجاهل الحقائق واتباع الهوى، والانغلاق دون هدى الله، إنها جميعا ينهار بأهله في نار جهنم!

فكيف النجاة؟

العلم والتوحيد والاستغفار.. ركيزة النجاة، لأن العلم بالتوحيد يجعل العبد يتحسس بضآلته أمام جبار السماوات والأرض فيستغفر لذنبه، ولشفقته على أحبائه من المؤمنين يستغفر لهم أيضا.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾وربما يقول: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ لأن العقبة التي تعترض الإنسان أمام التوحيد هي الجهل، أولم يقل عز وجل: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ولهذا كرر القرآن الحكيم كثيرا ذكر هذا العامل الذي يصرف الناس عن الإيمان والهدى. قال عز من قائل:

- ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

- ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

---

(١) بحار الأنوار: ج٦ ص٣٠٨.

- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

- ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

- ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

- ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

وكلما ازداد البشر علما ازداد تواضعا، لأنه يعرف حجمه بإزاء سائر ما يعلم من مخلوقات، بينما الجهل سبب التكبر، ولذلك يقول ربنا سبحانه وهو يعالج صفة التكبر في النفس: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الاسراء: ٣٧].

وكلما ازداد البشر علما ازداد خشوعا لربه، أليست الكائنات مرآة أسماء الله، وتجليات خلقه وقدرته وحكمته؟

وهكذا تتصل كلمات هذه الآية ببعضها، فالعلم يهدينا إلى التوحيد، والتوحيد يهدينا إلى الاستغفار، لأن الاستغفار هي حالة النفس عند معرفة الرب، ووعي قدرته وهيمنته وعظمته، إنه الإحساس بالتقصير في مقام الألوهية، إنه الإحساس بالذنب المقرون بالتطلع نحو الإصلاح، وأي سلّم أفضل لبلوغ درجة القبول عند رب العزة من معراج التوبة، أم أي تحية أكرم عند لقاء العبد بربه من التسليم، وأي حالة تسليم أفضل من الاستغفار. ثم إن الكبر هو الحجاب الأكبر الذي يمنع إشراقة نور الحق على جنبات الفؤاد، وأي علاج أنجح من الاستغفار لاقتلاع جذوره.

ليس من اليسير القضاء على كبر النفس، لأن منشأ الكبر هو الجهل، والجهل هو من ذات النفس، ومرتكز في صميم خلقته، وإنما بدوام الاستغفار من الذنب نستطيع القضاء على الجهل ومظهره المتمثل في الكبر. والذي يستغفر لذنبه يزداد تقوى وورعا من العودة إليه، كما يزداد عزما لتنفيذ واجبات الدين واجتناب محرماته.

ويتساءل البعض: كيف أُمِرَ الرسول ﷺ بالاستغفار؟ أوَلَيس هو المعصوم من كل ذنب؟ بلى، ولكن:

أولاً: ليكون قدوة لأمته في الاستغفار.

ثانياً: لأن الحضور في مقام الرب يستدعي الاستغفار، لأنه المعراج إلى المزيد من الكمال، ولأنه -أيضاً- الحبل الممتد بين الربِّ والعبد حتى لو كان الفرد غير مذنب بالذنوب المعروفة.

ولعل التعبير بالذنب دون الذنوب يشير إلى إن المراد منه هو مجمل القصور والتقصير الذي لا يخلو منه العبد.

ثالثاً: إن القرآن نزل على لغة إياك أعني واسمعي يا جارة، فالرسول هو المخاطب والأمة مقصودة بذلك.

ونتساءل -مرة أخرى- عن معنى الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات في هذا السياق؟

والجواب:

ألف: إنه فيما يتصل بالرسول يعني الشفاعة، لأن حقيقة الشفاعة هي طلب المغفرة من الله للمذنبين.

باء: إن الاستغفار يعبِّر عن العلاقة الحميدة مع سائر المؤمنين، فهي ليست عدائية بدليل طلب الرحمة لهم، وليست تابعية بحيث يسترسل المؤمن مع إخوته باعتقاد أنهم كلهم معصومون من الخطأ، لأنهم بشر، والبشر يخطئ ويصيب، وإذا بالغ المؤمن في حبه لإخوانه وإكرامه لهم إلى درجة الاعتقاد بقداستهم، فإنه سوف يعطل عقله في تقييمهم وإصلاحهم.

بلى إن لهم ذنوبا ولكنها لا تدعونا إلى قطيعتهم بل إلى إصلاحهم ولو بالاستغفار.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ إنه سبحانه يعلم حركات الإنسان وسكناته في نهاره وليله، كما يعلم تقلباته الروحية من الكفر والنفاق والكبر إلى الإسلام والإيمان والتقوى.

فلا بد من الحذر الشديد لكي لا نفكر في الخداع، فإن الإنسان لا يخدع إلا نفسه.

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها

﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم[1] ﴿٢٠﴾ طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم ﴿٢١﴾ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴿٢٢﴾ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿٢٣﴾ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴿٢٤﴾ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم[2] وأملى لهم[3] ﴿٢٥﴾ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴿٢٦﴾ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿٢٧﴾ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴿٢٨﴾ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم[4] ﴿٢٩﴾ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم[5] ولتعرفنهم في لحن

---

(١) فأولى لهم: أي إن الموت لهم أولى لهم من الحياة وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

(٢) سوَّل لهم: سهَّل لهم ركوب الآثام، من السول بمعنى الاسترخاء.

(٣) وأملى لهم: أي قرَّر عليهم كالذي يملي على الآخر الشيء ليكتبه، فالشيطان أولاً جعلهم رخواً ثم قرَّر لهم أن يخرجوا عن الطاعة.

(٤) أضغانهم: أحقادهم.

(٥) بسيماهم: سيما الإنسان ملامح وجهه.

ٱلْقَوْلِ(١) وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

هدى من الآيات:

كيف يتميز المؤمنون عن المنافقين ومن في قلوبهم مرض؟ وكيف يخرج الله أضغان القلوب؟ وكيف يبلو المجاهدين والصابرين؟

يضرب لنا القرآن الأمثال لنعرف هذه المقاييس الحق في ذلك.

أولاً: المؤمنون يتطلّعون إلى آيات الجهاد، ويستجيبون لها، أما الذين في قلوبهم مرض فتراهم في حالة المحتضر إذا سمعوا آيات القتال.

ثانياً: المؤمنون يطيعون الله ويقولون قولا معروفا ويصدِّقون الله في المواقف الصعبة. بينما المنافقون يولون الأدبار ويفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم تماما في الجهة المعاكسة للمؤمنين.

ثالثاً: يتدبَّر المؤمنون في القرآن ليجدوا فيه شفاء دائهم، بينما على قلوب أولئك أقفالها، ويرتدون على أدبارهم والشيطان يقول لهم ويملي لهم، بينما القرآن يشفي قلوب هؤلاء ويهديهم.

رابعاً: ترى المنافقين يبحثون عن أمثالهم ويتآمرون معهم لضرب القيادة الرشيدة. والله لهم بالمرصاد حين يتوفاهم ملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم، ويحبط الله أعمالهم لأنهم اتبعوا الشيطان، ورفضوا ولاية الرحمن.

وهكذا يخرج الله أضغان أولئك المنافقين بآيات القتال ويفضحهم، وكما يبلي حقيقة المجاهدين والصابرين ويرفع مقامهم.

بينات من الآيات:

[٢٠] يستقبل المؤمنون الحقائق بأذن واعية، وبصائر نافذة من دون حجاب، وبقلوب طاهرة من الجهالة والعناد والتكبر. بلى؛ إن مثل حقائق الرسالة ومثلهم كما الأرض الموات

---

(١) لحن القول: اللحن هو الإمالة فإن المنافق يميل بكلامه حيث إن قلبه لا يرضى أن يتكلم حسب موازين الإيمان.

تستقبل زخات الغيث المباركة، فإذا نزلت عليهم سورة وعوها واستعدوا لتنفيذ أحكامها، وإذا لم تنزل تراهم يتساءلون أفلا حيينا بها، أفلا قرت أعيننا بالنظر إلى آيات جديدة؟!

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ وذلك لسببين:

أولاً: لما يغمر قلوبهم من اللهفة إليها، ولما تنطوي جوانحهم من العزم الشديد للعمل بكل ما فيها من أوامر.

ثانياً: ليقطعوا جدل وتشويش الذين في قلوبهم مرض كما مرّ آنفا حيث يقولون لما يستمعون للرسول ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾، بيد أن حقيقة المشكلة لا تكمن في إحكام البيان بحيث لا يحتمل أي جدل فاسد وإنما في النفس، وقد شخّصت الآيات الداء والعلاج في تقابل التقوى ومرض القلب، فالمتقون لا يقعون في التأولات الفاسدة والجدل الفارغ لتبرير الهروب من المسئولية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ بينما مرضى القلوب هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ فالذين في قلوبهم مرض، فإنهم على عكس المؤمنين تماما، إذ يتخوفون أن تنزل عليهم أوامر جديدة، تأمرهم بالقتال مع العدو، لأنهم لا يملكون الاستعداد الكافي لتطبيق الأحكام.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ لا يمكن الجدال لأنها واضحة لا تحتمل التأويل ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ آنئذ تبلى حقائق الرجال ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ من نفاق، أو شك، أو جبن ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ وهكذا يمتاز المؤمنون عن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، لأن المؤمنين يثبتون في مختلف الظروف، بينما هؤلاء في حالة من الرعب تشبه حالة المحتضر الذي يشخص ببصره فزعا، وهو فاقد لقدرة التركيز وربما قال ربنا: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ولم يقل: (الذين نافقوا) لأن الخط المنحرف لا يقتصر على المنافقين، بل يضم الكثير ممن يزعمون أنهم مؤمنون ولكن وجود المرض فيهم يجرهم إلى خط النفاق، وعلى أقل تقدير سيكونون التيار الذي يتكئ عليه عصبة النفاق في التنفذ داخل المجتمع، ويتوضح لنا من بعض الآيات أن الذين في قلوبهم مرض هم طائفة أخرى غير المنافقين، يقول عزّ وجلّ: ﴿۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦٠]. يهدّد القرآن هؤلاء، ويوعدهم العاقبة السوأى قائلا: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ تستخدم هذه الكلمة في اللعن، واختلفوا في معناها الدقيق، هل هو بمعنى: يليه مكروه، أو لهم الويل أو الموت أولى لهم، ويبدو أن هذه الكلمة تأتي بعد بيان سيئة من سيئاتهم فعلا أو قولا فيكون معناها إنهم يستحقون تلك السيئة وهم أحق بها، وأولى من غيرهم، وفي المقام يكون المعنى أن هذه العاقبة السيئة التي انتهوا إليها من رفضهم لسورة القتال يستحقونها لما كان في

قلوبهم من مرض، ذلك لأن النفاق -في القلب وكحالة فردية- والخوف الذي يحوِّل الإنسان عن قتال الأعداء، جرم كبير وضلالة بعيدة، لأنه يجر صاحبه إلى الاستسلام للطاغوت وفقدان استقلاله أمام الغزاة، والتنازل عن قيمه وشخصيته خشية بطش الجبارين وكل من ارتد عن الدين أو أتبع الظالمين انساق إلى مصيره الأسود بسبب تلك الأمراض الخطيرة التي تمكنت من قلبه.

[٢١] بينما لو أطاعوا أوامر الرسالة، واستقبلوها برضى، وطهروا قلوبهم من الأمراض الفتاكة، وصدقوا في الظروف الصعبة، لكانوا يعيشون العزة والكرامة والاستقلال ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عزم الأمر، يعني بلغ الموقف حداً يستدعي الهزيمة والإرادة النافذة، وقال البعض معناه: جد القتال.

ونستوحي من هذه الآية بصيرتين:

الأولى: إن قول المعروف عند صدور أوامر الرسالة وبرامجها بعد التسليم والطاعة مؤشر واضح على تفاعل الإنسان مع الرسالة، وصدق انتمائه لها، وخلوِ قلبه من حسكة النفاق وأي مرض آخر، كالجهل والجبن والتكبر، لأن هذه الأمراض تجعل الإنسان يعيش حالة التقزز والاشمئزاز والضجر مما يظهر على فلتات لسانه، فلا يقول قولا معروفا عند المواقف الصعبة.

وبالرغم من أن المنافقين قد يعيشون هذه الحالة، ولكن الظرف قد يستدعي منهم أن يكتموها، بيد أنه عندما يعزم الأمر لا يمكنهم كتمان واقعهم.

إن مرضى القلوب هم الذين يؤدون الطاعات، ويعملون الصالحات على كره، فلذلك تراهم يرفقونها بالحديث السلبي معها، ولذلك تراهم لا يقضون صلاتهم إلا ويتبعونها بالقول تضجرا، كم هي ثقيلة هذه الصلاة؟! ولا ينهون صوم يوم من أيام رمضان إلا ويقولون كم هو مرهق هذا الصيام؟! ولا يزكون ويخمسون إلا ويضجون: لقد أفقرنا هذا الدين.. في حين كان عليهم أن يتحسَّسوا هذه النعم الجسام، ويحمدوا الله عزَّ وجلَّ على أن وفقهم لها، ولكنه الجهل والتكبر والنفاق وحبّ الدنيا كل أولئك لا يدع الإنسان يعرف قيمة الرسالة، ونفعها العميم للإنسان.

الثانية: نستوحي من قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أن علينا أن ننفذ الأوامر الرسالية ونسعى جاهدين من أجل تحقيقها دون نقاش أو تبرير أو جدال أو معارضة، لأنها صادرة من الله تبارك وتعالى. والواجب علينا أن نروِّض أنفسنا لتستجيب ونتفاعل مع الأحكام الإلهية. ولكن كيف؟

من شاء أن يكون صادقا في المواقف الصعبة، مستعداً لتحمل المسؤوليات الجسام، فعليه أن يتدرَّج في تربية نفسه شيئا فشيئا، فأولا يعوِّدها على تأدية الأعمال الصغيرة بصدق وجدية، ثم الأكبر منها فالأكبر، حتى يرتقي إلى مستوى عال فيؤدي الأعمال الكبيرة بكل صدق ورضى.

[٢٢] إنهم يهربون من القتال، وإنما فرض الله القتال من أجل إصلاح الأرض، وتكريس قيم المحبة، فمن يتولَّ عنه فسوف يقاتل، ولكن في صفوف المنافقين ومن أجل نشر الفساد في الأرض وقطع الأرحام ومخالفة قيم الخير والفضيلة. أوَلَيست الحياة صراعا، ولا مفر منه، ومن لم يقدم على اختيار جبهة الخير انساق إلى جبهة الشر، ولا مسافة بين الحق والباطل، فمن لم ينفعه الحق أضره الباطل.

أولئك الذين يزعمون أن القتال شر مستطير، وأنهم دعاة السلام، تراهم وقود معارك الباطل مقابل الحق. ألم تقرأ في التاريخ: كيف أن أهل الكوفة رفضوا القتال مع الإمام الحسين عليه السلام لمواجهة الأمويين باسم الخروج من الفتنة، ثم استخدمهم يزيد في قتال السبط الشهيد كُرْهاً.

إن لحكم القرآن ثمنا من لم يدفعه راضيا ابتلي بحكم الطاغوت ودفع أضعاف ذلك الثمن مكرها ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ كلمة عسى تدل على التوقع.. فهذه هي العاقبة المتوقعة لمن يتولّى عن الحق!

ولأن الحديث في هذه السورة عن الحكم الإلهي والولاية الشرعية وتحمل مسؤولياتها، وفي طليعتها الدفاع عن الدين، فإن معنى التولي هنا الانسحاب من ساحة المواجهة وترك القيادة الرشيدة وحدها في الميدان، ولذلك فسر البعض هذه الكلمة، بأنه بمعنى الولاية أي إذا أصبحتم حكاما، وأوَّله البعض في بني أمية استنادا إلى ما رواه عبد الله بن مغفل قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ..... ﴾ ثم قال: هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم[1].

والفساد في الأرض، هو النتيجة الطبيعية للنظام الذي لا يستلهم من الدين أحكامه.. فيفسد الاقتصاد والاجتماع كما يفسد الأخلاق والآداب ومن أبرز مظاهر إفساده تفريق الكلمة، وإشاعة الفساد في الخلق، الذي يؤدي إلى تفكك الأسرة وقطع الأرحام. ويبدو أن قطع الرحم هو آخر عروة ينقض من عرى المجتمع، لأن الفساد إذا بلغ الأسرة فقد أتى على آخر قلعة من قلاع الاستقلال عند البشر.

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٢٤٥

[٢٣] وإذا بلغ الإنسان هذا الدرك فَقَدَ كل فرصة له للهداية، لأن الله يلعنه ويسد عليه أبواب الهدى.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وطردهم من رحاب رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ فلم ينتفعوا بتجارب غيرهم ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ فلم يعودوا ينتفعون حتى بتجاربهم، وهكذا يستمرون في الهبوط حتى الدرك الأسفل. وهذه عاقبة الدول والتجمعات التي لم تقم على أساس الوحي. وهكذا نعرف أن بدء السقوط الكبير قد يكون زللا بسيطا يستهين به صاحبه، كما قد تكون بداية رحلة الموت ميكروبا يستخف به المريض.. واستخفاف الإنسان بالدفاع، وبخله بنفسه وماله عن الإنفاق في سبيل الله، هو بدأ رحلة السقوط الكبير.. وهو بدوره ناشئ من الأمراض القلبية التي لا بد من المبادرة بعلاجها.

[٢٤] والسؤال العريض: كيف إذا نعالج أمراض القلب؟.

الكبر؛ المرض المستفحل الذي جعل إبليس يرفض السجود لآدم، وجعل أبناء آدم يرفضون التسليم للقيادة الشرعية عبر التاريخ؟

الحسد؛ ذلك الذي أوقد نار الحرب بين هابيل وقابيل، ولا يزال يجعلنا في صراع دائم؟

الجبن؛ الذي هدم حضارات عظيمة لم يدافع أهلها عنها أمام الغزاة البرابرة. وغيرها من أمراض القلب؟

ويجيب القرآن.. بالتدبر في القرآن ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ والتدبُّر أن نسير بأفكارنا إلى عاقبة الأمور أو دبرها. وحين نتدبر في القرآن فإننا نتفكر في تطبيقات الآيات الكريمة، وتجسدها في الواقع العملي، وحسب التعبير القرآني في تأويلها.

الذين يتدبرون في القرآن يطبِّقون آيات القرآن على واقعهم، فإذا قرؤوا فيها آية تذكرهم بسنن الأولين، بقوم عاد وثمود. يتساءلون: ماذا لو فعلوا مثل فعلتهم؟ أفلا يكون جزاؤهم الدمار أيضا؟ وإذا سمعوا موعظة زجروا أنفسهم بها أو سمعوا مرضا قالوا لعله موجود فينا دعنا نفتش في أوضاعنا عن آثاره، فإن وجدناه سارعنا لمحاربته وهكذا..

ولأن مَثَلَ القرآن مَثَلُ الشمس فإن يطبق كل يوم على أهل ذلك اليوم، فلا بد أن نفتِّش في الواقع الخارجي، وفي أنفسنا عمن يجري فيهم القرآن بأعينهم وصفاتهم. فمن هم المنافقون اليوم ومن هم المؤمنون؟ ومن هو الطاغوت الذي أمرنا لنكفر به؟ ومن هو الإمام الذي تجب طاعته؟ وما هي الدول التي تنتظر عاقبة قوم عاد؟ وما هي الحضارات التي تمثل حضارة ذي

القرنين أو داود وسليمان؟ وهكذا.. وحينما تعصف بالأمة الفتن حتى تدع الحليم حيرانا، هنالك لا بد من التدبر في القرآن لمعرفة السبيل إلى الخروج منها. هكذا أمرنا الرسول الأكرم ﷺ حين قال: «فَإِذَا التَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ»[١]. وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّهُ الحَبْلُ المَتِينُ والنُّورُ المُبِينُ والشِّفَاءُ النَّافِعُ والرِّيُّ النَّاقِعُ والعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ والنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ»[٢].

والمتدبر في القرآن يطبق آياته على نفسه، ويتساءل عن أية عائبة فيها ليصلحها، أو عارفة ناقصة عنده ليكملها، أو طريقة رشد فيتبعها، أو منهج ضلال فيتركه.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف المؤمنين: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ القُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ»[٣].

وبكلمة: إن ما أفهمه من التدبر كفاية هو البحث عن تطبيقات الآيات سواءً على أنفسهم أو على الخليقة.. ولكن للتدبر أيضا شرطه المتمثل في الانفتاح على القرآن بعيدا عن حجب القلب وأقفاله، عن تلك الأحكام المسبقة، والقوالب الفكرية الجاهزة، والتأويلات القائمة على أساس الهوى والشهوات.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ قالوا: القفل من القفيل، الذي هو ما يَبِس من الشجر، فكأن القلب يعشو فلا يستقبل نور القرآن ويكون كالشجرة اليابسة التي لا تستفيد من الماء والأشعة. وقال البعض: إنه من القفول بمعنى الرجوع، فكأن القلب المنصوب عليه القفل لا ينفذ فيه الهوى، بل يرجع عنه كما يرجع من واجه بابا مقفلا.. ويبدو إن أقفال القلب هي الأهواء المطاعة، والرذائل الراسخة فيها، وما يسبب قسوتها أو الختم عليها. ومَنَ أراد فهم القرآن زَكّى نفسه، وطهّرها من الشكوك والريب وحب الشهوات ومن الكبر والحقد والحسد والجبن وما أشبه، فأنئذ ينساب نور الهدى فيه بلا حجب ولا موانع.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ لَكَ قَلْباً وَمَسَامِعَ وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ عَبْداً فَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ، خَتَمَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ، فَلَا يَصْلُحُ أَبَداً، وَهُوَ

---

(١) الكافي: ج٢ ص٥٩٨.
(٢) نهج البلاغة: من كلام له: ١٦٥ (خاطب به أهل البصرة..).
(٣) نهج البلاغة: الخطبة: ١٩٣.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

[٢٥] ولأن هذه الفئة تركت أمراضها القلبية تتراكم، فقضت على بقايا نور الإيمان في أنفسهم، كانت عاقبة أمرهم الردة عن القيادة الشرعية، ونم ثَمَّ عن الدين.

وكثير أولئك الذين ارتدوا عن الدِّين بسبب بعض هذه الأمراض، ونحن نشير إلى بعضهم لنعتبر بهم. فأوّلهم قابيل الذي طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، وكان مرضه الحسد إذ تقبل قربان أخيه ولم يتقبل منه، وكذلك كان مرض عابد بني إسرائيل المعروف بـ (بلعم باعورا) الذي بلغ درجة عالية من الإيمان والتقوى حتى استحق أن يُعطى الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجيب الله له، ولكنه حين اختار الله موسى عليه السلام مالَ إلى فرعون وارتضى لنفسه أن يكون بمثابة الكلب، كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

أما الزبير بن العوام الذي كان له تاريخ نضالي حافل، وملاحم بطولية رائعة، ولقد كان يكشف الكرب بسيفه عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، إنه الآخر لم يستقم، إذ أسرته الدنيا بمناصبها الحقيرة وزينتها الفانية.. فدفعه حب الرئاسة إلى محاربة إمام عصره أمير المؤمنين علي عليه السلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ وتراجعوا عن العهود والمواثيق التي ألزموا أنفسهم بها تجاه الرسول ألا يخونوه، وألا يخذلوه عند لقاء العدو.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ وعلموا أن الرسول على حق، ولكنهم جبنوا عن مواجهة الأعداء، وبحثوا عن السلطة والثروة.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ رغبهم في ذلك عندما زين لهم الدنيا وغرهم بما فيها من فتنة ظاهرة، وكلمة سول من السؤل أي الحاجة، وكأن الشيطان جعلهم حريصين على هذه الحاجة، وأثار فيهم الرغبة فيها.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ قالوا: الكلمة من الأمل بمعنى منّاهم بطول الأمل، فأنساهم الحساب.

[٢٦] لقد رغبوا في البقاء ليتنعموا بالرئاسة، كما أنّهم انضموا إلى ركب الرسالة من أجلها. لقد كانت حساباتهم تدعوهم إلى مواكبة هذا التيار الاجتماعي الصاعد ليرثوا مغانمه، فما دام

---

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢٠٣.

الخِيَرَة يتنافسون على نيل الشهادة فسوف يصفو لهم الجو، وتتاح لهم الفرصة للسيطرة على الناس، وحكمهم باسم الرسالة.. لذلك ما كانوا ينفكون عن المؤامرة ضد السلطة الشرعية، وقد بلغ بهم الأمر إلى التخابر مع الأعداء (اليهود والمشركين) لجلب تأييدهم!! وأعطوهم وعدا بطاعتهم في بعض القضايا التي تهمهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ ولعل الآية تشير إلى مؤامرة كان بعض المرتدين يحيكونها في عهد الرسول ﷺ لينفذوها من بعده، والفئة الكارهة كانت القوة العربية المعارضة للإسلام وهي قوة بني أمية التي عارضت الرسول منذ البداية وحتى استسلامها في فتح مكة، حيث غيّرت استراتيجيتها فقط فعملت سرا بعدما كانت تعمل جهرا. ويشير إلى ذلك حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «دَعَوْا بَنِي أُمَيَّةَ إِلَى مِيثَاقِهِمْ أَلَّا يُصَيِّرُوا الأَمْرَ فِينَا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا يُعْطُونَا مِنَ الْخُمُسِ شَيْئاً»[1].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ويمكر بهم وهو خير الماكرين، وهكذا ذهبت جهود بني أمية هباء، وبقي الدين خالصا لله عبر القرون بالرغم من أن هدف بني أمية وحلفاءهم كان طمس معالمه.

[٢٧] إن نجحت مؤامرتهم ضد الولاية الإلهية، وأفلتوا من عقاب الدنيا، فهل يهربون من عذاب الله الذي يفاجئهم منذ خروج أرواحهم من الدنيا؟

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ تلك الوجوه التي كلحت في وجه الحق، وتلك الأدبار التي تولت عنه، ولكن أين أعمالهم الصالحة؟ أين صلاتهم وزكاتهم وحسناتهم التي اقترفوها؟ إنها تحبط لأنهم خالفوا الله في أعظم أوامره واتبعوا أهواءهم.

[٢٨] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ من أهواء، وإذا صلى العبد وصام وقام، ولكنه اتبع هواه فماذا ينفعه عمله؟ أوَ ليست حكمة هذه الفرائض ترويض النفس حتى لا تتبع هواها وتزكيتها من كبرها وحسدها وغلّها الدفين فيها، بينما مثل هؤلاء يكرسون بصلاتهم وأعمالهم كبرهم وعنادهم بل يجعلون صلاتهم وسيلة لنيل شهواتهم من الرئاسة في الدنيا.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ المتمثل في ولايته التي أمر بها، فلم يطيعوا قيادتهم الشرعية ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

---

(١) الكافي: ج١ ص٤٢٠، تفسير القمي: ج٢ ص٣٠٨.

[٢٩] هكذا ابتلى الله عباده حتى ظهروا على حقيقتهم وأخرج الله ما ستروه من أمراض ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إن هذا الظن هو الذي غرَّهم بربِّهم وجعلهم يزعمون قدرتهم على الاختباء وراء مظهر النفاق إلى الأبد، ولكن الله أخرج ما ستروه من أحقاد وحسد وبغضاء. قالوا الأضغان: ما يضمر من المكروه.

[٣٠] وكما الله قادر على أن يظهر حقيقتهم بامتحانهم في القتال، فهو قادر على أن يعرِّف رسوله واقعهم بطرق أخرى كأن يجعل على سيماهم وملامحهم علامات النفاق ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وفعلا هناك على مظهر كل واحد منهم علامات النفاق، ولكن لا تظهر إلا لأهل الخبرة والمؤمنين المتوسمين الذين ينظرون بنور الله. فمثلا: باستطاعتك أن تعرف المنافق بالنظر إلى قسمات وجهه، حينما ينادي المنادي بالصلاة أو بالزكاة أو بالجهاد أو بطاعة ولي الأمر، فإن قسماته تنكمش كالشن البالي، بينما تنبسط قسمات وجه المؤمنين كما البدر.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ بل، في تضاعيف الكلام تظهر حقيقة المتحدثين، أوليس المرء مخبوءا تحت لسانه حتى إن التحليل الحديث لعلم النفس يستفيد من أغلاط المتحدث لمعرفة خلفياته النفسية، وحتى أعظم رجال السياسة وأشدهم مكرا لا يمكنه أن يخفي مواقفه الحقيقية عند الحديث عن شيء، لأن الكلمة التي يتلفَّظ بها إذا كانت صادقة تخرج بعفوية ويسر، بينما إذا كانت كاذبة لا تخرج إلا بصعوبة وبتكلف. ومن هنا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»[1].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ كما يعلم أقوالكم، يعلمها بنياتها وخلفياتها.

[٣١] وهذه سنة الله في خلقه أن يختبرهم اختبارا لا لكي يفضح المنافقين فقط، بل لتتجلى أيضا حقيقة المجاهدين والصابرين لأنفسهم وللناس فيتخذوا قدوة ونبراسا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بأنواع البلاء ومنها القتال ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ الذين لا يدعون جهدا لديهم إلا بذلوه في سبيل الله ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ ولعلهم أعظم درجة من المجاهدين وأشد تعرضا للبلاء ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ تلك التي يحاول البشر أن يسترها بأي داع من الدواعي فمن الناس من يخشى أن يظهر خبره خشية الفضيحة، ومنهم من يخشى ذلك خوف الرياء والسمعة، ولكن الله يبلوها بحكمته عبر أنواع البلاء، ومن أبرزها القتال.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة: ٢٦.

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ[1] مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[2] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾.

هدى من الآيات:

إن التسليم للرسول والولي المنصوب من عند الله شاهد على صدق التسليم لله، بينما الشقاق عنه كفر وصد عن سبيل الله، ويسبب حبط العمل وإبطاله. فلا بد إذا من الطاعة للرسول التي هي امتداد لطاعة الله، لكي لا تبطل أعمالنا. وإذا مات العبد كافرا فلن يغفر الله له.

---

(١) وشاقوا الرسول: هم في شق أي طرف والرسول في شق.

(٢) فيحفكم: فيبالغ في الطلب، فإن الإحفاء بمعنى المبالغة.

هكذا أرسى القرآن قواعد الانضباط -التي نحتاجها في السلم وبصورة أكبر في الحرب- واتباع القيادة الشرعية، ثم أمر المسلمين بالاستقامة وعدم الوهن بطلب السلام الذليل ما دمنا الأعلى والأقوى وإن الله مع المؤمنين ولا يضيع أجر العاملين.

وفي الختام: رَغَّبَ السياق المؤمنين عن الدنيا التي هي عبث ولهو إلا إذا طلب الإنسان بها الآخرة، فصارت ذات هدف سام، ووعد المؤمنين المتقين بأنه يؤتيهم أجرهم ولا يسألهم أموالهم. فلو سألها كلها بإصرار أخرج ما يخفوه من البخل ألا ترى كيف أن البعض يبخل عن الإنفاق ببعض أمواله في سبيل الله، بينما الإنفاق هو ذخيرة لنفسه. فإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه، لأن الله هو الغني وهم الفقراء.

وأنذر ربنا المسلمين بأن توليهم عن واجبات الرسالة -وفي طليعتها القتال والإنفاق- يفقدهم صلاحية حمل الرسالة، فيستبدل الله بهم غيرهم فلا يكونوا أمثالهم.

بينات من الآيات:

[٣٢] ليس من السهل التسليم لقيادة الحق للأسباب التالية:

أولاً: لأن القائد بشر كسائر الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولا يني الشيطان يوسوس للإنسان، كيف تطيع بشرا مثلك؟ ومن الذي فضَّله عليك؟ وكانت هذه أخطر العقبات التي منعت الناس من اتباع الرسل بادئ ذي بدء.

ثانياً: لأن كثيرا من قرارات القيادة تمس الحياة اليومية، وقد لا تكون مفهومة عند الفرد كما قد تخالف مصالحه العاجلة أو آراءه أو أهواءه.. مما يستدعي المزيد من العزم حتى يتغلَّب الفرد على الحالة النفسية التي تمنعه من تنفيذ القرار.

ثالثاً: لأن صاحب الولاية الإلهية يسوق الناس نحو الكمال أبدا، مما يجعل قراره صعبا مستصعبا.. لا يحتمله إلا كل مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.. لأن قراره نابع من الوحي والقيم الحق التي أنزل بها، ومنها التطلع نحو الكمال.

من هنا فإن طاعة الرسول تأتي في مقدمة فرائض الرسالة، كما أن مخالفته تُعَدُّ ارتدادا عن الدين وكفرا وسببا لإبطال الأعمال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ ويبدو من قوله سبحانه ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ وقوله سبحانه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ أن هذا الفريق هم من المنافقين

الذين فضحتهم الأوامر بالقتال، وزعموا أن شقّهم عصى الطاعة يفتُّ في عضد الرسول بينما الواقع هو أنهم هم الذين خسروا أعمالهم الصالحة التي قاموا بها، فأحبطها الله حيث لم يستقيموا على الصراط، ولا يجوز أن يمنّوا بها على الرسول، لأنهم أبطلوها بخيانتهم للقيادة في الوقت الحرج.

وقال أكثر المفسرين: إن المعني بهذه الآية هم كفار مكة أو يهود المدينة، لأنهم صدُّوا عن سبيل الله بمحاربة الإسلام. وفسروا قوله تعالى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بوضوح الحجج الإلهية عموما للناس الشاهدة على صدق الرسول. ولكني أرجح التفسير الأول لموافقته للظاهر من الآية حيث يظهر من هذه الكلمة أنه قد تبيَّن لهم الهدى فاهتدوا بالرسالة رَدَحاً من الزمان، كما أن هذا التفسير متوافق مع السياق القرآني الذي يحدثنا عن الموقف من القيادة الشرعية.

[٣٣] ويعود القرآن يؤكد ضرورة الطاعة للرسول وينذر المؤمنين بأن شقاقهم عنه يبطل أعمالهم.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ﴾ فالآية هذه هي العبرة الواعظة التي لا بد أن يعيها المؤمنون من عاقبة من سقط في الامتحان فارتد عن دينه وشاق الرسول. وهذا الأمر ينسحب على كل ولاية إلهية في كل عصر.

فعن مهزم الأسدي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَأُعَذِّبَنَّ كُلَّ رَعِيَّةٍ دَانَتْ بِإِمَامٍ لَيْسَ مِنَ اللهِ وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً وَلَأَغْفِرَنَّ عَنْ كُلِّ رَعِيَّةٍ دَانَتْ بِكُلِّ إِمَامٍ مِنَ اللهِ وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَعْمَالِهَا سَيِّئَةً»[1].

وعن عبد الله بن سنان عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يُعَذِّبَ أُمَّةً دَانَتْ بِإِمَامٍ لَيْسَ مِنَ اللهِ وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً وَإِنَّ اللهَ لَيَسْتَحْيِي أَنْ يُعَذِّبَ أُمَّةً دَانَتْ بِإِمَامٍ مِنَ اللهِ وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْمَالِهَا ظَالِمَةً مُسِيئَةً»[2].

[٣٤] هل لهؤلاء الذين كفروا بالرسالة ومضوا على كفرهم من توبة؟ كلا.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويبدو أن أعظم الصد هو منع الناس عن الجهاد، ولو بإصدار الفتاوى السلطانية التي تزوّر الحقائق، وتحرّف الآيات وتبرّر الواقع الفاسد. ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ بلى؛ إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله يزعمون أنهم سوف يتوبون إلى الله، كما أنهم يستخفون بذنوبهم، أو أنهم يحسبون أنهم مهتدون.

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٧٦.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٨ ص١٠٥، تفسير العياشي: ج١ ص١٣٩.

[٣٥] إن صلابة الجبهة الداخلية شرط أساس للانتصار، وينعطف السياق نحو المؤمنين فيأمرهم -بعد الطاعة- بمقاومة إغراءات السلام، بعد تراكم الصعوبات، ذلك السلام الذي يعني الاستسلام والصَّغار ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ لا تخشوا الهزيمة، ولا تهابوا العدو وإن كان أكثر منكم عدة وعددا ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ فلا تكونوا أول من يدعو إلى الصلح من الفريقين المتحاربين، خشية الموت والهزيمة ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ فما دمتم مؤمنين، فأنتم الأعلون بقيمكم وقدراتكم، لأن الإيمان بصيرة وقوة، بصيرة لما يوفّره فينا من منهجية عقلية، ورؤية حياتية، وقوة بما يلهمه من عزم في الإرادة، وتلاحم في الصفوف، وَوَلَهٍ في الشهادة، واستقامة وصبر في المكاره.

والسؤال: أي صلح هذا الذي نهى عنه القرآن، بينما يقول ربنا سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. فهل هذه ناسخة أم تلك؟.

يبدو أن هذه الآية نهت عن الدعوة إلى الصلح القائم على أساس الوهن، لأنها تستتبع الذل والهزيمة، وهي في النهاية استسلام للعدو.. بينما أمرت الآية الأخرى بقبول الصلح الذي يدعو إليه العدو لوهن أصابه وضعف، وكلا الأمرين يخدمان القيم الرسالية.. ففي الوقت الذي يكون الصلح لمصلحة الإسلام وقوته وغلبته وتأتي الدعوة إليه من العدو لا بد من قبوله، بينما لا ينبغي المبادرة من قبل المسلمين إلى الدعوة إليه انطلاقا من الإحساس بالوهن والضعف. ولذلك جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر أنه قال: «ولَا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ ولله فِيهِ رِضًا»[1].

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ قالوا: معناه لن يؤدكم من دون أعمالكم، لأن الوتْر بمعنى الإفراد، وإنما سمي الذي قتل منه أحد موتور، لأنه بقي مفردا من دونه. وهكذا ضمن الله حفظ أعمال المؤمنين، كما وعد الكفار بحبط أعمالهم، فكلما بذله المسلمون في طريق تقدم الرسالة يحفظه الله ويجعله مفيدا.

ينبغي إذن ألا نستعجل النتائج، وأن نصبر في المواجهة، حتى يأتي النصر. ولنعلم أن النصر آت، وكل آت قريب، وقد لا نراه نحن وإنما يقطف ثماره أبناؤنا. وزينب بنت علي عليها السلام ضربت أروع الأمثلة في التحلي بهذه البصيرة، فلقد كانت تتذكر حين شدة البلاء، وتراكم المصائب والآلام، هذه حقيقة أن الله لا يضيع جهود المجاهدين. فلقد ألقت نظرة على مصارع إخوتها وأبنائها وأصحاب الرسالة، وقالت مخاطبة الإمام علي بن الحسين عليه السلام ابن أخيها: «مَالِي أَرَاكَ تَجُودُ بِنَفْسِكَ يَابَقِيَّةَ جَدِّي وَأَبِي وَإِخْوَتِي،.... فَوَ اللهِ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله إِلَى جَدِّكَ وَأَبِيكَ وَعَمِّكَ، وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ أُنَاسٍ [مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ] لَاتَعْرِفُهُمْ فَرَاعِنَةُ

(١) نهج البلاغة: كتاب ٥٣.

هَذِهِ الأَرْضِ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ، أَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ هَذِهِ الأَعْضَاءَ الْمُتَفَرِّقَةَ فَيُوَارُونَهَا، وَهَذِهِ الْجُسُومَ الْمُضَرَّجَةَ وَيَنْصِبُونَ لِهَذَا الطَّفِّ عَلَماً لِقَبْرِ أَبِيكَ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ عليه السلام لا يَدْرُسُ أَثَرُهُ، وَلايَعْفُو رَسْمُهُ عَلَى كُرُورِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ وَلَيَجْتَهِدَنَّ أَئِمَّةُ الكُفْرِ وَأَشْيَاعُ الضَّلالَةِ فِي مَحْوِهِ وَتَطْمِيسِهِ فَلا يَزْدَادُ أَثَرُهُ إِلَّا ظُهُوراً وَأَمْرُهُ إِلَّا عُلُوّاً»[1].

وكذلك حين خاطبت يزيد الحاكم الأموي الذي قتل ذرية رسول الله فقالت له: «وَلَئِنِ اتَّخَذْتَنَا مَغْنَماً لَتَجِدُنَا وَشِيكاً مَغْرَماً حِينَ لا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى وَعَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ فَكِدْ كَيْدَكَ وَاسْعَ سَعْيَكَ وَنَاصِبْ جُهْدَكَ فَوَاللهِ لا تَمْحُو ذِكْرَنَا وَلاتُمِيتُ وَحْيَنَا وَلاتُدْرِكُ أَمَدَنَا وَلاتَرْحَضُ عَنْكَ عَارَهَا»[2].

هكذا كانت عليها السلام تنظر إلى آفاق المستقبل البعيدة، دون أن تأسرها مصاعب اللحظات الراهنة الآنية، وهكذا كان جميع حملة الرسالة عبر التاريخ، ينظرون إلى الآفاق البعيدة، فكانوا يتحملون تلك المصائب الرهيبة التي لو أنزلت على جبل لهدته هدا! بلى، بالإيمان بأن الله معهم، وأنه لا يضيع أعمالهم الصالحة، ويحفظ جميع جهودهم، ويباركها وينمّيها وأنه يكيد الكافرين، ويحبط أعمالهم ويبطلها، وأن العاقبة للمتقين، بكل ذلك كان المجاهدون على امتداد التاريخ يتحدون الصعاب.

[٣٦] ونتساءل: لماذا تخور عزائم البعض في مواجهة أعداء الدين؟ لماذا يستحوذ عليهم الوهن ويدعون إلى السلم؟.

إن السبب هو حبُّ الدنيا، ولذلك يحذِّرنا الرب منها، ويبيّن لنا القيمة الحقيقية لها فيقول: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وإذا انتزعنا حب الدنيا من قلوبنا، فسوف نتسلّح بالشجاعة الكافية لمواجهة الأعداء، كما نستعد لاقتلاع جذور سائر الأمراض القلبية التي تحدثت عنها هذه السورة المباركة كالنفاق والحسد والكبر، لأن: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[3] -كما في حديث مأثور-.

وإذا جردت حياتنا في الدنيا من هدفها المتعالي المتمثل في بلوغ الجنة والرضوان، فهل يبقى فيها هدف معقول؟ كلا.. وماذا نتصوره من هدف حكيم للطعام والشراب لو تفكرنا فيه ليس سوى لذة عابرة، وقوة تتبدد، ودورات قصيرة لا ننتهي من واحدة حتى نقع في الأخرى،

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٨، ص٥٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٣٤.
(٣) الكافي: ج٢ ص١٣٠.

واللعب هو السعي الذي يهدف غاية غير حكيمة (خيالية)، واللهو هو السعي الذي لا هدف له أبدا.. وما الدنيا إلا لعب ولهو لأن ما فيها يزول، لولا ما نبقي منها لحياتنا الحقيقية في الآخرة، وهو الذي يشير إليه السياق: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ في الدنيا كرامة وسعادة وعزا، وفي الآخرة جنات النعيم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ قالوا: معنى ذلك أنه سبحانه لا يطلب منكم أجرا بإزاء هدايتكم، ولعل معناه أنه سبحانه يعترف لكم بالملكية، ولا يسلبكم الأموال بصورة كاملة دون إكراه، بل بالترغيب وهذا لا ينافي الأمر بالإنفاق لما فيه من فوائد عظيمة لكم، لأنه دليل واقعي على انتماء الفرد لمجتمع الإيمان والفضيلة، كما أنه سيجعل النفوس نقية صافية طاهرة، وسيجعل المجتمع متماسكا ملتحما ويسير بسرعة أكبر نحو التقدم.

[٣٧] ومن حكمة ربنا ورحمته بنا أنه لم يأمرنا بإنفاق جميع أموالنا، وإلا لم يكن يتمسك بعروة الإسلام إلا القليل من الناس ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يجهدكم في المسألة من الإحفاء بمعنى الإصرار في المسألة ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ ولكنه جعل دينه سهلا لينتمي إليه أكبر عدد من الناس، وإذا كان صعبا ويأمر بإنفاق كل المال كان يظهر البخل الذي تنطوي عليه أغلب النفوس.

[٣٨] وبالرغم من أن الله لم يأمرنا بإنفاق جميع الأموال، ترى البعض يبخلون، كما بخلوا بأنفسهم حين أمروا بالقتال ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ لأنهم لم يعلموا أنفسهم على البذل والعطاء والتضحية، وجذبهم حب الدنيا وأوثقهم بوثائقه، ومن ثَمَّ تصوروا أن الإنفاق مغرم، بينما هو مغنم كبير ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ لأنه لو أنفق شيئا لرُدَّ إليه أضعافا مضاعفة، وحاز على رضوان الله الأكبر. وأي خسارة كهذه الخسارة، أن يحرم الإنسان ثواب ربه ورضاه؟! ولا يدل أمر الله بالإنفاق على حاجته إلى ما نملك، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ ولأننا فقراء يجب علينا أن ننفق حتى يغنينا من فضله ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ فإذا بخلت أمة عن العطاء، فإن الرب يستبدل بها أمة خير منها، تنفق من أموالها، وتجاهد في سبيل الله، وتقدم التضحيات تلو التضحيات، وتصبر وتستقيم.

إن توفيق حمل الرسالات الإلهية شرف عظيم لا يعطيه الله إلا لمن استعد لدفع ثمنه، وثمنه خوض القتال والإنفاق، فإذا ضعفت أمة عنها قيَّض الله لها أمة أخرى! والواقع: أن التاريخ يشهد أن رسالة الإسلام حملها بعد العرب شعوب أخرى كالبرابرة والفرس والأتراك، وإذا خذلها المسلمون اليوم فقد يقيِّض الله لها من أقصى الأرض من يحملها ويؤدي حقها ثم لا يكونوا أمثال المسلمين.



سورة الفتح

* مدنية.
* عدد آياتها: ٢٩.
* ترتيبها النزولي: ١١٢.
* ترتيبها في المصحف: ٤٨.
* نزلت بعد سورة الصف.

فضل السورة

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ التَّلَفِ بِقِرَاءَةِ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مِمَّنْ يُدْمِنُ قِرَاءَتَهَا نَادَى مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تَسْمَعَ الْخَلَائِقُ أَنْتَ مِنْ عِبَادِيَ الْمُخْلَصِينَ أَلْحِقُوهُ بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِي وَأَدْخِلُوهُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَاسْقُوهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ بِمِزَاجِ الْكَافُورِ».

(بحار الأنوار، ج٨٩، ص٣٠٣).

الإطار العام

السلام والحرب

لقد كان صلحاً صاخباً ذلك الذي رجع المسلمون به من مكة بعد أن تمنوا دخولها منتصرين، أو لا أقل آمنين. والصلح مع مشركي قريش واحد من أهم أحداث السيرة النبوية إثارةً للجدل.. إذ كيف يمكن للمؤمنين الذين امتلأت نفوسهم غضباً على الكفار، وشوقاً إلى القتال معهم، وشوقاً إلى الشهادة أن يصالحوا عدواً كافراً ظالماً؟

ولعل نزول سورة كاملة في هذا الموضوع وتسميتها باسم الفتح دليل على حساسية معالجة موضوع الصلح، ومن زوايا عديدة:

أولاً: إن الصلح لايعني تسليماً، ولا ضعفاً، ولا تنازلاً عن الأهداف الاستراتيجية للأمة.

ثانياً: لايعني الصلح تغليب رأي المنافقين الداعين إلى الصلح أو التهاون بالتعبئة العسكرية.

ثالثاً: الصلح أو الحرب رهين أوامر القيادة، والأمة المتمسكة بحبل قيادتها الإلهية لن تُهزم، لا في الحرب ولا في الصلح.

ولعل هذه الزوايا هي مجمل محاور هذه السورة الكريمة التي وصفت الصلح بأنه فتح مبين، وأن الله قد غفر لنبيه ما تقدم وما تأخر، مما عَدَّها الأعداء ذنوباً، وأنه هداه إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي إلى أهدافه السامية والتي منها النصر العزيز.

وبعد هذه البراعة في افتتاح السورة (الآيات: ١-٣) نجد القرآن يمدح المؤمنين، الذين أطاعوا الرسول في الصلح بمثل طاعتهم له في الحرب، ويجعل ذلك وسيلة للنصر، حيث

أنه سبحانه أنزل سكينته في قلوب المؤمنين.. وعلموا أنهم لمنصورون ما داموا قد انتظموا في سلك جند الله، الذي له جنود السماوات والأرض، وأنهم ينتظرون جنات تجري من تحتها الأنهار.(الآيات: ٤-٥).

أما المنافقون الذين خالفوا الرسول في السلم بمثل مخالفتهم له في الحرب؛ فإن الله يعذبهم، لأنهم ظنوا بالله ظن السوء -وأنه لا ينصرهم- فدارت عليهم دائرة السوء، فأنّى اتجهوا وجدوا سوءاً، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم.(الآية: ٦).

إذن؛ فمحور المجتمع الإسلامي هو الرسول الذي إن نصحوا له وأطاعوه مخلصين سعدوا به، لأن الله قد أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وجعله محوراً لحياتهم، ليؤمنوا بالله ورسوله، ويعززوه ويوقروه.. ويعظموا الله بتعظيم رسوله، ذلك أن يد الرسول هي يد الله، ويد الله فوق أيديهم (الآيات: ٧-١٠).

وينعطف السياق على المنافقين الذين أرادوا انتهاز فرصة الصلح ليطعنوا في مصداقية الرسالة، ويقول: سيقول الأعراب الذين تخلفوا عن الرسول في خروجه إلى مكة شغلتنا أموالنا وأهلونا، ويريدون العودة إلى صفوف الرسالة بعد أن أبعدوا عنها بتخلفهم، ولكن الله يفضح مكرهم وأنهم كانوا يرجون ألا يعود الرسول إليهم، وظنوا ظن السوء فكانوا قوماً بوراً هالكين.(الآيات: ١١-١٢).

والآن حيث صعد نجم المسلمين وطَوّعوا أكبر قوة في الجزيرة (وهي قريش) حتى اعترفت بهم كقوة سياسية مناوئة، يريد الانتهازيون الالتحاق بركب الرسالة طمعاً في المغانم، وهذه من مشاكل الصلح دائماً.

ورفض الإسلام عودتهم إلا إذا استعدوا للجهاد إذا دعوا إليه مرة أخرى، فيومئذٍ إن أطاعوا يؤتيهم الله أجراً حسناً، وإن تولوا- كما في السابق - يعذبهم الله عذاباً أليماً (الآيات: ١٣-١٦).

وبعد أن استثنى السياق من هذا الحكم المرضى والمعوقين، عاد وأثنى على المؤمنين الذين بجهودهم حصل المسلمون على هذا الصلح، حيث إنهم بايعوا الرسول على القتال تحت شجرة كانت هنالك، فرضي الله عنهم، وأنزل السكينة عليهم، وأثابهم -في الدنيا- فتحاً قريباً متمثلاً في مكاسب صلح الحديبية، ثم فتح مكة. ويعدّد الله مكاسب المؤمنين بما يلي:

ألف: صلح الحديبية، كما أنه صد أذى الناس عنهم، وجعل ذلك آية وعبرة تاريخية

يستفيد منها المؤمنون (الآيات: ١٧-٢٠).

بـــاء: وكان نصر المؤمنين عن اقتدار، وليس عن ضعف أو ذل ومهانة، فلو قاتلهم الذين كفروا عند مداخل الحرم المكي لولوا الأدبار. وهذه سنّة الله التي لا تتبدل، ولو أن الله أراد لشبَّ القتال وانهزم الكفار، ولكن لحكمةٍ كف الأيدي عن الحرب ببطن مكة. وكانت قريش تستحق القتال، فقد صدوهم عن المسجد الحرام، أما حكمة كف الأيدي؛ فلأنه كانت طوائف من المؤمنين متداخلين مع قريش يعملون بالتقاة (الآيات: ٢١-٢٥).

تـــاء: قتال المؤمنين لا ينبعث من العصبية، بل من مصلحة الرسالة، لذلك فهو يدور على محور المصلحة الإيمانية، بينما قتال الكفار ينطلق من منطلق العصبيات الجاهلية، ولذلك فهم لا يبلغون أهدافهم به.

فقلوب الكفار مليئة بالحمية الجاهلية، بينما تعتمر أفئدة المؤمنين بالسكينة الإيمانية، لأنهم قد التزموا بكلمة التقوى (الآية: ٢٦).

ثـــاء: هذا وقد تبيّن صدق الرؤيا التي رآها الرسول، بأنه يدخل المسجد الحرام هو والمؤمنون بالحق، بلا خوف، فجعل قبله فتحاً قريباً. أما الهدف الأبعد؛ فهو أن يظهر الدين الإسلامي على الدين كله ولو كره المشركون (الآيات: ٢٧-٢٨).

وفي خاتمة السورة: يُبين القرآن صفات أصحاب الرسول الذين اتبعوا الرسول في ساعة العسرة؛ في السلم كما في الحرب، ويُبيّن أن كل فضائلهم آتية من علاقتهم بعبادة ربهم، والتبتل إليه، لذلك تراهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾، يبحثون عن رضوان ربهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ...﴾ (الآية: ٢٩).

وبهذا تحيط السورة بكل زوايا الصلح مع قريش، وتعالج المشاكل الجانبية التي قد تنشأ من أي صلح محتمل مع عدو كافر.

إنا فتحنا لك فتحا مبينا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ[1] ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

هدى من الآيات:

بالرغم من أن الله ينجز وعده لعباده المؤمنين فينصرهم على أعدائهم، وبالرغم من أنهم ينتظرون فتحا قريبا ونصرا عاجلا، إلا أنه قد يتأخر عنهم لمصلحة يعلمها الله، فلربما لو جاءهم النصر عاجلا منع عنهم فتحا كبيرا لما تتهيأ أسبابه، فهذا رسول الله ﷺ يرى في منامه، ويخبر المؤمنين أنه سوف يدخل المسجد الحرام آمنا، ثم يقودهم حاجا إلى بيت الله، فيجد المشركين قد

---

(١) دائرة السوء: دائر عليهم وحائق بهم، وسميت دائرة من دوران الفلك فقد دات دائرة سيئة عليهم، وقوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إما إخبار أو دعاء عليهم.

استعدوا لحربه أو صده عنه، فلم تتحقق رؤياه في الظاهر، ولكنه ﷺ دخله فاتحا في السنين اللاحقة، بسبب ذلك الصلح الذي أبرمه في تلك السنة.

المسلمون من جهتهم فهموا رؤيا الرسول ﷺ على أنها تؤكد دخول مكة في تلك السنة، ولكنه ﷺ مع علمه بالواقع جعلها غامضة، فلم يبيّن لهم بأن النصر لا يأتيهم في ذلك العام، لأنه لو أخبرهم ربما تقاعسوا عن الجهاد، وإذ لم يخبرهم الرسول بواقع الأمر سارعوا نحو مكة يحدوهم أمل الانتصار، وانتهى الأمر بهم إلى صلح الحديبية الذي كان تمهيدا لفتح مكة المكرمة، ولو أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام في ذلك العام فلربما فاتهم فتحها، وبالتالي فتح الجزيرة العربية، وانتشار الإسلام في الأرض.

إن الهدف القريب الذي توخّاه المسلمون بعد إخبار الرسول لهم برؤياه هو دخول مكة، ولم يشأ الله أن يتحقق ذلك تمهيدا لتحقيق الهدف الأكبر وهو فتح مكة، والعبرة من ذلك أن لا يستعجل المسلمون للنتائج، وإنما ينبغي الانتظار ريثما تنضج الظروف.

بينات من الآيات:

[١] ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ماذا تعني كلمة الفتح في هذه الآية؟

قال بعض المفسرين: «إن الآية وإن كانت نزلت قبل فتح مكة إلا أنها تعنيه وتؤكده وتبشر المؤمنين به». وقال آخرون: «إنها تنصرف إلى فتح خيبر». ولكن الآية تدل كما يبدو على الفتح السياسي والثقافي لمكة الذي سبق فتحها العسكري، فالفتح يكمن في الظروف المستجدة الملائمة للدعوة والمكتسبات المتاحة التي توالدت وتوالت وحطمت السدود السياسية والثقافية والنفسية. وقد تجسّد ذلك في صلح الحديبية الذي مهّد لفتحها عسكريا، ومنه انطلق انتصار الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية، ذلك لأن أية حركة ناشئة -بالذات تلك التي تعاكس أفكار المجتمع وعاداته- تسعى نحو اكتساب الاعتراف من المجتمع المحيط حتى تتحرك بحرية في التوسعة والانطلاق، وحركة الإسلام -فيما يتعلق بالجانب الظاهري منها وليس الغيبي- كانت في البدء حركة ناشزة عند المشركين حيث كان المجتمع الجاهلي يَعُدُّون المسلمين صابئة لأنهم في نظرهم متمردون على العادات والتقاليد، فحركتهم إذن حركة خارجة عن الشرعية.

والسؤال: متى تم الاعتراف بحركة الرسول في ذلك المجتمع؟.

لقد تمَّ ذلك في صلح الحديبية، حيث اعترفت من خلاله قريش التي كانت سيدة على مكة وسائر العرب بالرسول وأتباعه ورسالته كأمر واقع، وقد تأكد هذا الاعتراف بوضوح

عند التوقيع على البند القائل، من أراد من القبائل الانضمام إلى الرسول ﷺ والتحالف معه، أو الانضمام إلى قريش والتحالف معها فله ذلك.. وذلك يعني أن هناك حكومتين في الجزيرة حكومة قريش وحكومة الإسلام.

وفعلا تحالفت طائفة من القبائل -كخزاعة- مع الرسول ﷺ، وبدأ الإسلام بالانتشار في ربوع الجزيرة، ولعل الآثار الايجابية التي ترتبت على صلح الحديبية -ومن أهمها تحالف القبائل العربية مع النبي الأعظم- هي التي يسميها القرآن بالفتح المبين.

فالفتح المبين ليس هو الفتح العسكري، وإنما هو الفتح السياسي والثقافي الذي حققه الرسول ﷺ في صلح الحديبية، وكان تمهيدا ومرتكزا للفتح العسكري فيما بعد، حيث حصل بعد الصلح على حالة السلام، صار يتحرك بسرعة جادة تحت مظلته لنشر الدين، قال الإمام الصادق عليه السلام: «فَمَا انْقَضَتْ تِلْكَ الْمُدَّةُ حَتَّى كَادَ الْإِسْلَامُ يَسْتَوْلِي عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ»[1].

ومن الطبيعي أن الحركة التغييرية الناجحة تتقوّى، وتبني نفسها في ظروف السلام، وتستعد لظروف المواجهة، ومادامت الحكومة (الواقعية) في الجزيرة أوقفت حربها مع الحركة الرسالية بعد الصلح، تحرَّك المؤمنون بقيادة الرسول ﷺ لنشر الإسلام، وصاروا يقوُّن أنفسهم في ظروف الهدنة، إلى أن فتحوا مكة عسكريا بعد سنوات قليلة.

[٢-٣] وكان لهذا الفتح معطيات عظيمة، من أبرزها غفران الله لرسوله الأكرم ﷺ ما تقدم وما تأخر من الذنب، وإتمام النعمة عليه، وهدايته إلى الصراط الحق، وقد اختلف المفسرون في بيان معنى ذنب الرسول، فمن قائل بأن للرسول ذنوبا قبل الإسلام وبعده غفرها الله له، ومن قائل بأنه كانت له ذنوب قبل الفتح وبعده (فتح مكة) فأعطاه الله صك الأمان بغفران السابق واللاحق منها، وقالت جماعة بأن الرسول لم يذنب وإنما الغفران متوجه إلى أمته باعتبارها أمة مرحومة.

ويبدو أن كلمة الذنب لا تنصرف إلى المعنى الظاهر منها -بدواً- وهو المعصية، وإنما تنصرف إلى ما كان الكافرون والمشركون يعدُّونه ذنبا، إذ كانت حركة الرسول ﷺ بذاتها ذنبا في اعتقادهم، لأنها تمرُّد على الواقع القائم، فصار جزءاً من الواقع القائم بعد الصلح فارتفع عنه ذلك التصور وغفر له ذنبه في نظرهم، ولتقريب الفكرة أكثر نقول: إن موسى عليه السلام لم يكن في ذمته ذنب حينما قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]. وإنما كان ذلك وفق القانون الحاكم، كذلك الرسول ﷺ كان مذنبا حسب ذلك القانون حتى تغيَّر

(١) بحار الأنوار: ج٢٠، ص٣٦٣.

القانون في صلح الحديبية، حيث إن رسولنا الأكرم ﷺ كان قد قتل منهم في بدر وأحد والأحزاب، وغنم أموالهم، وأسر رجالهم، بل وغيّر أوضاعهم، فهو كان عندهم مذنبا، وجاء الصلح ليطوي هذه الصفحة من أذهان المشركين، ويصيِّرهم في سلام مع المسلمين.

أما أن يكون معنى الذنب هو ظاهر الكلمة فإن ذلك لا يليق بمقام الأنبياء، وبالذات مقام أعظمهم شأنا وأرفعهم منزلة عندالله، وحاشا لله أن يبعث رسولا يرتكب الذنوب، كما إنه من الخطأ أيضا القول بأن الله أعطى الرسول صك الغفران، إذ كيف يرفع المسؤولية عن أحد بدون مبرر؟ وهل بينه وبين أحد من خلقه قرابة حتى يفعل ذلك؟ أوَلَم يقل في شأن رسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. بل؛ هناك بعض الفرق الصوفية هي التي تعتقد بأن الإنسان يصل إلى مستوى من العبودية والوعي بحيث ترفع عنه المسؤولية، حتى قال قائل منهم لأتباعه: أنتم تجب عليكم الصلاة، أما أنا فقد وصلت إلى مقام فوق الصلاة!.

إن الإسلام لا يرى نهاية للمسؤولية إلا باليقين (الموت)، وهذا هو القرآن يخاطب الرسول ﷺ -مع أنه انتهى إلى غاية الكمال البشري- بأنه يحتاج إلى المزيد من الصلاة والتقرب إلى الله عز وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨-٧٩].

ويقول القرآن في هذه السورة: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ والغفران هنا من باب الوعد وليس الحتم والإلزام مما يقتضي الاستغناء عن الاستغفار، ولو كان كذلك لاقتضى الأمر تغيير الآية الكريمة: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، والحال أنه تعالى يأمر رسوله بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين من حوله. إذ مع غض النظر عن مقام الألوهية الذي يقتضي الاستغفار لقصور العبد مهما سما في الكمال فإن التبعات (السياسية والاجتماعية) تحدث بصورة مستمرة ما دامت الدعوة الجديدة تتسع وما دامت تعالج كل يوم اعوجاجا بشريا. وربما يكون ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إشارة لذلك. ومن المعلوم أن التَّبعات التي تتوالد عند الكفار أو المنافقين تحدث من أفعال الرسول ﷺ في التبليغ أو أفعال المؤمنين الملتزمين بنهجه في التبليغ ومعالجة الانحرافات، وقد أشارت بعض الروايات إلى هذا، أي أن الذنوب المتأخرة هي للمؤمنين، وبهذا الفهم لا ينشأ إشكال صك الغفران المسبق. وفي مناخ هذه الآيات يُحتمل أن يكون أحد تخوم آية: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، والمراد من الذنب، في هذا الإطار أيضا، مما يعني أن على القيادة الرسالية أن تولي الاهتمام

بمعالجة التبعات المتوالدة من العمل الرسالي لئلا تكون عائقا عن التبليغ.

واللام في ﴿لِّيَغْفِرَ﴾ للتعليل؛ أي أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ومن المعلوم أن لا رابطة بين الفتح وبين مغفرة الذنب بالمعنى الشائع، ولكن لأن الفتح قضية سياسية فلا بد أن يكون الذنب هو الآخر ذنبا سياسيا أي تبعات الدعوة التي يعدها الكفار خطايا الدعوة الجديدة، بينما لو اعتبرنا الذنب هنا شخصيا بين العبد وربه لظهرت اللام مبهمة وغير معقولة.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بهذا الفتح، وبتكريس الإسلام في المجتمع ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ قال البعض: «الصراط المستقيم هو السبيل إلى تدعيم أركان الإسلام ونشره»، ولعلنا نفهم من الآية والسياق أن لكل تطور جديد في الساحة السياسية معطيات سلبية وإيجابية يخشى أن تحرف مسيرة الإنسان، فمع كل تطور ضغوط، ومع كل ضغط احتمال للانحراف، والله يُعِدُّ نبيَّه ﷺ في هذه الآية بأن لا تؤثر فيه تلك التطورات، سواء كانت من نوع الضغوط والهزائم، أو الإغراءات والانتصارات، وأن يبقى مستقيما على خط الرسالة.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ لعل معنى العزيز هنا الثابت الذي لا يغالب، وقد تجسد هذا النصر في فتح مكة المكرمة، حيث إن صلح الحديبية كان تمهيدا لهذا النصر العزيز.

إذن فللفتح خمس نتائج رئيسة ومهمة وهي:

أولاً: غفران ذنب الرسول الذي كان يعتقده المشركون، حيث انتهى بعد الصلح الحصار الإعلامي المطلق، فتحوَّل الرسول من حركة العصيان والتمرد إلى الحركة الشرعية.

ثانياً: إتمام النعمة على الرسول، بأن هيأ ربنا بهذا الصلح له الظروف ليكون أقدر على نشر الدين في المجتمع.

ثالثاً: تصفية العقبات التي اعترضت طريق انتشار الإسلام، ومن ثَمَّ دفع جانب من الضغوط التي يواجهها الرسول ﷺ وأصحابه.

رابعاً: تهيئة الظروف المناسبة للنصر العزيز.

[٤] أما النتيجة الخامسة: التي يمكننا اعتبارها نعمة كبيرة بذاتها، فهي بعث روح السكينة في رَوعِ المؤمنين: فإذا بهم وهم بضع مئات يتحركون من المدينة باتجاه مكة التي يوجد فيها الألوف من أعدائهم المدججين بالسلاح، ولولا هذه السكينة لما تحرَّك الجيش الإسلامي إلى حدودها (الحديبية).

وَلِنَعِيَ أبعاد السكينة ينبغي التأمل مليا في صلح الحديبية حيث كانت سبب حفاظ الإيمان وزيادته في ظروف الصلح الخطيرة. لقد مرَّت على المؤمنين في الحديبية مواقف مرة عملت في قلوبهم ما عملت، من تطلّع الى تصديق رؤيا الرسول ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ عَلَيْهِمْ.﴾ [الفتح: ٢٧]، إذ حسب بعض -بل أغلب الصحابة- أنّ هذه الرؤيا الصالحة سيتحقّق تعبيرها في هذا السفر نفسه، لكنّ الذي قدّره الله كان شيئا آخر!

وفي معاهدة الصلح في الحديبية، مادة تقضي بإعادة المسلمين مَنْ يلجأ إليهم من قريش ويعلن إسلامه ويدخل المدينة! ولا يلزم العكس، وكان هذا الموضوع صعبا على المسلمين للغاية.

ومن جهة ثالثة لم ترغب قريش أن تكتب كلمة (رسول الله) التي كان يُدْعَى بها النّبي محمّد ﷺ، وأصرّ ممثلها سهيل بن عمرو على حذف الكلمة من معاهدة الصلح، ولم يوافق حتى على كتابة البسملة، وأصرّ أن يكتب مكانها (بسمك اللّهمّ)، ولذلك تزلزلت قلوب بعض أصحاب النّبي ﷺ إلى درجة أنّه حين نزلت السورة قالوا أي فتح هذا؟!

فالتجارب هي مختبر حقائق الإيمان وهي وسيلة تنميته وترسيخه، ولقد كانت تجربة صعبة وتداركتهم السكينة، وإنما يؤيّد الله عباده وهم يخوضون سوح الجهاد. فتجربة الصلح التي ابتدأت من الرؤيا وامتدت إلى حين تحققها بدخول مكة كانت تجربة إيمانية للمؤمنين استنزلت السكينة وأوجدت مسالك تعميق الإيمان.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ والسكينة من (السكون)، ومعناها الاطمئنان وما يزيل كل أنواع الشك والتردّد والقلق من الإنسان ويجعله ثابت القدم في الحوادث مستقر الإيمان! ولذا علل إنزالها فيها بقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

وهل الإيمان يزيد وينقص؟ بلى؛ بصريح الآية وآيات أخرى، وفي رواية عن الإمام الصادق أنّه قال: «إِنَّ الإِيمَانَ عَشْرُ دَرَجَاتٍ بِمَنْزِلَةِ السُّلَّمِ يُصْعَدُ مِنْهُ مِرْقَاةً بَعْدَ مِرْقَاة»[1].

إذن فما هو الإيمان حتى يقبل الزيادة والنقصان؟ إنه إقرار بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، ومعنى ذلك أن الإنسان بكل كيانه المادي والمعنوي قوة واحدة يسلّم لها بطوعه وإرادته وهي قوة الله.

فالإيمان ليس مجرد العلم والمعرفة دون أن يعكس على صاحبه سلوكا وعملا من جنسه

(١) بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٣٥٠.

في الحياة، والقرآن يقول عن فرعون وقومه حيث كفروا بالآيات: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ [محمد:٢٥]، وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، فالآيات تثبت الجحود الارتداد والكفر والضلال مع العلم.

إذن فيقين القلب وحده لا يكفي في حصول الإيمان، بل لا بد من الالتزام بمقتضاه وتسليم القلب لهذه المعرفة المنافي لجحودها بحيث يترتب عليه آثاره العملية أي اقرار اللسان وعمل الجوارح. فتسليم القلب بوحده لا ينفع من دون العمل الصالح، كما أن العمل الصالح -في ظاهره- لا يكفي بدون تسليم القلب، إذ هو حينئذ من النفاق.

إن مشركي قريش كانوا يعرفون في داخل أنفسهم صدق الرسول وأمانته، ولكنهم لم يعترفوا له بذلك في واقع حياتهم، بل خالفوه واتهموه بالكذب والسحر، بينما الإيمان الحقيقي هو المعرفة بالعقل والتسليم بالقلب والعمل بالجوارح، ولذلك جاء في حديث مفصل عن الإمام علي عليه السلام، أن الإيمان موزع على جوارح الإنسان، لكل جارحة منه ما يناسبها من الإيمان[1]، وبقدر انحراف أي جارحة عن التزاماتها يفقد البشر من إيمانه.

وعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَنْ لَقِيَ اللهَ كَامِلَ الإِيمَانِ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، ومَنْ كَانَ مُضَيِّعاً لِشَيْءٍ مِمَّا افْتَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الجَوَارِحِ وتَعَدَّى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وارْتَكَبَ مَا نَهَى عَنْهُ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى نَاقِصَ الإِيمَانِ. وقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، وقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، وقَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَمَا...﴾. -ويعلّق الإمام علي عليه السلام على هذه الرواية فيقول:- «ولَوْ كَانَ الإِيمَانُ كُلُّهُ وَاحِداً لَا زِيَادَةَ فِيهِ ولَا نُقْصَانَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فَضْلٌ عَلَى أَحَدٍ ولَتَسَاوَى النَّاسُ فِي تَمَامِ الإِيمَانِ وبِكَمَالِهِ دَخَلَ الْمُؤْمِنُونَ الجَنَّةَ ونَالُوا الدَّرَجَاتِ فِيهَا وبِذَهَابِهِ ونُقْصَانِهِ دَخَلَ الآخَرُونَ النَّارَ»[2].

وربنا فتح للمسلمين مكة، وأنزل عليهم السكينة، لكي يكمل إيمانهم أكثر، فيصير

---

(١) الرواية مفصلة وطويلة، راجع بحار الأنوار: ج٩٠، ص٤٩-٥٣، مستدرك الوسائل: ج١١ ص١٤٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٠ ص٥٣.

اقتصادهم واجتماعهم وحكمهم إيمانيا، وتصبح سياستهم وشؤونهم العسكرية مبنية على أساس الإيمان، وهذا من زيادة الإيمان.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو ينصر المؤمنين، إما عن طريق تثبيتهم وتقوية عزائمهم بإنزال السكينة في قلوبهم، وإما عن طريق جنود من عنده مباشرة كالملائكة والظواهر التي تقوم الملائكة بتدبيرها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو لا ينصر المؤمنين أو يبعث السكينة في قلوبهم ويزيدهم إيمانا إلا بحكمة بالغة، ولو أنهم لم يجاهدوا لما حصلوا على كل ذلك.

[٥] وهدف المؤمنين من الانتصار والفتح يجب أن لا يكون إسقاط الحكم الفاسد واغتنام الأنفال، أو أن يتحولوا من حركة إلهية إلى حركة ثقافية مترفة، أو حركة سياسية متقلبة، إنما الهدف الأسمى من ذلك هو دخولهم الجنة، كما يقول تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ إذن فالهدف الأسمى ليس النصر أو الفتح، والقرآن يعبّر عن هذه الفكرة في سورة الصف بصيغة أخرى إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

[٦] وكما أن جزاء المؤمنين الحقيقي ليس هو انتصارهم على عدوهم، فإن جزاء أعدائهم ليس سقوطهم من سدة الحكم، ولا ما يلقونه من العذاب على أيدي المؤمنين وحسب، وإنما جزاؤهم الحقيقي عذاب الله الدائم في الآخرة.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فهم محاطون بالشر من كل جانب، كما تحيط الدائرة بمركزها ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

[٧] وفي خاتمة الدرس يؤكد ربنا قوته وحكمته التي يدبّر بها شؤون الخلق ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وهدف هذا التأكيد على قدرة الله بعث روح الأمل بالنصر والفتح في نفوس المؤمنين، حيث يشعرهم الرب بأن جند الله الذين لا يحصر عددهم كالملائكة والسنن الطبيعية و.. . كلهم يقفون صفا واحدا إلى جانبهم وهم يجاهدون في سبيله، فهم على خلاف أعدائهم الذين يحوطهم الشر كالدائرة.

صلح الحديبية

وقبل إنهاء الحديث في هذا الدرس لا بأس أن نقرأ جانبا من قصة الصلح التي تنفع الأمة الإسلامية في بعض ظروفها، فهي حينما تصالح عدوها عن قوة ومناورة حكيمة فإن صلحها حينئذ سيكون كصلح الحديبية، أما لو صالحت عن ضعف، وكانت مكاسب العدو منها أكبر من مكاسبها من الصلح فإن ذلك استسلام لا يقبله الله.

جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ وَهَذَا الفَتْحِ العَظِيمِ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله في النَّوْمِ أَنْ يَدْخُلَ المَسْجِدَ الحَرَامَ وَيَطُوفَ وَيَحْلِقَ مَعَ المُحَلِّقِينَ. فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ وَأَمَرَهُمْ بِالخُرُوجِ فَخَرَجُوا فَلَمَّا نَزَلَ ذَا الحُلَيْفَةِ أَحْرَمُوا بِالعُمْرَةِ وَسَاقُوا البُدْنَ وَسَاقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله سِتاً وَسِتِّينَ بَدَنَةً، وَأَشْعَرَهَا عِنْدَ إِحْرَامِهِ، وَأَحْرَمُوا مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ مُلَبِّينَ بِالعُمْرَةِ. وَقَدْ سَاقَ مَنْ سَاقَ مِنْهُمُ الهَدْيَ مُعَرَّاتٍ مُجَلَّلاتٍ. فَلَمَّا بَلَغَ قُرَيْشٌ [قُرَيْشاً] ذَلِكَ بَعَثُوا خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي مِائَتَيْ فَارِسٍ كَمِيناً لِيَسْتَقْبِلَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله، فَكَانَ يُعَارِضُهُ عَلَى الجِبَالِ فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ حَضَرَتْ صَلاةُ الظُّهْرِ، فَأَذَّنَ بِلالٌ وَصَلَّى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بِالنَّاسِ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ: لَوْ كُنَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فِي الصَّلاةِ لأَصَبْنَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لا يَقْطَعُونَ صَلاتَهُمْ وَلَكِنْ يَجِيءُ لَهُمُ الآنَ صَلاةٌ أُخْرَى، أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ ضِيَاءِ أَبْصَارِهِمْ، فَإِذَا دَخَلُوا فِي الصَّلاةِ أَغَرْنَا عَلَيْهِمْ. فَنَزَلَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله بِصَلاةِ الخَوْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ .....﴾ الآيَةَ، فَلَمَّا كَانَ فِي اليَوْمِ الثَّانِي نَزَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله الحُدَيْبِيَةَ، وَهِيَ عَلَى طَرَفِ الحَرَمِ، وَكَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله يَسْتَنْفِرُ الأَعْرَابَ فِي طَرِيقِهِ مَعَهُ فَلَمْ يَتْبَعْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَيَقُولُونَ: أَيَطْمَعُ مُحَمَّدٌ، وَأَصْحَابُهُ أَنْ يَدْخُلُوا الحَرَمَ، وَقَدْ غَزَتْهُمْ قُرَيْشٌ فِي عُقْرِ دِيَارِهِمْ فَقَتَلُوهُمْ، إِنَّهُ لا يَرْجِعُ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَى المَدِينَةِ.... »[1].

ومن هذه الرواية نعرف بأن الأعراب لم يدخلوا الإسلام، ولم يقبلوا دعوة الرسول صلى الله عليه وآله قبل الصلح. وفي رواية أخرى قال ابن عباس: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج يريد مكة فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته وزجرها فلم تنزجر وبركت الناقة فقال أصحابه: خلأت الناقة فقال صلى الله عليه وآله: مَا هَذَا لَهَا عَادَةٌ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ، ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة ليأذنوا له بأن يدخل مكة ويحل من عمرته وينحر هديه، فقال: يا رسول الله ما لي بها حميم وإني أخاف قريشا لشدة عداوتي إياها ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان، فقال صدقت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٠٢، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٣٤٧.

والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال ﷺ: **لَا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ**، فدعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة فاستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفروا، قال عبد الله بن مغفل: كنت قائما على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم وبيدي غصن من السمرة[1] أذب عنه وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت وإنما بايعهم على أن لا يفروا.

فبينما هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله ﷺ: **إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ نَهَكَتْهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جموا، وَإِنْ أَبَوا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ لَيُنْفِذَنَّ اللهُ تَعَالَى أَمْرَهُ**.. -وهذا من الحكمة السياسية ولا ريب أن بيعة الرسول ﷺ مع أصحابه تحت الشجرة قد أرهبت قريشا، لأنها كانت مظهرا للقوة، ومناورة يرهبها الأعداء، والتظاهر بالقوة أمر مهم، بالذات لمن يريد الصلح، لأن ذلك يجعله في موقع القوي المهاب على طاولة المفاوضات-.. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وإنه يقول كذا وكذا، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته، فقالوا ائته فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ وقال له رسول الله ﷺ نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها وأرى أوباشا من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك.

ثم إن عروة جعل يرمق صحابة النبي ﷺ إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره وإذا توضأ ثاروا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدُّون إليه النظر تعظيما له قال فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكا قط يعظِّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا إذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدُّون إليه النظر تعظيما له وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة دعوني آته، فقال: ائته فلما أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ: **هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا**، فبعثت له واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله

(١) شجرة شائكة تنبت في الأماكن الحارة.

ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته فقالوا ائته فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينا هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ: **قَدْ سَهَّلَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ**، فقال اكتب بيننا وبينك كتابا فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له: **اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**. فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: **اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ: إني لرسول الله وإن كذبتموني، ثم قال لعلي عليه السلام: **امْحُ رَسُولَ اللهِ**، فقال: يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة فأخذه رسول الله ﷺ فمحاه ثم قال: **اكْتُبْ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ** سهيل بن عمرو **وَاصْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سِنِينَ يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَعَلَى أَنَّهُ مَنْ قَدِمَ مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِراً أَوْ يَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ، وَمَنْ قَدِمَ المَدِينَةَ مِنْ قُرَيْشٍ مُجْتَازاً إِلَى مِصْرَ أَوِ الشَّامِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ، فَإِنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً، وَأَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ، وَأَنَّه مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ**»[١].

وفي رواية أخرى: «**وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** عليه السلام، **وَشَهِدَ عَلَى الكِتَابِ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **يَا عَلِيُّ إِنَّكَ أَبَيْتَ أَنْ تَمْحُوَ اسْمِي مِنَ النُّبُوَّةِ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيّاً لَتُجِيبَنَّ أَبْنَاءَهُمْ إِلَى مِثْلِهَا وَأَنْتَ مَضِيضٌ مُضْطَهَدٌ**[٢]، **فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ صِفِّينَ وَرَضُوا بِالحَكَمَيْنِ كَتَبَ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** عليه السلام، **وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا حَارَبْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ** عليه السلام: **صَدَقَ اللهُ وَصَدَقَ رَسُولُهُ** ﷺ، **أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ** ﷺ **بِذَلِكَ ثُمَّ كَتَبَ الكِتَابَ..**»[٣].

وعن محمد بن كعب قال: «ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم.....»[٤].

وهذا يبيّن أن الصلح صار سببا لانتشار الإسلام بين الناس، وهنا فكرة نستفيدها من

(١) بحار الأنوار: ج٢٠ ص٣٣٣، تفسير القمي: ج٢ ص٣١٣.
(٢) أي أنك سوف تتعرض لمثل هذه الضغوط، وسوف تتنازل عن حقوقك وواجباتك الظاهرية، ولكن لله.
(٣) بحار الأنوار، ج٢٠، ص٣٥٣، تفسير القمي: ج٢ ص٣١٣.
(٤) بحار الأنوار، ج٢٠، ص٣٣٤.

عموم حديث الحديبية وهي: إن النهضة الحقيقية تستفيد من كل الظروف في سبيل تقدُّمها، لأنها تعتمد على جوهر التقدم، وهو إرادة الإنسان وتصميمه على الحركة، فمن ظروف السلم تستفيد خطة لبناء كوادرها وترتيب أوراقها، ومن ظروف الحرب تستفيد خطة لنشر أفكارها والإعلام الجماهيري المركز، فإذا ما استشهد أحد أبنائها في الحرب رفعته علما في كل أفق، وإذا بقي حيا استفادت من كل أبعاد وجوده.

وحيث وقَّع رسولنا الأكرم ﷺ مع قريش بنود الصلح التزم بها لكي يستفيد من فترة السلم بينه وبينهم في بناء حركته وإعدادها إعدادا قويا لمواجهة المتغيرات والظروف المختلفة، لهذا كان يرفض أي عمل أو قرار ينتهي إلى إشعال الحرب، لأنه يخسره مكتسبات ظروف السلم.

إنا أرسلناك شاهدا

﴿٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ(١) وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ(٢) عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا(٣) ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد تناول القرآن موضوع الفتح المبين وما تابع ذلك من حقائق اجتماعية أظهرها الوضع الجديد يحدثنا ربنا عن موقع الرسول ﷺ بين المسلمين، كأهم عبرة تستفيدها الأمة من هذه الظاهرة التي لم يعرف الناس أبعادها لولا أن الرسول بحكمته وحزمه تعامل معها، واكتسب

---

(١) تعزّروه: تقوّوه بالنصرة وذلك بتقوية دينه ونصرة أحكامه.

(٢) نكث: نقض البيعة.

(٣) بوراً: جمع بائرة أي هالكين.

لهم ثمرات الفتح المبين. فهو ﷺ لايمثل شخصه، وإنها يمثل رسالته وربه، ومن ثم فإن بيعته والخضوع لأوامره ليس إلا لله عزَّ وجلَّ، وبهذه المناسبة يكشف السياق عن واقع المنافقين بأنهم انتهازيون، ويبحثون عن مصالحهم فقط، فتراهم يتبعون القائد مادام ذلك لا يتعارض مع مصالحهم، وإلا تمردوا عليه بمختلف الأعذار، ولقد أمرهم النبي ﷺ بالتوجه إلى مكة فنكصوا على أعقابهم خوفا من عواقب ما عَدُّوه مغامرة غير محسوبة، وعندما عاد المسلمون إلى المدينة فاتحين رجعوا إلى صفوف الأمة على جسر من الأعذار، ولم يكن ذلك إلا لأن خط الرسالة فرض نفسه على الواقع.

ولكن ربنا لا يدع الأمر هكذا دون قيد يفرضه عليهم، وبصيرة يهدي بها الرسول القائد والمؤمنين من حوله في التعامل مع هذا الطراز من الناس، وإنها يشترط لقبول توبتهم أن تكون توبة نصوحا تحكيها أعمالهم وممارساتهم، وتتجلى في مواجهاتهم اللاحقة مع الكفار، التي ينبغي أن يثبتوا فيها جدارتهم للانتماء إلى خط الرسالة وتجمع المؤمنين، أما مجرد الكلام وإلقاء الأعذار فلا يمكنه إعادتهم إلى الصف الإسلامي أبدا.

بينات من الآيات:

[٨] ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ والشاهد: الحاضر، فكيف ينسحب هذا المعنى على القائد؟ إن الشاهد هو الحاضر الذي يكون سلوكه مقياسا للحق، وشهادة الرسول على الأمة حجيته، وكونه المقياس العملي للخير والفضيلة، والميزان الواقعي للضلالة والهدى، وليس المراد من شهادته ﷺ حضوره الجسدي بين المسلمين، وإلا لما كان ذلك يحتاج إلى الإرسال من قبل الله باعتباره تحصيل حاصل، ثم إن هذه الشهادة لا تنحصر زمنيا بوجوده المادي، وإنها تشمل البشرية التي أرسل إليها جيلا بعد جيل، وزمنا بعد زمن.

ولكي يتضح معنى شهادة الرسول القائد ﷺ لا بد من الحديث عن صفتين تجسدانها من صفاته، هما: دعوته الناس إلى الرسالة عن طريق كلامه وبيانه، والأخرى دعوته لهم من خلال سلوكه وعمله، وذلك بصنعه واقعا يتأثر به المجتمع من حوله، ومثال ذلك أنه ﷺ حينها يوقع على صلح الحديبية، ويقبل بمحو اسم (رسول الله) من الوثيقة تكتيكيا، فلكي يستمر الصلح بفوائده استراتيجيا، وحينها يقود جيشا لجِباً إلى المعركة، وحينها يصلي خاشعا لربه، وحينها يعفو ويسامح، و...، كل هذه السلوكيات تؤثر واقعيا على المجتمع، وتدفعه دفعا قويا من الأعماق للتأسي بصاحبها واتباعه، إذن فالقيادة قبل أن تكون منصبا سياسيا واجتماعيا، وقبل أن تكون قرارا من أعلى، هي -في الواقع- مبادرة وواقع عملي، والأئمة عليهم السلام أكثر ما أمروا

أصحابهم وأتباعهم بالعمل لا بالكلام، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «**كُونُوا دُعَاةً لِلنَّاسِ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ**»[١] يعني بسلوككم وعملكم، لأن ذلك أمضى أثرا في واقع الناس ونفوسهم، وأكبر دلالة على خط الإنسان وفكره، ولقد قرأنا في الدرس السابق كيف أن الرسول صلى الله عليه وآله حينما أمر المسلمين بحلق رؤوسهم ونحر بدنهم رفض أكثرهم فبادر شخصيا إلى ذلك فتهافتوا للحلق والنحر.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن ألفاظ الرسالة تتعرض للتلاعب من قبل المنافقين، كما أنها تحتمل التأويل والتفسير، بينما الشهادة العملية تبقى حجة جلية بالغة، لا تحتمل أكثر من تفسيرها الواقعي، فلو أمر الرسول صلى الله عليه وآله الناس بالصدق وبالأمانة بمجرد الكلام، دون أن يجسد لهم هذين المعنيين، لكان الكثير من المسلمين يكذب أو يخون، ويفسر ذلك بأنه الصدق والأمانة اللذان أمر بهما الرسول، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله قال وعمل فكان عمله أكبر مفسر لقوله.

إن الرسول صلى الله عليه وآله يصبح شاهدا وقائدا للمسلمين، وتصبح سيرته منهجا للأجيال بعد الأجيال، حينما يجمع أصحابه ويذهب إلى مكة فيتهرّب جمع منهم، وينسلُّون من جيشه لِواذاً خشية الإبادة، فإنه يصنع واقعا حيا، أو حين ينصرف من الخندق مع المسلمين، ويضع عنه اللامة، ويغتسل، ويستحم، فينزل عليه جبرائيل ويقول له: «**عَذِيرَكَ مِنْ مُحَارِبٍ أَلَا أَرَاكَ قَدْ وَضَعْتَ عَنْكَ اللَّامَةَ وَمَا وَضَعْنَاهَا بَعْدُ**»[٢]. فإذا به يثب صلى الله عليه وآله للجهاد، ويتبعه المسلمون، ويحارب بني قريظة.

هذه المواقف الواقعية هي التي تترك أثرها البالغ في نفوس الناس والأجيال، فهذه سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله تلهم المسلمين جيلا بعد جيل العزم والاستقامة، لأنه لم يكن شاهدا بكلامه وحسب، وإنما بعمله وسلوكه لقد كان شاهدا في كل حقل، مبادرا في كل مكرمة، صانعا للأحداث، مقتحما غمار الصعاب، وحتى في الحروب كان القائد الشاهد، وإلى الحد الذي قال عنه بطل الإسلام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ**»[٣].

والرسالي الصادق هو الذي يشهد على عصره، وتفسر مواقفه العملية كلماته المضيئة.

[٩-١٠] ويجري السياق في بيان أهداف البعثة ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ الذي طاعته

---

(١) الكافي: ج٢ ص٧٨.
(٢) تفسير القمي: ج٢ ص١٨٩، بحار الأنوار: ج٢٠ ص٢٠٩.
(٣) نهج البلاغة: حكمة: ٩.

والإيمان به امتداد للإيمان بالله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهنا اختلف المفسرون في تحديد الذي تعود عليه ضمائر هذه الكلمات، فقال جماعة بأنها تعود إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن أن تعود على الرسول، وقد عطف عليها التسبيح الذي هو مختص به عزَّ وجلَّ، وقال آخرون بأن الضميرين في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ يعودان على الرسول، والمعنى تنصرونه وتعظمونه.

وما يبدو لي هو أن نصر الله وتعظيمه يتحققان بنصر رسوله ورفع شأنه لأنهما جهة واحدة، وليس الرسول صلى الله عليه وآله سوى وسيلة إلى الله، كما أن القبلة بذاتها ليست هدفا، وإنما هي وسيلة للعبادة، ونجد هذا المعنى جليا في كثير من الآيات القرآنية، ومن جملتها قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله هو الرسول والأئمة عليهم السلام، ولاختصاص العبودية بالله نستطيع القول بأن الضمير في كلمتي ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ يعود على الرسول صلى الله عليه وآله، بينما يعود في كلمة ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ على الله مباشرة، وفي الآية اللاحقة بيان وتأكيد لهذه الفكرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ فالمبايعة لله، ولكنها تمر عن طريق الرسول صلى الله عليه وآله، وغايتها إظهار الولاء التام للقيادة، والتعهد بالاستمرار في خطها، ولعل الكلمة مأخوذة من البيع فيكون معنى البيعة أن يبيع أفراد المجتمع المسلم أو التجمع الرسالي ما لديهم من طاقات وإمكانات مادية ومعنوية لقيادتهم بإزاء رضوان الله، وليس بالضرورة أن تتم البيعة بسلام الرجال على الرسول مصافحة، ووضع النساء أيديهن في الماء، كما تم عند البيعة للرسول صلى الله عليه وآله أو للإمام علي عليه السلام في الغدير، بل يمكن أن تتم عن طريق القسم الحركي، أو بالوكالة بأن يبايع الأفراد نائب القائد، أو حتى بالكتابة، لأن المهم إظهار الاستعداد والالتزام بالطاعة بوضوح.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «بَايَعْنَا رَسُولُ الله تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى المَوْتِ، وَعَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ»[1]. وكان الرسول صلى الله عليه وآله الذي يمثل الله يضع يده على أيدي المؤمنين في البيعة، وقد أكد ربنا لنبيِّه أنه سيكون بالمرصاد لكل من تسوّل له نفسه الخيانة.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي قوته وقدرته أعلى من كل أحد ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ لأنه سوف يضع نفسه في موضع المحارب لله ذي القوة والطول، ولن تقتصر خسارته على الآخرة وحسب، بل سوف يخسر في الدارين، وعلى عكسه الذي يلتزم بالعهد ويتم البيعة فإنه يجني السعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري: ج٤ ص٣٣٥.

[١١] من معطيات السير نحو مكة، ومن تجليات الفتح المبين، كشف العناصر الضعيفة التي تعيش في الأمة، وحيث الله أعلم بعواقب الأمور، وواقع هؤلاء الناكثين، وأنهم سوف يظهرون للنبي من الأعذار والتبريرات غير الذي يضمرون، بين ذلك لرسوله، ولكي يتخذ منهم موقفا حاسما ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ وهل ذلك عذر مقبول في مثل هذه الفترة الحاسمة من حياة الأمة الإسلامية؟ بلى، إن هؤلاء يقترفون الأخطاء، ثم يحاولون خداع القيادة واسترضاءها بمجموعة من الأعذار الواهية لتستر خلفياتهم، وهم بذلك يرتكبون خطأ آخر بالإضافة إلى نكثهم وهو نفاقهم عبر تبريراتهم الكاذبة، ولكن الله يفضحهم، ويبين لرسوله واقعهم، وأنهم ليسوا صادقين في توبتهم، بل ولا في أعذارهم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من نفاق وخيانة، ولعل هذه الكلمة تنطبق أكثر شيء على تظاهرهم بالندم من تخلفهم ورجائهم الرسول بأن يستغفر لهم.

بلى، إن التبريرات قد تدفع عن الإنسان جزاء آتيا من أمثاله من البشر، أما جزاء الله فلا، لأنه لا يغيب عنه شيء أو يمنع إرادته أحد ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ هكذا أمر الله رسوله أن يفضح المنافقين، ويعلن واقعهم.

[١٢] ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ مما أثار فيهم الظنون والتصورات، التي انعكست على تفكيرهم، ولم يكن مصدر ظنهم هذا العلم الحاصل من تقييم الحوادث، إنما كان سببه الخوف والجبن، في صورة ثقافة سلبية ترتكز على التبرير.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ مَنْ زيَّن لهم التقاعس؟ إبليس وجنوده من الذين تجسدت فيهم ثقافته ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ ربما يعني ذلك الحالة السلبية التي تؤثر في التفكير، ويزيغ بصاحبه نحو الأفكار المتشائمة.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وهكذا تدرج أولئك الخاسرون في دركات السقوط درجة درجة، فزيَّن -أولا- الشيطان أعمالهم السابقة في قلوبهم حتى رأوها حسنة، ثم دفعهم ظن السوء إلى التقييم السلبي، وأخيرا هلكوا، ومن هنا نعرف أن بدايات الانحراف قد لا تستثير الإنسان، ولكنها خطيرة لأنها تهوي بالبشر إلى الهلاك المطلق.

[١٣] وقد عدَّ الله هذه الخطوة دليلا على عدم الإيمان لدى هؤلاء، وتوعَّدهم بعذاب جهنم جزاء لهذا الكفر فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ إذن

فربنا هيأ النار وأعدَّها، ويا ترى كم ستكون مؤذية هذه النار التي سجَّرها الله لغضبه لهذا البشر الضعيف؟!.

[١٤] ولكي لا يستبدَّ بنا اليأس عند الحديث عن النار وعذابها، يؤكد لنا الله رحمته الواسعة وغفرانه للذنوب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقد حكي أن الرسول ﷺ لما سمع كلمة أفلاطون: (إذا كانت السماء قوسا، والبلاء سهما، والرامي هو الله فأين المفر؟) نزلت عليه الآية الكريمة: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

بلى؛ إن الفرار ممكن، ولكن كيف نفرُّ؟ نفرُّ من غضب الله إلى رضاه، ومن سخطه إلى عفوه، وربنا برحمته الواسعة يقبل فرار العبد إليه، ولكن بشرط أن يستغفره ويتوب إليه صادقا.

وهنا في هذه الآية جعل الله نهايتها ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مع أنه قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وذلك تأكيدا لرحمته ورأفته بخلقه، وطردا لليأس من نفوسنا.

وأثابهم فتحا قريبا

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا[1] نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لقد وفَّر الفتح المبين (صلح الحديبية) للمسلمين حالة من السلام التي تساعدهم على

(١) ذرونا: دعونا.

الانتشار وإعداد أنفسهم للمواجهة الحاسمة مع أعدائهم على الصعيد الخارجي، كما أنه على صعيد الجبهة الداخلية كشف عن حقيقة المنتمين إليهم مما ساهم في تصفية العناصر الضعيفة وتمتين الجبهة الداخلية.

بلى، إذا كان هؤلاء يريدون العودة إلى صف المؤمنين والقيادة الرسالية لا بد أن يتوبوا توبة صادقة، وهنالك تسعهم رحمة الله، وتستوعبهم صفوف المؤمنين، وتقبلهم القيادة، ولكن بشرط أن يبرهنوا عمليا على صدقهم بالوقوف مع المؤمنين في الشدائد الحاسمة.

ونستفيد من هذا الحكم الإلهي حكمة بالغة في معاملة هذه النوعية من الأفراد، وهي أن لا تقبلهم القيادة الرسالية بعدما تخلفوا عن تجمعها وأوامرها في الشدة، إلا إذا أظهروا توبتهم، ووطنوا أنفسهم على خوض الجهاد تحت رايتها، لأن قبول هذه النوعية من دون امتحان عسير يثبت صدقها قد يكلف الحركة الرسالية الكثير، لو أنهم عادوا لطبيعتهم الانهزامية وانشقوا وشقوا عصا الطاعة في موقف خطير أو مهمة حاسمة يكلّف التمرّد فيها أضعاف ما يكلفه التمرد في الظروف العادية.

بينات من الآيات:

[١٥] ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وقد تمردوا من قبل على أمر القيادة، وتخلفوا عن المسير معكم، لا لأنهم اكتشفوا خطأً في خط الرسالة، بل لأنهم التحقوا به التحاقا مصلحيا، وحيث ظنوا -بمجرد ظن- بأن المسير إلى مكة يعني الإبادة، فهو خال من المصالح، نكصوا على أعقابهم، أما الآن والمسلمون يسيرون إلى فتح مؤكد في نظرهم -وهو غزوة حنين حسب بعض التفاسير- فإنهم يحاولون بكل طريق العودة إلى صفوف الجيش الإسلامي، ولكن ليس من باب التوبة وإنما المصلحة.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ وقد حذرهم الله من عواقب التخلف عن نصرة رسوله ﷺ، وأنه سوف يعذبهم، ويمحو أسماءهم من قائمة المقاتلين المؤمنين، لأن المقاتل المؤمن هو الذي يتبع أوامر قيادته في كل مكان وأي زمان، وحيث نكصوا جزاهم الله بذلك، وهم الآن يسعون لتبديل ما حكم الله به.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ ولكن هذا الحكم الشرعي ثابت لا يتغير، وهو أن من يتمرد على القيادة الرسالية في الظروف الصعبة ينبغي أن يطرد من صفوف المقاتلين.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ فنحن مأمورون من قبل الله أن لا نقبلكم من دون شرط وقيد.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ وهذا جزاؤكم الطبيعي.

ولأن هؤلاء مجبولون على التبرير فإنهم لن يعترفوا بواقعهم، وإنما سيحاولون التستر بأعذار لا تنفع، شبيهة بتلك التي برروا بها تخلفهم عن المسير والقتال من قبل ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ وهم يتهمون المؤمنين والقيادة الرسالية التي تجسدت يومئذ في الرسول ﷺ ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ ومن ثَمَّ فإنكم تريدون من رفض انتهائنا إليكم التفرد بالمكاسب، وفي مقابل هذه التهمة يأتي الرد الإلهي الحاسم بأنهم غارقون في الجهل.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويدل على ذلك أمران:

الأول: وقد عالجته الآية في مطلعها، وهو جهل هؤلاء بأن الانتهازي الذي يترك جماعته في ساعة الحرج لا يمكن أن يحتسب منهم في الرخاء كأمر واقعي، وبالذات في المجتمع العربي الذي يعد ذلك من صميم عاداته وتقاليده آنذاك.

فمن كان يتخلَّ عن عشيرته عند الشدة كانوا ينبذونه نبذا تاما، ويحرِّمون عليه حتى الزواج منهم!.

وقد يشير إلى هذا الأمر خاتمة الآية التي نحن بصدد تفسيرها، حيث تؤكد بأن المخلفين ساذجون لا يستطيعون سبيلا إلى فهم الحقائق.

الثاني: الذي يدل على جهلهم أنهم ينسبون الحسد إلى شخص الرسول ﷺ مع اعتقادهم بأنه مرسل من الله عز وجل، وهل الرسول يذنب أو يتمحور حول نفسه حتى يسعى وراء المغانم؟!

وإذا افترضنا أنهم لا يؤمنون به رسولا من الله، ولا قائدا حقيقيا، فلماذا يتبعونه، ويريدون القتال تحت لوائه؟!

ولعل تفسير خاتمة الآية أن هؤلاء لا حظ لهم من الوعي إلا القليل، لأنهم ضلوا الطريق العام فلا تنفعهم معرفتهم ببعض الطرق الفرعية، ذلك لأن محور حقائق العلم هو معرفة الله، وسننه الحق، وبصائر رسالاته، فإذا أخطأوا المحور فلا جرم أنهم يتيهون في الضلالات.

وماذا ينفع العلم بكافة الحقول العلمية إذا كان الخط العام لحياة الإنسان خاطئا؟ أرأيت كيف يوجِّه المستكبرون كل علمائهم فيما يبعدهم عن الله، ويسبب هلاكهم وهلاك العالم؟

فمجمل أفكارهم خاطئ، وبتعبير آخر إن قلة الوعي هنا نوعية لا كمية.

[١٦] ومع أن الله يُفشِل كل محاولاتهم لتبرير تخلفهم أولا ثم عودتهم إلى صفوف المسلمين فإنه يفتح أمامهم طريقا للتوبة، والطريق الواسع إلى رحاب التوبة بالانتماء الحقيقي، إذ ليس صعبا أن ينتمي الشخص إلى صف الرساليين ظاهرا، وإنما الصعب أن يكون انتماؤه انتماء حقيقيا تكشف عنه استقامته في الظروف الصعبة.

وحيث مرَّ هؤلاء بتجربة عملية كشفت للقيادة الرسالية والمؤمنين ضعف انتمائهم، فهم بحاجة إذن إلى تجربة أخرى تثبت صدق توبتهم، ولا شك أن الذي يتوب عن صدق سوف يقبل بما يشترط عليه ليكون دليلا لتوبته، يحدوه إلى ذلك خوفه من الله، وإحساسه بضرورة التكفير عن ذنبه، ولذلك أمر الله رسوله أن يلزم التائبين من المخلفين بشرط الثبات في المواقف المستقبلية، ولعله عبر في مطلع الآية بكلمة ﴿قُل﴾ لبيان أن الشرط إنما هو من عند الله عز وجل، وليس من لدن الرسول ﷺ حتى يمنع بذلك أي محاولة أخرى للاعتراض أو التبرير.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾

والاحتمال الأقوى أنهم يختارون الحرب ولو في بادئ الأمر، على الأقل ثقة بالنصر على المسلمين واعتمادا على قوتهم الظاهرية، إذن فالابتلاء عظيم، والامتحان عسير، يحتاج فيه هؤلاء عزما راسخا وإرادة قوية لكي يثبتوا صدق توبتهم، لكي تقبلهم القيادة الرسالية في تجمعها، ولا يخوض غمار هذا الابتلاء إلا الصادقون، أما الانتهازيون والمصلحيون فإنهم لن يجازفوا بأنفسهم.

وبالرغم من أن القرآن يشجع المؤمنين في الأغلب على الحرب يبعث الأمل بالنصر في أنفسهم، إلا أنه هذه المرة يصف العدو بالشدة لأنه يتناسب مع هدف هذه الآية والقضية التي جاءت بصددها وهو امتحان المخلفين ليثبتوا جدارتهم للانتماء إلى صف المؤمنين، بعد أن فقدوها بالانهزام السابق.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المعركة التي تشير إليها هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: إنها حرب المسلمين مع الروم، وقال جماعة: إنها حرب المسلمين مع المرتدين بعد الرسول ﷺ، وقال آخرون: إنها الحرب التي دارت رحاها على الفرس، وقيل أنها الحرب مع هوازن وثقيف بعد فتح مكة، ولعل هذا المحمل هو الأقرب إلى جو الآيات وإيحاءاتها التي تفيد الحديث عن عصر الرسول لا بعده، حيث إن غزوة حنين كانت أعظم الغزوات بعد صلح الحديبية ثم فتح مكة.

ورغَّبهم في قبول هذا الشرط بالترغيب في ثواب الله وعطائه، وما يترتب على ذلك من

قبول لتوبتهم، ثم حذرهم من عواقب الرفض لأمر الله الذي يستتبع العذاب والخسارة.

﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ لما دعاكم الرسول إلى المسير إلى مكة قبل صلح الحديبية، فجبنتم بسبب سوء الظن بالله، وقدمتم المعاذير الواهية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

[١٧] وبمناسبة الحديث عن الأعذار التي كان يسوقها المتخلفون يبين السياق الأعذار المشروعة التي تسقط القتال عن المؤمن، لكي تتوضح ولا يتشبث المتقاعسون بكل عذر تافه للتنصل عن مسؤولية القتال.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وهذه من سماحة الإسلام ونظرته المتوازنة للأمور أنه في الوقت الذي يشدد على موضوع القتال لا يغفل عن بيان الأعذار الحقيقية التي يعذر في إطارها المتخلفون، ثم يجعل الحد الفاصل في إقرار هذه الأعذار أو رفضها رأي القائد، لأنه هو الذي يحدد متى تكون هذه الأعذار الآنفة الذكر مقبولة كمانع عن القتال، فمن يحدد - مثلا - أن الأعمش يلحق بالأعمى، وما درجة ضعف العين الذي يسقط بموجبه الجهاد عن صاحبه، وما درجة العرجة، وهل أن المرض الذي لا يمنع عن القتال - كمرض السكري - يُعَدُّ عذرا؟ ثم إن هناك أعذارا حقيقية لم يتعرض لها النص، مثل شلل اليدين، والبدانة المفرطة، والسفه... ولعله لذلك أكد ربنا بعد ذكر الأعذار الشرعية على طاعة القيادة، فقال:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وإذ يَعِدُ الله الطائعين له ولرسوله بهذا الجزاء، ويشير في علاجه لمثل هذه القضية إلى موضوع الآخرة، فلأن العامل الأساسي الذي يدفع الإنسان للفرار من ساحة المعركة، أو للتمرد على أوامر القيادة الرسالية بشكل عام، هو التشبث بحطام الدنيا الزائل، وهكذا تخلق التذكر بالآخرة معادلة في ضمير الإنسان وعقله بين نتائج الهزيمة السلبية، ومعطيات الثبات والطاعة الايجابية العظيمة، وتأتي في البين خاتمة الآية لترجع فرار الطاعة والثبات على فرار الهزيمة بإثارة عامل الخوف والرهبة من عذاب الله عند الإنسان ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ والتولي هو الفرار من الزحف والجهاد في سبيل الله، الأمر الذي يستوجب العذاب الأليم.

[١٨-١٩] ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ أما هدف العهد مع الله فإنه يستمطر رضاه وثوابه، فقد وسعت مرضات الله المؤمنين حين بايعوا رسول الله على القتال حتى الموت بين يديه، وذلك قبل أن يبرم الصلح، فلما رأى المشركون عزم

المؤمنين على الحرب والاستقامة قبلوا بالصلح.

إن الله سبحانه قد يقبل بيعة المؤمنين، ويغفر ذنوبهم كلها. أليست الحسنات يذهبن السيئات؟ بلى، إن الموقف البطولي يساوي عند الله الشيء الكثير، ويرجح في ميزانه على كل عمل، ولعله لذلك يغفر الله للشهيد كل ذنوبه.

ولقد كانت بيعة المؤمنين للرسول تحت الشجرة دليلا أكيدا على عمق إيمانهم بالرسالة، ولو لم يكونوا مؤمنين بمعنى الكلمة لما بايعوا الرسول ﷺ وهم يعلمون أن المواجهة بينهم وبين المشركين لو حصلت تعني حسب المقاييس الظاهرة إبادتهم من الوجود، ومن هذا المنطلق كانت البيعة فارقا بين المنافقين وضعاف الإيمان وبين المؤمنين الصادقين، وهي كما كشفت فريق المخلفين ميَّزت المؤمنين وأفرزتهم، وهكذا تنفع المواقف الحرجة الحركة الرسالية في الكشف عن هوية أفرادها ونقاط القوة والضعف فيهم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الثبات وصدق الإيمان وعموم مؤهلات النصر الإلهي ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وقد تجسد ذلك الفتح في الانتصارات والمغانم التي صار إليها المؤمنون بعد ذلك في معركة خيبر وفتح مكة وغيرهما، ولا شك أن المؤمنين كانوا يخسرون الكثير، وتفوتهم هذه الانتصارات لو كان قرارهم الانهزام، وهذه الحقيقة واضحة في تاريخ الأمم والحركات، فهي عندما تتمسك بمبادئها وأهدافها، وتستقيم من أجل ذلك رغم المصاعب والتضحيات، تصل إلى ما تريد بتضحيات أقل، بينما تقصر على غاياتها، وتعيش الذل والهوان، حينما تنقلب على أعقابها، وتدفع إضافة إلى ذلك أضعافا مضاعفة من الخسائر ضريبة للهزيمة.

ومن خلال الآيات المتقدمة يتضح أن المؤمنين وصلوا للمكاسب التالية نتيجة لثباتهم على العهد:

١- تثبيت الإيمان في قلوبهم وزيادته.

٢- الفتح العسكري القريب إضافة إلى الفتح السياسي المتمثل في صلح الحديبية.

٣- المغانم الكثيرة معنوية وسياسية واقتصادية.

[٢٠] ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ في المستقبل، ولكنه عجل لهم أمرين:

الأول: المغانم الأولية التي حصل عليها المؤمنون أثر الصلح، كدخول أفواج من الناس في الدين، وتحالف بعض القبائل مع الرسول، وحصول حالة من الأمن تمكنه من بناء حركته

وإعداد المؤمنين للمواجهة الحاسمة، أما ما حصلوا عليه بعد فتح مكة عسكريا فهو كثير أيضا، الذي من أعظمه وأبرزه القضاء على السلطة المنحرفة فيها، ودخول الناس أفواجا في دين الله، مما جاء تفصيله وبيانه في سورة النصر.

الثاني: دفع أذى المشركين والكفار عن المؤمنين بصلح الحديبية، إذ لو كانت المواجهة تحدث يوم ذاك بين المؤمنين بأعدادهم وعدتهم القليلة من جهة، والمشركين بأعدادهم وعددهم الكثيرة من جهة أخرى، لكانوا يبادون وتنطفئ شعلة الإسلام.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على رضى الله عنهم، ونصره لعباده الذين ينصرونه ويطيعون أولياءه، فينبغي للمؤمنين أن يدرسوا هذه الآيات، ويتدبروا في هذه الحادثة التاريخية، ليستفيدوا عبرة مهمة وهي ضرورة الطاعة للقيادة في السلم وفي الحرب، وعدم اتباع الآراء الشخصية والعواطف المثارة، لأن الطاعة للقيادة الرسالية هي الطريق إلى الهداية الحقيقية ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

[٢١] قبل النصر تجتاح الأمة فتنة الشك في وعد الله، أما بعده فإنهم يتعرضون للغرور والاعتقاد بأن قوتهم الذاتية كانت سبب الفتح، مما يدفعهم للاستهانة بالقيم الحق التي هيأت ظروف النصر عند التمسك بها، ولعله لذلك أكد ربنا هنا -بعد بيان مكاسب صلح الحديبية- على المكاسب التي لم يقدر على تحقيقها المؤمنون إلا بتوفيق، ومن توفيقه الوحي الإلهي والقيادة الربانية، وإذا اتبع المجاهدون السبل الأخرى الملتوية فسوف تؤكد الهزيمة في واقعهم، مهما كان ظاهر الأمر يوحي بخلاف ذلك، ومن يرد نصر الله ورحمته يجب أن يطيعه ويلتزم بأمره.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فهو محيط علما وقدرة بالمكاسب الأخرى التي تأتي في المستقبل، والتي تغيب عن وعي المؤمنين، أو ربما كانوا لا يصدقون بأنهم سوف يبلغونها لو قيل لهم ذلك، نظرا لكونها مكاسب كبيرة قياساً إلى قدراتهم وإمكاناتهم، فهل كانوا يعلمون أو يصدقون بالمكاسب التي حصلوا عليها فيما بعد من بلاط كسرى وقيصر؟ كلا.. وهي كلها من معطيات صلح الحديبية لو درسنا التاريخ دراسة واقعية معمقة، فانتصار الرسول على يهود خيبر وفتحه لمكة المكرمة عسكريا، الأمر الذي كان يعني سيطرته التامة على شبه الجزيرة العربية بكاملها، كل ذلك كان من مكاسب الصلح، وهذه الانتصارات بدورها وحدت القوى آنذاك كلها تحت راية الإسلام، فإذا بالمسلمين قوة ضاربة تنطلق شرقا لتفتح بلاد فارس، وغربا وشمالا لتنتهي إلى سلطان الروم، وتبنى على أنقاضها حضارة الإسلام.

ولم يكن أحد من المؤمنين -إلا من شاء الله- يتوقع النجاة من يد مشركي مكة حينما دعاهم الرسول للبيعة، بل كان كثير منهم فريسة للشك في الدين، والتخلف عن أوامر القيادة الرسالية، فكيف بهم يدركون تلك المكاسب العظيمة أو يؤمنون بها؟

إن المؤمنين كانوا يخسرون هذه المكاسب لو اتبعوا أهواءهم وآراءهم الشخصية القاصرة فتخاذلوا عن نصرة الرسول والبيعة له يومئذ، لذلك ينبغي لنا في كل مكان وزمان أن نتبع الوحي الإلهي، ونسعى في تطبيقه، لا أن نتبع أهواءنا وتصوراتنا البشرية المحدودة.

لقد صدق الله رسوله الرؤيا

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ (١) مَعْكُوفًا (٢) أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم
مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ (٣) بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ (٤)
لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ
ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ
رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ
ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

(١) الهدي: الإبل التي ساقها المسلمون لعمرتهم.
(٢) معكوفاً: من عكف إذا حبس لأن الإبل كانت محبوساً على الهدي لينحر بعد قضاء العمرة، فقد منع المشركون أن يبلغ الهديَ محله، أي المكان الذي ينحر فيه بمكة.
(٣) معرة: أي مكروه.
(٤) لو تزيَّلوا: تفرّقوا وتميّز المسلم عن الكافر في مكة.

اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ(١) فَآزَرَهُ(٢) فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ(٣) يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

هدى من الآيات:

لأنه قد جرى في البدء جدل بين المسلمين حول صلح الحديبية، نجد السياق القرآني هنا يؤكد على المكاسب الكبيرة التي جناها المسلمون من وراء هذا الصلح المبارك، ليؤكد على سلامة النهج الرسالي، وضرورة الطاعة أبدا للقيادة الربانية، كما تذكر الآيات بهذه المناسبة بطائفة من الحقائق التي غابت عن الأذهان، والتي تتصل بهذا الأمر اتصالا مباشرا.

الأولى: أن الحرب ليست هدفا بذاتها، وإنما هي وسيلة إلى هدف لو حققناه من دونها يكون الأمر أفضل، بل لا يصح آنئذ إثارتها أبدا.

الثانية: أن وصول المسلمين إلى أهدافهم من دون الحرب ليس إلا دليلا على تأييد الله لهم، لأنه يصعب الوصول إلى مثل هذه الأهداف من دون التضحيات الباهظة.

الثالثة: لو أن المشركين أشعلوا فتيل الحرب مع المسلمين ببطن مكة لانتصر المسلمون عليهم بإذن الله، وهذه سنة إلهية سابقة ودائمة لا يمكن أن تتبدّل، ولكن عدم حدوث الحرب ليس في صالح المشركين وحسب، باعتبارهم كانوا يهزمون لو بدؤوها، وإنما هي في صالح المسلمين أيضا.

الرابعة: لو أن الحرب وقعت بين المشركين والمسلمين يومذاك ربما لم يكونوا يستطيعون النفاذ إلى قلوب المشركين وبذلك القدر من الأثر العميق، بل ربما ازداد المشركون تعنتا ورفضا، وبالذات كانت لدى قريش ومن لف لفها مشكلة نفسية، تتمثل في الحمية الجاهلية التي أوغرت قلوبهم ضد المسلمين، فلو كان المسلمون يدخلون في نفق العصبية، فبدل أن يقيموا الأحداث والواقع تقييما موضوعيا يأخذ بعين الاعتبار المصلحة الرسالية، يتّبعون ردود الفعل والعواطف

---

(١) شطأه: فراخه.

(٢) فآزره: فقوّاه وشدّه وأعانه.

(٣) سوقه: جمع ساق وهو القصب والأصل.

المستشارة، ويصرون على عدم الرجوع بدون الطواف حول الكعبة والنحر وتقديم الهدي و..، كما أراد ذلك قسم من المسلمين، لتساووا في العصبية مع كفار قريش ومشركيها.

ومن هذه الفكرة نستفيد عبرة مهمة، وهي ضرورة أن يدرس المؤمنون القضايا والمواقف المختلفة دراسة رسالية، نابعة من نهج موضوعي، هدفه مصالح الإسلام، وليس إرضاء نزواتهم وعواطفهم.

ثم إن القرآن يسوق الحديث عن الرسول ﷺ والذين حوله من المؤمنين، وكيف أن شخصيتهم الإيمانية ذات بعدين، فظاهرها العذاب والحدة على أعداء الله، وباطنها الرحمة واللطف برفاق المسيرة الواحدة، وفي الضمن ينبِّهنا إلى فكرة مهمة، وهي: أن المؤمنين المتقين من الأصحاب حجة على الآخرين فيما يصح من أعمالهم وصفاتهم، ولذلك فإن مغفرة الله وأجره لا يشملان كل الذين صحبوا النبي ﷺ، وإنما يختص بهما المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا الصحبة، واستقاموا على الحق إلى النهاية، بدليل كلمة (منهم) الواردة في ختام الآية الأخيرة من السورة.

بينات من الآيات:

[٢٢] بالرغم من قوة قريش وحلفائها التي تفوق في ظاهرها قوة المسلمين، وبالرغم من اعتقادهم -وربما اعتقاد كثير من المسلمين- بأن الحرب بين الطرفين تعني غلبتهم على حزب الله، يؤكد ربنا لرسوله وللمؤمنين أن الحرب لو دارت رحاها لانتصروا عليهم، ولهزموهم شر هزيمة.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ فرارا من المواجهة، دون أن تجرأ قوى الحلفاء كثقيف وهوازن على إسناد قريش، لأنها هي الأخرى سوف يدخلها الرعب مما يسلبها شجاعة اتخاذ قرار الدعم والنصرة.

﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ إن أولئك الذين كانوا يعتقدون بقيادة قريش، ويسلِّمون لولايتها عليهم، سوف تتبدَّل قناعاتهم فيها، لأنهم إنما صاروا إلى ذلك ثقة في قوتها وقدرتها، وقد هزمت فهي إذن لا تستحق أن تتولاهم.. ثم لنفترض أنهم تدخلوا لصالحها في الحرب، فهل ذلك يبدل هزيمتهم إلى نصر؟ كلا.. وما هي قوتهم أمام إرادة الله؟

[٢٣] ثم ليعلم هؤلاء وأشباههم في كل زمان ومكان أن انتصار الحق على الباطل سنة إلهية ثابتة تحكم الحياة بإذن الله، وقد عجز أسلافهم الذين هم أشد قوة منهم عن تغيير هذه

السُنَّة، فكيف بهم؟ وَهَبَ أنهم أقوى من الغابرين، أو جاء في التاريخ من هو أقوى من أولئك، فهل يغلب الله على أمره؟

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أولم ينتصر نوح على كل الكافرين في الأرض؟ أوَلَمْ ينتصر طالوت بفئته القليلة من المؤمنين على الكافرين في عصره؟ أولم يقل الله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؟.

[٢٤] إن الانتصار القياسي الذي بلغه المسلمون في صلح الحديبية لم يكن بدهاء منهم، أو بأن قريشا رحمتهم فكفت أذاها عنهم، وإنما الله هو الذي صيَّر الأمور إلى هذه النتيجة، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، بلى، لقد بلغ المسلمون هذه المكاسب السياسية والمعنوية من دون أدنى خسارة عسكرية، والحال أن الوصول إلى ذلك محال بالطرق الطبيعية، ولو تحقق لاقتضى الأمر تضحيات عظيمة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ فمن ناحية مَنَّ الله على المؤمنين بالخلاص من أيدي المشركين قبل صلح الحديبية، ومن ناحية أخرى مَنَّ على المشركين حين عفا عنهم الرسول ﷺ بعد الفتح.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ومع ورود هذه الآية في سياق الحديث عن صلح الحديبية إلا أنها تشير كما يبدو إلى فتح المسلمين عسكريا لمكة المكرمة.

[٢٥] ولكن لماذا كف الله أيدي المؤمنين عن المشركين، ولم يأمرهم بقتالهم؟ هل لأنهم طيبون؟ أو لأن لهم فضلا وسابقة حسنة معهم؟ بالطبع كلا.. وتشهد على ذلك عقائدهم المنحرفة وأعمالهم السيئة تجاه أتباع الرسالة.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ لقد منعوا المؤمنين من حج بيت الله بالرغم من تهيئهم التام لذلك، وكان ذلك من أبشع الجرائم في عرف العرب يومئذ، لقد فضح ذلك قريشا التي كانت تفتخر على سائر العرب بأنها حامية البيت الحرام، وحافظة حرمة الوافدين إليه.

ماذا بقيت لقريش من شرعية السيادة على العرب بعد أن منعت الحجاج وصدتهم عن إقامة الشعائر التي كانت العرب تقدسها؟

هكذا كشف النبي ﷺ عن زيف ادعاءات قريش، وأسقطها سياسيا عن كرسي سيادة العرب تمهيدا لإسقاطها عسكريا فيا بعد.

ثم إن جريمة قريش كانت كبيرة، إذ كيف يمنع المشرفون على البيت، والمدعون خدمة الوافدين عليه الناس من ممارسة شعائرهم؟! أولا يستحق هؤلاء القتل والعذاب بعد ظفر المسلمين بهم؟ نعم، ولكن الله حجز المؤمنين عن أذاهم لوجود المؤمنين بينهم، سواء المؤمنين بالفعل ممن أخفى إيمانه تقية، أو الذين هم على أعتاب الدخول في الدين، ويحدثون أنفسهم بالانتماء إلى الرسالة ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني لو كنتم تقاتلون الكفار -دون أن يكف الله أيديكم عنهم- لكنتم تقتلون فيمن تقتلون المسلمين من دون علم، لأنهم كانوا يكتمون إيمانهم على خوف من قريش، ولأن شروط الصلح كانت لا تسمح لهم باللجوء إليكم، ولو فعل المؤمنون ذلك لربما أضرهم، ولكن الله لم يأمرهم بالقتال.

ونعرف من هذه الآية:

أولاً: أن المؤمنين استفادوا من فترة السلام التي وفَّرها الصلح في تقوية أنفسهم وبناء حركتهم وتوسيعها، إلى الحد الذي اخترقوا فيه كيان قريش نفسها، وحيث سارت جيوش الإسلام لفتح مكة كانت قريش منخورة الكيان من الداخل، وكان الجند - وربما كثير من الزعماء الذين ينتظر منهم محاربة أتباع الرسالة - ينتظرون الفرصة المناسبة للتلاحم مع صف المؤمنين ضد أعدائهم، وهذا بالفعل ما تؤكده سورة النصر: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، وربما لذلك أيضا لم تجد قريش نفسها قادرة على اتخاذ قرار المواجهة العسكرية ضد الجيوش القادمة من المدينة بقيادة الرسول الأعظم ﷺ، الأمر الذي جعل المسلمين يدخلون مكة فاتحين دون تضحيات.

ثانياً: أن المؤمنين كانوا يجهلون هذه المكاسب العظيمة للصلح، وذلك هو الذي جعل بعضهم يعترض على الرسول ﷺ، وربما طفق يشك في قيادته، فهم لم يكونوا يعلمون بالجبهة الإيمانية الموجودة في صفوف أهل مكة، وقول بعضهم وقد حمل الراية[1]:

اليَـــوْمُ يَـــوْمُ المَلْحَـمَة اليَـــوْمُ تُسْـبَى الحُـرَمَةُ

دليل واضح على هذه الحقيقة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٣٠.

ومن هذا المنطلق يجب أن نستفيد درسا في علاقتنا بالقيادة الرسالية، وهو أن جهلنا بخلفيات قراراتها لا يعني أنها خاطئة، ويجب أن لا يدفعنا ذلك إلى التشكيك فيها، فليس بالضرورة أن يتضح لنا كل شيء، لأن كثيرا من الأمور يكشف عنها المستقبل، ورؤيتها تحتاج إلى بصيرة ثابتة ومعلومات متكاملة، مما لا تتوافر إلا عند القيادة الشرعية الرشيدة.

﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي في الإيمان، وهل خلق الله الناس إلا ليرحمهم؟ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، ولو أن المؤمنين قاتلوا المشركين يومذاك لقتلوا الكثير ممن دخلوا الدين فيما بعد، ومنعوا عنهم رحمات الله وبركاته، وهكذا ينبغي أن تكون استراتيجية الدولة الإسلامية قائمة على أساس اجتذاب الناس إلى الدين، ولو بتقديم بعض التنازلات التي لا تنتهي إلى سخط الله تعالى، وليس تحطيم الخصم وقهر إرادته، ولو سبب ذلك إثارة البغضاء في أنفسهم مما يشكل حاجزا نفسيا يمنعهم مستقبلا من الدخول في الدين.

بلى، لو امتاز الفريقان لعذّب الله المشركين والكافرين بسيوف عباده المؤمنين ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وفي الروايات المأثورة: «إِنَّ اللهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُؤْمِنِ الْوَاحِدِ عَنِ الْقَرْيَةِ الْفَنَاءَ»[1]، وعن أبي الحسن عليه السلام قَالَ: «إِنَّ للهِ عَزَّ وجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ مُنَادِياً يُنَادِي مَهْلًا مَهْلًا عِبَادَ اللهِ عَنْ مَعَاصِي الله فَلَوْ لَا بَهَائِمُ رُتَّعٌ وصِبْيَةٌ رُضَّعٌ وشُيُوخٌ رُكَّعٌ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبّاً تُرَضُّونَ بِهِ رَضّاً»[2].

[٢٦] ولكن لماذا ينذر الله الذين كفروا بالعذاب في الآية السابقة؟ هل لأنهم من قريش أم لقيمة مادية أخرى؟ كلا.. إنما للحمية المرتكزة في قلوبهم.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ فالحق ظاهر وبيّن لهم، ويعلمون أنهم على الباطل، ولكن اتباع العزة بالإثم (القيم الجاهلية التي درجوا عليها) لا تدعهم يقبلون الحق، ويسلّمون لقيادة الرسول، فالقائد في نظرهم يجب أن يكون أكبر القوم سنا، وأكثرهم مالا ونفرا، فكيف يقودهم رجل يتيم لا مال له؟

لهذا فإنهم -وهم يحاربون أتباع الرسالة- لم يكونوا يدافعون عن حق يؤمنون به، وإنما يحمون أنفسهم ويدافعون عن قيمهم الجاهلية، بينما المؤمنون يقاتلون من أجل الله، ويدافعون

---

(١) الكافي: ج٢ ص٢٤٧.

(٢) الكافي: ج٢ ص٢٧٦.

عن القيم والقائد الحق.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بينما خذل من جهة أخرى فلول الكفار، لأن هؤلاء ينصرونه فهم أولى بنصره، بينما ينصر أولئك أصنامهم وشهواتهم. ولعل هذه السكينة كانت أعظم وسيلة لنصرهم، فمن اطمأن إلى سلامة خطه حارب دونه بشجاعة فائقة، بينما الذي يحارب للعصبيات الزائفة ينهزم نفسيا قبل أن ينهزم عسكريا، وقد قيل: الحرب صراع إرادات، ولا ريب أن إرادة صاحب السكينة أمضى.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وكانت كلمة التقوى مقابل الحمية التي تعشعش في قلوب الكافرين، ومن شواهد التزام المؤمنين بها في سلوكياتهم موقف رسول الله ﷺ حينما أراد التوقيع على الصلح، فأنكروا عليه كلمة ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وأن يُسمَّى رسول الله، فقد تنازل عن ذلك لمصلحة الرسالة مع أن الموقف كان محرجا ولكنه ﷺ لم تأخذه الحمية، ولم يسمح للعواطف المستثارة أن تؤثر في خططه الرشيدة.

إن التقوى ليست مجرد كلمة يقولها الإنسان، بل هي برنامج متكامل والتزامات يفرضها الدين على أتباعه، ومن دونها لا يكون أحد متقيا، لأن للمتقي صفات وعلامات من أبرزها التزامه بقيمة التقوى في كل ظرف أو وضع نفسي يمر به، فإذا سخط لم يخرجه سخطه عن رضى ربه، وإذا رضي لم يدخله رضاه في سخطه، إنما هو ملتزم برضى الله، يسخط لسخطه ويرضى لرضاه عز وجل.

وجاء في رواية عن أبي جعفر عليه السلام: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ الَّذِي إِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي إِثْمٍ وَلَا بَاطِلٍ وَإِذَا سَخِطَ لَمْ يُخْرِجْهُ سَخَطُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ وَالَّذِي إِذَا قَدَرَ لَمْ تُخْرِجْهُ قُدْرَتُهُ إِلَى التَّعَدِّي إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ»[1]. وقال الصادق عليه السلام: «مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إِذَا رَغِبَ وَإِذَا رَهِبَ وَإِذَا اشْتَهَى وَإِذَا غَضِبَ وَإِذَا رَضِيَ حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ»[2]. وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عليهما السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَنْفَقَ مُؤْمِنٌ نَفَقَةً هِيَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ»[3].

ولعل الآية تشير -فيما تشير إليه- إلى أن المتقي الحقيقي يزيده الله تقوى وإيمانا كلما واجه ظرفا صعبا، لأنه إذا عمل آنئذ بموجب تقواه تكرَّست في نفسه التقوى.. هكذا حين عمل

(١) الكافي: ج٢ ص٢٣٤.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٤٠٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٥٨.

المؤمنون حسب تقواهم، ولم تأخذهم حمية الجاهلية، ولم تؤثر فيهم إثارات قريش، وصدهم إياهم عن إقامة شعائرهم، بل قبلوا بقرارات القيادة، حينئذ أثابهم الله على ذلك بتنمية روح التقوى في أنفسهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو محيط بمدى ما يستقله قلب الإنسان من التقوى، ولا داعي لإثارة الجدل في كون فلان من المؤمنين أم لا، وهل يدخل الجنة أم النار، لأن ذلك عند الله، ولا ينبغي التطفل فيما يختص به الرب سبحانه.

[٢٧] ثم يؤكد ربنا صدق وعده لرسوله ﷺ بدخول مكة، الأمر الذي يؤكد جدوى الصلح، وكونه الفتح المبين حقا، وخطأ تصورات البعض حوله، حيث تصوروا إنهم إذا أبرموا الصلح مع المشركين لم يحققوا شيئا، وإن الرؤيا التي أخبرهم بها الرسول لم تكن صادقة.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ أي إن دخولكم هذه المرة سيكون دخول المنتصرين.. وحدث ذلك فعلا في السنة الثانية، حيث فتحوا مكة، وكل هذه المزايا والنتائج كانت مجهولة لدى المسلمين.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو صلح الحديبية، أما الفتح البعيد فهو فتح مكة الذي جاء في أثر الصلح، وهذا التأكيد من القرآن على تسمية الصلح بالفتح إنما كان لبيان حقيقة مهمة، وهي وجوب اتباع القيادة وطاعتها عندما تختار طريقا معينا، بعيدا عن العواطف، ذلك أن من مشاكل القيادات الصالحة الضغوط التي تواجهها من قبل المتحمسين والمهيئين نفسيا للمواجهة، فهم يريدونها تستجيب لحماسهم، وإلا فهي في نظر البعض جبانة وضعيفة، وعلى القائد أن لا يترك الحكمة للحماس والعواطف لتكون قراراته حكيمة وحازمة.

إن الرسول ﷺ واجه هذه المشكلة، إذ كان البعض يستنكر عليه عدم محاربته المشركين، وحينما صالح عَدُّوا صلحه مذلة وإهانة، بل ودليلا على ضعف سياسته، ولو كان يستجيب لحماس هؤلاء ما كان المسلمون يبلغون ما بلغوا بعد الصلح، كما واجه -أيضا- وصيه الإمام علي عليه السلام في معركة صفين معارضة من قبل المتشددين الذين سموا بعدئذ بالخوارج.

[٢٨] وربنا يؤكد حكمة نبيِّه، وصحة قراراته، لأنه يتبع هدى الله ودينه، فلا يصح إذن أن نخالفه أو نشكك في قيادته.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ والظهور (الانتصار) مرة يكون بالحرب، ومرة عن طريق الصلح، والرب هو الذي أمر الرسول بالصلح مع المشركين، وهو تكفل بإظهار دينه ورسوله والمؤمنين به على سائر الديانات والأمم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ لقد تنامت أمواج الرسالة في العالم منذ انبعاث الرسول العظيم محمد بن عبد الله ﷺ إلى اليوم. أوَلَيس ذلك دليلا على تحقق وعد الله في ظهور الإسلام على الدين كله؟ وقد جاء في التقارير أن نمو عدد المسلمين أكبر من ازدياد المنتمين إلى أي ديانة أخرى؟ وهكذا تنتظر البشرية اليوم الحق الذي وعدها الله إياه حيث يظهر دينه على الدين كله.

[٢٩] ثم إن النبي ﷺ الذي اتخذ قرار الصلح ليس قائدا عاديا حتى يجوز معه النقاش. إنه رسول الله الذي عصمه عن الخطأ، ولم يكن الذين حوله من الرجال قد أصابهم الوهن حتى يجد نفسه مجبرا على الصلح، فهم ليوث الأرض وفيهم أسد الله وأسد رسوله علي عليه السلام الذي وَتَرَ به النبي صناديد قريش.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ فلا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يتأثرون بالعواطف في جنبه، قال الإمام علي عليه السلام: «فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وإِنَّ القَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآباءِ والأَبْنَاءِ والإِخْوَانِ والقَرَابَاتِ فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَاناً»[1].

وفي الوقت الذي تتميَّز الشخصية الإيمانية بالحدة والشدة ضد الأعداء، فإنها في وجهها الآخر كلها رحمة ولطف بإخوة المسيرة الواحدة. ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ هذا عن علاقتهم بالناس، أما عن علاقتهم بالله، فهي علاقة العبودية والخضوع المطلق.. يمارسون العبادة في كل حركة من حركاتهم، وفي كلِّ كلمة ينطقون بها، لأن كل ما يصدر منهم هو تجلٍّ للصلاة والعبادات بأهدافها وقيمها.

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ إنك تقرأ الصلاة في سلوكهم، فهم متصلون بالله، منتهون عن الفحشاء والمنكر، صادقون مع الآخرين، ملتزمون بواجباتهم.. الخ، لأن العبادة في نظرهم ليست مجرد الركوع والسجود، ومن ثَمَّ الوقوف عند الصلاة بذاتها، وإنما التحرك في الحياة بمقتضياتها وأهدافها، وأبرز تلك الأهداف اثنان: ابتغاء فضل الله في الدنيا، ورضوانه في الآخرة.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٢٢.

﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ ولكثرة صلاتهم وسجودهم بالذات الذي يمثل قمة الخضوع لله، فإنك تلحظ في جباههم أثر السجود، ولا ريب أن الآثار -الثفنات- لا تظهر إلا بالمبالغة في العبادة ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾.

والإمام علي عليه السلام يصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ»[1].

وبيان الله لصفات أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله إنما يأتي ليؤكد حقيقة أن صاحب الرسول حقا من صحبه بقلبه وأخلاقه وقيمه، فاقتداؤهم بالرسول جعلهم في تلك الدرجة لا مجرد معيتهم له، وأنت أيضا تستطيع أن تكون من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله إذا تخلّقت بالأخلاق التي يذكرها القرآن، وتشير إليها خطبة الإمام علي عليه السلام.

ثم إن الرسالات الإلهية بشّرت بهذا النبي وبمن حوله من أعلام الرسالة رهبان الليل وفرسان النهار.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ وهم في حالة تكامل ورقي نحو الأكمل بصورة منتظمة، يشبهون في ذلك الشجرة التي تبدأ بذرة، ولكنها تتكامل شيئا فشيئا وتنمو إلى أن تصير قوية قائمة على سوقها.

﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ إن القائد الذي يربيّ هؤلاء الرجال في ظل أفكاره وقيادته كان يُسَرُّ إذ يراهم، أما الأعداء فإنهم يتميّزون غيظا وحنقا كلما رأوا واحدا يترعرع في ظل قيمه ومبادئه، مقاتلا وقائدا رساليا يجاهد في سبيل الله تعالى.

وأصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله الحقيقيين هم المعنيون بالزّرع في هذه الآية، ولكن لا تعني صحبة الرسول صك البراءة من التكاليف الشرعية، والتحلل من القيم الإلهية، فليس كل الذين عاصروا الرسول أو صحبوه تمسّكَ بأهداف الرسالة تشملهم هذه الآية، والدليل على ذلك أن الله لم يترك الكلام مطلقا، وإنما خص بالغفران والثواب الذين أحسنوا الصحبة، وأبلوا بلاء حسنا في الطاعة له ونصر رسالته منهم.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٩٧.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً﴾ لذنوبهم وأخطائهم، لأن مسيرتهم العامة في الحياة مسيرة سليمة، والحسنات يذهبن السيئات كما ذكر القرآن. ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ جزاء لأعمالهم الصالحة.

والآية في هذا المقطع تدحض الفكرة القائلة بأن مجرد انتماء الإنسان إلى شخص أو تجمع صالح يكفيه، ويرفع عنه المسؤولية، كلا.. فهو مطالب بتحملها والعمل وفقها حتى النفس الأخير، كما قال الله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. يعني بذلك الموت، أما أن نتصور المسؤولية تنتهي بكون الفرد عالما، أو خطيبا، أو منتميا إلى حركة إسلامية فلا، والتأكيد على هذه الفكرة مهم لأن الكثير من الناس يعتقدون بأن وصولهم إلى مقام ما يرفع عنهم المسؤولية، ويحولها إلى غيرهم.

وأخيرا: إذا كان للرسول ﷺ أصحاب فإن له إخوانا يأتون فيما بعده، وإذا لم نحظ بصحبته فلنسعَ للتآخي معه، وذلك بالالتزام بمبادئه، والسعي إلى تحقيق أهدافه في الحياة.

فقد جاء في الخبر عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَا غَمِّي وَفِي أَيِّ شَيْءٍ تَفَكُّرِي وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَشْتَاقُ؟ قَالَ أَصْحَابُهُ: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا بِهَذِهِ مِنْ شَيْءٍ أَخْبِرْنَا بِغَمِّكَ وَتَفَكُّرِكَ وَتَشَوقِكَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أُخْبِرُكُم إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ تَنَفَّسَ. وَقَالَ: هَاه شَوقاً إِلَى إِخْوَانِي مِنْ بَعْدِي.

فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: يَارَسُولَ اللهِ ﷺ أَلَسْنَا إِخْوَانُكَ؟! قَالَ ﷺ: لاَ أَنْتُم أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِي شَأْنُهُم شَأْنُ الأَنْبِيَاءِ، قَوْمٌ يَفِرُّونَ مِنَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ، وَمِنَ الإِخْوَةِ وَالأَخَوَاتِ، وَمِنَ القَرَابَاتِ كُلُّهُم ابتِغَاءُ مَرْضَاتِ اللهِ، يَتْرُكُونَ المَالَ للهِ، وَيذِلُّونَ أَنْفُسَهُمُ بِالتَّوَاضُعِ للهِ، لاَيَرْغَبُونَ فِي الشَّهَوَاتِ وَفُضُولِ الدُّنْيَا، مُجْتَمِعُونَ فِي بَيتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، كَأَنَّهُم غُرَبَاءُ مَحْزُونِينَ لِخَوفِ النَّارِ وَحُبِّ الجَنَّةِ، فَمَنْ يَعْلَمُ قَدْرَهُم عِنْدَاللهِ لَيسَ بَيْنَهُمُ قَرَابَةٌ وَلاَمَالٌ، يُعْطُونَ بِهَا بَعْضُهُم لِبَعضٍ، أَشْفَقُ مِنَ الأَبْنِ عَلَى الوَالِدِ وَمِنَ الوَالِدِ عَلَى الوَلَدِ، وَمِنَ الأَخِ عَلَى الأَخِ، هَاهْ شَوقاً إِلِيهِم، يُفْرِغُونَ أَنْفُسَهُمُ مِنَ كَدِّ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا بِنَجَاةِ أَنْفُسِهِم مِنْ عَذَابِ الأَبَدِ وَدُخُولِ الجَنَّةِ لِمَرْضَاةِ اللهِ.

وَاعْلَم يَا أَبَا ذَرٍّ: إِنَّ لِلوَاحِدِ مِنْهُم أَجْر سَبْعِينَ بَدْرِياً. يَا أَبَا ذَرٍّ: وَاحِدٌ مِنْهُم أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ.

يَا أَبَا ذَرٍّ: قُلُوبُهُم إِلَى اللهِ وَعَمَلُهُم للهِ لَو مَرِضَ أَحَدُهُم لَهُ فَضْلُ عِبَادَةِ أَلْفِ سَنَةٍ صِيَامٌ نَهَارُهَا وَقِيَامٌ لَيْلُهَا وإِنْ شِئْتَ حَتَّى أَزِيدُكَ.

يَا أَبَا ذَرٍّ: -قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي، قَالَ: لَو أَنَّ أَحَداً مِنهُم مَاتَ فَكَأَنَّمَا مَاتَ مَنْ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنْ فَضْلِهِ عَلَى اللهِ، وَإِنْ شِئْتَ أَزِيدُكَ. قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي.

قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ: لَو أَنَّ أَحَدهُم تُؤْذِيهِ قَمْلَةٌ فِي ثِيَابِهِ فَلَهُ عِنْدَ اللهِ أَجْرُ أَرْبَعِينَ حَجَّةً وَأَرْبَعِينَ عُمْرَةً وَأَرْبَعِينَ غَزْوَةً وَعِتْقُ أَرْبَعِينَ نَسِمَةً مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام وَيُدْخِلُ وَاحِدٌ مِنْهُم اثْنَي عَشَرَ أَلفاً فِي شَفَاعَتِهِ. قَالَ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللهِ. وَقَالُوا: مِثْلَ قَولِي سُبْحَانَ اللهِ. مَا أَرْحَمَهُ بِخَلْقِهِ وَأَلطَفَهُ وَأَكْرَمَهُ عَلَى خَلْقِهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: أَتَعْجَبُونَ مِنْ قَولِي، وَإِنْ شِئْتُم حَتَّى أَزِيدُكُم. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: يَا أَبَا ذَرٍّ لَو أَنَّ أَحَداً مِنْهُم اشْتَهَى شَهْوَةً مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَيَصْبِرَ وَلاَ يَطْلُبُهَا كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ بِذِكْرِ أَهْلِهِ ثُمَّ يَغْتَمّ وَيَتَنَفَّسُ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ نَفَسٍ أَلفَي أَلفَ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلفَي أَلفَ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلفَي أَلفَ دَرَجَةٍ وَإِنْ شِئْتَ حَتَّى أَزِيدُكَ يَا أَبَا ذَرٍّ. قَالَ: حَبِيبِي رَسُولَ اللهِ زِدْنِي.

قَالَ صلى الله عليه وآله: لَو أَنَّ أَحَداً مِنهُمْ يَصْبِرُ مَعَ أَصْحَابِهِ لاَ يَقْطَعُهُمْ وَيَصْبِرَ فِي مِثْلِ جُوعِهِم وَمِثْلَ غَمِّهِم كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ كَأَجْرِ سَبْعِينَ مِمَّنْ غَزَا مَعِي غَزْوَةَ تَبُوكٍ، وَإِنْ شِئْتَ حَتَّى أَزِيدُكَ. قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنَا.

قَالَ صلى الله عليه وآله: لَو أَنَّ أَحَداً مِنْهُم وَضَعَ جَبِينَهُ عَلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَقُولُ: آهٍ، فَتَبْكِي مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ لِرَحْمَتِهِم عَلَيهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا مَلاَئِكَتِي مَا لَكُمْ تَبْكُونَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا إِلَهَنَا وَسَيِّدَنَا وَكَيفَ لاَ نَبْكِي وَوَلِيُّكَ عَلَى الأَرْضِ، يَقُولُ فِي وَجَعِهِ آهٍ! فَيَقُولُ اللهُ: يَا مَلاَئِكَتِي اشْهَدُوا أَنْتُمْ أَنِّي رَاضٍ عَنْ عَبْدِي بِالَّذِي يَصْبِرُ فِي الشِّدَّةِ وَلاَ يَطْلُبُ الرَّاحَةَ. فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: يَا إِلَهَنَا وَسَيِّدَنَا لاَ تَضُرُّ الشِّدَّةُ بِعَبْدِكَ وَوَلِيِّكَ بَعْدَ أَنْ تَقُولَ هَذَا القَولُ. فَيَقُولُ اللهُ: يَا مَلاَئِكَتِي إِنَّ وَلِيِّي عِنْدِي كَمَثَلِ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِي وَلَو دَعَانِي وَلِيِّي وَشَفَعَ فِي خَلقِي شَفَّعْتُهُ فِي أَكْثَرِ مِنْ سَبْعِينَ أَلفاً وَلِعَبْدِي وَوَلِيِّي فِي جَنَّتِي مَا يَتَمَنَّى، يَامَلاَئِكَتِي وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي: لأَنَا أَرْحَمُ بِوَلِيِّي، وَأَنَا خَيرٌ لَهُ مِنَ المَالِ لِلتَّاجِرِ، وَالكَسْبُ لِلْكَاسِبِ، وَفِي الآخِرَةِ لاَ يُعَذَّبُ وَلِيِّي وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: طُوبَى لَهُم يَا أَبَا ذَرٍّ، لَو أَنَّ أَحَداً مِنْهُم يُصَلِّي رَكْعَتَينِ فِي أَصْحَابِهِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رَجُلٍ يَعْبُدُ اللهَ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ عُمْرَ نُوحٍ، وَإِنْ شِئْتَ حَتَّى أَزِيدُكَ يَا أَبَا ذَرٍّ. قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ صلى الله عليه وآله: لَو أَنَّ أَحَداً مِنهُم يُسَبِّحُ تَسْبِيحَةً خَيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَصِيرَ لَهُ جِبَالُ الدُّنْيَا ذَهَباً، وَنَظْرَةٌ إِلَى وَاحِدٍ مِنهُم أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَظْرَةٍ إِلَى بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ، وَلَو أَنَّ أَحَداً مِنْهُم يَمُوتُ فِي شِدَّةٍ

بَيْنَ أَصْحَابِهِ لَهُ أَجْرُ مَقْتُولٍ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمَقَامِ، وَلَهُ أَجْرُ مَنْ يَمُوتُ فِي حَرَمِ اللهِ، وَمَنْ مَاتَ فِي حَرَمِ اللهِ آمَنَهُ اللهُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ وَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ شِئْتَ حَتَّى أَزِيدُكَ يَا أَبَا ذَرٍّ. قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ ﷺ: يَجْلِسُ إِلَيهِم قَومٌ مُقَصِّرونَ مُثْقَلونَ مِنَ الذُّنُوبِ، فَلاَ يَقُومُونَ مِنْ عِنْدِهِم حَتَّى يَنْظُرَ إِليهِم فَيَرْحَمُهُم وَيَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُم لِكَرَامَتِهِم عَلَى اللهِ. ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: المُقَصِّرُ مِنْهُم أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَلفِ مُجْتَهِدٍ، مِنْ غَيرِهِم، يَا أَبَا ذَرٍّ ضِحْكُهُمْ عِبَادَةٌ، وَفَرَحُهُم تَسْبِيحٌ، وَنَومُهُم صَدَقَةٌ، وَأَنْفَاسُهُم جِهَادٌ، وَيَنْظُرُ اللهُ إِلَيهِم فِي كُلِّ يَومٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي إِلَيْهِم لَمُشْتَاقٌ ثُمَّ غَمَّضَ عَينَيهِ وَبَكَى شَوقاً. ثُمَّ قَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ احْفَظْهُم وَانْصُرْهُم عَلَى مَنْ خَالَفَ عَلَيهِمْ، وَلاَ تَخْذُلْهُم وَأَقِرَّ عَينِي بِهِم يَومَ القِيَامَةِ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[1].

(١) كلمة الرسول الأعظم ﷺ للشهيد الشيرازي: ص٣٦٩.

سُورَةُ الحُجُراتِ

* مدنية.

* عدد آياتها: ١٨.

* ترتيبها النزولي: ١٠٧.

* ترتيبها في المصحف: ٤٩.

* نزلت بعد سورة المجادلة.

فضل السّورة

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الحُجُرَاتِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ أَوْ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَانَ مِنْ زُوَّارِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٥)

الإطار العام

اخلاقيات المجتمع المؤمن

تفتتح السورة بوصايا قيّمة في أدب التعامل مع الرسول والقيادة الإلهية، وتختتم ببيان حقيقة الإيمان، وتتواصل بينهما الآيات تنظم علاقة المسلمين ببعضهم على أساس الأخوة، وعلاقة البشرية ببعضهم على قاعدة المساواة.

تعالوا الآن نتدبر في هذا السياق المعجز:

١- لأن علاقة الأخوة تتعرَّض لهزَّات قد تبلغ درجة الاقتتال بين المؤمنين، فلابد من قوة داخلية تمسك الأمة من أن تتشرذم فتتلاشى، وما تلك القوة إلا القيادة الرسالية التي لابد أن يسمو احترام الأمة لها إلى مستوى رفيع، بألاّ يتقدموا بين يديّ الله ورسوله في الرأي أو القول أو المشي أو أية ممارسة عملية، ولا يرفعوا صوتهم فوق صوته، ولا يجهروا له في الكلام كما يتحادثون بينهم. وقد بشر الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بأنهم قد طهر الله قلوبهم للتقوى، وأن لهم مغفرة وأجراً عظيماً. أما الذين لا يحترمون الرسول ﷺ، ولا يراعون حرمة الحُجُرات التي بنيت من أجل توفير الراحة، فينادون الرسول ﷺ من ورائها، فإن أكثرهم لا يعقلون، فلا يعرفون حرمة القيادة الإلهية، ولا حرمة الآداب المرعية، وكان أولى بهم أن يصبروا حتى يخرج إليهم الرسول فيحدثوه عن شؤونهم (الآيات: ١-٥).

٢- وبعد أن يرسي السياق احترام القيادة وآداب التعامل معها، وطبيعة العلاقة معها؛ بعدئذٍ يأمر المؤمنين بالتثبت في أمورهم، وعدم الاسترسال مع أنباء الفاسقين، لأنهم قد يصيبون بذلك قوماً بجهالة ثم يندمون على ذلك. وبهذا يقطع الطريق على مثيري الفتن بين المسلمين وسائر التجمعات البشرية، ويضع قانوناً لمثل هذه الأمور، ويأمر بمراجعة القيادة والتسليم لها وعدم ممارسة الضغط عليها، أَوَلَيس الرسول ﷺ قد جاءهم من عند الله بنور الإيمان؟ أَوَلَيس هو-إذن- أهدى منهم سبيلاً؟ أَوَلَيس من واجب الشكر ألاّ يخالفوه في قضية

مهمة كاتخاذ موقف من طائفة معينة؟ وماذا لو أطاعهم الرسول في جهلهم، أوَلاَ يسبب ذلك العنت عليهم؟ وربما أشارت (الآية: ٧) إلى أن مخالفة الرسول ﷺ نوع من الكفر والفسوق أو العصيان حسب درجات المخالفة ومواردها، وإن من فضل الله عليهم أن زيَّن في قلوبهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فلا يعودوا إليه ليفقدوا أعظم نعمة أسبغها عليهم ربهم (الآيات: ٦-٨).

٣- وفي سياق حديثه عن علاقة المسلمين ببعضهم؛ يُفكُّ القرآن أولاً أصعب عقدة فيها متمثلة في حالة نشوب قتال أهلي بينهم فيقول: لو اقتتل طائفتان من المسلمين فلابد من الإصلاح بينهم، وبأية وسيلة ممكنة، ثم إقامة العدل بينهم، ولكن إذا بغت إحداهما على الأخرى، ولم تسلم للإصلاح فلابد من تحمل المؤمنين لمسؤولياتهم الخطيرة المتمثلة في محاربة الفئة الباغية، حتى تفيء إلى أمر الله وتقبل الصلح والتحاكم إلى الشريعة المقدسة، فإن فاءت تقوم الأمة بنشر العدالة والقسط في أوساطها (الآية: ٩).

ويرسي القرآن قاعدة الأخوة بين المؤمنين لتكون محوراً أساسياً للعلاقة بينهم، ولطائفة من التعاليم والأنظمة والآداب أبرزها ضرورة الإصلاح بين الإخوة لعل الله يرحمهم بذلك (الآية: ١٠).

٤- ولكي نقتلع جذور الصراع، ثم لكي نعيش في ودٍّ ووئام، لابد أن نطهِّر قلوبنا من عقد التعالي فوق بعضنا. فنحن جميعاً بشر متساوون لا يجوز أن يسْخَر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم عند الله وفي عالم الواقع، فيكون استهزاؤهم بهم محض سفه، ومجرد خسارة لهم للمكاسب التي يمكنهم الحصول عليها، كما لا يجوز أن تَسْخَر نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهن.

وحتى إذا ألقى الشيطان في أنفسنا هذه النظرة الشاذة، فلا يجوز أن نفصح عنها، وأن نعيب بعضنا أو أن نتبادل الألقاب البذيئة. أوَ لسنا مسلِمين قد طهَّر الله حياتنا من كل قذارة، فلماذا نسمي بعضنا بأسماء الفسق وقد أكرمنا الرب بأسماء إسلامية رفيعة المستوى؟ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان (الآية: ١١).

ونهدم علاقاتنا ببعضنا إذا استرسلنا مع الأوهام والشكوك والظنون التي تثيرها الأحقاد أو الحالات النفسية أو الإشاعات المغرضة. وهكذا يأمر الإسلام باجتناب كثير من الظن، ويؤكد أن بعض الظن إثم، ولعله الذي نتحقق منه بالتجسس، أو نجعله موقفاً لحياتنا ولو ظننا سوءاً فلا يجيز التحقق منه. وهكذا ينهانا الدين ويقول ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وإذا عرفنا من أخينا

عيباً مستوراً فلا يجوز أن نشيعه عليه من وراء ظهره بالغيبة، لأنه بمثابة أكل لحم أخينا ميتاً. أوَلَيس ذلك نيلاً من كرامته؟ وكرامته أعظم أم بدنه (الآية: ١٢)؟

٥- ثم يرسي السياق قاعدة التوحيد التي ترفض أي نوع من التمييز المادي بين الإنسان والإنسان، ويؤكد ربنا أن أصل البشرية واحد؛ آدم وحواء، فلا تفاخر في الأنساب، وأن الحكمة من جعلهم شعوباً وقبائل هو التعارف وليس التدابر والتسامي، فإذا عرف بعضهم بعضاً ضبطت المسؤوليات والحقوق وتهيأت فرصة العدالة. بلى؛ إن هناك تمايزاً واحداً هو التقوى، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم. ومن معاني التقوى سلامة الفكر واستقامة السلوك، وبذلك يكون التنافس على ما يقدم البشرية نحو أهدافها النبيلة (الآية: ١٣).

٦- وفي الآيات الأخيرة يفسّر السياق التقوى ببيان أصلها المتمثل في الإيمان، ربما لكي لا يدعيها الطامعون والانتهازيون فيقول: قالت الأعراب آمنا..

وكان طائفة التجأوا إلى المدينة طمعاً في خيراتها بعد أن أجدبت أراضيهم، فنفى عنهم القرآن إيمانهم، ولكن لم ينف أنهم مسلمون، كما لم ينف أجرهم عند الله، إن هم أطاعوه وأطاعوا الرسول. أوليس الله غفوراً رحيماً؟ (الآية: ١٤).

وهناك مقياسان نستوحيهما من القرآن للإيمان؛ عدم الشك بخاصة عندما تخالف تعاليم الدين أهواءهم ومصالحهم، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فمن فعل ذلك فقد كان صادقاً في إيمانه.(الآية: ١٥).

ويزعم البعض أن ادعاءه الإيمان يكفيه، وكأنه يعلّم الله بدينه، والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، والله بكل شيء عليم.(الآية: ١٦).

وترى بعضهم يمنون على الرسول ﷺ إسلامهم -كأعراب البادية الآنف ذكرهم - والله يمن عليهم بالإيمان، لأنه نعمة كبرى إن كانوا صادقين في ادعائه (الآية: ١٧).

ويختم القرآن السورة بأن الله يعلم غيب السماوات والأرض وأنه بصير بما يعمل الخلق، ولعله تحذير من ادعاء الإيمان لمصالح مادية (الآية: ١٨).

لا تقدموا بين يدي الله ورسوله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا(١) بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ(٢) أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾.

هدى من الآيات:

التزام الأمة المؤمنة بالقيادة الإلهية يدعوها إلى إتباع الرسول وعدم المبادرة بأي فعل قبل تلقي أمر الله سبحانه عبر الرسول وذلك هو التقوى.

وهذه الصفة الإيمانية تتجلى في ظاهر حياتهم، وهكذا تجدهم لا يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي ولا يجهرون له بالقول خشية حبط أعمالهم دون أن يشعروا؛ فتلك الخسارة الكبرى.

وهكذا مظهرهم ليعكس مخبرهم، فمن غض صوته عند الرسول فإنه الذي امتحن الله

(١) لا تقدّموا: لا تتقدموا.

(٢) يغضون: يخفضونها ولا يرفعونها.

قلبه للتقوى (فإذا بالتقوى يهيمن على قلبه تماماً).

والله يثيبهم:

أولاً: بغفران ذنوبهم.

ثانياً: بأجر عظيم.

أما الذين ينادون الرسول من وراء الحجرات فإن أكثرهم لا يعقلون، ولا يوقرون مقام الرسالة ولا يحترمون بيوت الله الرفيعة، وكان الأحرى بهم وخيرا لهم الصبر حتى يخرج الرسول إليهم، والله غفور رحيم، فلا يبادرهم بالعذاب لأنه رحيم ويقبل عثرتهم إن استغفروا لأنه غفور.

بينات من الآيات:

[١] الأمة المؤمنة أمة ملتزمة تسلم لقيادتها الشرعية بوعيها الديني، وتستقبل أوامرها برضا واطمئنان، وتحترم القيادة لأنها من عند الله، وهي أشد حبا لله من كل شيء -ولأن أفئدة أبنائها قد طهرت من الكبر والعنجهية وامتحنت للتقوى- وهي لذلك أمة منضبطة لا تسترسل مع الأحداث بل تنتظر أوامر القيادة الراشدة، ولا تجرفها رياح الفتن، بل يقودها المنهج العلمي الرصين القائم على أساس التثبت والتبيُّن.

هكذا أدَّب الله المؤمنين عندما وجه إليهم بالذات خطابه قائلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فقالوا لبيك يا رب ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ما دمتم بين يدي الله يحيط بكم علمه وقدرته، ويرعاكم بسمعه وبصره فلا تقدموا شيئا على أمر الله، ولا تتقدموا قبل أن تستمعوا إلى أمره وأمر الله يبيِّنه رسوله الأمين، الذي أنتم بين يديه، أوَلَيس هو الإمام والقائد.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بلى؛ لا بد أن تستوعب التقوى كافة شؤون الحياة، فما من شأن إلا ولله فيه حكم لا يجوز تجاوزه، والمتقون يبحثون أولا عن حكم الله قبل أن يبادروا بالعمل في أي حقل.

ومن هنا وجب التفقُّه في الدين وتعلُّم أحكامه تمهيدا للعمل بها، وجاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قول الله سبحانه ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. قال: «إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَبْدِي أَ كُنْتَ عَالِماً، فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ لَهُ: أَفَلَا عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَ وَإِنْ قَالَ كُنْتُ جَاهِلًا قَالَ لَهُ أَفَلَا تَعَلَّمْتَ حَتَّى تَعْمَلَ فَيَخْصَمُ فَتِلْكَ

الحُجَّةُ البَالِغَةُ»[1].

وإذا لم يجد المؤمن في الفقه حكم الحوادث المستجدة أو المتطورة فإن عليه أن يراجع الفقهاء الذين يستنبطون ذلك الحكم من القواعد العامة الموجودة في الشريعة. ذلك أنه ما من حادثة إلا وللدين فيها حكم، ابتداء من بصائر الوحي في حكمة الحياة، ومقاييس المعروف والمنكر حتى حكمه في أرش الخدش.

قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ مَا مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ وَأَمَرْتُكُمْ بِهِ»[2]. وجاء في الحديث الشريف عن أبي أسامة قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده رجل من المغيرية[3] فسأله عن شيء من السنن فقال: «مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وُلْدُ آدَمَ إِلَّا وَقَدْ خَرَجَتْ فِيهِ السُّنَّةُ مِنَ اللهِ وَمِنْ رَسُولِهِ وَلَوْ لَاذَلِكَ مَا احْتَجَّ عَلَيْنَا بِمَا احْتَجَّ. فَقَالَ المُغِيرِيُّ: وَبِمَ احْتَجَّ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ -حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ- فَلَوْ لَمْ يُكْمِلْ سُنَّتَهُ وَفَرَائِضَهُ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مَا احْتَجَّ بِهِ»[4]. وقال عليه السلام: «مَا رَأَيْتُ عَلِيّاً عليه السلام قَضَى قَضَاءً إِلاَّ وَجَدْتُ لَهُ أَصْلاً فِي السُّنَّةِ قَالَ وَكَانَ عَلِيٌّ عليه السلام يَقُولُ لَوِ اخْتَصَمَ إِلَيَّ رَجُلَانِ فَقَضَيْتُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ مَكَثَا أَحْوَالًا كَثِيرَةً ثُمَّ أَتَيَانِي فِي ذَلِكَ الأَمْرِ لَقَضَيْتُ بَيْنَهُمَا قَضَاءً وَاحِداً لِأَنَّ القَضَاءَ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ أَبَداً»[5].

وسواءً كان الحكم الإلهي واردا في خصوص المورد أو في الأصل العام الذي يشمله فإنه حد لا يمكننا تجاوزه ولا يجوز لنا أن نزعم أن الله فوض أمره إلينا، وحتى الأئمة المعصومون كان لا بد لهم الفتيا وفق الكتاب والسنة، وقد أكدوا ذلك لنفي مزاعم بعض القائلين بالتفويض.

فقد سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن مسألة فأجابه فيها. فقال الرجل: إن كان كذا وكذا ما كان القول فيها (لعله زعم أن الافتراضات الجديدة لا حكم لها في الشريعة) فقال له: «مَهْمَا أَجَبْتُكَ فِيهِ بِشَيْءٍ فَهُوَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ لَسْنَا نَقُولُ بِرَأْيِنَا مِنْ شَيْءٍ»[6].

وروى سماعة عن الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام أنه قال: «قُلْتُ لَهُ: كُلُّ شَيْءٍ تَقُولُ بِهِ فِي

---

(١) بحار الأنوار: ج٢ ص٢٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٢ ص١٧١.
(٣) أتباع المغيرة بن سعيد وكان من الغلاة.
(٤) بحار الأنوار، ج٢، ص١٦٩.
(٥) أمالي المفيد: ص٢٨٦ المجلس ٣٤.
(٦) بحار الأنوار: ج٢ ص١٧٣.

كِتَابِ اللهِ وَسُنَّتِهِ، أَوْ تَقُولُونَ بِرَأْيِكُمْ. قَالَ عليه السلام: بَلْ كُلُّ شَيْءٍ نَقُولُهُ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّتِهِ»(١).

فلكي لا نتقدم على الرسول، ولا يسوقنا الهوى والجهل لا بد من التفقه في الدين ومعرفة أصول الحكم فيه والانبعاث منها لمعرفة الحياة وتفاصيل سلوكنا فيها.

[٢] ذلك كان أدب التعامل مع الرسول صلى الله عليه وآله والقيادة الرسالية، وأما أدب التحادث معه فقد بينته الآية التي تخاطب المؤمنين للتذكرة بأن مثل هذه الآداب من علائم الإيمان ومن شروطه. وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه ما خوطب المسلمون بهذه الكلمة إلا عند إسلام الأوس والخزرج، قال الإمام: «مَا سُلَّتِ السُّيُوفُ وَلَا أُقِيمَتِ الصُّفُوفُ فِي صَلَاةٍ وَلَا زُحُوفٍ وَلَا جُهِرَ بِأَذَانٍ وَلَا أَنْزَلَ اللهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ حَتَّى أَسْلَمَ أَبْنَاءُ الْقَيْلَةِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ»(٢). ويبدو أن سبب ذلك تكوّن المجتمع الإسلامي عند إسلام هاتين الطائفتين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ وتتسع الآيات للأحكام التالية:

أولاً: إذا تحدثوا إلى الرسول خفضوا أصواتهم احتراما للرسول، وللوحي الذي يحتمله.. إن هذا السلوك المهذب يعكس مدى احترام الأمة للرسول وللقيادة الوريثة، ذلك الاحترام الذي يساهم في تنفيذ القرارات بوازع نفسي وبيسر وبلا تكلف.

ثانياً: لا يجادلون الرسول في ما يأمر به، فهو من أبرز مظاهر رفع الصوت عند الرسول، ولا يجادلونه بما يؤذيه.

ثالثاً: إذا قضى الرسول بشيء يسلّمون له ولا يرفعون صوتهم بالمعارضة.

وقد ذكر المفسرون في أسباب نزول هذه الآيات موارد شتى تنطبق على كل هذه الأحكام، ولعلهم كانوا يقصدون تأويل الآية، وتطبيقها على تلك الموارد.

فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم: «نزلت في وفد بني تميم كانوا إذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وقفوا على باب حجرته فنادوا يا محمد اخرج إلينا، وكانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله تقدموه في المشي، وكانوا إذا تكلموا رفعوا أصواتهم فوق صوته ويقولون يا محمد يا محمد ما تقول في كذا وكذا كما يكلمون بعضهم بعضا فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ

(١) بحار الأنوار: ج٢ ص١٧٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٣١٢.

يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾ الآيات»[1].

وهذا تأويل يتطابق وأول الأحكام التي استوحيناها من الآية الكريمة، وهو ظاهر الآية. وروى البخاري أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر حين قدم على النبي ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي فقال: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله عز وجل الآية [2].

وروي أن النبي ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى إلى خيبر فأشار عليه عمر برجل آخر فنزلت الآية [3].

وهذان الحدثان يتناسبان والحكمان الثاني والثالث، مما يشهد على أن للآية تطبيقات عديدة يجمعها النهي عن معارضة الرسول بأي صورة كانت.

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كانوا إذا حضروا رسول الله خاطبوه باسمه بعيدا عن جلال النبوة، وكان المنافقون بالذات يرفعون أصواتهم ليسقطوا أبّهة القيادة عن أعين الناس -فجاء القرآن ينهاهم عن ذلك ويعلمهم أدب الحديث مع الرسول- ومن خلال ذلك مع كل قيادة شرعية.

ولعل الآية تشمل النهي عن انتقاد آراء القيادة الرسالية علنا، مما يسبب وهنا في عزيمة الأمة وتقليلا من شأن مصدر القرار.

من هنا قال البعض: أن حرمة كلام النبي اليوم كحرمته في مشهده، فإذا قرئ على جمع كلامه وجب عليهم أن ينصتوا إليه، لأن حديثه وحي من عند الله. ألم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، فالملاك ذاته الذي فرض به الإنصات عند تلاوة القرآن موجود في سنة الرسول. وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لماذا يسبب الاستخفاف بالقيادة الشرعية حبطا في العمل؟ لعل

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣١٨.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٠٣، بتصرف.
(٣) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٠١.

السبب يتلخص في أمرين:

أولاً: أن أغلب الفرائض تروض النفس وتطهِّرها من الكبر. فإذا طغت النفس وتكبرت على القيادة الشرعية فقد تبين أن هدف الفرائض لم يتحقق، فأحبطت الصلاة التي تكرس الذاتية، بدل الخشوع، والزكاة التي تزيد الهوة والطبقية في الأمة، والحج الذي يورث صاحبه التعالي والتفاخر، والصيام الذي لا يورث التقوى في النفس، إنها جميعا عرضة للإحباط لأنها لم تحقق أهدافها.

ثانياً: إن الولاية عَمَدُ الدين، فإذا سقط العمد ماذا يبقى من الدين؟ أليس الدين نظاماً اجتماعياً متكاملاً يدور حول محور القيادة الشرعية؟ فإذا ذهبت انهار كل شيء.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ إن أعظم الأمراض خطرا ذلك المرض الذي لا يحس به المبتلى، لأنه لا يبادر لمعالجته وقد لا يقتنع بالمعالجة، كذلك أخطر الذنوب الذنب الذي لا يشعر به المتورط فيه لأنه يسير به في طريق جهنم وهو يزعم أنه من أهل الجنة، ومخالفة القيادة من هذه الذنوب قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

ونتساءل: لماذا لا يشعر الإنسان بخطورة مخالفة القيادة الشرعية أو الاستخفاف بها؟

ويبدو أن النفس تسوّل لصاحبها بعض الذنوب بصورة تجعلها حسنات، فهي كمرض النوم (تسي تسي) يجعل ضحيته يخلد إلى النوم حتى الموت، وكلما اقترب إلى نهايته أوغل في اللا وعي.

ثم إن حبْط العمل بذاته من الأمور التي يصعب التحسس بها. أرأيت لو قيل لك أن ثواب حجتك التي أرهقت بها نفسك، وأنفقت فيها مالا كثيرا قد ذهب أدراج الرياح بمجرد رفع صوتك في مجلس القيادة الشرعية. لا تصدِّق بذلك بسهولة ولكنه هو الواقع.

وأبسط دليل على تزيين الشيطان لنا مخالفة القيادة الشرعية أن المسلمين اليوم -كما في التاريخ- يتولون عن قيادتهم دون أدنى إحساس بالذنب، بل ترى الكثير منهم يزعم أن لا علاقة للدين بشؤون الحياة الفعلية، فلا حاجة إلى الإمام والقيادة الشرعية اليوم.

[٣] هل تريد أن تعرف مدى قبول أعمالك الصالحة، قبل يوم القيامة، أي قبل فوات الأوان؟ إذا تعال وقس نفسك بميزان القرآن، كيف؟ أليست الفرائض ذات حكم وفوائد تتجلى في حياة البشر؟ بلى، إذا دعنا نقيس أنفسنا بمدى تحقق تلك الحكم والفوائد في أنفسنا

وواقعنا من خلال الفرائض.

هل قُبلت صلاتك أم لا؟ انظر إلى نفسك هل انتهت عن الفحشاء والمنكر واقتربت إلى ذكر الله؟ فإن كانت، فقد قبلت صلاتك. وهل تقبل منك الصيام؟ انظر إلى مدى التقوى في نفسك، فإن زادت تقواها، فقد تُقبِّل صيامها.

وبكلمة: إذا وجدت في نفسك علائم الإيمان فاعرف بقبول إيمانك. ومن أبرز علائمها التسليم لقيادة الرسول من دون حرج، ورعاية آداب التعامل معه، فذلك دليل زكاة القلب، وطهارته بالإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وإذا كان معنى الامتحان لغويا تطهير الذهب من الشوائب بصهره، فإن امتحان القلب بمعنى تزكيته من الشك والشرك والكبر والحسد حتى يتهيأ للتقوى أي اتقاء الشهوات والذنوب ظاهرا وباطنا.

أما إذا كان الامتحان –في اللغة– بمعنى امتداد الجلد فمعناه هنا اتساع القلب للمعارف الإلهية مما يجعله يستوعب كلمة التقوى. إن التقوى بذرة مباركة لا تنمو إلا في الأرض النقية.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لأن طاعة الرسول (والقيادة الشرعية) والتأدب في حضرته واحترام مقامه، إنها جميعا تشفع للذنوب فيغفرها الله، كما أن معصية الرسول والاستخفاف بمقامه ومجافاته تحبط الأعمال الصالحة.

[٤] أما الذين لم تصقل آداب الرسالة نفوسهم، ولم تصلح سلوكهم فتراهم يغلظون القول مع الرسول، ويرفعون أصواتهم فوق صوته، ولا يراعون حرمة البيوت التي لا بد أن تحجرهم عن الإيذاء.. فإنهم لا يعقلون، وأي عقل لمن لا يحترم مقام الرسالة، ولا يكرِّم العلم ولا يعترف بدور القائد القائم بتنظيم الحياة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولماذا أنشئت الحجرات؟ أليس لتكون سورا تحجر الأذى عمن يسكنها؟

فمن معالم المدنية احترام البيوت، وعدم انتهاك حرمتها، سواءً بدخولها عنوة أو بإلقاء حجارة أو أذى عليها أو بتسبيب أذى لأهلها، مثل رفع الصوت المزعج أو إثارة الغبار المؤذي أو تلويث البيئة المضر بأهل البيت، كل ذلك يُعَدُّ انتهاكا لحرمة البيت، ومخالفة لحكمة وضع البيوت، وتعديا على مكان أمن الناس، ولعله لذلك سميت هذه السورة بالحجرات، لأن

الحجرة تشكل ظاهرة حضارية، وبخاصة إذا كان في الحجرة شخص رسول الله ﷺ.

جاء في الأثر عن سبب نزول هذه الآية عن زيد بن أرقم أتى أناس النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه وإن يكن ملكا نعش في جنابه، فأتوا النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد يا محمد! فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

[٥] إن للقائد ظروفه الخاصة، ومهماته التي تكون - غالبا - ذات صبغة عامة، ولا بد للناس من رعايتها حتى يسهل عليه أداؤها بأفضل وجه.. أما إذا زاحموه -لاسيما في الشؤون الخاصة، وخلطوا عليه الأوراق ثم انصرف عن مهماته العامة- فإن الضرر يكون عليهم جميعا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فما دام القائد هو الذي بيده القرار وعليه مسؤولية التنفيذ فلا بد من إعطاء صلاحية ذلك له ومنحه الفرصة المناسبة، وعدم التدخل في جزئيات عمله.

ثم إن الرسول حين يكمل أعماله في البيت ثم يخرج إليهم يكون أكثر استعدادا لاستقبالهم ومن ثَمَّ يكون خيرا لهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلو لم يراع أحد هذه الآداب مع الرسول وارتكب بذلك خطيئة فلا ينبغي أن يقنط من رحمة الله.

جاء في الأثر: أن ثابت بن قيس بن شماس كان رفيع الصوت فافتقده النبي ﷺ فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسا في بيته، منكسا رأسه، فقال له: ما شأنك فقال: شر!، كان يرفع صوته فوق صوت النبي فقد حبط عمله وهو من أهل النار فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال النبي ﷺ: «اِذْهَبْ إِلَيهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[2].

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٠٩.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٠٤.

إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ(١) وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

لكي نحصِّن التجمع الإسلامي من التهافت والتآكل لا بد أن نُنَمّي فيه احترام القيادة الشرعية، ونحصنه من إشاعات الفاسقين الذين دأبهم تخريب العلاقات، ونجعل قرار الرسول (أو من يخلفه) هو الحكم الفصل في العلاقات، ونشكر الله بذلك على إسباغ نعمة الإيمان علينا حين حببَّه إلى نفوسنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق. أوَلَيس ذلك فضل عظيم ونعمة من الله (اجتباء الصالحين من عباده) بعلم وحكمة؟

والملاحظ أن السياق كرّس القيادة الإسلامية واحترامها قبل كل شيء، لأنها الضمانة لسائر التعاليم كما أكد على مسؤولية الأمة تجاه الصلح بين طوائفها ضمانة أخرى لذات التعاليم.

بينات من الآيات:

[٦] في كتاب ربنا الكريم شفاء لأمراض المجتمع المستعصية لو استشفيناه، ونفذنا تعاليمه.. والصراع أعظم تلك الأمراض الذي يقتلع نهج القرآن جذوره البعيدة. ألا ترى

(١) لَعِنتُّم: لوقعتم في العَنَتِ، والعَنَتُ هو المشقة.

كيف يحصّن التجمع الإيماني من رياح الفتنة بتذكير المسلمين عن دور الأنباء الكاذبة التي يبثها الفسقة فيفرقون بين الناس.. وينهيهم عن الاسترسال معها، لأنها تؤدي إلى معارضة قوم أبرياء مما يجر إليهم ندامة وحسرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ذلك أن دوافع الفاسق ومنطلقاته شيطانية فقد يكذب أو يمشي بنميم أو ينقل جانبا من الحقيقة ويسكت عن سائر الجوانب.. فإذا قبلناه على علاّته فسوف نقع في أخطاء جسيمة، أبرزها إثارة الفتن في المجتمع.

الفاسق الذي تجاوز الحدود الإلهية لا يمكنه أن يكون موجها للأمة ومجرد الاستماع إلى نبئه دون تحقيق وتثبيت يجعله في مقام التوجيه.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي لكي لا يورِّطكم الفاسق في معارضة فئة مؤمنة من دون تحقيق منكم، ثم تندموا بعد فوات الأوان..ونستوحي من الآية عدة بصائر:

أولاً: أن أكثر الصراعات الاجتماعية التي تعصف بالمؤمنين منشؤها الفاسقون الذين لا تروق لهم وحدة المؤمنين فيثيرون الفتنة بينهم. وحين نتفكر في واقع المسلمين اليوم نجد أن الذين يذكون نار الصراع بينهم هم في الأغلب أبعد الناس عن القيم، وقد تكون سوابقهم السيئة وأحقادهم ضد الإسلام، وخشيتهم من الفضيحة هو السبب في تطرفهم ضد هذه الطائفة أو تلك. وإذا استطاع المؤمنون إبعاد أثر الفسقة عن تجمعاتهم قدروا على سد أكبر ثغرة تهدد كيانهم!.

ثانياً: واليوم حيث يتعرض المسلمون لغزو ثقافي وهجمة إعلامية عبر آلاف المؤسسات الدعائية المتنوعة ترانا أحوج مما مضى إلى تنفيذ هذه الوصية الإلهية أن نتبيَّن ما يقولون لأنهم فسقة لا يتقون الله فيما يقولون، هذه الوكالات الخبرية التي تموّلها وتقودها الرساميل والأنظمة هل تلتزم بالصدق؟ هذه الصحف الصفراء التي تنطق باسم المترفين والطغاة هل ترعى جانب الحق؟ هذه الإذاعات التي تصب في آذاننا وأذهاننا كل يوم شلالا من المعلومات المختلطة هل نضمن صدقها؟ كلا.. إذن لا بد من التثبت، ولكن كيف؟ لأن حجم الأفكار والأخبار التي تبث من خلال أجهزة الدعاية كبير، فإن قدرة الأفراد على التثبت منها محدودة، فلا بد إذا من وجود مؤسسات موثوق بها تقوم بدور المصفاة وتنتقي السَّمين وتقدمه للمؤمنين.

هذه المؤسسات قد تكون معاهد ومراكز للدراسات والبحوث، وقد تكون تنظيمات دينية، وقد تكون خبراء أكفاء يرجع إليهم المؤمنون في توثيق المعلومات، وقد تكون مؤسسات

إعلامية بديلة، إذاعة صادقة، صحيفة ملتزمة أو وكالة للأنباء موثوق بها.

ثالثاً: وأنى كانت هذه المؤسسات فإنها أعمال اجتماعية لا ينتظم أمرها إلا تحت إشراف القيادة الشرعية للأمة، فمن دون القيادة تذهب جهود الأفراد سدى، لأن مثل هذه الأعمال الكبيرة لا ينهض بعبئها آحاد الناس، كما إنه لو لم تكن القيادة شرعية فإنها بذاتها تصبح مبعث الخطر، ولمثل هذا يذكرٌ السياق القرآني بنعمة الرسالة والرسول وضرورة العودة إليه.

رابعاً: إن خبر العادل حجة. قالوا بالرغم من أن الآية لا تدل على حجية خبر العادل صراحة وبصورة مباشرة، بل من خلال المفهوم الذي يدل عليه نطق الآية.

ومن هنا استدلَّ جماعة من علماء الأصول على حجّية خبر الواحد بهذه الآية لأنّها نُطقها ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ...﴾ ومفهومها (أنّ العادل لو جاء بنبإ فلا يلزم التبيّن) ويصح قبول خبره.

وقيل إنّ الاستدلال المتقدّم ذكره متوقّف على قبول (حجّية مفهوم الوصف)، والمعروف أنّه لا حجّية لمفهوم الوصف.

لكن فائدة بيان الوصف هنا ليست إلا أن الحكم يدور مداره مثل أن نقول: إذا تعاملت مع أهل الباطل فاشهد عليهم، وإذا ذهبت إلى زيارة المريض فتجنب مؤاكلته، وإذا زرت بلاد الكفر فتزود بالبوصلة لصلاتك.. وما أشبه.

لأنّ مفهوم الوصف وأي قيد آخر في الموارد التي يراد منها بيان القيد في مقام الاحتراز حجة، وذكر هذا القيد (الفسق) في الآية المتقدّمة طبقا للظهور العرفي لا فائدة منه سوى ملاحظة توثيق خبر العادل!

وقال بعضهم إنها من قبيل مفهوم الشرط ومفهوم الشرط حجّة. لكن أُشكِلَ بأنّ الجملة الشرطية هنا لبيان الموضوع وفي مثل هذه الموارد لا مفهوم للجملة الشرطية.

أقول: أن النفي يتركز في سور الكلمة أو شرطه أو صفته، كذلك الشرط، فإذا قلنا: لا أعطيك كل نقودي، ولا تشرب اللبن إذا أكلت السمك، ولا تمش في الأرض مرحا، فإن معناه نفي كلية النقود فلو أعطى بعضها لم يخالف وعيده، أو النهي عن شرب اللبن مقارنا مع أكل السمك، (أو كل النهي عن الجمع بينهما) وكذلك النهي عن مشية المرح لا كل مشي.

كذلك الشرط فلو قال: إذا جئتني صباحا أكرمتك أو إذا رأيتك شامتا قَلَيْتُك وما أشبه. فإن الشرط يلحق أضيق حلقات الكلام، أي وقت الصباح أكرمك وعند الشماتة أقليك

وكذلك الشرط هنا: إذا جاءكم فاسق بنبأ.. فإن الشرط مقصود وغرضه تحديد النتيجة بأضيق الحدود، وهو كون المخبر فاسقا، ولهذا قال الأولون: إن هذا من مفهوم الشرط وليس من مفهوم الوصف والله العالم.

خامساً: ماذا يعني التبيُّن؟ يبدو أنه يشمل كل أسلوب يؤدي إلى حالة الوضوح عند الإنسان، ولأن الله قد خاطب عامة المؤمنين بهذه الكلمة، فإن مفهوم التبيُّن يكون عرفيا أيضا، بمعنى أن كل ما تطمئن إليه نفس الإنسان العادي، حتى لا يبقى فيه شك معقول أو ارتياب يعتني به العقلاء كاف حجة عند الله في الموضوعات.

إن التعليل في ذيل الآية فيه من السعة ما يشمل خبري العادل والفاسق معا بتفاوت، لأنه ناظر إلى الموارد التي يكون العمل فيها بجهالة، أي العمل بسفاهة وحمق، لأنّ الآية عوّلت على الجهالة. وخبر الفاسق مساوق للجهالة بينما خبر العادل يخضع لاعتبارات موضوع إخباره، والتبيُّن يتطلب بيِّنة للقبول تتناسب مع موضوعها..والبيِّنة قد تكون شهادة عدلين أو الشياع المفيد للطمأنينة، أو شهادة الخبراء من خلال مجموعة متراكمة من الشواهد والآثار أو خبر العاقل العادل فإنه من التبيُّن عند العقلاء.. على أن العقلاء لا يعتمدون على بعض هذه الأدلة إذا كانت الظروف المحيطة باعثة للشك الحقيقي مثلا: الشياع الذي يعتقد أن منشأه شائعة مغرضة لا يورث طمأنينة في النفس فهو إذا ليس بحجة.

كما أن خبر العادل في ما لا يخفى عند غيره يرتاب فيه العقلاء إذا انفرد به كما لو أنبئنا بأن الإذاعة الفلانية نشرت هذا الخبر، علما بأنها لو نشرته لسمع أكثر الناس وتناقلوه.. أو أخبر برؤية الهلال في ليلة صافية مما نعلم أنه لو رآه هذا العادل لرآه غيره أيضا، وإذ لم يشهد برؤيته غيره فإن العقلاء يشكُّون في كلامه. كذلك الحوادث الخطيرة لا يعتمد العقلاء عادة على الخبر الواحد فيها مثل الحروب..

عموما: حالة التبين تختلف عند العقلاء حسب الموضوعات فلا بد من الالتفات إلى ذلك، ولعل الحكمة التي سيقت في خاتمة الآية هي محور الحكم فعلينا أن ندور مداره، ونتفكر كيف نتجنب الوقوع في الجهالة والندم.

وهذه الآية ونصوص دينية أخرى تستهدف فصل الفسقة عن المجتمع الإسلامي نفسيا، وتقليل دورهم في إدارة القضايا الاجتماعية، فإذا امتنع المسلمون عن العمل بأخبار الفاسقين، فقد أبعدوهم عن القضاء والإعلام، والشهادة في المحاكم وعن أعمال أخرى.

من هنا نجد المفسر المعروف القرطبي ينقل هنا نصا عن ابن العربي يحسُن بنا الاستماع

إليه يقول: «ومن العجب أن يجوز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصبح أن يؤتمن على قنطار دين، وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم، ولا استطيعت إزالتهم صلي معهم ووراءهم (وأضاف) ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقية أعادوا الصلاة لله، ومنهم من كان يجعلها صلاته. وبوجوب الإعادة أقول: فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ولكن يعيد سرا في نفسه ولا يؤثر ذلك عند غيره»[1].

[٧] كيف تتموج الفتنة في المجتمع المسلم؟ إنها تشرع بشائعة تتلقفها الألسن ثم لا يلبث أن تتحول إلى تيار يجرف معه البسطاء، والانتهازيين، والفوضويين آنئذ تطفق الفتنة وأصحابها بالضغط على القيادة الشرعية التي عليها أن تختار بين الاستسلام لعاصفة الفتنة، أو خسران شريحة اجتماعية، فما هو الحل؟ الحل ينحصر في تحلِّي المجتمع بروح الانضباط وأن يعي الجميع أبعاد نعمة القيادة فيشكروها شكرا عمليا. حقا إن المجتمع الذي يعي أهمية القيادة الشرعية يتحصَّن ضد عواصف الفتنة الداخلية بالصلابة ذاتها التي يقاوم بها قواصف التحديات الخارجية. لذلك يأمر القرآن بأن نعلم دور الرسول فينا (ثم من يخلفه ويرث مقامه بدرجة ما).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ فهو إذن مبعوث من عند الله يحمل رسالة الحكمة والمعرفة والبصيرة، ومادام كذلك فلا بد من الرجوع إليه عند الفتن والشبهات، ولا يجوز الضغط عليه بقبول آرائكم وشهوات أنفسكم، لأن ذلك ليس من مصلحتكم.

﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ وكيف لا تصيبهم المشقة والعَنَتُ وقد خالفوا العلم إلى الجهل، والحكمة إلى الجهالة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ الرسالة نعمة وفضل، ووعي هذه الحقيقة يجعلنا نستفيد منها بصورة أفضل، أوَلَيس الذي يجهل أن له رصيدا كبيرا في البنك لا ينتفع به؟

والإيمان بالرسالة هو الآخر توفيق من عند الله ونعمة وفضل، صحيح أن العبد يخطو إلى ربه الخطوة الأولى، ويسلِّم للحق، ولكن لولا أن الله يحبب الإيمان في قلوب من يصلح له ما زكى أحدٌ من البشر أبدا. ولقد حبَّب الله الإيمان مرتين، مرة عندما خلق البشر على فطرة الإيمان بالله، ومرة عندما ألقى في أفئدة المسلمين لربهم الصالحين لتلقي نعمة الهدى حب الإيمان. كما

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٢١٣.

أن الفطرة البشرية بذاتها تكره الانحراف بكل درجاته، كالكفر الذي يعني مخالفة الدين رأساً، والفسوق الذي يعني تجاوز حدود الشريعة والعصيان الذي هو ارتكاب بعض الخطايا، وهذه الثلاثة تعاكس الإيمان ومن دون تطهير القلب من أدرانها لا يستقبل القلب روح الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ قالوا: أصل الرشد الصخرة، ويسمى صاحب الرأي السديد بالراشد لاستقامته عليه، وشدة تصلبه فيه، فهو على يقين من أمره. ورشد المؤمن ناشئ من يقينه، وتصلبه في الحق إذ إنه عرف دربه الواضح فسوف لا يغيره.

وقد التفت السياق من الخطاب إلى الغيبة، ربما لأن مقام الراشدين رفيع لا بد أن يشار إليه بمثل كلمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو مقام لا يناله إلا ذو حظ عظيم، فليس كل تالٍ للقرآن مخاطب بهذه الصفة العظيمة. والآية تدل على أن أساس الدين الحب، ولذلك يسعى المؤمنون لترسيخ وتنمية هذا الحب في أفئدتهم ويقولون: «وَاجْعَلْ لِسانِي بِذِكْرِكَ لَهِجاً، وَقَلْبِي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً»[1].

وجاء في صفة حزب الله المفلحين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وحين سأل زياد الحذاء الإمام الباقر عليه السلام عن علاقة الدين والحبّ، أجابه الإمام قائلا: «يَا زِيَادُ وَيْحَكَ وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ أَ لَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أَوَلَا تَرَى قَوْلَ اللهِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وَقَالَ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ فَقَالَ: الدِّينُ هُوَ الْحُبُّ والْحُبُّ هُوَ الدِّينُ»[2].

[٨] وإذا كان الإيمان هدية الله إلى القلوب الطاهرة، فإنه فضل من الله لطائفة خاصة من البشر، وليس كسائر نعم الله شاملة للجميع.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم أين ينبغي أن يجعل فضله ونعمته بحكمته البالغة.

(١) البلد الأمين، ص١٨٥، من دعاء لأمير المؤمنين عليه السلام المعروف بدعاء كميل.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٦ ص١٧١.

فأصلحوا بين أخويكم

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

إذا كانت الحرب الخارجية ذات فوائد للأمة، إذ تمحِّص إرادتها وتطهر صفوفها، وتهديها إلى مراكز ضعفها وتحسسها بمسؤولياتها، وتكرِّس القيم الحضارية فيها، فإن الحرب الأهلية لا تخلف وراءها إلا الخيبة والدمار، وقد تجرها إلى نهايتها المريعة.

ولقد عالجت الآية الأولى في هذا الدرس قضية القتال بين المؤمنين بصورة واضحة، مما حدا بالمفسرين أن يفصلوا الحديث حول الموضوع ويشبعوه بحثا، وأنّى فصلنا فإن القضية أبعد غورا وأوسع مدى من التحدث عنها ضمن التفسير فقط، وإنما هي بحاجة إلى دراسات مفصلة.

أما الآية الأخرى فهي أيضاً تعالج موضوع الصلح ولكن بصورة أشمل وتؤكد على عمق العلاقة بين المؤمنين التي تصل إلى الأخوة الكاملة.

بينات من الآيات:

[٩] تعالج آيات القرآن عادة أسوأ الحالات قبل الحديث عن الحالات العادية، فمثلا حين تبيِّن سورة النساء العلاقات الاجتماعية تستهلُّها بمعالجة حالة الطلاق التي هي عقدة العلاقة الأسرية، وكذلك سورة النور التي ترسم حدود الأسرة الفاضلة تبتدئ ببيان حد الزنا،

وسورة المائدة التي تبني كيان الحضارة الإسلامية نراها تحدثنا في فاتحتها عن حرمة الاعتداء على أموال اليتامى الذين هم أضعف الحلقات الاجتماعية، وهنا أيضا تعالج الآيات أعقد حالات الخلاف وهي حالة الاقتتال أولا ثم تتدرج في الحديث عن سائر الحالات الأقل تعقيدا. لماذا كل ذلك؟

يبدو أن وراء كل ذلك حكمتين:

الأولى: لبيان الغاية التي سوف تنتهي إليها تسلسل الحالات، لكي لا يستهان بمبدئها فالخلافات الجزئية التي نستخف عادة بها والشائعات التي نبثها هنا وهناك فيما بيننا بلا وازع قد تنمو حتى تصبح صراعا دمويا بين طائفتين من البشر. فلكي نرى الحقائق لا بد أن نضرب لها مثلا واضحا ثم نقيس عليه سائر الأمثلة.

الثانية: أن عظمة الشريعة تتمثل في معالجة الحالات الشاذة البالغة حدها في التعقيد، أما الأوضاع العادية فإن التعامل معها سهل ميسور.

فمعالجة حالة الطلاق أو الخيانة الزوجية (الزنا) هي المقياس لقدرة الشريعة على وضع نظام صائب لشؤون الأسرة، كما أن الحفاظ على أموال اليتيم دليل على مدى صلاحية النظام الاقتصادي في المحافظة على حقوق الناس.

كذلك معالجة مشكلة الحرب الأهلية تشهد على مدى صلاحية النظام الاجتماعي في مواجهة التحديات.

من هنا بدأ السياق بهذه المعالجة وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ المسؤولية الأولى إذن هي وقف الاقتتال وإقامة السلام بأية وسيلة ممكنة، وهي مسؤولية الجماهير، لأنهم القوة الباقية بين الطائفتين. أما لو كلّفنا طائفة ثالثة فقد تدخل طرفا في الاقتتال وقد لا تكون أقوى من إحداهما. والملاحظ:

أولاً: أن التعبير جاء بصيغة التثنية ثم الجمع ثم التثنية، ذلك أن سبب الاقتتال يكون عادة الاختلاف بين فريقين لكل منهما خصائصه وميزاته، والصلح يكون بين قيادتي الفريقين، بينما ذات الاقتتال يكون بين أتباعهما، فقد يكون المقاتلون ضحية مؤامرة قيادتهم، وزجهم في معركة لا مصلحة لهم فيها، بينما القيادة عند الفريقين مسؤولة عن الحرب كما هي مطالبة بالصلح.

ثانياً: القرآن لم يحدثنا عن قوانين الصلح أو عن الصلح الذي يقوم على العدالة، لأن

تحقيقه في حالة الاقتتال يكاد يكون مستحيلا، إنما طلب من الجميع العمل من أجل الصلح.

ثالثاً: سمّى القرآن الفريقين المتقاتلين بالمؤمنين بالرغم من أن الاقتتال ضلالة بعيدة، مما يدل على إمكانية تورط أبناء الأمة الواحدة في الحرب الأهلية بسبب الفتن والأهواء، فلا يجوز اتهام الناس بالكفر بمجرد دخولهم الصراع مع بعضهم حتى لو بلغ حد الحرب، كما لا يجوز لأحد الطرفين اتهام الطرف الآخر بالخروج عن إطار الإيمان بمجرد إعلانه الحرب عليه.

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ فلم تقبل بالصلح أو قبلت وغدرت.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ هل يمكن أن نقيّم السلام بالشعارات والمواعظ والمعاهدات ومجالس الأمن؟ قد يكون كل ذلك نافعا، ولكنه ليس بمستوى وقف الحرب التي لا يخوضها الناس إلا بعد أن ييأسوا من تحقيق أهدافهم بأية وسيلة أخرى، فيركبون مركبها الصعب ويتحملون مآسيها وويلاتها. فكيف يتوقفون عنها بنصيحة أو قرار؟

لا بد إذن أن يتحمّل الناس كل الناس مسؤولية الحفاظ على السلام ووقف نزيف الدم، وذلك بخوض غمار الحرب بلا تردد، وإلا فإن بغاة الفتنة سوف يحولون الأرض جحيما.

ولست أعرف مبدأ فرض على تابعيه هذا المستوى من المسؤولية الاجتماعية، فالمبادئ الغربية ترى انتخاب النظام حقا، بينما الإسلام يراه واجبا أيضا، ويفرض على المؤمن الكفر بمن يطغى ويريد فرض نفسه على المجتمع حاكما من دون رضاهم، كما يفرض القتال ضد الذين يبغون الفساد في الأرض.

ويحدّد القرآن القتال بعودة الفئة الباغية إلى أمر الله وقبولها بتطبيق حكم الإسلام في قضايا الخلاف بينها وبين الفئة الأخرى، مما يدل على واجب التقيُّد التام بحدود العدالة في التعامل مع البغاة بالرغم من بغيهم واعتدائهم على السلام والأمن.

وإذا عرفنا أن هؤلاء يشبهون المعارضة المسلحة في عرف اليوم، نعرف كيف ينبغي التعامل مع المعارضة في النظام الإسلامي بأن نعيدهم إلى الحدود الشرعية والممارسة القانونية لحقهم، دون مصادرة حقوقهم وانتهاك حرماتهم والإشهار بهم وإغراقهم بالتهم الرخيصة، فكيف باعتقالهم وتهجيرهم وتعذيبهم وقتلهم؟ كلا، إن الله سبحانه يحدد قتال البغاة بعودتهم إلى أمر الله فإذا عادوا كان حالهم حال سائر أبناء الأمة سواء بسواء.

﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ولا يجوز التميز بينها والتفريق بين هذه الفئة وبين الفئة الأخرى، بمجرد أنها بغت عليها. إذ إن فرض عقوبات على هذه الفئة أو حرمانهم

من حقوقهم يمهد لحرب جديدة، إنما العدل وإقامة حدود الله على الجميع بلا تمييز يقضي على أسباب الصراعات الاجتماعية لأن وقود هذه الصراعات هم في الأغلب الفئات المحرومة التي يستغلها هذا أو ذاك.

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ لعل القِسْطَ هو التطبيق الدقيق والحازم لموجبات العدالة، فهو الدرجة الأسمى للعدل. فكيف نحقق القسط في الفئتين المتحاربتين؟

قد تكون الفئة الباغية (المعارضة المسلحة) فئة محرومة تاريخيا، كالزنوج في بعض البلاد التي كانت أو لا تزال تسير على نهج التميز العنصري، فتساويهم في الحقوق مع مواطنيهم البيض لا يكفيهم، ولا يقضي على عوامل البغي المجرد، إنما ينبغي توفير قدر أكبر من الفرص لهؤلاء لرفع حرمانهم لإلحاقهم بسائر المجتمع -فلا يكتفى بتوفير الفرص وإنما خلق القدرة لاستثمار الفرص بشكل متساوٍ في الجملة- مثل تخصيص ميزانيات أكبر لمناطق تواجدهم، وقبولهم في الجامعات بشروط أخف وإعطائهم ديونا بلا فوائد و..والله العالم.

وقد جاء في سبب نزول الآية أقوال شتى مما يدل على أن ذلك كان مجرد تطبيق الآية على بعض الحوادث التي وقعت بين المسلمين وأكثرها كانت بين الأنصار وبالذات بين الأوس والخزرج الذين بقيت على عهد النبي آثار حربهما الضروس التي طالت عقودا متطاولة حتى أخمدها الله بالإسلام.

وأكثر تلك المشاحنات التي يذكرها المفسرون في سبب نزول الآية كانت بالأيدي والنعال وجريد النخل ولا أظن أنها تسمى قتالا.

وليس غريبا أن يبيّن القرآن حكم موضوعة تتحقق عادة في الأمم حتى ولو لم تحدث عند نزول الكتاب، وقد شهد المسلمون صراعا دمويا بينهم في القرن الأول من الهجرة، مما يصلح تأويلا للآية، من هنا تحدث بعض المفسرين بتفصيل عن تلك الحرب، ونحن بدورنا نجد فائدة كبيرة بذكر جانب مما تحدثوا عنه مبتدئين ذلك بنقل ما نقله القرطبي عن القاضي أبي بكر بن العربي حيث قال: «هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «تَقْتُلُ عَمَّاراً الفِئَةُ البَاغِيَةُ». وقوله عليه السلام في شأن الخوارج: «يَخْرُجُونَ عَلَى خَيْرِ فِرْقَةٍ» أو: «عَلَى حِينِ فِرْقَةٍ»، والرواية الأولى أصح، لقوله عليه السلام: «تَقْتُلُهُم أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ»، وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب ومن كان معه، فتقرّر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليا عليه السلام كان إماما، وأن كل من خرج عليه باغ، وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح،

لأن عثمان (رضي الله عنه) قتل والصحابة براء من دمه، لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال: «لا أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل». فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة، ثم لم يمكن ترك الناس سدى، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم [عمر][1] في الشورى، وتدافعوها، وكان علي (كرم الله وجهه) أحق بها وأهلها، فقبلها حوطة[2] على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرّق أمرها إلى ما لا يتحصل، فربما تغيّر الدين وانقض عمود الإسلام.

فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم. فقال لهم علي رضي الله عنه: «ادْخُلُوا فِي البَيعَةِ وَاطْلُبُوا الحَقَّ تَصِلُوا إِليهِ»، فقالوا: «لاَ تَسْتَحِقُّ بَيْعَةً وَقَتَلَةُ عُثْمَانَ مَعَكَ تَرَاهُم صَبَاحاً وَمَسَاءً». فكان علي في ذلك أسد رأيا وأصوب قيلا، لأن عليا لو تعاطى القود منهم لتعصب لهم قبائل وصارت حربا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة، وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى»[3].

ثم يسترسل القرطبي في تفسير حرب الجمل فيقول: «وقال جلة من أهل العلم أن الوقعة بالبصرة بينهم (بين المسلمين) كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به»[4].

ولم أهتد إلى الفارق بين واقعتي البصرة وصفين أو بينها وبين النهروان. أو لم يخرج الجميع على إمام قائم بالأمر بايعته أكثرية المسلمين فكيف نبرّر خروج أهل البصرة، وندين أهل الشام أو الخوارج؟ هَبْ أن القتال كان فجأة، ولكن ماذا يبرّر إخراج حرم رسول الله ﷺ من المدينة إلى البصرة وتجنيد الجيوش وإظهار المخالفة بهذه الطريقة؟

وأظن أن تاريخنا قد حفل بالتبرير، وربما التناقض لسبب نفسي مغلف بشبهة دينية! أما السبب النفسي فهو الخلط بين قيم الدين وحوادث التراث، ومحاولة إضفاء حالة من القداسة على التراث، دون عرضه على قيم الوحي أو نقده حسب موازين الشرع، فكل ما يسمى

---

(١) زيادة عن ابن عربي.
(٢) الحوطة والحيطة: الاحتياط.
(٣) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣١٧-٣١٨.
(٤) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣١٨.

بالإسلام أو بالمسلمين أو بالتاريخ الإسلامي ذات حرمة بل قداسة عند البعض، بينما نجد في تاريخنا ما يندى له جبين الإنسانية، مثل واقعة عاشوراء حيث ذبح سيد الشهداء سبط رسول الله عطشانا على جنب الفرات وأسرت بنات رسول الله وطوف بهن البلاد.. كلا لا ينبغي أن نكون مثل الذين اتبعوا آباءهم وقدسوا تراثهم حتى قال لهم الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. المقياس الوحيد للحق هو وحي الله المتمثل في كتاب الله، وتفسيره الصحيح الذي بيّنه رسول الله وأهل بيته المعصومون عليهم السلام، أو ما يكتشفه العقل والعلم بوضوح كاف.. أما سيرة السلاطين، أو سلوك الأولين فإنه يخضع بدوره للوحي، فما وافق كتاب الله وسنة رسوله أكرمناه، وما خالفهما تركناه.. ولا يجوز تعطيل العقل في فهم الوحي لمصلحة التراث، فإنه من الغلو في الدين الذي نهينا عنه، كما قال الله سبحانه لبني إسرائيل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

من هنا لا يجوز أن ننسب العصمة إلى أصحاب رسول الله جميعا، بل لا بد أن نخضع تصرفاتهم لقيم الوحي ونأخذ بما ثبت عن طريقهم من أقوال رسول الله ولا يلزمنا اجتهادهم في الدين أو تفسيرهم للقرآن، ولا سلوكهم وبخاصة المخالف للنص.

ولا يجوز أن يوقعنا احترام الصحبة إلى مخالفة نصوص الدين، بخلاف ما قال المفسر المعروف القرطبي حيث ذكر أنه: «لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأً مقطوع به إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عزَّ وجلَّ وهم كلهم لنا أئمة»[1].

حقا ينبغي احترام الصحبة، ولكن ليس إلى درجة الوقوع في التناقض أو التبرير الذي لا يقبله العقل، فلا ريب أن قتال الصحابة مع بعضهم كان خطأً فادحا، لا بد أن ندينه وندين الباغي، وكيف يجوز لنا أن نقيّم حوادث اليوم حسب الدين، ولا يجوز أن نفعل مثل ذلك في الماضين؟ أولم يكونوا بشرا مثلنا؟ لنكنْ أكثر واقعية، ونضع كل شيء في موضعه المناسب ولا نكون كالحسن البصري الذي سئل عن قتال الصحابة فقال: «قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا..»[2].

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٢١.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٢٢.

فهل يجوز أن نطلق مثل هذا الكلام بالنسبة إلى كل حادثة تاريخية؟! إذن نُعطِّل العقل، بل نعطِّل موازين الشريعة، كلا.. لا بد أن ندرس التاريخ ونعتبر بما فيه ونميز الحق والباطل فنتبع الحق وندع الباطل والله المستعان على ذلك.

أما الشبهة الدينية فهي أننا لو شككنا في أمر الصحابة ضاعت علينا معالم ديننا، أو ليسوا هم الوسيط بيننا وبين معرفة الدين؟ وأضافوا أن هناك أحاديث مأثورة عن الرسول باحترام الأصحاب وأنهم: كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا.

ونقول: إن معالم الدين واضحة بالقرآن، وعلينا أن نعرض عليه حتى أحاديث الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، فكيف بأفعال البشر العاديين الذين لم يحظوا بتوفيق العصمة والتسديد؟ ثم إن كل جيل يأخذ معالم دينه من الجيل السابق عليه فهل من المعقول إضفاء هالة العصمة على كل الأجيال؟ وما الفرق مثلا بين الصحابة وجيل التابعين في أن من لحقهما أخذ منهما معالم الدين؟ فكما ميَّز علماء المسلمين بين التابعين حسب قوانين علم الرجال، فقالوا هذا ثقة أخذوا منه الدين وهذا وضَّاع وذاك ضعيف والثالث مجهول الحال فلم يأخذوا منه الحديث كذلك ينبغي أن نفعل بالجيل السابق لهم، فنفرق مثلا بين أبي ذر الغفاري، الذي ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق منه، وبين سمرة بن جندب الذي كان يكاسر معاوية في ثمن الأحاديث الموضوعة.

وإذا جاءت روايات في فضل الأصحاب فيجب تقييدها بالصادقين منهم الذين لم يحدثوا بعد الرسول، وذلك لسببين:

أولاً: لمعارضتها مع روايات أخرى مأثورة عن النبي ﷺ، تؤكد أن بعض الصحابة يحدثون من بعده، وأنهم يذادون يوم القيامة عن الحوض كما يذاد البعير، وأنه ستكثر من بعده القالة فمن كذب عليه فليتبوأ مقعده من النار.

ثانياً: لأننا يجب أن نجعل كتاب الله مقياسا لمعرفة حدود أحاديث الرسول، والله سبحانه وتعالى يقول:

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

- ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وعندما بيّن ربنا فضائل الجيل الأول من المسلمين اشترط الإيمان والإحسان فيهم، ولم يطلق الكلام عندما وعدهم الأجر العظيم، بل قيّده بذلك وأكد عليه بحرف «من» التبعيضية في ﴿مِنْهُم﴾ وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

احكام الباغين

ألف: هل الآية تشمل حالة القيام على الحكم الإسلامي أم تخص الاختلاف بين طائفتين من المسلمين ليس بينهما إمام؟ المعروف بين المفسرين أنها تشمل الحالة الأولى ولذلك فقد تحدثوا في تفسيرها عن حكم البغاة، وعمّا حدث في الصدر الأول من اقتتال الأصحاب مما كان مظهرا واضحا للبغي على الإمام الحاكم.

ويبدو أن هذا الفهم يستند إلى أن الاقتتال بين المسلمين يكون عادة على السلطة، حيث لا ترى طائفة منهم السلطة شرعية فتقوم ضدها، وسواء كانت تملك حجة في ذلك، كما قامت طوائف من المسلمين ضد الحكام في العهدين الأموي والعباسي، أولا، كالذي حدث في عهد الإمام علي عليه السلام، فإن الآية تشمل ذلك كله، ويشهد على ذلك الحديث المفصل المروي عن الإمام الصادق عليه السلام والذي جاء فيه: «بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله بِخَمْسَةِ أَسْيَافٍ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا شَاهِرَةٌ فَلَا تُغْمَدُ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَلَنْ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَمَّا السَّيْفُ الْمَكْفُوفُ فَسَيْفٌ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ والتَّأْوِيلِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ بَعْدِي عَلَى التَّأْوِيلِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى التَّنْزِيلِ. فَسُئِلَ النَّبِيُّ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: خَاصِفُ النَّعْلِ (يَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام). فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: قَاتَلْتُ بِهَذِهِ الرَّايَةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ثَلَاثاً وهَذِهِ الرَّابِعَةُ، واللهِ لَوْ ضَرَبُونَا حَتَّى يَبْلُغُوا بِنَا السَّعَفَاتِ مِنْ هَجَرَ لَعَلِمْنَا أَنَّا عَلَى الْحَقِّ وأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ»[1]

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٠ وجوه الجهاد.

وعلّق الفقيه الكبير الشيخ محمد حسن النجفي على ذلك بقوله: «خبر الأسياف[1] المروي في التهذيب[2] والكافي[3] وعمل به الأصحاب وتسمعه إن شاء الله صريحاً فيما ذكره بعض من أنه نزل فيهم، قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ...﴾ الآية»[4].

باء: لا ينبغي معاملة أهل البغي معاملة الأعداء، بل ينبغي أن نقاتلهم لكفّ بأسهم ودرء للفتنة فإذا فاؤوا إلى أمر الله عاملناهم كإخوة.. وقد جاء في تتمة الحديث الآنف ذكره: «.. وَكَانَتِ السِّيرَةُ فِيهِمْ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي أَهْلِ مَكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْبِ لَهُمْ ذُرِّيَّةً وَقَالَ مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَكَذَلِكَ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَوْمَ الْبَصْرَةِ نَادَى فِيهِمْ لَا تَسْبُوا لَهُمْ ذُرِّيَّةً وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَلَا تَتْبَعُوا مُدْبِراً وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ وَأَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ»[5].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ النَّاسَ يَرْوُونَ أَنَّ عَلِيّاً عليه السلام قَتَلَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ وَتَرَكَ أَمْوَالَهُمْ (عما يثير تساؤلا عندهم كيف يبيح دماءهم ولا يبيح أموالهم؟) فَقَالَ: إِنَّ دَارَ الشِّرْكِ يَحِلُّ مَا فِيهَا وَإِنَّ دَارَ الْإِسْلَامِ لَا يَحِلُّ مَا فِيهَا»[6].

بل نجد في حديث آخر أعظم من ذلك فقد روى مسعدة بن زياد عن جعفر عن أبيه «أَنَّ عَلِيّاً عليه السلام لَمْ يَكُنْ يَنْسُبُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ حَرْبِهِ إِلَى الشِّرْكِ وَلَا إِلَى النِّفَاقِ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ هُمْ إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا»[7].

روي عن الإمام علي عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ أَ كَافِرُونَ هُمْ؟ قَالَ عليه السلام: «كَفَرُوا بِالْأَحْكَامِ وَكَفَرُوا بِالنِّعَمِ كُفْراً لَيْسَ كَكُفْرِ الَّذِينَ دَفَعُوا النُّبُوَّةَ وَلَمْ يُقِرُّوا بِالْإِسْلَامِ وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ مَا حَلَّتْ لَنَا مُنَاكَحَتُهُمْ وَلَا ذَبَائِحُهُمْ وَلَا مَوَارِيثُهُمْ»[8].

تاء: يبدو أن البغاة لا يضمنون ما أتلفوه من مال أو أراقوه من دم، كما لا يضمن لهم ما تلف منهم من مال أو دم، لأن الصلح يعني تنازل كل طرف عما يعتقد أنه حقه في مقابل

(١) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٥.
(٢) تهذيب الأحكام: ج٤ ص١١٤.
(٣) الكافي: ج٥ ص١٠.
(٤) جواهر الكلام: ج٢١، ص٣٢٣ (الطبعة الثانية).
(٥) الكافي: ج٥ ص١٠.
(٦) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٧٩.
(٧) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٨٢.
(٨) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٦٦.

تنازل الطرف الآخر. هذا إذا تم الصلح، وفي حالة استمرار القتال حتى تفيء الفئة الباغية فإن مقتضى جعل العودة إلى أمر الله نهاية للقتال أنه ليس هناك حكم آخر كالقصاص والضمان، وإلا جعلا حدًّا للقتال، وهذا هو الظاهر من الروايات التي تبيِّن أحكام البغاة إذ لم أجد فيها حديثا يتعرض لأحكام القود والضمان والغرامة مع أنها في مقام البيان.

كما أن هذا هو المعروف من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، فلو أراد الاقتصاص منهم لقتل بعض أسراهم ممن كان يقود الجيش المعادي كمروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير الذين لا ريب في تعلق القصاص بهم.

جاء في التاريخ أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لما هزم أهل البصرة ذهب إلى دار عظيمة: «فَاسْتَفْتَحَ فَفُتِحَ لَهُ فَإِذَا هُوَ بِنِسَاءٍ يَبْكِينَ بِفِنَاءِ الدَّارِ فَلَمَّا نَظَرْنَ إِلَيْهِ صِحْنَ صَيْحَةً وَاحِدَةً وَقُلْنَ هَذَا قَاتِلُ الأَحِبَّةِ فَلَمْ يَقُلْ لَهُنَّ شَيْئاً. وسَأَلَ عَنْ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَفُتِحَ لَهُ بَابُهَا وَدَخَلَ وسُمِعَ مِنْهُمَا كَلَامٌ شَبِيهٌ بِالْمَعَاذِيرِ لَا واللهِ، وبَلَى واللهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ عليه السلام خَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ فَقَالَ عليه السلام لَهَا: «إِلَيَّ يَا صَفِيَّةُ» (فَأَتَتْهُ مُسْرِعَةً) فَقَالَ عليه السلام: «أَ لَا تُبْعِدِينَ هَؤُلَاءِ (الْكُلَيْبَاتِ) يَزْعُمْنَ أَنِّي قَاتِلُ الأَحِبَّةِ، لَوْ كُنْتُ قَاتِلَ الأَحِبَّةِ لَقَتَلْتُ مَنْ فِي هَذِهِ الْحُجْرَةِ وَمَنْ فِي هَذِهِ، وَمَنْ فِي هَذِهِ». وأَوْمَأَ عليه السلام بِيَدِهِ إِلَى ثَلَاثِ حُجَرٍ (فَذَهَبَتْ إِلَيْهِنَّ) فَمَا بَقِيَتْ فِي الدَّارِ صَائِحَةٌ إِلَّا سَكَتَتْ ولَا قَائِمَةٌ إِلَّا قَعَدَتْ.

قَالَ الأَصْبَغُ: -وهُوَ صَاحِبُ الْحَدِيثِ- وكَانَ فِي إِحْدَى الْحُجُرَاتِ عَائِشَةُ ومَنْ مَعَهَا مِنْ خَاصَّتِهَا وفِي الأُخْرَى مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ وشَبَابٌ مِنْ قُرَيْشٍ وفِي الأُخْرَى عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وأَهْلُهُ»[1].

وقال القرطبي في تفسيره: «وما استهلكه البغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤخذوا به. وقال أبو حنيفة: يضمنون، وللشافعي قولان، وجه قول أبي حنيفة أنه إتلاف بعدوان فيلزم الضمان، والمقول في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مدبرا ولا ذففوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا وهم القدوة»[2].

ثاء: قال الفقهاء إن الباغي ذا الفئة يقتل أسيرا ويجهز عليه جريحا ويُستحلّ ماله، لأنه يعود إلى من يجمع له السلاح ويغدق عليه الأموال ويعاود القتال.. وجاء في الحديث عن حفص بن غياث قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنِ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِحْدَاهُمَا بَاغِيَةٌ

(١) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٥١.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٢٠.

والأُخرى عَادِلَةٌ فَهزَمَتِ العَادِلَةُ البَاغِيَةَ. فَقَالَ عليه السلام: «لَيْسَ لِأَهْلِ العَدْلِ أَنْ يَتْبَعُوا مُدْبِراً ولَا يَقْتُلُوا أَسِيراً ولَا يُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وهَذَا إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِ البَغْيِ أَحَدٌ ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِئَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا فَإِنَّ أَسِيرَهُمْ يُقْتَلُ ومُدْبِرَهُمْ يُتْبَعُ وجَرِيحَهُمْ يُجْهَزُ»[1].

وقال المحقق في الشرائع: «من كان من أهل البغي لهم فئة يرجع إليها جاز الإجهاز على جريحهم وإتباع مدبرهم وقتل أسيرهم...». فعلق عليه صاحب الجواهر بقوله: «بلا خلاف أجده في شيء من ذلك»[2].

وهذا الحكم يستفاد أيضا من الآية الكريمة، لأن ذا الفئة من البغاة لا يزال في حالة الحرب إذا لم ينفصل عنهم أوَلَيست فئته تحارب المسلمين وهو لم يتبرأ منهم.. فلم يتحقق فيهم قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. وجاء في حديث مأثور أنه: «أُتِيَ عَلِيٌّ بِأَسِيرٍ يَوْمَ صِفِّينَ فَبَايَعَهُ فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: «لَا أَقْتُلُكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ» فَخَلَّى سَبِيلَهُ وأَعْطَاهُ سَلَبَهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ»[3]. ومن هنا يظهر أن الأسير يستتاب فإن تبرأ من قومه أطلق سراحه، والله العالم.

[١٠] كما النَّهر يطهِّر بعضه بعضا، كذلك المؤمنون لا يفتؤون يصلحون ما فسد من علاقاتهم ببعضهم حتى يصبحوا إخوانا.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ وجاءت الكلمة بصيغة الحصر لتذكرنا بأن الإيمان الذي لا يرفع المنتمين إليه إلى حالة الأخوة إيمان ضعيف ناقص، فهاهنا تقاس التقوى، وتمحص النفوس للإيمان، ويستبين الصادقون عن المنافقين.

عشرات الأنظمة الاجتماعية، ومئات الوصايا الأخلاقية توالت في الدين ليبلغ المسلمون حالة الأخوة الإيمانية، ومتى ما خالفنا بعضها انماث الإيمان في القلوب كما تنماث حبة الملح في كف المحيط.. وجاءت الروايات تترى وهي توصينا بحقوق إخوتنا في الإيمان، تعالوا نستمع إلى بعضها لعلنا نخلق ذلك المجتمع الأمثل الذي يتحدَّى أعاصير الفتنة والصراع.

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ ثَلَاثُونَ حَقّاً لَا بَرَاءَةَ لَهُ مِنْهَا إِلَّا بِالأَدَاءِ أَوِ العَفْوِ: يَغْفِرُ زَلَّتَهُ، ويَرْحَمُ عَبْرَتَهُ، ويَسْتُرُ عَوْرَتَهُ، ويُقِيلُ عَثْرَتَهُ، ويَقْبَلُ مَعْذِرَتَهُ، ويَرُدُّ غِيبَتَهُ، ويُدِيمُ نَصِيحَتَهُ، ويَحْفَظُ خُلَّتَهُ، ويَرْعَى ذِمَّتَهُ، ويَعُودُ مَرْضَتَهُ، ويَشْهَدُ مَيِّتَهُ، ويُجِيبُ دَعْوَتَهُ، ويَقْبَلُ هَدِيَّتَهُ، ويُكَافِئُ صِلَتَهُ، ويَشْكُرُ نِعْمَتَهُ، ويُحْسِنُ نُصْرَتَهُ،

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٢.

(٢) جواهر الكلام: ج٢١ ص٣٢٨.

(٣) تهذيب الأحكام: ج٦ ص١٥٣.

ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر إنعامه، ويصدق أقسامه، ويوالي وليه ولا يعاديه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه.

ثم قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئاً فيطالبه به يوم القيامة فيقضى له وعليه»[1].

روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يغتابه ولا يخونه ولا يحرمه»[2]. وعنه عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه»[3]. وعنه عليه السلام: «تقربوا إلى الله تعالى بمواساة إخوانكم»[4].

وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا (وأشار إلى صدره ثلاث مرات) حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[5].

وروي عنه صلى الله عليه وآله أيضا: «ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا»[6]. والتحسس: الاستماع إلى صيت القدم، والتناجش: أن تزيد في سلعة ولا رغبة لك في شرائها. وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام وهو يبين مدى عمق الصلة بين المؤمنين: «إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون»[7].
إنها علاقة روحية تتجاوز حدود المادة، وتتصل بالغيب، وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: سأله جابر الجعفي وقال: تقبضت بين يدي أبي جعفر عليه السلام فقلت: جعلت فداك ربما حزنت من غير مصيبة تصيبني أو أمر ينزل بي حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي. فقال: «نعم يا جابر إن الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢ ص١١٢.
(٢) الكافي: ج٢ ص١٦٧.
(٣) الكافي: ج٢ ص١٦٦.
(٤) بحار الأنوار: ج٧١ ص٣٩١.
(٥) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٢٣.
(٦) تفسير القرطبي: ج١٦، ٣٢٣.
(٧) الكافي: ج٢، ص ١٦٥.

حُزْنٌ حَزِنَتْ هَذِهِ لِأَنَّهَا مِنْهَا»[1].

ويبقى سؤال: لمَ اختار الإسلام كلمة الإخوة لبيان مدى العلاقة بين أبنائه؟ ثم لماذا نسب هذه الحالة إلى الإيمان؟

حينما اختار المبدأ الغربي كلمة (المواطن) لبيان العلاقة بين أبنائه انطلق من فكرة تقديس الأرض وربط الناس بها وبالمصالح المشتركة التي تشد مجموعة من البشر ببعضهم. حينما انتخب المبدأ الشرقي كلمة (الرفيق) فقد اعتمد على دور المسيرة النضالية في علاقاته الاجتماعية.

أما الإسلام فقد اجتبى لنا كلمة الأخ لنعلم أن صلتنا ببعضنا ليست مادية قائمة على أساس تقدير الأرض والمصالح، كما أنها لا تخص حالة النضال ورفاقة المسيرة، وإنما هي مبدئية ناشئة من صلة كل واحد منا بدينه، حتى ليصبح الدين كالأب الذي هو أصل وجود الابن، وكلما قويت واشتدت صلتنا بالأصل قويت وتنامت صلتنا ببعضنا.

ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِنِ اشْتَكَى شَيْئاً مِنْهُ وَجَدَ أَلَمَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ جَسَدِهِ وَأَرْوَاحُهُمَا مِنْ رُوحٍ وَاحِدَةٍ وَإِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ لَأَشَدُّ اتِّصَالاً بِرُوحِ اللهِ مِنِ اتِّصَالِ شُعَاعِ الشَّمْسِ بِهَا»[2].

وإنما نسب الوحي الإخوة إلى الإيمان (وليس الإسلام) لأن الإسلام مجرد التسليم للدين بينما الإيمان وَقر في القلب يفيض على كل جوانب حياة الإنسان، والذي يرفع الناس إلى مستوى الإخوة ليس مجرد التصديق المبدئي بالدين وإنما تطبيق تلك التعاليم القيمة التي تسقط الحواجز المادية والمصلحية التي تفصلهم عن بعضهم.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ما دمنا إخوة، فلا بد من ردم الفجوات التي تفصل بيننا، وهدم الحواجز وسد الثغرات. أرأيت البنيان المرصوص، وهكذا يكون بناء التجمع الإيماني. أرأيت لو امتلأ بالثغرات والثقوب هل يكون البنيان مرصوصا، وهل يصلح للبقاء طويلا؟

إن التعامل اليومي بين المؤمنين يستدعي إشاعة حالة السلام والصفاء والمودة بينهم، وإلا فإن التعامل ليس فقط يصبح صعبا، بل يكون متلفا للأعصاب ويسبب تراكم السلبيات. ولولا عملية الإصلاح اليومية التي يقوم بها المؤمنون تجاه إخوتهم في ما يشجر بينهم فإن تراكم السلبيات يمهد السبيل للصراعات الكبيرة التي قد تؤدي إلى حالة الاقتتال، لأن كل واحد

(١) الكافي: ج٢ ص١٦٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٧١ ص٢٧٧.

يستقطب طائفة من المؤمنين حوله وينشب الصراع بين طائفتين بينما كان في البدء بين فردين اثنين.

إن الإسلام قد سنَّ تشريعات كثيرة في تنظيم العلاقة بين المؤمنين، ولكن إذا لم نعرف الهدف الأسمى لها ولم نطبقها بحيث نبلغ ذلك الهدف المتمثل في تكريس حالة الأخوة بين المؤمنين فإننا لا ننتفع كثيرا بها، بل علينا فوق ذلك أن نضيف إلى التشريعات الدينية ممارسات خلقية وحتى لوائح قانونية لتحقيق الإصلاح.. كما أن الدين مثلا سن أحكاما كثيرة لرعاية الصحة الجسدية، فعلينا:

ألف: أن نطبقها بحيث نبلغ هذا الهدف.

بـــاء: أن نشرِّع قوانين جديدة للوصول إلى ذلك الهدف، إذا احتاجت الصحة إليها، مثل بناء المصحات أو تطهير الشوارع أو إيجاد مراكز الحجز الصحي وما أشبه.

إن تعاليم الدين التي تخص المقاصد العامة كالصحة والإصلاح والعدالة والعزة والكرامة وما أشبه ينبغي أن نطبقها ونعطيها الأولوية بالقياس إلى أحكام الدين التي تهتم بسبل تحقيق هذه المقاصد، ولا يجوز أن نهمل هذه الأوامر وكأنها تعاليم أخلاقية عامة لا تفرض حكما. ولعل خاتمة الآية تشير إلى مدى وجوب هذا الأمر الكلي حيث يقول ربنا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بلى، إن رحمة الله وصلواته وبركاته تتنزل على الذين يتواصلون ويتبارون، لأنهم يطيعون الله في أداء حقوق إخوانهم.

فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «مَنْ زَارَ أَخَاهُ فِي بَيْتِهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَهُ أَنْتَ ضَيْفِي وزَائِرِي عَلَيَّ قِرَاكَ وقَدْ أَوْجَبْتُ لَكَ الجَنَّةَ بِحُبِّكَ إِيَّاهُ»[1].

وجاء في الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ القِيَامَةِ ومَنْ سَرَّ مُسْلِماً سَرَّهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2].

فضيلة الإصلاح بين الناس

ولقد أمرت الآية بالإصلاح بين الإخوة المؤمنين، وقررت النصوص للمصلحين أجرا

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٧٦.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٤١٤.

عظيماً. ففي وصيته عند وفاته لنجليه الحسن والحسين عليهما السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أُوصِيكُما وجَمِيعَ وَلَدِي وأَهْلِي ومَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللهِ ونَظْمِ أَمْرِكُمْ وصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُما صلى الله عليه وآله يَقُولُ صَلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ والصِّيَامِ»[1].

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق أنه قال: «صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وتَقَارُبُ بَيْنِهِمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»[2].

وقال عليه السلام: «لَأَنْ أُصْلِحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِدِينَارَيْنِ»[3].

وبالرغم من أن الكذب ذنب عظيم إلا أن الدين عَدَّ الكذب في الإصلاح صدق عند الله. وجاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «المُصْلِحَ لَيْسَ بِكَذَّابٍ»[4].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٤.
(٢) الكافي: ج٢ ص٢٠٩.
(٣) المصدر السابق: ص٢٠٩.
(٤) المصدر السابق: ص٢٠٩.

ولا يغتب بعضكم بعضا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا[1] أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا[2] بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ[3] الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾.

هدى من الآيات:

لكي يبني الإسلام لنا صرحا اجتماعيا متينا يوصينا بأن نكنَّ الاحترام الكافي لإخوتنا، فلا يحتقر قوم قوما آخرين، ولا نساء نساء أخريات، لأن المقياس الحق عند الله، ولعل أولئك الذين نسخر منهم هم خير منا عند الله وأفضل ولكننا نجهل نقاط قوتهم، ونتمالى عليهم فلا نرى إلا نقاط ضعفهم.

وينهانا القرآن عن أن نعيب بعضنا لمزاً بالقول ومواجهة، أو أن نتبادل الألقاب السيئة مما يزيل حجاب الحياء وينشر الحالة السلبية، فبئس الاسم اسم الفسوق بعد أن اجتبانا الله للإيمان، واختار لنا به أحسن الأسماء. بلى؛ إن صبغة المجتمع الإسلامي هي صبغة الله التي تشع حسنا، فلماذا نصبغ مجتمعنا بأسوأ الصفات عبر التنابز بالألقاب البذيئة؟

---

(١) ولا تلمزوا: من المؤمنين، لأن عيب الآخرين من المؤمنين عيب على النفس، لأن المؤمنين وحدة واحدة.

(٢) ولا تنابزوا: التنابز باب المفاعلة من النبز بأن يجعل كل واحدٍ منهما للآخر لقباً سيئاً.

(٣) الاسم: أي العلامة، لأنه مشتق من الوسم.

ثم يوصينا السياق باجتناب الظنون إلا الظن الذي يدعمه الدليل العقلائي السائغ شرعا، لأن بعض الظن إثم، وهو الذي يحوّله صاحبه إلى موقف عملي. وينهانا عن التجسس الذي هو التحقق من الظن السيء، وينهانا عن الغيبة التي يَعُدُّها كأكل لحم الأخ ميتا، أوَلَسنا نكره ذلك، ويأمرنا في الخاتمة بالتقوى حتى لا تصبح الغيبة بتكرارها أمرا مألوفا وغير مستقبح، ويؤملنا رحمته وتوبته حتى لا نيأس من تطهير أنفسنا ومجتمعنا من هذه الرذائل.

بينات من الآيات:

[١١] بدء فساد العلاقة بين الإنسان ونظيره تضاؤل قيمة الإنسان كإنسان في عينه، وآنئذ لا يحترم الناس بعضهم، ويبحث كل عن منقصة في صاحبه يسخره بها، ويدّعي لنفسه مكرمة يفتخر بها، بينما لو أنصفنا أنفسنا لعرفنا أن سر احترامنا لأنفسنا هو أننا بشر نملك العقل والإرادة، ونتحسس بالألم واللذة، ونتحلى بالحب والعواطف الخيرة، أفلا توجد كل هذه في أبناء آدم جميعا، فلماذا أطالب باحترام الناس لي، ولا أجد لأحد حرمة؟

تعالوا ننظر لحظة ببصائرنا، حين أسخر من إنسان نظير لي في مجمل صفاته، أفلا يعني ذلك أني أسخر من نفسي أيضا؟

بلى، الذين يكفرون بقيمة الإرادة والعقل والحب والعواطف في أنفسهم هم الذين يكفرون بها في غيرهم ثم يسخرون منهم. إنهم ينسلخون من إنسانيتهم ثم يسمحون لأنفسهم بانتهاك حرمات غيرهم.

من هنا يَشْرع السياق في اجتثاث جذور الشقاق الاجتماعي بالنهي عن السخرية بالآخرين قائلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ ويخاطب المؤمنين لأن هذه الصفة لا تتناسب وإيمانهم بالله، أوَلَيس الإيمان بالله يعني حذف القيم الأرضية وتطهير النفس من احترام المال والبنين والشهرة والأرض و.. مما يسبب عادة في التفاخر. وحين ينهى ربنا عن السخرية فلأنها الخطوة الأولى في طريق النهاية. كيف؟

إن من أعظم مفاخر البشر ومزاياه صفة الحياء، حيث يتحسس الإنسان بفطرته النقية أن للآخرين حرمة لا بد أن يؤديها إليهم، ومن ملك الحياء لا يفكر في تجاوز الآخرين، فكيف يفكر في اغتصاب حقوقهم والاعتداء عليهم؟

وهكذا يسعى الشيطان لإزالة صفة الحيـاء، وحث الإنسان إلى الاستهانة بالآخرين، وتصغير قدرهم، والتصوير بأنهم أقل منه فيحق له إذا تجاوز حقوقهم بل الاعتداء عليهم.

وهنا يقف القرآن له بالمرصاد فيأمر بالتمسك بالحياء والإبقاء على صفة احترام الآخرين حتى يقضي على التفكير في الجريمة.

أرأيت كيف يسمح المستكبرون لأنفسهم بارتكاب المذابح الجماعية بحق المستضعفين ومنعهم من حقوقهم من أدنى درجات الحياة؟ هل فكرت يوما كيف انسلخ أولئك البشر عن إنسانيتهم واندفعوا في مثل هذه الجرائم؟ إنهم في البدء سخروا منهم وقالوا نحن أبناء الله، نحن الشعب المختار، نحن ذوو البشرة البيضاء اختارنا الله لحكم هؤلاء الذين لم يؤتوا من الذكاء والعقل نصيبا مذكورا. وهكذا كونت الثقافة العنصرية أرضية الجريمة بحق الشعوب.

ولعل التعبير القرآني ﴿قَوْمٌ﴾ هنا يعكس طبيعة الاستهزاء عند الرجال، حيث إنهم يفتخرون عادة بتجمعهم ويسخرون من سائر الناس، فترى أهل هذا الحي يقولون مَنْ مثلنا؟ أو أهل هذا النادي أو ذلك الحزب أو هذا المصر أو ذلك الإقليم إنهم يفتخرون بها لديهم ويفرحون بها أوتوا من نصيب الدنيا فيسخرون ممن لا يملك ذلك حتى ولو ملك ما هو أفضل منه.

أما النساء فتجري مفاخرتهن في أمور شخصية كالجمال والزينة أو النسب أو السبب.
وأساس الاستهزاء بالآخرين عجب كل قوم بما يملكون من ميزات، وفرحهم بها، ثم تعاليهم على من سواهم بذلك، ولعل ميزات الآخرين أعظم وأنفع للناس وأبقى عند الله، لذلك ذكرنا الربّ سبحانه بالالتفات إلى هذه الحقيقة، وقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ وفي حديث مأثور عن رسول الله ﷺ نقرأ أن من علامات عقل المرء تركه التعالي على الناس، هكذا روي عن أبي جعفر عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يُعْبَدِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ العَقْلِ، وَلَا يَكُونُ المُؤْمِنُ عَاقِلًا حَتَّى تَجْتَمِعَ فِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ:..... وَالعَاشِرَةُ: لَا يَرَى أَحَداً إِلَّا قَالَ: هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَأَتْقَى، إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: فَرَجُلٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَتْقَى، وَآخَرُ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ وَأَدْنَى، فَإِذَا رَأَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَتْقَى تَوَاضَعَ لَهُ لِيَلْحَقَ بِهِ، وَإِذَا لَقِيَ الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنْهُ وَأَدْنَى، قَالَ: عَسَى خَيْرُ هَذَا بَاطِنٌ، وَشَرُّهُ ظَاهِرٌ، وَعَسَى أَنْ يُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرٍ. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ عَلَا مَجْدُهُ وَسَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ»[١].

وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَمَ ثَلَاثَةً فِي ثَلَاثَةٍ كَتَمَ رِضَاهُ فِي طَاعَتِهِ، وكَتَمَ سَخَطَهُ فِي مَعْصِيَتِهِ، وكَتَمَ وَلِيَّهُ فِي خَلْقِهِ، فَلَا يَسْتَخِفَّنَّ أَحَدُكُمْ شَيْئاً مِنَ الطَّاعَاتِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّهَا رِضَا اللهِ ولَا يَسْتَقِلَّنَّ أَحَدُكُمْ شَيْئاً مِنَ المَعَاصِي فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّهَا سَخَطُ اللهِ ولَا

(١) بحار الأنوار: ج١ ص١٠٨.

يُزْرِيَنَّ أَحَدُكُمْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيُّهُمْ وَلِيُّ اللهِ»(١).

وجاء في سبب نزول الآية الكريمة: «أن ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وَقْر وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبي ﷺ فيسمع ما يقول فدخل المسجد يوما والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس يقول: تفسحوا تفسحوا حتى انتهى إلى رجل فقال له: أصبت مجلسا فاجلس فجلس خلفه مغضبا فلما انجلت الظلمة قال: من هذا؟ قال الرجل: أنا فلان، فقال: ثابت بن فلانة، ذكر أما له كان يعيَّر بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية»(٢).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾: «نزل في نساء النبي ﷺ يسخرن من أم سلمة عن أنس وذلك أنها ربطت حقويها بسبنية وهي ثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها وكانت تجر فقالت عائشة لحفصة: انظري ما ذا تجر خلفها كأنه لسان كلب، فهذا كانت سخريتها، وقيل إنها عيَّرتها بالقِصَر وأشارت بيدها أنها قصيرة عن الحسن»(٣).

وفي تفسير علي بن إبراهيم: «أن الآية نزلت في صفية بنت حي بن أخطب، وكانت زوجة رسول الله ﷺ وذلك أن عائشة وحفصة كانتا تؤذيانها وتشتمانها وتقولان لها يا بنت اليهودية، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لها: ألا تجيبنهما. فقالت: بماذا يارسول الله؟ قال ﷺ: قولي أبي هارون نبي الله، وعمي موسى كليم الله، وزوجي محمد رسول الله، فما تنكران مني. فقالت لهما، فقالتا هذا علمك رسول الله ﷺ. فأنزل الله في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ..﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾»(٤).

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز هو العيب. وقال الطبري: «اللمز باليد والعين واللسان والإشارة. والهمز لا يكون إلا باللسان»(٥).

وحين يعيب الواحد منا أخاه ينشر النَّفَس السلبي في المجتمع، ويسقط حرمته، مما يسبب في لمز نفسه أيضا، ولعله لذلك قال ربنا هنا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. أي لا يقتل بعضكم بعضا أو قال ﴿..فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ..﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٤٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٥٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٢٢٧.
(٤) تفسير القمي: ج٢ ص٣٢٢.
(٥) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٢٧.

[النور: ٦١]. أي سلموا على بعضكم. إن الإخلال بالآداب الاجتماعية أسرع شيء تأثيرا على صاحبه، لأن الحالة الاجتماعية ستعمُّه سريعا، ثم إن الذي تلمزه لا يترك العيب عليك، فتسقط هيبة الجميع، ويرفع حجاب الحياء وتتسع الكلمات البذيئة وينتشر الجو السلبي. ثم إن اللمز -كما السخرية بالآخرين- خطوة في طريق إفساد العلاقات الاجتماعية، وجرثومة الصراعات الخطيرة، لا بد أن نقف دونها بحزم حتى لا تتطور.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أن يلقِّب بعضنا بعضا بالألقاب البغيضة. وفي الروايات: أنه يستحب أن ينادي الأخ أخاه بأحب الأسماء إليه[١].

وإننا قد نسيء إلى إخوتنا من غير قصد كأن نلقبه باسم أمام الآخرين، باسم لا يرضاه، وقد نقوله له بحسن نية غير جد، فيأخذه الآخرون مأخذ الجد ويعيِّروه به حتى ينطبع عليه، ويسيء إلى شخصه وشخصيته. وتختلف تلك الألقاب باختلاف المجتمعات، وعموما فإن كل لقب لا يرضى به صاحبه يجب أن نمتنع عن تلقيبه به.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا تتبادلوا بينكم الألقاب السيئة التي تؤثر على سمعة المجتمع الإسلامي، إنما ينبغي أن نختار أفضل الألقاب، وأحب الأسماء فنطلقها على إخوتنا.

إن طهارة اللسان ونظافة الأجواء الاجتماعية تطبع حياتنا بأحسن الصور. أرأيت لو قَدِمْتَ مدينة قذرة لا يأبه أهلها بنظافة أبدانهم، أفلا تتمنى لو تخرج منها سريعا؟ كذلك المجتمع حين يعبق طيب الكلمات الحسنة في أرجائه يستريح الإنسان إليه، أما إذا انتشر فيه ريحة نتنة نهرب منها.

وقد نزلت هذه الآية -حسب المفسرين- في أن الرجل كان يعيَّر بأصله بعد إسلامه فيقال له: يايهودي، يانصراني.. وقال البعض: «إن الرجل كان له الاسمان والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى يكره فنزلت الآية»[٢].

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ فالأسماء التي كانت للجاهلية لا تصلح للمسلمين الذين رفع الله شأنهم بالإيمان، ولذلك روي عن النبي ﷺ: «مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُسَمِّيَه بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْه»[٣].

(١) عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثٌ يُصْفِينَ وُدَّ الْمَرْءِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَلْقَاهُ بِالْبُشْرِ إِذَا لَقِيَهُ وَيُوَسِّعُ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ إِذَا جَلَسَ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ» الكافي: ج٢، ص٦٤٣.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٢٨.
(٣) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٢٣٠.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إن الحقوق الاجتماعية ليست بأقل حرمة من الحقوق المالية، ومن يعتدي على عرض إخوانه كمن يعتدي على نفسه أو ماله، أو لا نقرأ الحديث الشريف المأثور عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ مِنَ المُسْلِمِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ»(١).

وهذه الآية تنهى أيضا عن التعبير الذي هو من التنابز بالألقاب حسب ما يدل على ذلك سبب نزولها، وقد وردت نصوص عديدة في النهي عن ذلك منذرة فاعل ذلك بالافتضاح.

فقد روى الإمام الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَذَاعَ فَاحِشَةً كَانَ كَمُبْتَدِئِهَا وَمَنْ عَيَّرَ مُؤْمِناً بِشَيْءٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرْكَبَهُ»(٢).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ العَبْدُ إِلَى الكُفْرِ أَنْ يُؤَاخِيَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلَى الدِّينِ فَيُحْصِيَ عَلَيْهِ زَلَّاتِهِ لِيُعَنِّفَهُ بِهَا يَوْماً مَا»(٣).

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ [المُؤْمِنِ] أَرْبَعِينَ جُنَّةً فَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً رُفِعَ عَنْهُ جُنَّةٌ فَإِذَا عَابَ أَخَاهُ المُؤْمِنَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ مِنْهُ انْكَشَفَتْ تِلْكَ الجُنَنُ عَنْهُ فَيَبْقَى مَهْتُوكَ السِّتْرِ فَيَفْتَضِحُ فِي السَّمَاءِ عَلَى أَلْسِنَةِ المَلَائِكَةِ وفِي الأَرْضِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ ولَا يَرْتَكِبُ ذَنْباً إِلَّا ذَكَرُوهُ ويَقُولُ المَلَائِكَةُ المُوَكَّلُونَ بِهِ يَا رَبَّنَا قَدْ بَقِيَ عَبْدُكَ مَهْتُوكَ السِّتْرِ وقَدْ أَمَرْتَنَا بِحِفْظِهِ فَيَقُولُ عَزَّ وجَلَّ مَلَائِكَتِي لَوْ أَرَدْتُ بِهَذَا العَبْدِ خَيْراً مَا فَضَحْتُهُ فَارْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ فَوَعِزَّتِي لَا يَئُولُ بَعْدَهَا إِلَى خَيْرٍ أَبَداً»(٤).

[١٢] نهت الآية السابقة عما يفسد العلاقة بصورة علنية، وفي حضور الطرف الآخر، وبتعبير آخر: كانت الآية تطهر المحضر بينما تنهى هذه الآية عما يفسد العلاقة من وراء الشخص وتطهر المغيب.. وتبدأ بسوء الظن الذي تثيره وساوس الشيطان، ويتنامى عادة بين المؤمنين في غيبة بعضهم عن البعض ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الظن هو التصور الذي ينقصه الدليل، وإن كثيرا من هذا الظن باطل وبعضه يصبح إثما. كيف ذلك؟ إن قلب الإنسان يتعرّض لأمواج مختلفة من الهواجس والتصورات، وإن بعضها فقط هي الحق وهي التي تبعث من مصادر المعارف الخارجية، بينما البقية هي قياسات باطلة وتمنيات ووساوس وإفرازات العقل (المكوّن) الباطن وترشحات الإحباطات و.. وإذا راجعت نفسك يوما وحاولت إحصاء وتقييم كل تصوراتك تقييما سليما، فيومئذ تصل إلى هذه النتيجة أن

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٠١.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢١٥.
(٣) الكافي: ج٢ ص٣٥٤.
(٤) مستدرك الوسائل: ج٩ ص١١٦.

أكثرها لا تعتمد على أدلة مقنعة، ولكن أنّى للإنسان أن يقيِّم كل ما يتعرض له ذهنه كل يوم من أمواج التصورات المتلاحقة. فماذا علينا أن نفعل؟

علينا ألَّا نأبه بأيِّ تصوُّر يحيكه ذهننا، بل نعتمد على الحواس وما تنقله من حسيات متجاوزين التوهمات، ونعتمد المصادر الموثوقة للمعرفة.

لذلك فإن علينا أن نجتنب كثيرا من الظن، أما القليل الذي نسعى وراءه فهو الذي تفرزه الحواس، ويصدقه العقل، ويصمد أمام النقد الدقيق. أما الظن الآثم فهو الذي تفرزه حالات الحقد والغضب والصراع. ولكن المشكلة أن هذه المجموعة الصغيرة متناثرة بين سائر الظن الكثير، مما يجعلنا لا نطمئن إليه جميعا، كما لو كان بعض الناس في بلد حاملا لفيروس الأيدز ولكننا لا نعرفهم بأعيانهم فعلينا أن نجتنب كل أهل هذا البلد حتى يتميَّزوا عن بعضهم.

من هنا نجد الإمام علي عليه السلام يكرر في وصاياه هذه الكلمة؛ فقد سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام كَمْ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ؟ فَقَالَ عليه السلام: «أَرْبَعُ أَصَابِعَ». وَوَضَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَدَهُ عَلَى أُذُنِهِ وَعَيْنَيْهِ، فَقَالَ عليه السلام: «مَا رَأَتْهُ عَيْنَاكَ فَهُوَ الحَقُّ وَمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاكَ فَأَكْثَرُهُ بَاطِلٌ»[١].

ولأن كثيرا من الظنون تطال المؤمنين بسبب أعمالهم التي قد يكون لهم عذر وجيه في القيام بها، فقد أمرنا الدين بأن نحمل أفعال إخواننا على أفضل محمل. وعن النبي صلى الله عليه وآله: «اطْلُبْ لِأَخِيكَ عُذْراً فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْراً فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْراً»[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ضَعْ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيَكَ مَا يَغْلِبُكَ مِنْه (أي تعلم يقينا غير ذلك) وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ سُوءاً وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الخَيْرِ مَحْمِلًا»[٣].

وبعض المؤمنين يزعمون أن من علامة إيمانهم سوء الظن بالناس وملاحقتهم بتهمة الفسق وكأن الإيمان حكر عليهم، كلا..إن ذلك علامة ضيق نظرهم، وشدة عُجبِهم المفسد لقلوبهم. أما علامة الإيمان الحق فهي سعة الصدر وسماحة القلب، وصفاء النفس تجاه الآخرين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «حُسْنُ الظَّنِّ أَصْلُهُ مِنْ حُسْنِ إِيمَانِ المَرْءِ وَسَلَامَةِ صَدْرِهِ وَعَلَامَتُهُ أَنْ يَرَى كُلَّمَا نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الطَّهَارَةِ وَالفَضْلِ مِنْ حَيْثُ رُكِّبَ فِيهِ وَقُذِفَ فِي قَلْبِهِ مِنَ

(١) بحار الأنوار: ج٧٢، ص١٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٢، ص١٩٧.
(٣) الكافي: ج٢ ص٣٦٢.

الحَيَاءِ والأَمَانَةِ والصِّيَانَةِ والصِّدْقِ»(١).

فهذه هي عناصر الإيمان حقا، فالمؤمن حيٌّ أمين يصون سر الناس ويتعامل معهم بالصدق، وأضاف عليه السلام قائلا: قال النبي صلى الله عليه وآله: «أَحْسِنُوا ظُنُونَكُمْ بِإِخْوَانِكُمْ تَغْتَنِمُوا بِهَا صَفَاءَ القَلْبِ ونَمَاءَ الطَّبْعِ وقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ إِذَا رَأَيْتُمْ أَحَدَ إِخْوَانِكُمْ فِي خَصْلَةٍ تَسْتَنْكِرُونَهَا مِنْهُ فَتَأَوَّلُوهَا سَبْعِينَ تَأْوِيلاً فَإِنِ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُكُمْ عَلَى أَحَدِهَا وإِلَّا فَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ حَيْثُ لَمْ تَعْذِرُوهُ فِي خَصْلَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْهِ سَبْعُونَ تَأْوِيلاً فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالإِنْكَارِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْهُ»(٢).

بل؛ يصدق هذا فقط عند صلاح الزمان أو بين التجمع الصالح الذي تتسم علاقاتهم بالأخوة الإيمانية، أما إذا فسد الزمان أو أردنا الحكم على تجمع فاسد أو مجتمع منحل فلا يجوز حسن الظن، لأنه نوع من الغباء والمؤمن كيِّس فَطِن، لكن ترتيب الأثر العملي في الخرج لا يصح، وإنما هو بمعنى الحذر.

هكذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا كَانَ زَمَانُ العَدْلِ فِيهِ أَغْلَبُ مِنَ الجَوْرِ فَحَرَامٌ أَنْ تَظُنَّ بِأَحَدٍ سُوءاً حَتَّى تَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ وإِذَا كَانَ زَمَانُ الجَوْرُ فِيهِ أَغْلَبُ مِنَ العَدْلِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَظُنَّ بِأَحَدٍ خَيْراً حَتَّى يَبْدُوَ ذَلِكَ مِنْهُ»(٣).

وكلمة أخيرة: إن تجنب الظن السيئ منهج علمي رصين، لأن وساوس الشيطان وهواجس الأفكار تتداخل عادة مع بصائر العقل ومكاسب التجربة، فلا بد من فرزها بتجنب سوء الظن وعدم الاعتناء به. أما إذا استرسلنا مع كل هاجسة في النفس فإننا نفقد المقياس السليم للتفكير، كما أنها قد تقودنا إلى الفتن العمياء، فقد جاء في الدعاء: «فَإِنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونَ لَوَاقِحُ الفِتَنِ وَمُكَدِّرَةٌ لِصَفْوِ المَنَائِحِ وَالمِنَنِ»(٤).

ومن هنا أوجب الإسلام ترك الاسترسال وراء الظنون، ونهى عن التحقق منها والتجسس على الناس وتتبع عيوبهم وقال ربنا: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وهو البحث عن عورات الناس بمتابعتهم وكشف أستارهم. وروي عن أبي بردة أن النبي صلى الله عليه وآله صلَّى بنا ثم انصرف مسرعا حتى وضع يده على باب المسجد ثم نادى بأعلى صوته: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ ولَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِ المُؤْمِنِينَ ولَا تَتَّبِعُوا عَثَرَاتِهِمْ فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَ عَثْرَةَ أَخِيهِ اتَّبَعَ اللهُ عَثْرَتَهُ

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٩ ص١٤٥ ب١٤١.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٩ ص١٤٥.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٩٧.
(٤) الصحيفة السجادية: مناجاة المطيعين.

ومَنِ اتَّبَعَ اللهُ عَثْرَتَهُ فَضَحَهُ ولَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»[1]. وروي عن الإمام الصادق أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ العَبْدَ مُتَفَقِّداً لِذُنُوبِ النَّاسِ نَاسِياً لِذُنُوبِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مُكِرَ بِهِ»[2].

وهكذا يريد الدين لنا حياة آمنة لا تطالها أعين الفضول، ولا تهتك حرمتها متابعات الطفيليين.. يتحسس كل فرد فيها ببرد الأمن وسكينة الثقة.

وكما تحرِّم الآية التجسس الفردي تحرم تجسس الدولة على رعاياها، إلا إذا اقتضت مصلحة الأمة، فلا بد أن يخضع ذلك للقضاء القائم على أساس أحكام الشريعة، فالأساس هو اعتماد الظاهر من الناس.

وقد فهم المسلمون السابقون هذه الشمولية من الآية الكريمة حسبما نجده في القصة التاريخية التي حدثت في عهد الخليفة الثاني قالوا: خرج عمر بن الخطاب مع عبد الرحمن بن عوف فتبيّنت لهما نار فأتيا واستأذنا ففتح الباب فدخلا، فإذا رجل وامرأة تغنّي وعلى يد الرجل قدح، فقال عمر من هذه منك. قال: امرأتي. قال: وما في هذا القدح. قال الماء، فقال للمرأة ما الذي تغنّين، قالت أقول:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهْ ... وَأَرَّقَنِي إِلَّا حَبِيبٌ أُلَاعِبُهْ
فَوَ اللهِ لَوْ لَا خَشْيَةُ اللهِ وَالتُّقَى ... لَزُعْزِعَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ
وَلَكِنَّ عَقْلِي وَالحَيَاءَ يَكُفُّنِي ... وَأُكْرِمُ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مَرَاكِبُهْ

فقال الرجل: ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، فقال عمر صدقت، وانصرف[3].

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ الغيبة: ذكر معايب الناس عن ظهر الغيب. وقالوا تختلف الغيبة عن الإفك والبهتان، إن الإفك أن تقول في الناس ما لا تعلم أنه فيهم، بينما البهتان أن تقول فيهم ما تعلم أنهم براء منه. أما الغيبة فإن تقول فيهم ما يكرهون مما تعلم أنه فيهم.. وقد تعم كلمة الغيبة لتشمل الإفك والبهتان.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢١٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٩١.
(٣) بحار الأنوار: ج٣٠ ص٦٦٣.

أَلِيمٌ»[١].

سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنِ الغِيبَةِ، قَالَ: «هُوَ أَنْ تَقُولَ لِأَخِيكَ فِي دِينِهِ مَا لَمْ يَفْعَلْ وَتَبُثَّ عَلَيْهِ أَمْراً قَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ لَمْ يُقَمْ عَلَيْهِ فِيهِ حَدٌّ»[٢].

وفي هذا النص نرى كيف تعمُّ كلمة الغيبة لتشمل البهتان وكيف أنها تخص العيوب المستورة، أما العيب المتجاهر به صاحبه فإن ذكره لا يعد غيبة، وهكذا جاء في رواية مرسلة عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال: **«مَنْ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا عَرَفَهُ النَّاسُ لَمْ يَغْتَبْهُ وَمَنْ ذَكَرَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ اغْتَابَهُ وَمَنْ ذَكَرَهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَهُ»**[٣].

وهكذا لم يجعل الإسلام للفاسق المتجاهر بفسقه حرمة. جاء في رواية نبوية: **«اذْكُرُوا الفَاجِرِ بِمَا فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ»**[٤].

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ هكذا الغيبة. أرأيت أن شخصية الإنسان أعظم عنده أم شخصه؟ أليس المرء يسعى جهده من أجل الكرامة والتقدير، فإذا اغتابه أحد فقد اغتال شخصيته، ونال من كرامته وهي أعز من جسده، ولأنه ليس في محضره فكأنه أكل لحمه بعد موته.

بالله ما أروع هذا التشبيه؟ وما أنفذه من تحذير في وجدان الإنسان الحر. وكيف يقرّب كتاب ربنا الحقائق العظيمة إلى وعينا، بهذه البلاغة النافذة.. وكيف يبصرنا بأن البشر ليس كسائر الأحياء يعيش حياة مادية ضمن حدود بدنه فحسب، بل إنه يمتد مع سمعته وشهرته أنّى توسعت في أفق المكان والزمان.. وقد يضحّي الإنسان بجسده في سبيل كرامته، أوَلاَ يدل ذلك على أن كرامة الإنسان أعظم عنده من شخصه؟ من هنا فإن الاعتداء عليها ليس بأقل من الاعتداء على بدنه.. والغيبة اعتداء سافر على كرامة الشخص فما أشدها حرمة؟.

من هنا جاءت النصوص تترى في التحذير من الغيبة باعتبارها أكلا للحم المغتاب بعد موته.

روي أن ماعزا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فشهد على نفسه بالزنا فرجمه رسول الله صلى الله عليه وآله فسمع نبي الله رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٥٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٤٠.

(٣) الكافي: ج٢ ص٣٥٨.

(٤) مجمع البيان: ج٩ ص٢٢٤.

نفسه حتى رجم كالكلب، فسكت عنهما ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟» فقالا: نحن ذا يا رسول الله. قال ﷺ: «انْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ»، فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا؟ قال ﷺ: «فَمَا نِلْتُمَا مِنْ عِرْضِ أَخِيكُمَا أَشَدُّ مِنَ الأَكْلِ مِنْهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنه الآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا»(١).

وروي عنه ﷺ أنه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْدِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرَئِيلُ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قيل له: «بَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْبَيْتَ اللَّحِمَ قَالَ إِنَّمَا ذَاكَ الْبَيْتُ الَّذِي يُؤْكَلُ فِيهِ لُحُومُ النَّاسِ»(٣).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال رَجُلٌ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام: «إِنَّ فُلَاناً يَنْسِبُكَ إِلَى أَنَّكَ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ. فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام مَا رَعَيْتَ حَقَّ مُجَالَسَةِ الرَّجُلِ حَيْثُ نَقَلْتَ إِلَيْنَا حَدِيثَهُ وَلَا أَدَّيْتَ حَقِّي حَيْثُ أَبْلَغْتَنِي عَنْ أَخِي مَا لَسْتُ أَعْلَمُهُ إِنَّ الْمَوْتَ يَعُمُّنَا وَالْبَعْثَ مَحْشَرُنَا وَالْقِيَامَةَ مَوْعِدُنَا وَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَنَا إِيَّاكَ وَالْغِيبَةَ فَإِنَّهَا إِدَامُ كِلَابِ النَّارِ وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ عُيُوبِ النَّاسِ شَهِدَ عَلَيْهِ الإِكْثَارُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ»(٤).

المغتاب في ولاية الشيطان

والغيبة تخرج صاحبها من ولاية الله إلى ولاية الشيطان، فما هي ولاية الشيطان؟ أظهر ما فيها الفرقة والتشتت والتشرذم التي هي سبب مصائب المسلمين اليوم. وإذا أمعنا النظر فيها لرأينا أكثرها نفسية، فبسبب النظرة السلبية إلى بعضنا تنامت خلافاتنا، والغيبة هي المسؤولة عن انتشار النظرة السلبية. فلو كنا نتمسك بتعاليم الإسلام في التعامل مع بعضنا على أساس الثقة وكنا نستر العائبة ونشيع العارفة، ونبث الروح الايجابية، لكنّا إخوانا متعاونين، من هنا حذرت النصوص الدينية من الغيبة وجعلتها سببا للخروج من ولاية الله حيث الوحدة والصفاء، والدخول في ولاية الشيطان.

سأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام: قائلا: «يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ أَخْبِرْنِي عَمَّنْ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٣٥، سنن أبي داود: ج٢ ص٣٤٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٥٤.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٥٦.
(٤) فبسبب كثرة ذنوبه يذكر عيوب الناس كثيرا. بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٤٦.

ومَنْ لاتُقْبَلُ. فَقَالَ عليه السلام: **يَا عَلْقَمَةُ كُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ جَازَتْ شَهَادَتُهُ.**

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: تُقْبَلُ شَهَادَةُ مُقْتَرِفٍ بِالذُّنُوبِ. فَقَالَ عليه السلام: **يَا عَلْقَمَةُ لَوْ لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَةُ الْمُقْتَرِفِينَ لِلذُّنُوبِ لَمَا قُبِلَتْ إِلَّا شَهَادَةُ الأَنْبِيَاءِ والأَوْصِيَاءِ عليهم السلام، لِأَنَّهُمُ المَعْصُومُونَ دُونَ سَائِرِ الخَلْقِ فَمَنْ لَمْ تَرَهُ بِعَيْنِكَ يَرْتَكِبُ ذَنْباً أَوْ لَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ شَاهِدَانِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ العَدَالَةِ والسَّتْرِ وشَهَادَتُهُ مَقْبُولَةٌ وإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مُذْنِباً ومَنِ اغْتَابَهُ بِمَا فِيهِ فَهُوَ خَارِجٌ مِنْ وَلَايَةِ اللهِ دَاخِلٌ فِي وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ»**[1].

إن الإسلام يريد أن يقوم المجتمع على أساس الثقة، فمن زعزع هذا الأساس وأشاع جو اللا ثقة بين أعضائه فقد برئ من ولاية هذا المجتمع المسلم التي هي ولاية الله، وانتمى إلى الأعداء.

ومن هنا يؤكد الإسلام أن المغتاب ينفصل عمن يغتابه، لأنه تنقطع العصمة بينهما. فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **«مَنْ مَدَحَ أَخَاهُ المُؤْمِنَ فِي وَجْهِهِ واغْتَابَهُ مِنْ وَرَائِهِ فَقَدِ انْقَطَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ العِصْمَةِ»**[2].

وفي حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **«لَا يَطْمَعَنَّ المُغْتَابُ فِي السَّلَامَةِ»**[3]. ولعل السبب في ذلك أن من يتتبَّع عيوب الناس يستثير عدوانهم، أو لأنه يخلق المجتمع المفكك الذي لا يحلم في السلامة.

وقد جعلت بعض النصوص الدينية الغيبة أشد من الزنا، ربما لأن آثار الغيبة الخطيرة في تفرقة الناس والنيل من كرامتهم، وإشاعة الفاحشة أشد من آثار الزنا، لأن الحكمة المأثورة في حرمة الزنا هي اختلاط المياه وهدم الأسرة مما يسبب في تفكك المجتمع، وهذه حكمة حرمة الغيبة أيضا، ولكن يبدو أن الغيبة أفتك بوحدة الأمة من أختها الزنية.

وقد أمر الإسلام بأن يستحلَّ المغتاب من صاحبه حتى يغفر الله له، لأن ذلك -فيما يبدو- يعيد العصمة المقطوعة بينهما ويسبب في إعادة اللحمة إلى المجتمع، بالإضافة إلى أن ذلك يكون رادعا للمغتاب أن يعود إلى مثل ذلك مرة أخرى.

قال النبي صلى الله عليه وآله: **«الغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا. فَقِيلَ يَارَسُولَ اللهِ: ولِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَمَّا صَاحِبُ الزِّنَا فَيَتُوبُ، فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ، وأَمَّا صَاحِبُ الغِيبَةِ فَيَتُوبُ، فَلَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَكُونَ**

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٣٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٤٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٥٠.

صَاحِبُهُ الَّذِي يُحِلُّهُ»(١).

ولأن الغيبة تفتح ثغرة في الحصن الاجتماعي فإن على الناس أن يأخذوا على يد المغتاب حتى لا يهدم حصنهم، بأن يدافعوا عن أخيهم الغائب، فقد جاء في الأثر عن ابن الدرداء عن أبيه أنه قال: «نَالَ رَجُلٌ مِنْ عِرْضِ رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ عَلَيْهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ»(٢). وفي حديث آخر، عن النبي ﷺ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ المُسْلِمِ كُتِبَ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّةَ»(٣).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «مَنِ اغْتِيبَ عِنْدَهُ أَخُوهُ المُؤْمِنُ فَنَصَرَهُ وأَعَانَهُ نَصَرَهُ اللهُ وأَعَانَهُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ومَنْ لَمْ يَنْصُرْهُ ولَمْ يُعِنْهُ ولَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ وهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نُصْرَتِهِ وعَوْنِهِ إِلَّا خَفَضَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ»(٤).

ولكي نحافظ على حصن ولاية الله المحيطة بنا، لا بد أن نذكر أخانا المؤمن بأحسن ما فيه حتى تزداد اللحمة الاجتماعية تماسكا، والقلوب المؤمنة صفاء وتحابيا.

جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «واذْكُرُوا أَخَاكُمْ إِذَا غَابَ عَنْكُمْ بِأَحْسَنِ مَا تُحِبُّونَ أَنْ تُذْكَرُوا إِذَا غِبْتُمْ عَنْهُ»(٥).

الغيبة إشاعة الفاحشة

كيف تشيع الفاحشة في الأمة مع أن المغتاب حين يذكر صاحب الذنب يذمه بذنبه ويجعله أمثولة وعبرة لا مثلا صالحا وقدوة؟

السبب أن للذنوب هيبة في نفوس المؤمنين، والجو العام في المجتمع المسلم يرفضها، فلذلك يضطر الذي قدم عليها إلى التكتم، فإذا انتهكت عصمته أمام الملأ لم يعد يخفيها، كما إن الآخرين إذا عرفوا وجود من يرتكب الذنب لا يجدون حرجا من الاقتداء بهم، وهكذا تشيع الفاحشة في الأمة.

من هنا يُعَدُّ المذنب الكاتم لذنبه أقل إجراما ممن يتجاهر به، كما يُعَدُّ الذي يذيع الفاحشة

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٨٤.
(٢) المصدر السابق: ص٢٩٣.
(٣) المصدر السابق: ص٢٩٢.
(٤) المصدر السابق: ص٢٩١.
(٥) المصدر السابق: ص١٩٤.

كمن يبتدئ بها. جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَذَاعَ فَاحِشَةً كَانَ كَمُبْتَدِئِهَا وَمَنْ عَيَّرَ مُؤْمِناً بِشَيْءٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرْكَبَهُ»(١).

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الكاظم عليه السلام قال (الراوي) قُلْتُ لَهُ: «جُعِلْتُ فِدَاكَ! الرَّجُلُ مِنْ إِخْوَانِي يَبْلُغُنِي عَنْهُ الشَّيْءُ الَّذِي أَكْرَهُهُ، فَأَسْأَلُهُ عَنْهُ فَيُنْكِرُ ذَلِكَ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي عَنْهُ قَوْمٌ ثِقَاتٌ. فَقَالَ عليه السلام لِي: يَا مُحَمَّدُ كَذِّبْ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ عَنْ أَخِيكَ فَإِنْ شَهِدَ عِنْدَكَ خَمْسُونَ قَسَامَةً وَقَالَ لَكَ قَوْلاً فَصَدِّقْهُ وَكَذِّبْهُمْ وَلَا تُذِيعَنَّ عَلَيْهِ شَيْئاً تَشِينُهُ بِهِ وَتَهْدِمُ بِهِ مُرُوءَتَهُ فَتَكُونَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾»(٢).

هؤلاء لا حرمة لهم

وقد أنهى الإسلام حرمة ثلاث طوائف:

الأولى: أئمة الجور الذين لا بد من توعية الناس بظلمهم وسوء إدارتهم حتى يتمكن المسلمون من إزاحتهم أو لا أقل من تجنب خطرهم.

الثانية: أصحاب الضلالة كالأحزاب الكافرة والمنافقة والمبتدعين في الدين.

الثالثة: الفسقة المتجاهرين.

فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَيْسَتْ لَهُمْ حُرْمَةٌ صَاحِبُ هَوًى مُبْتَدِعٌ وَالإِمَامُ الجَائِرُ وَالفَاسِقُ المُعْلِنُ الفِسْقِ»(٣).

ويبدو أن المظلوم أيضا يجوز له أن يغتاب من ظلمه لقوله سبحانه: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ فَهُوَ مِمَّنْ كَمُلَتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ وَوَجَبَتْ أُخُوَّتُهُ وَحَرُمَتْ غِيبَتُهُ»(٤). هكذا اشترط الرسول صلى الله عليه وآله توافر هذه الصفات في المؤمن حتى تحرم غيبته.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٥٦.
(٢) الكافي: ج٨ ص١٤٨.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٨٩.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٣٩٦.

كلمة جامعة في الغيبة

وفي نهاية المطاف نقرأ معا كلمة جامعة في الغيبة منسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الغِيبَةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مَأْثُومٌ صَاحِبُهَا فِي كُلِّ حَالٍ. وصِفَةُ الغِيبَةِ أَنْ تَذْكُرَ أَحَداً بِمَا لَيْسَ عِنْدَ اللهِ عَيْباً أَوْ تَذُمَّ مَا تَحْمَدُهُ أَهْلُ العِلْمِ فِيهِ وأَمَّا الخَوْضُ فِي ذِكْرِ الغَائِبِ بِمَا هُوَ عِنْدَ اللهِ مَذْمُومٌ وصَاحِبُهُ فِيهِ مَلُومٌ فَلَيْسَ بِغِيبَةٍ وإِنْ كَرِهَ صَاحِبُهُ إِذَا سَمِعَ [بِهِ] وكُنْتَ أَنْتَ مُعَافًى عَنْهُ وخَالِياً مِنْهُ وتَكُونُ فِي ذَلِكَ مُبَيِّناً لِلْحَقِّ مِنَ البَاطِلِ بِبَيَانِ اللهِ ورَسُولِهِ ولَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ لِلْقَائِلِ بِذَلِكَ مُرَادٌ غَيْرَ بَيَانِ الحَقِّ والبَاطِلِ فِي دِينِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وأَمَّا إِذَا أَرَادَ بِهِ نَقْصَ المَذْكُورِ بِغَيْرِ ذَلِكَ المَعْنَى فَهُوَ مَأْخُوذٌ بِفَسَادِ مُرَادِهِ وإِنْ كَانَ صَوَاباً فَإِنِ اغْتَبْتَ فَبَلَغَ المُغْتَابَ فَاسْتَحِلَّ مِنْهُ فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْهُ ولَمْ تَلْحَقْهُ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ لَهُ والغِيبَةُ تَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، عَلَى نَبِيِّنَا وآلِهِ وعَلَيْهِ السَّلَامُ: المُغْتَابُ هُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِنْ تَابَ وإِنْ لَمْ يَتُبْ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ووُجُوهُ الغِيبَةِ: تَقَعُ بِذِكْرِ عَيْبٍ فِي الخَلْقِ والخُلُقِ والعَقْلِ والفِعْلِ والمُعَامَلَةِ والمَذْهَبِ والجَهْلِ وأَشْبَاهِهِ، وأَصْلُ الغِيبَةِ يَتَنَوَّعُ بِعَشَرَةِ أَنْوَاعٍ شِفَاءِ غَيْظٍ ومُسَاعَدَةِ قَوْمٍ وتُهَمَةٍ وتَصْدِيقِ خَبَرٍ بِلَا كَشْفِهِ وسُوءِ ظَنٍّ وحَسَدٍ وسُخْرِيَّةٍ وتَعَجُّبٍ وتَبَرُّمٍ وتَزَيُّنٍ فَإِنْ أَرَدْتَ السَّلَامَةَ فَاذْكُرِ الخَالِقَ لَا المَخْلُوقَ فَيَصِيرَ لَكَ مَكَانَ الغِيبَةِ عِبْرَةً ومَكَانَ الإِثْمِ ثَوَاباً»[1].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ ولعل هذه الخاتمة التي تفيض مغفرة ورحمة تدل إلى أن الغيبة بلاء يعمُّ الكثير من الناس ولا بد ألا تصبح مقبولة، ويذهب قبحها، بل نتقي الله فيها، ومن جهة أخرى لا يجوز أن يستبدَّ اليأس بنا إذا وقعنا فيها بل نتوب إلى الله أن الله تواب رحيم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٥٧.

بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن يعطينا القرآن بصيرة الوحي في العلاقات بين أبناء آدم الرافضة لكل أشكال التمايز إلا بالتقوى، يذكرنا بأن الإيمان درجة أعلى من الإسلام، وأن ادعاء الأعراب بلوغها غير صحيح، بيد أن طاعة الله والرسول لا تذهب سدى، حتى وإن لم يبلغ المرء درجة الإيمان.

ويبين الذكر مقياس الإيمان الحق في الطهارة من الريب والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله. ويسّفه أولئك الذين يدعون الإيمان عن كذب، أو لا يعلمون أن الله محيط علما بكل ما في السماوات والأرض فكيف لا يعلم مدى إيمانهم؟.

وتراهم يمنُّون على الرسول إسلامهم وقد يكون إسلامهم من أجل متاع الدنيا. أما الإيمان فهو منة من الله عليهم وليس العكس.. وتذكرنا خاتمة السورة بعلم الله النافذ في كل شيء.

ولعل هذه الآيات تنتظم مع الآيات السابقة في أن هناك فريقا من الناس يحاولون أن يستأكلوا بدينهم ويتعالوا على الناس باسم الإسلام والإيمان، فيجعلوا الدين وسيلة لبلوغ مآرب الدنيا، وهذا بؤرة تمايز لا يعترف به الإسلام. ولا بد من فضح هؤلاء بتعريضهم لامتحان الطاعة والجهاد.

بينات من الآيات:

[١٣] التوحيد صبغة المجتمع الذي يبشرّ به الدين، وتوحيد الله سبحانه يتنافى والقيم الشركية التي يهبط إليها البشر عندما يبتعدون عن الوحي الإلهي.. من تقديس الآباء والتراث والتقاليد والتمحور حول القبيلة والعشيرة.. وتقديس الأرض والقوم والحزب، إلى تأليه الثروة والقوة واللون والعنصر.

كلا.. الإنسان فوق ذلك جميعا إذا تمسك بحبل الله، واهتدى بنور الوحي والعقل.

وتلك القيم الزائلة ليست فقط شركية تقلل من قيمة الإنسان -بعيدا عن تلك الاعتبارات- وتشوّه رؤيته الى حقائق الخلق، وتحجبه عن معرفة الخالق. بل هي أيضا جاهلية متخلفة، وما تقدمت البشرية خطوة إلا بقدر ابتعادها عن تلك القيم بمثلها.

فمن عكف على عبادة صنم الأولين، وقدس تراثه وتقاليده أنّى له أن يساير تطورات الزمن، ويستوعب تجارب الآخرين، وينمو مع الأفكار التقدمية؟ وَمَن عبد صنم قبيلته أو عشيرته هل يمكنه أن ينفتح على إيجابيات غيره أو يمد يد التعاون مع من يَعُدُّهم الأرذلين ويسخر منهم، مهما كان عندهم من أفكار وطاقات؟.

وهكذا.. كل من حدَّد نفسه في إطار ضيق لا يمكنه أن ينطلق مع قطار الحضارة أنى مشت مواكبها، ومن أبرز سيئات مثل هذه التصورات هدم الجسور الطبيعية بين أبناء آدم، وإشاعة روح التباغض والتناحر بينهم، مما يجعلهم في مواجهة بعضهم، وقد يدفعهم نحو الحروب الطاحنة التي لم تتخلص منها البشرية طوال تاريخها المعروف بسبب تمسكهم بهذه القيم الجاهلية.

وتقتلع البصيرة القرآنية جذور الشرك من النفس البشرية الضعيفة والجاهلة، التي قَد ترى في القوة أو الثروة أو الجمال أو العلم وسائر الفضائل دليلاً على تمايز حقيقي بين إنسان وآخر.

كلا؛ إن البشر قد خلقوا جميعاً من الماء؛ من تراب؛ من صلصال؛ من حمأ مسنون؛ من نفس واحدة، وجعل منها زوجها من ذكر وأنثى. وحتى قادة البشر الانبياء عليهم السلام، إنما هم بشر وإن ما يفضلهم الوحي.

إن هذه البصيرة التي تمهّد السبيل الى عولمة القيم المثلى، وتكرّس حقوق البشر بأمثل ما تصبو اليه المبادئ الأخلاقية، إنها ركيزة أساسية من ركائز التشريعات الاسلامية.

إن أصل البشر الواحد، توحي إلينا فيما توحيه من حقائق وبصائر، أنه لا يجوز أن نغلو في أحد ونرفعه الى مستوى ادعاء الإلوهية، ولا يجوز لنا أن نغلو بالسلاطين لنجعل منهم أنصاف آلهة، أو أن نتعصب لأنفسنا أو لغيرنا بما يعود إلى عنصرنا أو دمنا أو ما أشبه.

وقد استفادت النصوص الدينية من هذه البصيرة؛ المساواة بين أبناء البشر، حين جاء في حديث شريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... أَلا إِنَّ النَّاسَ وُلْدُ آدَمَ وَآدَمَ مِنْ تُرَابٍ»[1].

ولأن بصيرة وحدة البشر في أصل الخلقة ركيزة أساسية في النظام المعرفي والثقافي والتشريعي للدين الحنيف، فإنها تصبغ أحكام الإسلام بصبغة التوحيد، الذي يتضاد أساساً مع كل لون من ألوان الشرك؛ ينفي استعباد الناس بعضهم لبعض باسم الدين أو باسم العنصرية أو القومية أو الطبقية، كما ينفي تسلط الناس بعضهم على بعضهم بقوة النار والحديد أو بجاذبية الثروة أو حتى باسم التقدم العلمي. وهكذا ينفي التمايز بين الناس بالدم أو بالولادة في أرض أو بالسكن في منطقة أو بالانتساب الى مبدء أو ما أشبه، اللهم إلاّ بالتقوى (الايمان والعمل الصالح).

من أجل ذلك دعت رسالات الله إلى رفض القيم الجاهلية التي ما أورثت الإنسانية إلا خبالا.. والاستعاضة عنها بقيمة التقوى.. وقالت الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والخطاب لم يخص المؤمنين بالرغم من أن سياق السورة يقتضي ذلك، لأنه كان ينظم العلاقة بينهم. ربما لأن هذه تنفع البشرية كما تنفع المؤمنين، وإذا كان الناس جميعا مدعوين إليها فالمؤمنون أولى بالتمسك بها. ثم إن علاقة المؤمنين بغيرهم ينبغي أن تقوم على أساس هذه البصيرة، فلا يجوز أن يَعُدَّ العرب منهم أنهم الأعلى بلغتهم أو عنصرهم، فتشكل هذه العقيدة الجاهلية حاجزا دون دخول سائر الشعوب في دين الله.

الخطاب هنا إلى الناس جميعاً، بغض النظر عن هويتهم العرقية أو انتمائهم الديني أو لغتهم أو ثقافتهم، وعلى المؤمنين أن يعتمدوها في صلاتهم بالمجتمع البشري كله.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٤٣.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ فالأصل واحد، وإذا كنا نكرم آباءنا، فكلما تقدمنا في الزمن فلن نتجاوز أبانا الأكبر، وجدتنا الكبرى، آدم وحواء. فأولى بنا أن نجعلهما محورا ونكرم كل من ينتمي إليهما من سائر البشر.

قالوا: والآية تدل على أن خلقة الإنسان ليست بماء الذكر فقط، وإنما يشترك فيها ماء الأنثى كما قال ربنا سبحانه: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٦-٧]. أي صلب الأب وترائب الأم.

وهذه البصيرة القرآنية تنفي الفكرة الجاهلية التي كانت تزعم أن رحم الأم مجرد وعاء لنمو نطفة الأب، وصادروا بذلك حق المرأة في انتساب الطفل إليها وقال قائلهم:

بنونـا بنـو آباءنـا وبناتنـا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

كلا.. الأم أحد الشريكين في الخلق، واحترامها يساوي أو يفوق احترام الأب في الشريعة. وهكذا تنفي الآية العنصرية الجنسية التي ابتلى بها الجاهلون العرب قبل الإسلام، ونادى بالمساواة بين الذكر والأنثى في ما يرتبط بأصل الخلق.

ومن جهة أخرى فهي تدل على السّواسية في العبودية لأن الخالق هو الله ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ والكل عبيده، فلا تمايز بين شخص وآخر إلا بما أمر الله.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ قالوا: الشعب مجموعة القبائل كمضر وعدنان، بينما القبيلة هي تفرعات الشعب، وقال بعضهم: الشعب من يُنسَبُ إلى الأرض، بينما القبيلة تُنسَبُ إلى أصلهم. وقال آخرون: الشعب هم قبائل غير العرب.. وأنّى كان فإن هذا التقسيم الذي يبتدئ بوحدة الأسرة ثم يتوسع إلى العشيرة ثم الفخذ والبطن حتى يصل إلى العمارة والقبيلة ثم الشعب، لم يكن عبثا، وإنما بهدف التعارف.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ فمنطق الصراع الذي اختلقه داروين مرفوض في الحياة البشرية، إنما الناس اختلفوا ليمارس كلٌّ دوره بحرية ولتتنامى تجربة البشرية من خلال تنوعها، ولكي يغني كل فريق تجارب غيرهم بما اكتشفه من تجارب.. وبالتالي ليتعارفوا.

بلى، إن الحكمة ذاتها التي شرعت الأسرة من أجلها قائمة في بناء الوحدات الاجتماعية الأخرى كالعشيرة والقبيلة والشعب.

إن حقيقة المعرفة تحمّل الإنسان مسؤولية الاعتراف، فمن عرف شيئاً ثم لم يعترف به

فقد أنكره. والاعتراف بالشيء أو بالشخص يعني الاعتراف بوجوده وحقوقه، وتنظيم حياة العارف حسب ذلك الوجود وتلك الحقوق. دعنا نضرب مثلاً؛ لو أنك تعرف أن أمامك شجرة، فإن هذه المعرفة تجعلك تعترف بوجودها فلا تصطدم بها. كذلك لو عرفت أن أمامك إنساناً، فإنك تنظم مسيرتك بحيث لا تصطدم به، وأيضاً تحترمه وتحييّه وتستجيب له لو دعاك، وتغيثه لو استغاث بك. وهكذا المعرفة تحمّل صاحبها المسؤولية. والتعارف معرفة متبادلة، واعتراف متبادل، واحترام متبادل؛ وكل أولئك من حكم خلق الإنسان وأهدافه.

ومما يدلل على هذا الفهم لـ (التعارف) أن الآيات السابقة جعلت الجهل بالآخر هو مسبب للسخرية والاستخفاف بحرمات وحقوق الآخرين.

وهذه البصيرة تهدينا:

أولاً: إلى مشروعية هذه التقسيمات الطبيعية وأنها -في الأساس- نافعة، وعلينا أن نعيدها إلى طهرها، بعيدا عن كل ألوان العصبية والتعالي لنجني ثمارها الطيبة.

وهذا ما يدعو إليه الإسلام كما جاء في النصوص الدينية من ضرورة صلة الرحم والتواصل مع العشيرة جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»**[1].

وقال: **«لمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ رَأَيْتُ رَحِماً مُتَعَلِّقَةً بِالْعَرْشِ تَشْكُو إِلَى اللهِ رَحِماً لَهَا فَقُلْتُ: كَمْ بَيْنَكِ وبَيْنَهَا مِنْ أَبٍ؟ فَقَالَتْ: نَلْتَقِي فِي أَرْبَعِينَ أَباً»**[2].

وجاء في رواية مأثورة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه خطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ ووَلَدٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وعَنْ مُدَارَاتِهِمْ وكَرَامَتِهِمْ ودِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حِيَاطَةً لَهُ مِنْ وَرَائِهِ وأَلَمُّهُمْ لِشُعْثِهِ وأَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ حُنُوّاً إِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ أَوْ نَزَلَ بِهِ يَوْماً بَعْضُ مَكَارِهِ الْأُمُورِ ومَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا يَقْبِضُ عَنْهُمْ يَداً وَاحِدَةً وتُقْبَضُ عَنْهُ مِنْهُمْ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ ومَنْ مَحَضَ عَشِيرَتَهُ صِدْقَ الْمَوَدَّةِ وبَسَطَ عَلَيْهِمْ يَدَهُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا وَجَدَهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ أَخْلَفَ اللهُ لَهُ مَا أَنْفَقَ فِي دُنْيَاهُ وضَاعَفَ لَهُ الْأَجْرَ فِي آخِرَتِهِ»**[3].

ثانياً: إن التعارف بين الناس واحد من أهم مقاصد الشريعة الغراء، لماذا؟ لولا معرفة الناس لما اكتملت حكمة الابتلاء في الخلق، أوتدري لماذا؟ لأن الابتلاء لا يتم إلا بالحرية والمسؤولية فلو اختلط الناس ببعضهم كيف يميّز الصالح فيثاب عن المجرم فيعاقب؟ أم

---

(١) بحار الأنوار: ج٧١ ص٩١.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢١ ص٥٠٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٧١ ص١٠١.

كيف تتراكم مكاسب المحسنين وتحصَّن من أن يسرقها الكسالى والمجرمون؟ كلا. لا بد أن يميَّز الناس عن بعضهم تمييزا كافيا ليأخذ كل ذي حق حقه، فيشجعه ذلك على المزيد من العطاء، ويأخذ التنافس دوره في دفع عجلة الحياة قدما إلى الأمام.

ثالثاً: إن حكمة الاختلاف هو التكامل -بعد التنافس على الخيرات- وليس الصراع والتطاحن، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]، ومن دون التعارف كيف يتم التعاون؟ إن على الناس أن يكتشفوا إمكانات بعضهم ليتبادلوا الخيرات، أما إذا تقوقعت كل طائفة في حدودها الجغرافية أو الاجتماعية ولم يتعارفوا فكيف يمكن التعاون بينهم؟

ولعل هذه البصيرة تهدينا إلى أهمية التعارف بين الشعوب في عصرنا الراهن، لأن إمكانات التعاون بينهم لا تزال غير مستثمرة حتى بنسبة (١٠٪) ولو ضاعفنا المؤسسات العالمية في كافة المجالات عشرات الأضعاف لكانت فرص التعاون لا تزال أوسع.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ حينما تسقط القيم الزائفة، والعصبيات الجاهلية المتخلفة ينفتح أفق التنافس الشريف على الخيرات التي يلخِّصها القرآن هنا بكلمة (التقوى) و يفصلها في آية مشابهة قائلا: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]. ونستلهم من لحن القول في هذه الآية: أن التنافس على العمل الصالح والتسابق في الخيرات هو هدف اختلاف الشعوب، وأن لكل منهم شرعة ومنهاجا، بل إن هذا الاختلاف والتنوع مطلوب إذا كان وسيلة للتنافس البناء، والتعارف والتعاون، كما أنَّ الاختلاف بين الناس في مجتمع واحد هدفه التسارع إلى الخيرات، والتعاون فيها كذلك التفرع بين الشعوب والمجتمعات المتنوعة أليس يقول ربنا سبحانه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]. وإذا كان الهدف من هذا التنوع التسارع في الخيرات، فإن أكرم الخلق عند الله من استبق إليها، فالأقرب إلى الصراط المستقيم، والأسبق في الصالحات هو الأكرم، لأنه الذي يحقق الهدف دون غيره، وإلى هذه تشير كلمة التقوى.. أليست التقوى هي المعرفة بالله والعلم بشريعته، والاجتهاد في تنفيذها؟.

وأصل الكلمة من الوقاية، أي التحصّن لمواجهة أسباب الهلاك ولا تحصل هذه الوقاية

من دون معرفة الطريق والاستقامة عليه، بعيدا عن أمواج الفتن، وضغوط الهوى ورياح الشهوات، لذلك كانت التقوى أرفع درجة من الإيمان، كما أن الإيمان أرفع درجة من الإسلام، وقد قال الإمام الرضا عليه السلام: «الإِيمَانُ فَوْقَ الإِسْلَامِ بِدَرَجَةٍ والتَّقْوَى فَوْقَ الإِيمَانِ بِدَرَجَةٍ واليَقِينُ فَوْقَ التَّقْوَى بِدَرَجَةٍ ومَا قُسِمَ فِي النَّاسِ شَيْءٌ أَقَلُّ مِنَ اليَقِينِ»[1].

وإنما رفع الإسلام قواعد المجتمع الفاضل على أساس التقوى، لأنه من دونها تمزق العصبيات الجاهلية التجمع البشري، ولا تدعه يتكامل، بل في كثير من الأوقات يتقابل مع بعضه، ويسير في طريق الهدم. قال الله سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]. إن كلمة التقوى هي صبغة التجمع الإيماني ومحوره، وعماد تماسكه، ومبعث قوته، بينما العصبيات الجاهلية هي صبغة سائر المجتمعات غير الإيمانية.. وحين حارب الإسلام هذه العصبيات استطاع أن يصهر المجتمع الجاهلي المتشرذم في بوتقة التوحيد، ويبني منه تلك الحضارة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وآله أمر بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: «نُزَوِّجُ بَنَاتِنَا مَوَالِينَا» فأنزل الله عز وجل الآية[2].

ويظهر من هذا الحديث والذي يليه مدى الصعوبة التي عاناها رسول الله صلى الله عليه وآله في انتزاع روح العصبية من ذلك المجتمع الجاهلي المتخلف، وقد روي عن ابن عباس وقيل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بلالا حتى علا ظهر الكعبة وأذن فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال حارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا؟ وقال سهيل بن عمرو إن يرد الله شيئا لغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبره رب السماء فأتى جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره بما قالوا فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسألهم عما قالوا فأقروا به ونزلت الآية[3].

وحتى آخر أيامه كان النبي صلى الله عليه وآله يكافح الحمية الجاهلية، فقد ذكر الرواة أنه خطب رسول الله صلى الله عليه وآله بمنى في وسط أيام التشريق (حيث تجمع الحجاج من كل البلاد) وهو على بعير فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَافَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا أَعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لأَسْوَدٍ على أَحْمَرٍ، وَلَا أَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا:

(١) الكافي: ج٢، ص٥١.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٤١، السنن الكبرى للبيهقي: ج٧ ص١٣٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٥٣.

نَعَم. قال ﷺ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ»[١].

وهكذا تجاوز المسلمون السابقون عقبات التخلف الجاهلي حين تجاوزوا حواجز الدم واللون والإقليم ووحَّدوا طاقاتهم المتشتتة تحت راية التوحيد، وجعلوا التقوى محور تنافسهم البناء. وقد اشتهرت عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك مقطوعة رائعة[٢]:

الناس من جهة التمثال أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدي أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ وتأتي هذه الخاتمة لبث السكينة في قلوب المؤمنين ألا يقلقوا إن رأوا تكالب الناس على الدنيا وتدابرهم عن أهل التقوى، فإن الله عليم بهم وخبير وبيده أزمَّة الأمور وهو يكرم المتقين، وكفى به شاهدا وكفى به مثيبا عادلا.

[١٤] لأن تجاوز الحمية الجاهلية صعب مستصعب وبخاصة على الأعراب الذين عاشوا دهرا يسبحون بأمجادهم ومفاخرهم، فإن القرآن الكريم يذكرنا بأن الإيمان ليس مجرد التسليم الظاهر للدين الجديد، بل هو تغيير عميق للشخصية يتجلى في الممارسات العملية، ومن زعم أن بإمكانه الجمع بين قيم الجاهلية والدين فإنه لم يفهم معنى الدين. أوليس الدين شفاءً من أمراض الجاهلية.. وبديلا صالحا للقيم الفاسدة فكيف يجتمعان؟.

الدين الحق جهاد متواصل لمواجهة سلبيات البشر. مثل: حواجز الدم واللون والأرض وقيم الأنساب والتقاليد والأعراف البائدة والهوى والشهوات والجهل والتحزب، فمن استطاع أن يخلص طاعته لله وللرسول (دون تقاليده وتراث سلفه)، وجاهد في سبيل إصلاح مجتمعه، فهو الذي ارتقى إلى مستوى الإيمان.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ والفرق بينهما أن الإسلام هو التسليم للدين تسليما ظاهرا.. بقبول الشهادتين والخضوع للأحكام الشرعية، بينما الإيمان

---

(١) كنز العمال: ج٣، ص٩٣.

(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام، ص٢٤، دار نداء الإسلام للنشر - قم المقدسة.

انقلاب حقيقي لنفس الإنسان.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تدل كلمة ﴿وَلَمَّا﴾ على أن من أسلم يرجى له الإيمان، ولعلها تشير أيضا إلى التأخير، مثل ثم في الإيجاب، مما يوحي بأن المسافة بين الإسلام والإيمان ليست بسيطة، وأن على الإنسان المسلم أن يقطع هذه المسافة بجهده المتواصل. فإذا كان الإسلام بمثابة القبول في معهد علمي راق، فإن الإيمان هو التخرج فيه بنجاح. جاء في الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: «الإِيمَانُ إِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَمَعْرِفَةٌ بِالقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ»[1]. وفي حديث آخر مروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «الإِيمَانَ يُشَارِكُ الإِسْلَامَ وَالإِسْلَامَ لَا يُشَارِكُ الإِيمَانَ»[2].

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكيف يُنقِصُ الله الغفور الرحيم شيئا من أعمال عباده التي تحصن بالطاعة لله وللرسول؟ ونستلهم من هذه الآية أن مقياس الإيمان الحق هو الطاعة، ذلك أن الطاعة امتحان صعب، إنها خروج عن زنزانة الذات إلى رحاب الحق، وتجاوز لحواجز المادة، وانطلاق في ميادين الخيرات.

[١٥] وجاءت الآيات التالية تبيّن شروط الإيمان أوَلَيس الإيمان هو القوة التنفيذية لكل تعاليم الوحي، وهو روح المجتمع الدافعة من دونها تصبح أنظمتها حروفا بلا معاني؟!.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ متى يرتاب المؤمن؟ عندما يكلَّف بمهمة صعبة توسوس له نفسه في صدق إيمانه، أما من محَضَ الإيمان فإنه كالذهب الخالص كلما تعرض لنيران الصعاب ازداد جلاء ونورا.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الجهاد بذل ما يسعه من الجهد في سبيل الله، ولا يكون ذلك إلا عندما يخلص القلب من شوائب الكفر والشرك والنفاق.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ إنها حقيقة الإيمان التي تتجلى في الطاعة والجهاد ومن دون الوصول إلى هذه الحقيقة لا يمكن تصديق إيمان الفرد، أما إسلامه فهو صادق بمجرد قبوله دين الإسلام والتزامه به.

[١٦] والذي يكابر ويدعي أنه مؤمن برغم كل ذلك فإنه قد سفه نفسه، كيف يزعم بأنه يعلّم الله دينه أوَلَيس الله محيطا علما بكل شيء؟.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠ ص٣٦٦.
(٢) الكافي: ج٢ ص٢٥.

أولئك قوم من أعراب بني أسد -حسب المفسرين- قدموا على رسول الله في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين (رغبة في عطاء الرسول ليس إلا)، لم يكونوا مؤمنين في السر وأفسدوا طرقات المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ (وهم يمنُّون عليه) أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة وجعلوا يمنُّون فأنزل الله ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ الآية[1].

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ بأنكم مؤمنون حقا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

[١٧] الإيمان نعمة كبرى لا تساويها نعمة، وحين يزكي الإنسان نفسه ويروضها بالتقوى، ويسعى لرؤية الحقائق، حينئذ يتجلى الله لقلبه، فيرى الله بنور الإيمان ويرى بنور الله كل شيء.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ ﴾ لأن الإسلام إذا كان لهدف مادي فهو إذا لمصلحتهم ولا يستدعي المنة، وإن كان إخلاصا لله، فإن الله يمنُّ عليهم به وبما يليه من الإيمان.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في ادعائكم الإيمان ويبدو أن السياق يتناول قصة أعراب بني أسد الآنفة الذكر بالرغم من أنها تعمُّ كل أولئك الذين يدَّعون الإيمان ويجعلونه وسيلة للتعالي على الناس، واكتساب الشهرة والثروة والسلطة.

[١٨] ولكي يوجد القرآن وازعا نفسيا للإنسان ألاَّ يزكي نفسه ويدَّعي الإيمان كاذبا، أو يحاول ابتزاز الآخرين باسمه، فإن الله يحذرنا نفسه، ويذكرنا بأنه محيط بكل شيء علما.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فالأعمال يزنها بقدر الإخلاص فيها.. وبهذه الآية تختتم سورة الحجرات التي يحتاج المسلمون اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى أن يعوها وعيا، وبالذات الطليعة الرسالية التي قد تتسرَّب إليه أيضا الحمية الجاهلية ولو بألوان جديدة كالتحزب والتفاخر، نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا، ويصون ديننا من كل شائبة شرك أو ظلم أو نفاق.

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٦ ص٣٤٨.

سُورَةُ ق

* مكية.
* عدد آياتها: ٤٥.
* ترتيبها النزولي: ٣٤.
* ترتيبها في المصحف: ٥٠.
* نزلت بعد سورة المرسلات.

فضل السورة

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «مَنْ أَدْمَنَ فِي فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ قِرَاءَةَ سُورَةِ ق وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ وأَعْطَاهُ اللهُ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وحَاسَبَهُ حِسَاباً يَسِيراً».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤١)

الإطار العام

حجب الغفلة عن المسؤولية والجزاء

حجب كثيرة تمنعنا من ملامسة الحقائق الكبرى، التي منها المسؤولية والجزاء، وحين يُسْقِط الإنسان عن نفسه هذه الحجب يشاهد الحقائق بوضوح، ويدفعه إلى التسائل: كيف، ولماذا أنكرتها من قبل؟.

وفي سورة (ق) يعالج القرآن الحجب النفسية التي تمنع البشر عن الإيمان بالآخرة، ثم يسرد شواهدها ومشاهدها وما يجري لأهلها من صعقات هائلة، بَيدَ أن السياق -كما يبدو- يركز على حجاب التعجب الذي هو تيار عند الكفار، عندما يذكرون بالبعث ويقولون: هذا شيء عجيب؟! كيف يمكن أن نعود أحياءً بعد أن نمسي تراباً؟ إنها عودة مستبعدة! (الآيات: ١-٣) وتتلاحق بصائر الذكر في تقريب هذه الحقيقة:

أولاً: يعلم الله ما تأكل الأرض من أجسامهم ذرة ذرة، وخلية خلية، وعنده كتاب حفيظ، لا يدع شيئاً إلا ويحفظه.(الآية: ٤).

ثانياً: إن وراء تكذيبهم بالحق حالة نفسية، وهي خشية تحمل المسؤولية، والخلود إلى أرض الشهوات، وهذا يجعلهم في أمر مختلط.(الآية: ٥).

ثالثاً: هذه السماء بما فيها من متانة البناء، أليست دليلاً على قدرة الرب، أو لا تكفي وسيلةً لتوسيع أفقنا العلمي حتى نعترف بقدرة الرب على رجعنا من جديد؟(الآية: ٦).

رابعاً: الأرض؛ ألا ترى كيف مدّها الله وأركزها بالراسيات وأنبت فيها من كل زوج بهيج؟(الآية: ٧).

بلى؛ إنها أدلة كافية، ولكن لمن؟ لكل عبد منيب، مهيأ نفسياً لمثل هذه البصائر والآيات،

ومثل ذلك الغيث الذي ينبت به الله جنات من الأشجار ومروج حب من حب الحصيد، أرأيت النخل باسقات لها طلع نضيد؟ إن كل ذلك أنشأه الله ليكون رزقاً للعباد.

وبكلمة صادعة يفجِّر السياق ينبوع المعرفة في القلوب الصافية ويقول: وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج.. إنها تحرق حجب التعجب والاستبعاد، أرأيت النواة كيف تختزل حياة شجرة باسقة حتى إذا أنزل الله عليها الماء وأمدها بوسائل النمو أصبحت شجرة باسقة، كيف لا يمكن أن يفعل مثل ذلك بالإنسان بعد موته؟ (الآيات: ٨-١١).

ثم يصبُّ حمم الغضب على الكاذبين لكي يزيل عامل اللامبالاة عند الكفار بالبعث، الذي قادهم إلى التعجب،ويذكِّرهم بمصير قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع، كيف نزل بهم وعيد الله حين كذبوا الرسل؟

ويستشهد بالخلق أول مرة، الذي يهدينا متانة نظمه وتنوعه إلى إقتدار خالقه وأنه كان عليه يسيراً، أفلا يدل على أنه قادر على الخلق الجديد؟ (الآيات: ١٢-١٥).

وفي آيات متواصلات يزرع القرآن خشية الرب في نفس الإنسان، لكي يتحسس بمسؤوليته تجاه ما يتحدث به،فيذكره بأنه خلقه ويعلم حتى ما توسوس به نفسه، (بالرغم من ادعاءاته الكاذبة) لأنه أقرب إليه مما به حياته ظاهراً وهو حبل الوريد (الآية: ١٦).

فحين يتلقى المتلقيان - ولعلهما الملكان أو المتحدثان أنىّ كانا- ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، وهوإلى كل ذلك لا يملك دفاعاً عن نفسه حين تهجم عليه سكرة الموت بالحق فلا يدفعه بالرغم من أنه كان يحاول أبداً الحيد عنها (الآيات: ١٧-١٩).

أما حين ينفخ في الصور فهو يوم الجزاء الذي وعد الله، يومئذ يؤتى بكل نفس يسوقها السائق ويرافقه الشاهد.. -هذا ما كان يتعجب منه ظاهراً، وإنما كان غافلاً عنه- بينما اليوم يراه ماثلاً أمام عينيه (فبصره حديد) (الآيات: ٢٠-٢٢).

أما قرينه (وهو الملك حسب بعض المفسرين) فيقول هذا كتابه لدي عتيد، قد حفظته منذ أيام حياته الأولى. هنالك يأمرهما الله بإلقائه في جهنم مع كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب. وهكذا تحمَّل جزاء ريبه النابع من تهربه عن المسؤولية، وجَعْلِه مع الله إلهاً آخر (الآيات: ٢٣-٢٦).

أما قرينه -وهو هنا الشيطان الذي أغواه- فإنه يتبرأ منه ويقول: ربنا ليس أنا الذي جعلته يطغى -محاولة منه للهروب من مسؤولية إغوائه- إلا أن الرب يأمر بإلقائه أيضاً في

جهنم، إذ إن مسؤولية أحدهما لا تنفي مسؤولية صاحبه، وما الله بظلام للعبيد، وإن جهنم تسع المزيد من المجرمين، فلا تظنن أن إلقاءك مسؤولية غفلتك على الآخرين يبرئ ساحتك، أو أن جهنم لا تسع إلا هو أو أنت.(الآيات: ٢٧-٣٠).

وفي جانب آخر؛ نجد مشهد المتقين الذين تزدلف إليهم الجنة ويُبَشَّرون بها، أوَلَيسوا قد وُعدوا بها لما تميَّزوا به من التوبة والتقوى خشية الرحمن بالغيب وإنابة القلب، فاليوم يقال لهم: ادخلوا الجنة بسلام خالدين فيها أبداً، ولهم كل ما يشاؤون من النعم فيها، ويعطيهم الله من فضله المزيد (الآيات: ٣١-٣٥).

ويبقى الغرور حاجزاً آخر أمام الإيمان، ولكن ألا يقرؤون التاريخ ليروا كم أهلك الله من قبلهم من قرن كانوا أشد منهم بطشاً حاولوا الهرب من مصيرهم فلم يفلحوا؟ ولكن القلوب المريضة والأسماع الصمّ لا تستوعب هذه الحقائق. ولا يزال يقول الكافر: كيف يحيي الله الناس بعد موتهم؟ أفلا ينظرون كيف خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام بلا أي تعب؟ (الآيات: ٣٦-٣٨).

وفي خاتمة السورة (الآيات: ٣٩-٤٥) يأمر الله رسوله -ومن ثم المؤمنين- بالصبر على ما يقولون، لكي لا يُحرجوا به، أو يتخذوا كلامهم مأخذ الجد، وبتسبيح الله صباح مساء، وفي الليل، وعند الأسحار، وانتظار ذلك اليوم الذي ينادي المنادي من مكان قريب، وينفخ في الصور، ذلك اليوم الذي يسمعون فيه الصيحة بالحق، ذلك يوم الخروج.. هنالك حين يحيي الله الموتى ليرجعوا إليه، في ذلك اليوم تتفتق عنهم الأرض سراعاً، ذلك حشر يسير على الله، إذن فلا تهتم أيها الرسول بكلامهم، فالله أعلم بما يقولون، فلست مسؤولاً عنهم، ولست تجبرهم، فما أنت بجبار عليهم، إنما أنت نذير تذكرهم بالوحي، فذكّر بالقرآن، وسوف يستجيب من يخاف الوعيد.

وما أنا بظلام للعبيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ⟨١⟩ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ⟨٢⟩ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ⟨٣⟩ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ (١) وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ⟨٤⟩ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٢) ⟨٥⟩ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٣) ⟨٦⟩ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٤) ⟨٧⟩ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⟨٨⟩ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٥) ⟨٩⟩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ (٦) لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⟨١٠⟩ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ⟨١١⟩ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ (٧) وَثَمُودُ ⟨١٢⟩ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ⟨١٣⟩ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ (٨) وَقَوْمُ تُبَّعٍ (٩) كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ⟨١٤⟩ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ

---

(١) ما تنقص الأرض منهم: ما تاكل من أجسادهم إذا ماتوا.

(٢) مريج: مضطرب، ومختلط.

(٣) فروج: فرجة خالية عن النظام.

(٤) بهيج: يبتهج به الإنسان ويفرح عند النظر إليه، لحسنه وجماله.

(٥) وحب الحصيد: هو حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما.

(٦) باسقات: طوالاً.

(٧) أصحاب الرس: الذين رسّوا نبيهم في الأرض وأقبروه حياً.

(٨) أصحاب الأيكة: وهم قوم شعيب، وقد كانت إلى جنبهم أيكة وهي الشجر المزدحم والملتف على بعضه.

(٩) قوم تبّع: كان تبّع ملكاً مؤمناً، وقومه كافرين كانوا كثيري الأموال والقوى.

بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[1] ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[2] ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ[3] ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في البدء يحدثنا الدرس الأول من السورة عن جانب من علاقة الناس بالقرآن المجيد الذي يضم في سوره آيات الوحي، بينما يذكرنا شطره الآخر بآيات الله في الآفاق التي تهدينا هي الأخرى -كما الوحي- إلى المزيد من المعرفة بالحق، وترفعنا إلى درجات الإيمان. وفي الخاتمة نجد حديثا عن مستقبل الإنسان في الدنيا حيث تنتهي حياته بالرغم منه. وكيف أنها سلسلة من المسؤوليات التي يحاسب عليها، ويتكون جزاءه بحسب التزامه بها.

بينات من الآيات:

[١] ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

﴿قٓ﴾ من الكلمات الرمزية، وقال البعض إن معناها: المجد أي الشأن العظيم، وكتاب

---

(١) حبل الوريد: الوريدان هما العرقان المكتنفان بصفحتي العنق في مقدم العنق، وإضافة الحبل إليه للبيان، أي الحبل الذي هو وريد، ولعل ذكر حبل الوريد لأنه مربوط بالقلب والمخ فهو وسط بينهما ولا أقرب منه إلى الإنسان.

(٢) عتيد: مهيَّأ حاضر لا يشتبه.

(٣) تحيد: تهرب وتميل.

الله بما يشتمل عليه من الآيات والمناهج، كفيل بأن يعطي لمن يتبعه العزة والكرامة، ويرفعهم إلى قمم التقدم والكرامة، لأنه منطلق ذلك كله. ولكن الكفار والمشركين أغفلوا هذه الحقيقة وتركوا ذلك المجد بسبب نفسياتهم وثقافتهم السلبية، وساروا في نفق التساؤلات والمواقف القشرية السخيفة التي أفقدتهم ذلك المجد.

والأمة الإسلامية إنما قصرت عن بلوغ الحضارة، وتوقفت عن التقدم الذي بدأته في نهضتها الأولى، بل وتراجعت أمام الأمم الأخرى بالرغم من امتلاكها لهذا الكتاب العظيم بسبب تعاملها الخاطأ معه، فاذا به عند بعض المسلمين كتاب تفؤل وتبرك، بينما انصرف البعض الآخر عن قيمه ومناهجه الحضارية إلى حروفه وما تشابه منه، وهكذا هجروا كتاب الله، فلم يبلغوا شيئا من المجد، ليس لأن القرآن استنفذ أغراضه فلم يعد كتاب المجد، وإنما لأنه لا يعطي ذلك إلا لمن اتبعه بحق.

[٢] إن الكفار رفضوا مجد القرآن، وأصروا على مسيرتهم المنحرفة، لأن القرآن شيء جديد، ولأن القائد الذي أمروا باتباعه بشر مثلهم ومن وسطهم. وهذا يدل على أنهم لا يتبعون الحق وهدى العقل في حياتهم، وإنما يتبعون الأهواء والمصالح. وحيث إن قيم القرآن وقيادة الرسول يتعارضان مع تلك الأهواء فهي عجيبة ومرفوضة عندهم ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ أي لم تكن نظائر سابقة ليكون مألوفا عندهم، فهو شيء عجيب، والحال إن بلوغ المجد لا يمر بمتابعة الشهوات، بل يتطلب مخالفتها والتنازل عنها.

[٣] لقد أثار تعجب الكفار إنذار القرآن بيوم القيامة.. قالوا كيف يجمع الله أعضاء الإنسان بعد الموت وتحولها إلى ذرات في التراب؟ وأغرب من ذلك كيف تصير إنسانا سويا؟

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ إنهم لا يؤمنون بإله قادر يدبِّر شؤون الخلق، فعارضهم القرآن، ولا يؤمنون بالمسؤولية في الحياة، فجاءهم بخلاف هذه العقيدة، فرفضوه لعدم إلفتهم به، وما ذلك سوى منهج الجاهلين الذين يعادون مالا يعلمون ولا يصدقون إلا بما يألفون من حقائق، بينما العلماء وأولو العقل يبحثون عن الحقائق ويقولون: نحن لا نحيط علما بكل شيء، إذن دعنا نبحث بايجابية. فربما كان هذا واقعا ونحن لم نعرفه، أوَلَم تكن هذه إلا حقائق كنا نجهلها ثم عرفناها ولم نكن نألفها ثم ألفناها، فلماذا ننكر رأسا كل ما يقال لنا أليس ذلك من الغباء؟

وعموما التعجب من الجهل وقلة الوعي، ومتابعته من الجهالة والحمق.

[٤] ولكن القرآن يعالج هذا التعجب، ويبيِّن قدرة الله على جمع أجزاء الإنسان وبعثه

مرة أخرى، بلى؛ قد يتحلل كيمياويا في التراب، وتتبعثر عناصره الـ :(١٣٠) عنصراً هنا وهناك في صورة ذرات تنقلها الأيدي، أو تذرها الرياح، ولكنها تبقى معلومة عند الله عزَّ وجلَّ، ومحفوظة في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إذ تتحلَّل أوصالهم في ترابها ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ يسجل فيه كل شيء بدقة متناهية، أوَلَيس الله هو الذي خلق الإنسان من بعد العدم؟ فكيف يعجز عن جمع أوصاله وبعثه بعد الموت؟ إنه يعلم كم أكل التراب من جسم هذا الإنسان؟ وما هي الذرة من التراب التي كانت سابقا جزءا من بدنه؟ وكيف تحللت منه؟ وحين مات كمكان يحتوي عليه جسمه من الحديد، والأملاح، والماء وسائر العناصر بنسبها ووزنها ومساحتها التي تشغلها، وكم في كل عضو منها و..الخ؟!

إن الإنسان ليتعجَّب لو نظر إلى صندوق يحوي ملايين القطع التي يتكون منها محرك الطائرات العسكرية، أو جهاز معقد آخر، وربما لا يصدق أن أحدا قادر على جمعها وتركيبها لتصير إلى ذلك مرة أخرى، أما الخبير الذي اخترعها وصنعها فليس كذلك، إنه ينظر للأمر على انه ممكن، بل هو أمر يسير، فكيف بالله الذي خلق الأشياء، والذي كان أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؟

[٥] إن مشكلة الكفار أنهم لا يتَّبعون الحق، بل لا يريدون اتباعه، لهذا تراهم لا يفقهون هذه الحقائق، ولا يثبتون على رأي واحد في الحياة لإتباعهم أهواءهم، إذ الحق واحد وثابت في كل زمان ومكان بينما الهوى متغير ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ والذي يؤكد هذه الفكرة موقفهم من الرسول ﷺ، فهم يسمُّونه ساحرا تارة ومجنونا أخرى، وشاعرا ثالثة، وأمينا وصادقا و..الخ، ولو أنهم اتبعوا الوحي لكان يعطيهم بصيرة وجوابا لكل سؤال، حتى سؤالهم هذا عن البعث، ولكنهم تركوه للهوى والمصالح فصاروا إلى الهرج والمرج، ولعل هذا يفسر بروز النظريات المختلفة والمتناقضة في مختلف الحقول الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

[٦-٧] ولو أن الكفار الذين يشكون في البعث نظروا إلى الخلق وتفكروا فيما عليه من النظم والتدبير لما تعجبوا من فكرة البعث، لأن العقدة الأساس هؤلاء هي شكهم في قدرة الله على ذلك. وشكّهم هذا تعبير عن جهلهم، فإذا تفكروا في خلق الله وازدادوا معرفة به وبآياته المتجلية في الكائنات، لهداهم ذلك إلى الإيمان بقدرة الله. أترى السماء على سعتها ومتانة خلقها وما فيها من الإبداع، والأرض التي ذللها الله، وألقى على ظهرها الجبال العظيمة تحفظ توازنها، وأوجد فيها كل ما يحتاج إليه ليصلح عيشنا فيها.

كل ذلك أفلا يهدينا إلى قدرة الله على إحيائنا بعد الموت؟!

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب التي تتناثر على بساطها البديع ليلا، واللون الأزرق الهادئ بالنهار ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ فهي محكمة في بنائها، لا ثغرة ولا كسرة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ لننظر إليها هي الأخرى، ونتفكر في خلقها ﴿مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ ولم يقل جبالا، لأن كلمة الجبال لا تعبر عن دور الجبال في حفظ توازن الأرض كالمرساة التي تثبت السفينة في عرض البحر وفي أطراف الموانئ.

ومع ذلك ما كانت الأرض تصلح لعيش الإنسان عليها لو لم يتوفر فيها ما يحتاجه البشر من ضروريات وكماليات. لهذا كان من الحكمة الإلهية أن يوجد الرب أنواع الخلق على ظهرها ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ من الحيوانات، والنباتات والناس وكل شيء. وكلمة زوج تنطوي على معان كثيرة من أبرزها التكامل، الذي يدل -بدوره- على دقة النظم وحسن التدبير. أترى كيف جعل الله النبات والأحياء والبشر أزواجا، الذكر والأنثى، ثم الشعوب والقبائل، ثم جعل الناس يتفاضلون ليحتاجوا إلى بعضهم، ثم جعل كل شيء في الحياة بحاجة إلى غيره لتتكامل دورة الحياة بما يدع أدقَّ العقول حائرة في هذه الدورات التكاملية التي توازنت وتعادلت وشهدت على حكمة بارئها سبحانه.

ثم جعل الزوج بهيجا يجتذب بجماله الطرف الآخر حتى يسهل التفاعل ويكون أكرم من مجرد حاجة متبادلة.

[٨] وهذه كلها آيات بينات على حكمة الله التي تقتضي البعث للجزاء وعلى قدرته التي تجعل الأمر ممكنا بل محتملا. وهي لا تغيب عن بصر أحد من الناس فالكل يراها بعينيه، ولكنها تغيب عن بصائر الكفار ومرضى القلوب. تغيبها عنهم حجب الذنوب والجهل والغفلة، وتعيها أذن واعية وقلوب طاهرة من المؤمنين ﴿تَبْصِرَةً﴾ تزيدهم علما وفهما ووعيا ورؤية ﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ تزيدهم إيمانا وموعظة وعبرة وتقوى، ونهتدي بهذه الآيات إلى فكرة أساسية، وهي أن الإيمان بالله مركز العلم الحق، ومنطلق الإيمان بسائر الحقائق، فالمؤمن يهتدي من خلال نظره إلى الأشياء، إلى المعارف والعلوم المختلفة، فإذا به ذو بصيرة نافذة في الحياة، كما يزداد يقينا بالحق، لأنه ينظر إلى الحياة بنور الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، وهو رأس المعرفة وعماد الإيمان، بينما ينظر الكافر إلى الأشياء ذاتها، فلا يزداد إلا جهلا وكفرا، وتبقى الآيات الواضحة ألغازا في قلبه لأنه لا نور له في الحياة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. لهذا جاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ»[1].

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١.

إن المنهج السليم هو الذي يجعل الإيمان بالله ومعرفته منطلقا لسائر المعارف، وليس الذي يجعل المعارف والحقائق الأخرى دليلا إلى الله، لان الله أجلى وأظهر من كل شيء. قال الإمام الحسين عليه السلام: «إِلَهِي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي وَأَبْعَدَنِي عَنْكَ وَمَا أَرْأَفَكَ بِي فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْآثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ..».

إلى أن يقول: «إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْآثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزَارِ فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟».

ثم إن الإمام عليه السلام يخاطب ربه بطريقة توحي الاعتذار منه تعالى، جعله المخلوقات دليلا على الله، مبيّنا أنه لم يكن يعمد إلى ذلك لولا أمره عزَّ وجلَّ بالنظر إليها، وهو مع ذلك يطلب منه أن يرفعه إلى الدرجة الأصح والأفضل من المعرفة، فيقول: «إِلَهِي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ فَارْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الِاسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا»[1].

ولا يرتقي إلى هذه المعرفة إلا من عبد الله حق عبادته وتاب إليه كلما أخطأ.

[٩-١١] ثم لينظر الإنسان إلى قطر السماء حينما ينزله الله فيحيي به الأرض، إن ذلك مثل قريب على البعث يوم القيامة ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ ينطوي على الخير والفضل، والبركة في اللغة تعني النماء والتكامل، وهو بالفعل فور ما ينزل الغيث يفجر خيرات الأرض، فإذا بها بعد أن كانت صحراء قاحلة تنفرش بحلة خضراء.

﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ والجنات هي الأشجار الكبيرة التي تدوم كالرمان والعنب، بينما حبّ الحصيد إشارة إلى الزروع التي يحصدها الإنسان كل عام ليزرع غيرها في الأعوام اللاحقة كالحنطة والشعير والذرة.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طويلة مرتفعة بسوقها ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ والطلع هو عروق النخل أول طلوعها بين الليف والسعف. أما النضيد فهو المنظم وهو حال الطلع مما يجعله أفضل في نمائه.

ونستفيد من الآيتين إن مجرد نزول المطر لا يكفي لخروج الجنان والحب والنخيل من

(١) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٢٢٥ دعاء يوم عرفة.

الأرض، بل لابد من عناية إلهية في الأمر. فلو كانت الأرض التي يهطل عليها الماء غير صالحة، أو كانت صالحة ولكن أهلها مشغولون عن زراعتها، فهل كان ذلك يحولها إلى جنات وزروع؟ كلا.. فهي محتاجة إلى إنبات الله عزَّ وجلَّ لها برحمته، ليجد العباد رزقهم فيها، ولتكون صالحة للسكن فيعمروها.

﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ إنك ترى الأرض هامدة لا حراك فيها وقد هجرها الناس، فإذا بها بعد نزول الماء تحكي الحياة في كل جوانبها، وبكل أشكالها، فبعد أن يؤمن الناس رزقهم ينشطون لبناء مدينتهم وتوفير سائر مظاهر الحضارة فيها.

ولعل هذا شاهد على أن الزراعة أصل كل حضارة، وهذه إحدى النظريات الحضارية حيث قالوا: إنها ناشئة من تراكم المحصولات الزراعية التي تتراكم الثروة بعد بيعها وتبدأ بها دورة الحضارة.. ولا ريب أن حضارات عديدة في التاريخ نشأت بهذه الطريقة.

أترى أن الذي أحيى البلاد بعد موتها يعجز عن إحيائنا بعد الموت؟!

﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ وفي الروايات إشارات إلى إن الإنسان يتلاشى في التراب، ويبقى منه مقدار ذرة واحدة (خلية) حية تتعلق بها الروح في عالم البرزخ، فإذا أراد الله بعثه أمطر السماء أربعين صباحا، وجعل الأرض كرحم الأم، فتنمو فيه تلك الذرة، ولكن بصورة سريعة، فإذا بالأرض تنشق عن بشر سوي. وليس من عجب أن يحدث ذلك، فهذا هو الإنسان يبدأ حياته من نطفة صغيرة جدا تنطلق من صلب الأب إلى رحم الأم، وهكذا تبدأ حياة كل شيء على وجه الأرض. فلتنظر إلى كل حبة تحسبها ميتة، ولكن حين تدفنها في التراب تنشق عن زرع أو شجرة عظيمة. وإلى هذا التشابه تشير الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]، ونحن مع ذلك نؤمن بقدرة الله على الخلق والبعث بعد الموت بطرق لا تحصى عددا.

وفي الخبر قال الصادق عليه السلام: «إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَ الخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَاجْتَمَعَتِ الأَوْصَالُ وَنَبَتَتِ اللُّحُومُ»[١].

وقال عليه السلام لما سُئِلَ عَنِ المَيِّتِ يَبْلَى جَسَدُهُ: «نَعَمْ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ لَحْمٌ وَلَا عَظْمٌ إِلَّا طِينَتُهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تُبْلَى تَبْقَى فِي القَبْرِ مُسْتَدِيرَةً حَتَّى يُخْلَقَ مِنْهَا كَمَا خُلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ»[٢].

[١٢-١٤] إن الآيات التي مضت كلها علاج لاستبعاد فكرة البعث من قبل الكفار،

---

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٣٣.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٩١.

حيث قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. والآن يبيّن القرآن بأن هذا الضلال لم يكن جديدا في تاريخ البشرية، لأن الماضي ينطوي على أمثال كثيرة من تكذيب الأقوام السالفة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وهم أصحاب البئر التي رسوا نبيهم فيها بعد أن قتلوه «عن عكرمة»، وقيل: الرس بئر قتل فيها صاحب ياسين (عن الضحاك)، وقيل هم قوم كانوا باليمامة على آبار لهم (عن قتادة)، وقيل: هم أصحاب الأخدود، وقيل: كان سحق النساء في أصحاب الرس (عن أبي عبد الله عليه السلام)[1]، والذي يبدو لي أنهم كانوا في اليمامة والرس اسم البئر التي دفنوا فيها نبيهم بعد أن قتلوه.

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام ﴿وَعَادٌ﴾ أي قوم هود عليه السلام ﴿وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ وسمي أخاهم لأنه انتسب إليهم بالزواج، والله العالم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ يعني قوم شعيب الذين اشتهرت حضارتهم بالزراعة والبساتين، والأيكة في العربية الأشجار المزدحمة التي تلتقي أغصانها، وفيها تبني الحمام أعشاشها غالبا ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو رجل صالح ملك اليمن، إلا أن قومه كانوا فاسدين ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ لقد بادت حضاراتهم نتيجة تكذيبهم الحق، أولا يهدينا ذلك إلى تحقق الجزاء في الآخرة كما تحقق في الدنيا، وحق الشيء أي ثبت ومنه الاستحقاق. وهؤلاء ثبت عذابهم، وتحول من القدر إلى القضاء، ومن الوعيد إلى الفعل.

[١٥] ويستنكر الله على هؤلاء تكذيبهم بالبعث، وشكهم في قدرته تعالى فيقول:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي هل أعجزنا الخلق الأول من العدم عن أن نبعث الإنسان مرة أخرى؟ كلا، وفي الآية بيان إلى حقيقة تحل شبهة هؤلاء حول البعث، وهي أن القادر على الخلق من العدم أولى بالقدرة على جمع أشلاء البشر ونفخ الروح فيه مرة ثانية. وهذا دليل عقلي بصير على الرجعة للحساب، وإن كان كلا الأمرين سواء عند الله الذي لا يمسّه نَصَبٌ ولا لغوب. والقرآن يعبر عن هذه الفكرة في موضع آخر بصيغة ثانية، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٧-٨١].

وفي تفسير هذه الآية سأل جابر بن يزيد أبا جعفر عليه السلام عنها قال: «يَا جَابِرُ، تَأْوِيلُ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَفْنَى هَذَا الْخَلْقَ وَهَذَا الْعَالَمَ وَأَسْكَنَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ جَدَّدَ اللهُ

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص٢١٥.

عَزَّ وَجَلَّ عَالَماً غَيْرَ هَذَا العَالَمِ وَجَدَّدَ خلق [عَالَماً] مِنْ غَيْرِ فُحُولَةٍ وَلَا إِنَاثٍ يَعْبُدُونَهُ وَيُوَحِّدُونَهُ وَخَلَقَ لَهُمْ أَرْضاً غَيْرَ هَذِهِ الأَرْضِ تَحْمِلُهُمْ وَسَمَاءً غَيْرَ هَذِهِ السَّمَاءِ تُظِلُّهُمْ لَعَلَّكَ تَرَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا خَلَقَ هَذَا العَالَمَ الوَاحِدَ وَتَرَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ بَشَراً غَيْرَكُمْ، بَلَى وَاللهِ لَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْفَ أَلْفِ عَالَمٍ وَأَلْفَ أَلْفِ آدَمٍ أَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ العَوَالِمِ وَأُولَئِكَ الآدَمِيِّينَ»[1].

إن هذه الحقائق لا تخفى على عقل الإنسان، ولكن الجهل البشري وضلال الأفكار وهوى النفس كل ذلك يحجبه عنها، فإذا به يشك في قدرة الله على الخلق ثانية بعد الموت.

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إن الأمر ملتبس عليهم فهم في حيرة وريبة، وسبب ذلك هو جهلهم بكيفية حدوث البعث، بَيدَ أن ذلك لا يعني استحالته، أترى لو كان يقال لشخص قبل ألف عام عن حديد يطير في الهواء (نعني بذلك الطائرات والصواريخ) هل كان يصدق؟ طبعا لا، ولكن لو قيل له تفصيل ذلك لعله كان يذعن أليس كذلك؟ وهذه من طبيعة الإنسان أنه ينكر الأشياء التي يقصر عن الاحاطة بتفصيلاتها. أما العقل المحض والبعيد عن المؤثرات، فهو لا ينكر الأشياء لمجرد انتفاء إحاطته بالتفاصيل، بل ينكرها ما دامت لا تصدق لانتفاء الأدلة عليها. والحال إن الأدلة قائمة على الرجوع للحساب.

[١٦] ومن ذلك ترى الكفار مرتكزين في أوحال الشك والريب من هذا الحق، فهم بين التصديق والتكذيب تتردد نفوسهم في الوسواس المنبعث من طبيعة البشر، كما من وساوس الشيطان الذي يسعى لإضلاله.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فلم نتركه سدى، لأنه مسؤول ومحاسب في الدنيا والآخرة، بل بقي تحت الرقابة الإلهية التي لا تقتصر على ظاهره من الكلام والفعل، وإنما تنفذ إلى أخفى وأبعد شيء عنده وهو حديثه مع نفسه.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ فخطرات القلب وهواجس النفس وأفكارها كلها مسجلة عند الله عزَّ وجلَّ، فربما قام يوما للصلاة فتردَّد، هل يؤدِّيها الآن أم بعد قليل فهذا مسجل لك أو عليك، يسجله الله الذي هو أقرب للإنسان حتى من نفسه.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهي الأوداج التي تربط الرأس بالجسد. إن الإنسان قد يندفع إلى تصرف أو فكرة ما بعوامل لا يدركها، وقد يقوم بشيء ثم ينساه، ولكنه تعالى يحفظ كل صغيرة وكبيرة وكل ظاهر وباطن ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، والمتقون يعون هذه الحقيقة بعمق «إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٣٧٤.

وربي أعلم بي مني بنفسي»[١]. ونجد في العلم الحديث الآن بحوثا عن آفاق العقل الباطن، وموضوعه دراسة القرارات والتصرفات التي تصدر من الإنسان لمعرفة أسبابها الخفية.

[١٧] ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ولهذه الآية تفسيران:

الأول: إن المقصود بـ ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ملك الحسنات وملك السيئات، وفي الخبر عن الرسول صلى الله عليه وآله انه قال: «كَاتِبُ الحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجُلَ، وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَلَى شِمَالِهِ، وَصَاحِبُ اليَمِينِ أَمِيرٌ عَلَى صَاحِبِ الشِّمَالِ، فَإِذَا عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا صَاحِبُ اليَمِينِ عَشْراً، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ صَاحِبُ اليَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ دعهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ لَعَلَّهُ يُسَبِّحُ أَوْ يَسْتَغْفِر»[٢].

وفي خبر آخر «إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ القَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ العَبْدِ المُسْلِمِ المُخْطِئِ أَوِ المُسِيءِ فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا وَإِلَّا كَتَبَ وَاحِدَةً»[٣].

وفي كتاب سعد السعود: «أنهما يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر فإذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل وإذا غربت الشمس نزل إليه الملكان الموكلان بكتابة الليل ويصعدان الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله فإذا حضر أجله قالا للرجل الصالح: جزاك الله من صاحب عنّا خيرا فكم من عمل صالح أريتناه وكم من قول حسن استمعناه وكم من مجلس خير أحضرتنا فنحن اليوم على ما تحبه وشفعاء إلى ربك وإن كان عاصيا قالا: له جزاك الله من صاحب عنّا شرا فلقد كنت تؤذينا فكم من عمل سيئ أريتناه وكم قول سيئ استمعناه ومن مجلس سوء أحضرتناه ونحن لك اليوم على ما تكره وشهيدان عند ربك»[٤].

الثاني: وقد يكون المعني بذلك النفس الأمارة بالسوء والأخرى اللوامة التي يضل الأولى منهما الشيطان، ويرشد الأخرى ملائكة الله، ولعل وسوسة النفس وحديثها من ذلك.

قال الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا ولَهُ أُذُنَانِ عَلَى إِحْدَاهُمَا مَلَكٌ مُرْشِدٌ وعَلَى الأُخْرَى شَيْطَانٌ مُفْتِنٌ هَذَا يَأْمُرُهُ وهَذَا يَزْجُرُهُ الشَّيْطَانُ يَأْمُرُهُ بِالمَعَاصِي والمَلَكُ يَزْجُرُهُ عَنْهَا وهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾»[٥].

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.
(٢) نور الثقلين: ج٥ ص١١١، تفسير الصافي: ج٥ ص٦١.
(٣) بحار الأنوار: ج٥ ص٣٢١ ب١٧.
(٤) سعد السعود: ص٢٢٥.
(٥) بحار الأنوار: ج٦٠ ص٢٠٥.

وقال عليه السلام: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا ولِقَلْبِهِ أُذُنَانِ فِي جَوْفِهِ أُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الوَسْوَاسُ الخَنَّاسُ وأُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا المَلَكُ فَيُؤَيِّدُ اللهُ المُؤْمِنَ بِالمَلَكِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَيَّدَ المُؤْمِنَ بِرُوحٍ مِنْهُ تَحْضُرُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ يُحْسِنُ فِيهِ ويَتَّقِي، وتَغِيبُ عَنْهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ يُذْنِبُ فِيهِ ويَعْتَدِي فَهِيَ مَعَهُ تَهْتَزُّ سُرُوراً عِنْدَ إِحْسَانِهِ وتَسِيخُ فِي الثَّرَى عِنْدَ إِسَاءَتِهِ فَتَعَاهَدُوا عِبَادَ اللهِ نِعَمَهُ بِإِصْلَاحِكُمْ أَنْفُسَكُمْ تَزْدَادُوا يَقِيناً وتَرْبَحُوا نَفِيساً ثَمِيناً رَحِمَ اللهُ امْرَأً هَمَّ بِخَيْرٍ فَعَمِلَهُ أَوْ هَمَّ بِشَرٍّ فَارْتَدَعَ عَنْهُ ثُمَّ قَالَ نَحْنُ نُؤَيِّدُ الرُّوحَ بِالطَّاعَةِ للهِ والعَمَلِ لَهُ»[2].

[١٨] والإنسان يبقى يتأرجح بين الاستجابة لنداء الحق (الفطرة والعقل والوحي وإمام الحق)، وبين الانصراف عن كل ذلك إلى نداء الباطل (النفس الأمارة والشيطان، وإمام الضلال)، وهو في ذلك غير محاسب على أفكاره، ولكنه إذا حسم الصراع بين هذه القوى، والتردد في نفسه بالإرادة سجِّل عليه موقفه.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ خيرا كان أو شرا ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يكتب كل ما يصدر منه، ويضمُّه إلى كتابه الذي يتقرر مصيره على ضوء ما فيه، فإما تغلب الحسنات السيئات فيتسلمَّه بيمينه وتسوقه ملائكة الرحمة في زمرة المتقين إلى الجنة، وربما أخذ إلى النار قليلا ليطهر، وإما تغلب الأخرى فيأخذه بشماله، وتسوقه ملائكة العذاب إلى جهنم ليلبث فيها أحقابا أو يخلد في العذاب مهانا. حتى إن البشر ليذهلون من دقة الكتاب: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].

[١٩] بلى، إن الإنسان يخشى من الموت، ويحاول جهده الفرار من ساحته، ولكن متى كان مصيره في يده، أو كان قادرا على رد قضاء الله؟ كلا، إن سكرة الموت تأتيه فتذهله عما يحيط به، كما تذهل سكرة الخمرة شاربها ويومئذ يعرف إن محاولاته في الهروب من الموت التي استغرقت أكثر مساعيه باءت جميعا بالفشل ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

[٢٠] وحينما يموت الإنسان تبقى بينه وبين الجزاء الحقيقي مسافة البرزخ، فإذا كان

(١) الكافي: ج٢، ص٢٦٧.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٩٦.

يوم القيامة، أمر الله ملكا عظيما من ملائكته يقال له إسرافيل بالنفخ في الصور فيحدث عندها صوت عظيم مهيب يقوم الناس بسببه من الأجداث بإذن الله عزّ وجلّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وتلك النفخة إيذانا منه تعالى ببدء أعظم وأرهب محكمة في عالم الإنسان حيث تقف الإنسانية بكل أجيالها التي تعاقبت على هذه الأرض، تزدحم بهم آفاقها، أحسنهم حالا يومئذ من وجد لقدميه موضعا ولنفسه متسعا، يسبحون في بحر من العرق الذي تنفصد به أبدانهم. وهناك تتقطع بينهم الأسباب والوشائج فيتبرأ الواحد من أقرب الخلق إليه، من ولده وزوجه وأمه وأبيه وأخيه.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ فمهما لقي الكفار والظالمون من جزاء كما هو حال الأقوام السالفة التي ذكرتهم الآيات (١٢-١٤) إلا أن الجزاء الحقيقي الذي يتوعدهم به الله يلقونه في الآخرة، التي تبدأ بنفخة إسرافيل عليه السلام في الصور.

إسرافيل

وفي دعاء الامام زين العابدين عليه السلام في الصلاة عن حملة العرش قال:. «وإِسْرَافِيلُ صَاحِبُ الصُّورِ، الشَّاخِصُ الَّذِي يَنْتَظِرُ مِنْكَ الإِذْنَ، وحُلُولَ الأَمْرِ، فَيُنَبِّهُ بِالنَّفْخَةِ صَرْعَى رَهَائِنِ القُبُورِ»(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خَلَقَ اللهُ الصُّورَ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ بَيْضَاءَ فِي صَفَاءِ الزُّجَاجَةِ. ثُمَّ قَالَ: لِلْعَرْشِ خُذِ الصُّورَ فَتَعَلَّقْ بِهِ. ثُمَّ قَالَ: كُنْ. فَكَانَ إِسْرَافِيلَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الصُّورَ فَأَخَذَهُ وَبِهِ ثُقَبٌ بِعَدَدِ كُلِّ رُوحٍ مَخْلُوقَةٍ وَنَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ لَا تَخْرُجُ رُوحَانِ مِنْ ثُقْبٍ وَاحِدٍ، وَفِي وَسَطِ الصُّورِ كُوَّةٌ كَاسْتِدَارَةِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَإِسْرَافِيلُ وَاضِعٌ فَمَهُ عَلَى ذَلِكَ الكُوَّةِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّبُّ تَعَالَى: قَدْ وَكَّلْتُكَ بِالصُّورِ فَأَنْتَ لِلنَّفْخَةِ وَلِلصَّيْحَةِ، فَدَخَلَ إِسْرَافِيلُ فِي مُقَدَّمِ العَرْشِ فَأَدْخَلَ رِجْلَهُ اليُمْنَى تَحْتَ العَرْشِ وَقَدَّمَ اليُسْرَى وَلَمْ يَطْرِفْ مُنْذُ خَلَقَهُ اللهُ يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِهِ»(٢).

[٢١] فاذا جاء أمر الله لإسرافيل ونفخ في الصور، انبعث الناس من قبورهم وبدأ يوم القيامة، وهناك توضع الموازين الحق، وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا من هول الموقف، وتأتي كل نفس بمفردها منقطعة عن كل شيء سوى ما اكتسبت وسعت، كما يصف القرآن ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]. نعم، هناك اثنان يشايعانه تنتهي مهمة الأول عند إصدار الحكم المصيري بحقه وهو الشهيد الذي يدلي بافاداته أمام المحكمة

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٦ ص٢١٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٦ ص٢٦١.

الإلهية بالحق إن لصالح الشخص أو عليه، سواء كان ذلك الشهيد الملك الذي كتب أعماله، أو طرف آخر من البشر وسائر الخلق، أو كان عضوا منه أو جارحة، بينما تنتهي مهمة الآخر على باب الجنة إذا كان الشخص من الصالحين أو على باب جهنم إن كان من أصحاب السعير، وهو السائق، وهذا الأخير ينتظر حكم الله في من يسوقه، فإما يزفه باللطف والترحاب إلى الجنة، وإما أن يسوقه بمقامع الحديد إلى النار.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ من الملائكة ﴿وَشَهِيدٌ﴾ لقد بيّنت النصوص الدينية أسماء من هم الشهداء الذين يرافقون كل نفس يوم الحساب؟ ونحن نذكر طائفة منهم:

١- القيادة الرسالية شاهد على الإنسان، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الاحزاب: ٤٥].

وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥].

وقال يحكي عن شهادة عيسى عليه السلام: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٨-١٥٩].

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

٢- جوارح الإنسان وأعضاؤه تشهد، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢].

وقال في موضع آخر: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

٣- والكتاب هو الآخر شاهد علينا بما يحتويه من قيم ومفاهيم إلهية، قد تتفق معها مواقفنا وسلوكياتنا وأفكارنا وقد تخالفها. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ -يعني القرآن- وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [هود: ١٧].

٤- والملائكة يشهدون قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٥-١٦٦]، كما أنهم يسجلون سعي الإنسان في كتابه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢].

٥- وتشهد على الإنسان كل لحظة من عمره، إذ ينطبع فيها أثر كل سعي وتفكير يقوم به، وربما مر عليه الزمان دون أن ينتفع منه، فهو يشهد عليه يوم القيامة بذلك أيضا. قال الامام علي عليه السلام: «مَا مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِيَّ خَيْراً وَاعْمَلْ فِيَّ خَيْراً أَشْهَدْ لَكَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَانِي بَعْدَهَا أَبَداً»[1].

٦- وكذلك يشهد أولياء الله على غيرهم، لأنهم بأعمالهم الصالحة ميزان لأعمال الناس، وحجة يرفعها الله على الآخرين، فالمجاهدون حجة على المتقاعسين والقاعدين، والمهاجرون حجة على الذين رضوا الذل والعيش في ظل الظلمة، والمتواضعون حجة على المتكبرين وهكذا، يقول الله: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال في سورة الحج: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

٧- وتبقى الشهادة العظمى لربنا الجبار الذي لا تخفى عليه خافية: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٦-٧]، ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الانعام: ١٩]. وقال عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧]. وقال مؤكدا هذه الشهادة يخاطب رسوله صلى الله عليه وآله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٩٧.

[٢٢] وهؤلاء الشهود وذلك السائق كلهم حاضرون اليوم كحضور أية حقيقة أخرى في الواقع، إلا أن حجب الجهل والغفلة والشهوات، ومن ثم غياب بصيرة الايمان، تمنع الإنسان من الرؤية، فإذا ما تكشفت له الحقائق وبلغ عين اليقين في معرفتها، هنالك يأتيه الخطاب من الله:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ إن الحقائق التي كثيراً ما أنكرها المشركون تبدو لهم يومئذ أوضح من الشمس في رابعة النهار. ولقد صدق الامام علي عليه السلام إذ قال: «النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انتَبَهُوا»[1]. أما المؤمنون الصادقون فقد تعرَّفوا إلى هذه الحقائق بفضل اتباع وحي الله وأوليائه، وأنهم كما يصفهم الامام زين العابدين عليه السلام إذ يناجي ربه قائلا: «إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ تَوَشَّحَتْ [تَرَسَّخَتْ] أَشْجَارُ الشَّوْقِ إِلَيْكَ فِي حَدَائِقِ صُدُورِهِمْ وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ مَحَبَّتِكَ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ إِلَى أَوْكَارِ الأَفْكَارِ يَأْوُونَ وَفِي رِيَاضِ القُرْبِ وَالمُكَاشَفَةِ يَرْتَعُونَ وَمِنْ حِيَاضِ المَحَبَّةِ بِكَأْسِ المُلاطَفَةِ يَكْرَعُونَ وَشَرَائِعِ المُصَافَاةِ يَرِدُونَ قَدْ كُشِفَ الغِطَاءُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَانْجَلَتْ ظُلْمَةُ الرَّيْبِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ مِنْ ضَمَائِرِهِمْ وَانْتَفَتْ مُخَالَجَةُ الشَّكِّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ وَانْشَرَحَتْ بِتَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ صُدُورُهُمْ وَعَلَتْ لِسَبْقِ السَّعَادَةِ فِي الزَّهَادَةِ هِمَمُهُمْ وَعَذُبَ فِي مَعِينِ المُعَامَلَةِ شِرْبُهُمْ وَطَابَ فِي مَجْلِسِ الأُنْسِ سِرُّهُمْ وَأَمِنَ فِي مَوْطِنِ المَخَافَةِ سِرْبُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ بِالرُّجُوعِ إِلَى رَبِّ الأَرْبَابِ أَنْفُسُهُمْ وَتَيَقَّنَتْ بِالفَوْزِ وَالفَلاحِ أَرْوَاحُهُمْ...»[2].

وهذا اليقين ممكن لكل إنسان لو استشار عقله واتبّع هدى الرب، إلا أن الغفلة -ومن ثم الاسترسال في الجهل والشهوات- كل ذلك يحجبه عن الايمان والمعرفة.

[٢٣] ويوم القيامة يرفع الله كل الحجب فإذا بالحقائق واضحة كعين الشمس لا يعتريها شك ولا ريب، ولكن هل تنفعه المعرفة شيئا؟.. كلا. فالكلمة حينها للشاهد الذي رافقه لحظة بلحظة، ومصيره مرهون بما أعدَّه وسجَّله عليه وله، حيث يعرضه على الله.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي معد بدقة وحق فهو يعتد به في الحساب.

[٢٤-٢٥] وعندما توضع أعمال الإنسان في الميزان يصدر الله حكمه الحاسم في حقه، فإن ثقلت موازينه أدخل الجنة صالح البال راضي النفس، وإن خفت أمر الله السائق والشهيد أن يأخذانه إلى النار.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤ ص٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٩١، ص١٥٠.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أنكر فضل الله، ولم يؤدِّ شكر نعمائه بعبادته والتسليم له ﴿عَنِيدٍ﴾ خالف آياته وأوامره وعاكسها في حياته.

وهكذا يدخل النار كل مانع للخير، والخير كلمة واسعة تضم اليها الكثير من المفردات، فقد يكون الخير المال الذي ينعم به الله على الإنسان فلا يخرج منه الحقوق الواجبة، ولا ينفق منه على المحتاجين، وقد يكون الخير هو العلم الذي زكاته نشره بين الناس ولكن صاحبه لا يتحمل رسالته في الحياة، وهكذا يمتد ظل هذه إلى كثير من المفردات الأخرى. ولكن أهم معاني الخير القيادة الصالحة، وأي خير أعظم من قيادة يهتدي بها الإنسان السبيل الحق في مرافق الحياة المختلفة؟ وكم يكون الإنسان آثما حينما يحارب أولياء الله ويصد الناس عنهم؟.

وفي الخبر عن علي بن إبراهيم قال: «وَالْخَيْرُ وَلَايَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَحُقُوقُ آلِ مُحَمَّدٍ»[1] ولا شك ان محاربة العلماء والفقهاء والقادة الرساليين جزء لا يتجزأ من محاربة الرسول والأئمة عليهم السلام، بل هي محاربة الله، أوَلَم يقل عزَّ وجلَّ: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»[2]؟ وهكذا يحاربه الذي ينال من سمعة أوليائه فيصنع حاجبا بين الناس وبينهم.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ والمعتدي هو الذي يتجاوز الحدود والحقوق، أما المريب فهو الذي لا قناعة عنده بالقيم وربما ادّعى الايمان لأغراض خبيثة.

[٢٦] وكل هذه الصفات التي تستوجب جهنم (الكفران والعناد، ومنع الخير والاعتداء والارتياب) كلها مظاهر للشرك الخفي أو الظاهر.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ المشرك ليس الذي يعتقد بإله مع الله، بل الذي يخضع لقيادة لم يأمر بها الله فالذي يرضى عمليا بالحاكم الظالم، أو يطيع أمره في معصية الله مشرك، وإن لم يعتقد بأنه رب وإله، كما أنَّ من يطيع هواه فهو عابد له، وهو بذلك يستحق العذاب، وربنا يأمر الملكين بالقائه في جهنم.

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ والإلقاء لا يكون إلا من الأعلى الى الأسفل، وإنما يفعل بأهل النار كذلك، لأن الله خلق الإنسان في مرتبة عالية فضله بها على الكثير من خلقه، فاذا أشرك به وانحرف عن الصراط بدأ سيرته التسافلية والإلقاء في جهنم من الأعلى إلى الأسفل هو تجل لهذه الحقيقة التي تبيِّنها سورة التين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]. أما حينما يستمر على خط الفطرة ويتمسك بحبل الله المتمثل في

(١) بحار الأنوار: ج٢٩ ص١١٣.
(٢) الكافي: ج١ ص١٤٤.

رسالته وأوليائه، ويستزيد من عمل الصالحات فإنه ينطلق في مسيرة تصاعدية نحو الأعلى، يتقرّب الى الله درجة بعد أخرى ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨-٢١].

[٢٧] وحيث يلقى المشرك في جهنم يظل يهوي إلى الأسفل مدة من الزمن حسب انحرافه وسيئاته الى أن يحل في مكانه المعد له بين يدي عذاب إلهي شديد، وهناك كما عند الحساب يلقى قرناءه عملا فيدور بينهم خصام شديد يلقي كل طرف فيه اللوم على الطرف الآخر محاولا بذلك التهرب من المسؤولية، فإذا بالذي جعل مع الله آلهة أخرى -وقد أمر به الى النار- يريد التخلص من عذابها بإلقاء مسؤولية انحرافه وضلاله على قرينه.

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ إنه كاذب في ادعائه بانني السبب في طغيانه، ثم يستدل قائلا: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ ربما يكون للآخرين دور في انحراف مسيرة الإنسان ولكنه لا يعدو كونه مساعدا، أما الدور الأكبر والسبب الحقيقي مرهون باختياره وإرادته للباطل دون الحق، فلأنه أساسا اختار الضلال تجد مساعي الآخرين والظروف المتجانسة مع اختياره موقعا مؤثرا في حياته.

[٢٨] ثم إن التخاصم عند الله لا ينفعهم شيئا وذلك لما يلي:

أولاً: إن المصير الذي صاروا اليه لم يكن مفاجئا ولا غامضا لهم. وكيف يكون كذلك وقد أقام الله الحجة البالغة عليهم، وأنذرهم من هذه العاقبة، عبر كتبه ورسله؟

﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ وأنذرتكم من أن الشرك والضلال يستوجب العذاب الشديد، وضربت لكم المثل تلو المثل من حياة الأقوام السابقة (الآيات ١٢ إلى ١٤) ولكنكم كذبتم النذر، واستهزأتم بالوعيد، والقرآن يفصل هذه الحقيقة في موضع آخر، يقول تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١].

[٢٩] ثانياً: إن لله سننا وقيما في هذه الحياة، جعلها حاكمة وجعلها الميزان في كل قضية، وعلى أساسها يكون حساب الناس ومصيرهم، وهي ثابتة لا تتغير. ومنها أن جزاء الكافر والمشرك النار، وجزاء المؤمن الجنة، ولا يمكن أن يكون العكس وإلا فما هي حكمة الحياة الدنيا، وما هو دور النذر إذا لم يجعل الله للثواب والعقاب نظاما محددا؟!

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ ومن القول الثابت الذي تعنيه هذه الآية ما جاء في سورة ﷺ عندما أقسم الشيطان أن يغوي العباد فردَّ الله عليه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

ثالثاً: إن العدالة الإلهية تأبى ذلك، إذ كيف يستوي المحسن والمسيء؟! أم كيف يصير الظالم إلى جانب المظلوم في الجنة دون أن يقتص من الأول، وربما فات الأخير الثأر في الدنيا؟! أترى من العدالة أن يدخل الجنة المانع للخير والممنوع عنه؟! أو المعتدي والمعتدى عليه؟! أترى يدخل ابن ملجم (لعنه الله) الجنة مع الامام علي عليه السلام وقد فجع المسلمين بقتله؟! أم يدخل يزيد (لعنه الله) الجنة مع الحسين عليه السلام وهو ابن خاتم الأنبياء، وسيد الأوصياء، وسيدة نساء العالمين؟! كلا، وحاشا لله عزَّ وجلَّ وهو العادل أن يفعل ذلك، وهذا كتابه ينطق عنه قائلا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ وإلى هذا المعنى يشير دعاء الامام علي عليه السلام حيث يناجي ربه قائلا: «فَبِاليَقِينِ أَقْطَعُ لَولا ما حَكَمْتَ بِهِ مِنْ تَعْذيبِ جاحِديكَ، وَقَضَيْتَ بِهِ مِنْ إِخْلادِ مُعانِديكَ لَجَعَلْتَ النّارَ كُلَّها بَرْداً وَسَلاماً وَما كانَتْ لِأَحَدٍ فيها مَقَرّاً وَلا مُقاماً، لكِنَّكَ تَقَدَّسَتْ أَسماؤُكَ أَقْسَمْتَ أَنْ تَمْلأَها مِنَ الكافِرينَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعينَ، وَأَنْ تُخَلِّدَ فيهَا المُعانِدينَ، وَأَنْتَ جَلَّ ثَناؤُكَ قُلْتَ مُبْتَدِئاً، وَتَطَوَّلْتَ بِالإِنْعامِ مُتَكَرِّماً: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾»[1].

[٣٠] رابعاً: وأخيرا يثير القرآن في أذهاننا بصورة غير مباشرة تساؤلا مهماً وهو لماذا خلق الله النار؟ هل خلقها عبثا وكيف يصدر منه ذلك وهو الحكيم الخبير، وقد قال في كتابه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الانبياء: ١٦-١٨]؟!

إذن ماهو هدف خلق النار؟

والجواب: واضح نجده في كثير من آيات القرآن ألا وهو مجازاة العاصين لله، كما أن الجنة خلقت لاكرام المطيعين.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ وهذه الآية وآيات أخرى في القرآن تفنّد ما ذهب اليه البعض من أنه لا يوجد عذاب عند الله وعللّوا ذلك بأنه عزَّ وجلَّ رؤوف خلق عباده ليرحمهم لا ليعذبهم، ومن هذا المنطلق راحوا يؤوّلون الآيات التي جاءت بصدد التحذير والوعيد بأنها لمجرد التخويف حتى يطيع الناس ربهم، وإلا فهي لا واقع لها.

---

(١) البلد الأمين: ١٨٥.

فذكر بالقرآن من يخاف وعيد

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ[1] حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟[2] فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ[3] ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا[4] ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

(١) أواب: من آب بمعنى رجع، أي كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والتذكر.

(٢) فنقبوا: كأن دخولهم في البلاد تنقيب، لأنهم كانوا يفحصون عن مواضع الثروة والنزهة، كالمنقب الذي يخرق ويثقب الأرض طلباً للمال والكنز.

(٣) لغوب: تعب وإعياء.

(٤) سراعاً: أي مسرعين لما يصيبهم من الهول والوحشة.

هدى من الآيات:

لاتزال الآيات القرآنية تعالج العجب الذي اعترى الكفار من حديث البعث، وهي في هذا الدرس تصوِّر لنا بعض مشاهد القيامة، لتكشف لنا جانبا من أسرار النشأة الأخرى التي لا وسيلة للتعرف إليها إلا من خلال القرآن، لكن الهدف الأهم من ذلك لهذا اللون من الحديث هو التربية، ذلك أنه لو ترك الإنسان الحجب الشهوانية، والاجتماعية، والتربوية، والوراثية، لرأى الحقيقة بوضوح تام، لأن هذه الحجب والأغلال هي التي تمنع عقله من الانطلاق في آفاق الايمان والمعرفة. ولكن كيف يقتحم البشر هذه العقبات، وينفذ بعقله إلى ما وراءها من الحقائق؟.

إن ذلك لا يمكن إلا بهزَّة عنيفة تتعرض لها نفسه، فتسقط عنها أستارها ومن شأن الآيات القرآنية بحديثها عن مشاهد القيامة السلبية والايجابية، وبالإسلوب البلاغي والنفسي الرائع أن تحدث هذه الهزة.

إن مجرد سماع الإنسان حديث القيامة يكفي أن يبعثه نحو التفكير، وإذا فكر تفكيرا سليما اهتدى الى الحقيقة، ونضرب على هذه الفكرة مثلا فنقول: لو كان شخص يسير باتجاه حفرة في طريقه، فإن مخاطبته بكلمة انتبه وحدها، حري بأن يرفع عنه الغفلة ويوقظ عقله وحواسه، فيكتشفها دون أن يحتاج الأمر الى بيان مفصل. وهكذا لو كنت في سيارة تسير بسرعة وقد غفل سائقها في حين اعترضته سيارة أخرى، فإن رفع الغفلة عنه قد لا يحتاج إلا الى كلمة واحدة ليضغط على الفرامل. وهكذا القرآن يهز ضمير الإنسان لينتبه من غفلته، ويستثير عقله في مسيرة الحياة ليفكر فيهتدي للحق، لأن مشكلته الأساس أنه لا ينتفع بعقله.

ثم إن القرآن جاء ليحقق هدفين هما: تزكية نفس الإنسان بهدايته الى الحق ودفعه للالتزام به في كل جوانب الحياة، كما جاء ليزيده علما بالحقائق من حوله وفي نفسه ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. لذلك فالآيات كلها تنتهي إلى أحد هذين الهدفين أو إليهما جميعا في موضع واحد، ومن هنا ينبغي لنا أن نقرأها مرة للتعلم ومرة للاتعاظ.

بينات من الآيات:

[٣١] إن الله لم يخلق ولا شبرا واحدا من النار عبثا، إنما ليتعذَّب فيه واحد من المجرمين، ولم يخلق الجنة إلا ليكرِّم بها فريقا من عباده هم المتقون، وليس يفصل بين الجنة أو النار وبين

أي واحد منا إلا عمله، فإن شاء نقلته سكرة الموت الى غضب الله وعذابه، وإن صلح نقلته الى رضوان الله وثوابه. والإنسان حر في عمله فإما يختار الضلال أي الكفر والفساد ومنع الخير والاعتداء على الآخرين والارتياب في الحق فيكون مصيره النار، وإما يختار التقوى أي الأوبة الى الله، وحفظ حدوده وأحكامه، وخشيته بالغيب، وتصفية القلب من الأدران بالانابة والتوبة فيكون مصيره الجنة.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ونتساءل كيف تزلف الجنة للمتقين؟ والجواب إن لهذه الآية تفسيرين:

الأول: إن الجنة بما فيها من نعيم ورضوان من الله منزلة رفيعة، ومهما سعى الإنسان وبالغ في عمل الصالحات فإنه لا يرتقي اليها بعمله وحده، وإنما يقربه منها أو يقربها منه فضل الله ورحمته، قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَارَسُولَ الله؟ قَالَ ﷺ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ. وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَوْقِ رَأْسِهِ وَطَوَّلَ بِهَا صَوْتَهُ»[1].

وحين يدخل المؤمنون الجنة تتبيَّن لهم هذه الحقيقة كما أدركوها ببصيرة الوحي في الدنيا، فهم يَعُدُّون نجاتهم من العذاب بفضل الله ومنه لا بعملهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

الثاني: إن الجنة قمة سامقة لا يصلها الإنسان حتى يتَّصف بما يجعله لائقا لها، فهي بعيدة كل البعد على الكافرين والعاصين، ولكنها أقرب ما تكون إلى المؤمنين والمطيعين، وإن الذي يقرِّبها أو يبعِّدها إنما هو مقدار عمل الإنسان ومجمل صفاته الايمانية التي نقرؤها في الآيات التالية.

وهذا التفسير لا يتعارض مع التفسير السابق بل يلتقي معه وينتهي إليه، فرحمة الله التي هي العامل الأساس والمباشر في الدخول الى الجنة، ولكنها لا تشمل أحدا بلا سبب، بل لابد أن يكون هو في مستوى استيعاب الرحمة.

ولأن من عقد البشر النفسية استعجال النتائج فتراه يكفر بالآخرة ولا يسعى للجنة سعيها لأنها في نظره جزاء بعيد، فقد أكد القرآن على الجنة: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص١١.

[٣٢] ولكن ماهي الأعمال والصفات التي تقربنا الى الجنة؟

إن جميع الاعتبارات الشيئية تسقط يوم القيامة، وتبقى القيم والأعمال الصالحة هي الميزان. فلا يقرِّب أحد من ربه لسانه العربي، ولا لونه الأبيض ولا نسبه الشريف، وإنما تنفعه الحقائق التالية:

ألف: الإياب إلى الله، والإياب يعني لغة: الرجعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢]. وقال حاكياً عن سليمان عليه السلام: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩]، وتسمى التوبة أوبة لأنها عودة الى الفطرة السليمة بعد الانحراف عنها قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الاسراء: ٢٥]. إن الناس كلهم خطاؤون ينحرفون عن الحق إلى الباطل في حياتهم عنادا، أو بسبب الضغوط أو حتى من دون شعور ولكن المؤمن يتميَّز عن الآخرين بأنه أولا لا يمارس الانحراف عن جحود وعناد، وثانيا بأنه لا يستمر على الخطأ بل يسعى لتصحيحه وعلاجه في أقرب فرصة ممكنة، فإذا به يستغفر بعد الذنب، وينتبه بعد الغفلة، ويستقيم بعد الانحراف، ويتذكر بعد الجهل، فكلما أبعدته ذنوبه عن الله تقرب اليه بالتوبة، وكلما استغفلته طبيعته المركوزة في الجهل تعينها ضغوط الحياة تذكر بآيات الله واستعان بإرادة الإيمان على الإقلاع من الانحراف، فهو يبالغ في التوبة إلى ربه ويكررَّها حتى إلى الذنب الواحد، الذي يتوب عنه ثم يعود إليه ثانية وثالثة، دون أن يدع اليأس يسيطر عليه، لإيمانه برحمة الله الواسعة وغفرانه ولماذا يقنط، اليأس من صفات الكافرين؟ ولماذا ييأس وهو يسمع نداء ربه في كتابه: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، أو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. فالمؤمن يرى مجرد غفلته عن ربه ابتعادا عنه فيؤوب اليه مآبا، فهو دائم الأوب ودائم التسامي ودائم العروج إلى الله بتأنيب الذات.

باء: المحافظة على حدود الله؛ مناهجه وشرائعه في الحياة الفردية والاجتماعية بجميع أبعادها، فإذا بك ترى الحق يتجلى في كل حركاته وسكناته. فهو كما وصفه الامام علي عليه السلام إذ قال: «قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لله سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الأُمُورِ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ وتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ كَشَّافُ عَشَوَاتٍ مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ دَلِيلُ فَلَوَاتٍ يَقُولُ: فَيُفْهِمُ وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ قَدْ أَخْلَصَ لله فَاسْتَخْلَصَهُ فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ وأَوْتَادِ أَرْضِهِ قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ العَدْلَ فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الهَوَى عَنْ نَفْسِهِ يَصِفُ الحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلا أَمَّهَا وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا قَدْ أَمْكَنَ الكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ وَيَنْزِلُ

﴿حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ﴾[1] فلا يضيع لديه حكم سنة الله، ولا حق لأحد، فعهد الله له بالاستقامة على الحق محفوظ، يصدق مع الناس ولا يغش، ويرعى الامانة و.... ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

إن المتقين يرون أنفسهم شهداء في تطبيق النظام الاسلامي، وحدود الشريعة المقدسة. لذلك فهم لا يعطون لأنفسهم الحق في تغيير الحدود الدينية بتبرير أنهم ثوار ومجاهدون، بل إنك تراهم يلتزمون قبل غيرهم بتفاصيل المناهج التي بينها لهم ربهم سبحانه، ولذلك فإن الله يعدهم برحمة منه واسعة، ويبدو أن القرآن يشير الى هذين الأساسين للتقوى بقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

[٣٣] وتسأل: متى يؤوب الإنسان إلى الله ويحفظ حدوده؟.

والجواب: حينما يخشاه بالحق، وذلك أن الإنسان قد يظهر إمارات الخوف لأهداف ومصالح دنيوية يرومها، إلا أنها لا واقع لها، والخائف الصادق من الله هو الذي يخشاه حينما يكون بعيدا عن الأنظار، فإذا به وقد تهيأت له أسباب المعصية يقاوم شهوته ويتركها إيمانا منه برقابة الله -في منأى عن أعين الناس- التي هي في نظره أهم من أية رقابة أخرى.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ والإسلام يسعى قبل كل شيء لزرع الوازع الديني -الخوف من الله- في نفوس أتباعه كضمانة للالتزام بأنظمته وأحكامه، ذلك أن أثر هذا الدافع أبلغ من سائر الروادع ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ وتشير كلمة ﴿وَجَاءَ﴾ إلى شرط الجنة الاستقامة على الحق حتى لقاء الله والمجيء له تعالى بقلب طاهر سليم.

[٣٤] وإذا أحرز الإنسان هذه الصفات صار في زمرة المتقين الذين يدخلون الجنة بسلام ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ الإنسان في الدنيا لا يصل الى ما يريد إلا بالجهد والتضحية، ثم إن أجله محدود فيها مما يجعل لذته بنعمها قصيرة على خلاف الجنة، فإن ما يحصل منها لا تعب فيه ولا لغوب ولا صراع ولا منافسة ولا يورث مرضا أو غصة، بينما الدنيا بعكس ذلك تماما (لا سلام فيها) بل هي قائمة على أساس الفساد فلا ينال المرء فيها نعمة إلا بترك أخرى، ولا يتمتع بلذة إلا وتسبب له منغصة، ولا يستقبل يوما من عمره إلا بوداع يوم من أجله حتى قال الشاعر[2]:

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٨٧.

(٢) أبو الفتح علي بن محمد البستي. المتوفى سنة ٤٠٠هـ راجع الذريعة: ج٤، ص١٢٨.

[٣٥] ومن الفوارق بين الدنيا والجنة، أن الإنسان مهما بلغ من التمكن والقدرة في الدنيا لا يصل إلى كل أهدافه وأمانيه، بل يقصر عن تحقيق الكثير منها، على عكس ما في الجنة التي يتحقق له فيها ما يريد بمجرد أن ينوي ذلك، بل يزيده الله من فضله ساعة بعد ساعة ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، قال الإمام الصادق عليه السلام: إِنَّ للهِ كَرَامَةً فِي عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ بَعَثَ اللهُ إِلَى الْمُؤْمِنِ مَلَكاً مَعَهُ حُلَّةٌ فَيَنْتَهِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اسْتَأْذِنُوا لِي عَلَى فُلَانٍ فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا رَسُولُ رَبِّكَ عَلَى الْبَابِ فَيَقُولُ لِأَزْوَاجِهِ أَيَّ شَيْءٍ تَرَيْنَ عَلَيَّ أَحْسَنَ فَيَقُلْنَ: يَا سَيِّدَنَا وَالَّذِي أَبَاحَكَ الْجَنَّةَ مَا رَأَيْنَا عَلَيْكَ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْ هَذَا بَعَثَ إِلَيْكَ رَبُّكَ فَيَتَّزِرُ بِوَاحِدَةٍ وَيَتَعَطَّفُ بِالْأُخْرَى فَلَا يَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا أَضَاءَ لَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَوْعِدِ فَإِذَا اجْتَمَعُوا تَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِ ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾، فَيَقُولُ عِبَادِي ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ لَيْسَ هَذَا يَوْمَ سُجُودٍ وَلَا يَوْمَ عِبَادَةٍ، قَدْ رَفَعْتُ عَنْكُمُ الْمَؤُونَةَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِمَّا أَعْطَيْتَنَا، أَعْطَيْتَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: لَكُمْ مِثْلُ مَا فِي أَيْدِيكُمْ سَبْعِينَ ضِعْفاً. فَيَرْجِعُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ بِسَبْعِينَ ضِعْفاً مِثْلَ مَا فِي يَدَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1].

[٣٦] ثم إن القرآن وضمن علاجه للكفر بقدرة الله على البعث، يدعو الكفار الى التفكر في آثار قدرته وهيمنته على الحياة من خلال قراءة التاريخ البشري المليء بالشواهد على ذلك، ليعلموا أن الحياة ليست عبثا، بل تسير وفق حكمة مقدرة، فالأقوام السابقة إنما أهلكوا لتكذيبهم بالحق.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ وهذه سنة جارية في الحياة لا يعطلها شيء، ولا يمنعها البشر مهما أوتوا من قدرة، ولفظة أهلكنا مضافة الى كلمة ﴿وَكَمْ﴾ التي تفيد الاستفهام عن العدد، تنطويان على تأكيد بأن ما حدث في التاريخ ليس مفردة جرت من باب الصدفة، وإنما هي ظاهرة مستمرة تدل على سنة حاكمة تلتقي فيها تلك الشواهد، ويتضح فيها الفعل الإلهي المقصود. ثم إن بعض الأقوام وصلوا من القوة أكثر مما صار اليه المجتمع العربي يوم نزول القرآن، ولكن الله أهلكهم فهل يتصورون على أنهم قادرون على دفع الهلاك إذا حلّ بساحتهم. وامتزاج الضمائر والإشارات في هذه الآية بين أولئك وهؤلاء يحمل طياته إنذارا للمشركين باهلاكهم بطريقة أو بأخرى إذا ما حذوا حذو السابقين، ولن يجدوا حينئذ مخرجا ولا سبيلا الى النجاة.

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ والمحيص من حاص يحيص، وهو المكان الذي تحفره البطة لتضع فيه بيضها، وقد سعت تلك الأقوام ليجدوا لأنفسهم مخرجا ولو بمقدار

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٦٨، بحار الأنوار: ج٨ ص١٢٦.

المحيص فلم يقدروا، ووقع بهم العذاب.

[٣٧] وما في التاريخ من دروس وعبر آيات تستثير عقل الإنسان وتهديه الى الحق، ولكن بشرط أن يتجاوز الأغلال والأثقال التي تمنع النفس من التحليق في سماء الهداية والمعرفة، وتعيق العقل من العبور خلال الشواهد والآيات الى الحقائق.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ تستنقذ البشر من الغفلة والضلال، وتعود إلى الحق الذي فطر عليه أن آيات الله سواء التي تتضمنها رسالته، أو تلك التي تتجلى في نفس الإنسان وفي الآفاق، أو التي تجلت ولا زالت تتجلى في تاريخ البشرية، إنها كلها تشع بأمواج الهداية والتذكرة، ولكن من الذي تنفعه هذه الآيات فتكون له ذكرى في الحياة؟ إنما صاحب القلب.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ يعني يعقل به، والقلب هو جوهر النفس أو قطب الرحى منها ومجمع الإرادة والقرار الداخلي فهو محل التسليم للمعرفة بينما العقل هو قوة العلم ووسيلته، وإنما سميت النفس قلبا تقلبها من حال إلى حال، أو بسبب تقليب المعلومات سعيا وراء المعارف الجديدة إن جعل القلب هو العقل.

وصاحب القلب هو الذي يقلّب الأمور بتفكيره على وجوهها المتعددة ليتبع أحسنها بعد نظرة عميقة شاملة. يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]، ولعل المقصود بأولي الألباب هم العلماء الذين يفقهون معاني الآيات باستثارة عقولهم مما نجد لهم إشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]، قال الإمام الكاظم عليه السلام: «يَا هِشَامُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: فِي كِتَابِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ. يَعْنِي عَقْلٌ»[1] ولا ريب أن أهل بيت العصمة وأئمة الهدى عليهم السلام أئمة العقلاء والراسخين في العلم فهم أجلى مصاديق هذه الآية الكريمة ولا غرابة أن يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أَلَا وَإِنِّي مَخْصُوصٌ فِي الْقُرْآنِ بِأَسْمَاءٍ، احْذَرُوا أَنْ تَغْلِبُوا عَلَيْهَا فَتَضِلُّوا فِي دِينِكُمْ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أَنَا ذَلِكَ الصَّادِقُ، وَأَنَا الْمُؤَذِّنُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَنَا ذَلِكَ الْمُؤَذِّنُ. وَقَالَ: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ وَأَنَا ذَلِكَ الأَذَانُ. وَأَنَا الْمُحْسِنُ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وَأَنَا ذُو الْقَلْبِ. يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾»[2].

(١) الكافي: ج١ ص١٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٣ ص٢٨٢.

وإذا لم يكن الإنسان عالما يستطيع التذكر والاهتداء الى الحق بنفسه، فإنه يجد سبيلا الى ذلك بالاستماع الى آيات الله واتباع أئمة الحق والهدى والعلماء الصالحين ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إن المشكلة الحقيقية للانسان الذي لايهتدي ليست عدم وجود القلب أو السمع، وإنما هي توظيفه لهما، كما جوارحه وإمكاناته الأخرى في الأمور السافلة أو التافهة. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولوجود هذه المشكلة يشرط القرآن على الإنسان شرطين حتى ينتفع بسمعه من كلام الآخرين وتجاربهم من آيات الذكر.

أولاً: أن يوظف سمعه ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾.

ثانياً: أن لا يكون السمع بذاته هدفا فيقف الواحد عند الحروف أو عند حدود العلم، بل يَعُدُّ السمع وسيلة الى هدف هو العمل بالحق، والحروف والعلم طريقا الى الموعظة. وبكلمة، لابد أن يكون مسؤولا ﴿شَهِيدٌ﴾ على ما يصله من العلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٢].

وقال مبيِّنا هدف السمع وبعض الجوارح ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. ويضرب القرآن مثلا للمستمع الشهيد من واقع المؤمنين الذين يذكرون الله على كل حال وفي كل حين فيقول حاكيا عنهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. إن السمع الذي لا يملك صاحبه الاستعداد لتحمل مسؤوليته لاينفع شيئًا، وماذا يستفيد من سماع الحق ذلك الإنسان الذي يتهرب من مسؤوليته بالتكبر أو التبرير أو الاستهزاء: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: ٧-٩]. وتجارب التاريخ البشري تحملنا مسؤولية الإيمان بالله فإذا لم يتجاوز سماع هذه التجارب إلى الإيمان فما قيمة سماعنا لها؟

[٣٨] وكما تتجلى آيات قدرة الله في التاريخ البشري بصورة إهلاك الأقوام المكذبة، فإنها تتجلى في الطبيعة بصورة أخرى تتجسد في الخلق والابداع والتفكر في تلك الآيات تفكيرا

عميقا (بالقلب السليم والسمع الشهيد) كفيل بأن يجعل فكرة البعث فكرة واقعية، ويدفع الإنسان للتصديق بالرجوع بعد الموت فلا تصبح الفكرة عندها أمرا شاذا (عجيبا)، ولا البعث مستحيلا (بعيدا) كما يعتقد الكافرون.

دعنا ننظر نظرة عميقة الى الطبيعة من حولنا، ولنركز الفكر في خلق الأرض التي تقلنا، والسماء الواسعة التي تظلنا، ولنتساءل: أيها أعظم، هل خلقهما أم خلق الإنسان هذا الذي لا يكاد يبين بالقياس إليها؟! لا ريب أنها أعظم خلقا وأعقد ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمن: ٥٧]، ومع ذلك فإن خلقهما وما بينهما تم في ستة أيام، ولم يكن مضنيا.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ولعلنا نتساءل لماذا لم يتم الله ذلك الخلق في مدة أقل؟ وربما يذهب بعضنا الى القول بأنه كان يتعب فيستريح، كلا. ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ إن الله قادر على خلق كل شيء في مدة يتلاشى فيها الحساب الزمني، وإنما جعل الخلق في ستة أيام لحكمة يعلمها، أنه أراد بيان حقيقة مهمة لنا، وهي أن كل شيء في الحياة لم يخلق كاملا منذ أول لحظة، وإنما هو يسير نحو التكامل، وحتى أنت أيها الإنسان في مسيرة البناء الذاتي أو الحضاري ينبغي لك التحرك نحو الأسمى.

ومادام الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في هذه المدة ومن دون أن يمسه شيء من التعب أو التكلف، فهل يصعب عليه بعثنا يوم القيامة؟ وما نحن قياساً لذلك الخلق حتى يصعب على مبتدعه خلقنا مرة أخرى؟! ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، ثم مباشرةً يحدثنا عن يوم القيامة فيقول: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٤]، والصلة المختصة بين الحديث عن آيات الطبيعة وعظمتها، والحديث عن يوم القيامة لإثبات فكرة البعث من خلال تلك الآيات والعظمة صلة صميمة تتجلى في كل آيات القرآن.

[٣٩-٤٠] ويكاد قلب المؤمن يتفطر من تكذيب الكفار بحقيقة البعث والجزاء التي يتلمسها المؤمن وراء كل ظاهرة وفي كل أفق وفي كل لحظة من حياته، الأمر الذي قد يستدعي منحه زخة من الصبر.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ونجد في موضع من القرآن توجيها مشابها من قبل الله للرسول ﷺ وللمؤمنين، يقول تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾

[المزمل: ١٠]. ولابد للانسان حتى يقاوم مختلف الضغوط المضادة للحق من الاتصال بالله بالصلاة والعبادة، ليتعرف إلى ربه أكثر فيتنزهه عن الأباطيل، وليستمد منه العون والتوكل لذلك يقول تعالى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وهكذا يقول في سورة الاسراء وصلا بالشاهد المتقدم: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٨-٨٠]. إن هذا التأكيد على الاتصال بالله بالصلاة وبالقرآن وبالدعاء في حال تعرض الإنسان المؤمن للضغوط المضادة هو تعبير بصورة أخرى عما تنطوي عليه هذه الآية من سورة (ق).

ولأن القرآن يفسر بعضه بعضا فاننا نجد تفسيرا للعلاقة بين الصبر والصلاة ودورهما في مقاومة الضغوط في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وفي هذه السورة يدعو الله نبيه ومن خلال ذلك المؤمنين عبر الزمن والأجيال الى الاتصال به بالصلاة وفي مرات عديدة كل يوم.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني بين الطلوعين، طلوع الفجر وطلوع الشمس، وتسبيح الله يكون بالذكر وبالصلاة وبالقرآن، وهنا تأكيدات عديدة في النصوص الاسلامية على ضرورة استثمار هذه الفترة بالاتصال بالله، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقال النبي الأعظم ﷺ: «مَا عَجَّتِ الأَرْضُ إِلَى رَبِّهَا عَزَّ وجَلَّ كَعَجِيجِهَا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ دَمٍ حَرَامٍ يُسْفَكُ عَلَيْهَا أَوِ اغْتِسَالٍ مِنْ زِنًى أَوِ النَّوْمِ عَلَيْهَا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاطْلُبُوا الرِّزْقَ فِيمَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ فَإِنَّهُ أَسْرَعُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ مِنَ الضَّرْبِ فِي الأَرْضِ وهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي يُقَسِّمُ اللهُ فِيهَا الرِّزْقَ بَيْنَ عِبَادِهِ»[2].

وسئل الصادق عليه السلام عن الآية فقال: «تَقُولُ حِينَ تُصْبِحُ وَحِينَ تُمْسِي عَشْرَ مَرَّاتٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[3].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٢٠.
(٢) وسائل الشيعة: ج٧ ص٧٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٩ ص٣٢٨.

وهكذا ينبغي أن يفتتح الإنسان المؤمن يومه الجديد بالذكر والصلاة والقرآن، يستمد من كل ذلك زخما روحيا يزيده نشاطا في عمله، وإرادة يتحدّى بها شبهات الكفار وأضاليلهم، وكل الضغوط التي يواجهها في حياته اليومية، ولأن الإنسان قد يتعرض لتحدي الضغوط، وربما ضعف أمامها أكثر من مرة في اليوم الواحد، لذلك تأتي الدعوة اليه في طرفي النهار وطرفي الليل.

﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني أوله حيث صلاة المغرب والعشاء ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ يعني النافلة التي تعقب صلاة المغرب (الأربع أو الغفيلة) قال الإمام الرضا عليه السلام: «أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ بَعْدَ المَغْرِبِ»[1] وعن زرارة قلت: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؟، قال -الإمام الصادق عليه السلام-: «رَكْعَتَانِ بَعْدَ المَغْرِبِ»[2].

[٤١-٤٢] وبالإضافة إلى الصبر والتسبيح ينبغي للمؤمن لكي يقاوم تحديات الأعداء أن يفكر في الآخرة وفي المصير الذي ينتهون إليه في الدنيا حينما يظهر المؤمنون بدولة الحق ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ قال علي بن أبراهيم رحمه الله: «يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ بِاسْمِ القَائِمِ وَاسْمِ أَبِيهِ». وعن الصيحة قال: «صَيْحَةُ القَائِمِ مِنَ السَّمَاءِ»[3] إن العاقبة السوء التي تنتظر أعداء الرسالة تكون في الآخرة متجسدة في ألوان العذاب الإلهي، ولكنها تتجلى دنيويا في دولة الحق التي يظهر بها قائم أهل البيت عليهم السلام.

وكما أن دولة القائم (عج) هي تجلٍّ أصغر لعذاب الآخرة على الظلمة، فإن دولة الحق التي تظهر على أيدي المؤمنين من جهة أخرى هي تجلٍ محدود لهذه الدولة، وإلى هذه الفكرة نجد إشارة في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧]. ولعل كلمة الخروج في الآية التي نحن بصدد تفسيرها تعني -بالإضافة إلى الخروج إلى البعث- خروج دولة الحق.

[٤٣] ثم يعود السياق الى تأكيد الحقيقة التي يُكَذِّب بها الكافرون فكانت سببا لانحرافات بعيدة أخرى في حياتهم، وهي البعث بعد الموت، وقد تقدمت الاشارة اليها في قوله تعالى، حاكيا عن الكفار: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٢٧.
(٢) الكافي: ج٣ ص٤٤٤.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص١١٨.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ بلى؛ قد تكون هناك أسباب طبيعية ظاهرية للحياة والموت، ولكن الواقع الذي يغيب عن أذهاننا أنها والبعث بيد الله، وهذه الحقائق الثلاث (الحياة والموت والبعث) تثبت بعضها بعضا. ولو أن الكافرين تفكروا في وجودهم وحياتهم لاهتدوا الى أن الله هو الذي أوجدهم وأنه الذي يميتهم وأنهم يبعثون، وليس كما زعموا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

[٤٤] إن مشكلة الإنسان العميقة التي تجعله يكفر بالبعث أو يشك في الآخرة، هي شكه في قدرة الله، بسبب نظرته المحدودة الى الحياة، فإذا به يستبعد كما في هذه السورة أن يرجع الإنسان سويا بعد تحوله الى تراب أو رميم من العظام لذلك يؤكد الله يسر الأمر عليه فيقول: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ كما تشقق عن الفطر والنبات، ولكن العملية تتم في فترة زمنية وجيزة جدا، فإذا بالناس جميعا وقوف ينظرون، وهذه من أصعب الساعات على البشر، قال الامام علي بن الحسين عليه السلام: «أَشَدُّ سَاعَاتِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ، السَّاعَةُ الَّتِي يُعَايِنُ فِيهَا مَلَكَ الْمَوْتِ، وَالسَّاعَةُ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا مِنْ قَبْرِهِ، وَالسَّاعَةُ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ..»[1].

وقال أمير المؤمنين الإمام علي: «لَا تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَمَلَكَانِ آخِذَانِ بِضَبْعِهِ[2] يَقُولَانِ: أَجِبْ رَبَّ الْعِزَّةِ»[3].

[٤٥] ويختم الله السورة بالتأكيد للنبي -ولكل داعية الى الحق- بأنه ليس مسؤولا عن الناس وليس عليه أن يجبر الناس على قبول الحق، وإنما مسؤوليته تتلخص في تبليغ رسالته اليهم، أما الحساب الفصل فهو عند الله، الذي هو أحرص على رسالته، وأعلم بمواقف الناس تجاهها.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وما هي قيمة الإيمان الذي لا يأتي عن قناعة راسخة بضرورته؟ إنه لا ينفع صاحبه، ولا يخدم الرسالة، وفي هذه الآية بيان لجانب من الحرية في دين الله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٩ ص١٧٣.

(٢) قال الفيروزآبادي: الضبع: العضد كلها أو وسطها بلحمها، أو الإبط أو مابين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه.

(٣) بحار الأنوار: ج٧ ص١٠٦.

سورة الذاريات

* مكية.
* عدد آياتها: ٦٠.
* ترتيبها النزولي: ٦٧.
* ترتيبها في المصحف: ٥١.
* نزلت بعد سورة الأحقاف.

فضل السُورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ والذَّارِيَاتِ فِي يَوْمِهِ أَوْ فِي لَيْلَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ لَهُ مَعِيشَتَهُ وأَتَاهُ بِرِزْقٍ وَاسِعٍ ونَوَّرَهُ فِي قَبْرِهِ بِسِرَاجٍ يَزْهَرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

(ثواب الأعمال: ص١١٥)

الإطار العام

لماذا خلق الله مخلوقاته؟

مثلما تذرو الأعاصير الحطام ذرواً، ومثلما تحمل السحب وِقْر الغيث إلى الأرض العطشى، ومثلما تجري السفن الثقيلة في البحر سيراً، و كما يقسم ملائكة الله أرزاق العباد أمراً، كذلك وعد الله صدق حقاً حقاً. متى؟ في يوم الجزاء الذي لا ريب فيه.(الآيات: ١-٦)

هكذا تنتظم آيات سورة الذاريات حول محور المسؤولية التي يهدينا إليها التدبير القائم في الخليقة، وأن كل شيء خُلِق بقدر، وإلى أجل، ولحكمة بالغة.. أفيترك هذا الإنسان الذي سُخِّرت له الأشياء سدىً؟ أو يمكن أن يكون خلقه عبثاً بلا حكمة ولا هدف؟

كلا؛ قَسَماً بالسماء المنتظمة كحلقات الدرع المتينة؛ إن الرسالة حق، وإنما اختلفوا فيها أو انحرفوا عنها لأنهم خراصون، إن يتبعون إلا ظناً، ولم يأخذوا الأمور بجد، بل تغمرهم أمواج الأماني، ساهين عما ينتظرهم، ويسألون باستهزاء: متى يأتي الجزاء؟ هل يدرون أيّان يوم الجزاء؟ عندما يُعرضون على النار عرضاً، وقبل أن يلقوا فيها يُقال لهم: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الآيات: ٧-١٤).

أوليس هذا الجزاء الحق كان لإيقاظ الإنسان من سباته، وإنقاذه من غمرات السهو؟ بلى؛ وفي الجانب الآخر انظر إلى المتقين الذين آمنوا بالجزاء، فتجنبوا النار وما يجرهم إليها في الدنيا، أين تراهم اليوم؟ إنهم في جنات وعيون، وكما أحسنوا في الدنيا بالعطاء تراهم اليوم يأخذون عطاءهم من ربهم.

أي عمل عظيم قاموا به فبلغوا هذه الدرجات العلى؟.

كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون تبتلاً إلى الله تعالى، وبالأسحار هم يستغفرون تطهراً من الذنوب وتطلعاً إلى المغفرة والرضوان، وقد وضعوا على أنفسهم في أموالهم حقاً مفروضاً

للسائل والمحروم، غير الواجبات التي فُرِضت عليهم، إحساناً وفضلاً (الآيات: ١٥-١٩).

أفلا يكفي ذلك باعثاً للصالحات، وداعياً إلى المكرمات؟ أفلا يكفينا سهواً وغفلة وهزلاً؟

وإذا نظرت إلى الأرض كيف مُهّدت للحياة، وإلى النفس كيف انطوت على عالم كبير اختصرت آيات الخليقة في كل خلية منها، وإلى السماء كيف يتنزل منها رزق الله وما وعده الداعين من فضله، لعرفت أنه الحق كما أنك لاترتاب في نطقك (الآيات: ٢٠-٢٣).

ويضرب القرآن مثلاً من ضيف النبي إبراهيم عليه السلام المكرمين، كيف بشروه بغلام عليم لأنه أطاع الله تعالى، وحملوا العذاب إلى قوم النبي لوط عليه السلام لأنهم كذبوه، أوليس ذلك دليلاً على أن وعد الله صادق، وأن الدين لواقع، وأن الرسالة حق لا يحتمل السهو واللهو والسخرية؟

كما أن استجابة الدعاء لامرأة إبراهيم العجوز العقيم لشاهد صدق على تدبير الله للخلق، وأن وعده لصادق عندما أمرنا بالدعاء ضمن الإجابة (الآيات: ٢٤-٣٧).

و يقص السياق عاقبة فرعون الذي كذب برسالة النبي موسى عليه السلام الذي جاءه بسلطان مبين، فأخذه الله -وجنوده- فألقاه في اليم غير مأسوف عليه (الآيات: ٣٨-٤٠)، كذلك يشير إلى قصة عاد الذين أرسل عليهم ريحاً مدمرة، وقصة ثمود الذين أخذتهم الصيحة، وقصة قوم نوح عليه السلام الذين لفهم الطوفان، كل أولئك الذين فسقوا عن أمر الله فدمر عليهم، فهل هذا سهو أم هزل؟ (الآيات: ٤١-٤٦).

كلا؛ ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق والحكمة.

تعالوا ننظر إلى السماء التي بناها الله بقوة وإنه لموسعها، وإلى الأرض فرشها برحمته، وخلق من كل شيء زوجين، لعلنا نتذكر وحدته وحسن تأليفه وتدبيره.

على أية بصيرة تشهد كل هذه الحقائق؟ أو ليس على أنه سبحانه المدبر والسلطان المهيمن؟ ألا نفر إليه لنأمن في كهفه من عواصف الفتن، وقواصف العذاب، سالمين من فتنة الشركاء والأنداد الذين ينهبون في الدنيا حقوقنا ويقودوننا في الآخرة إلى سواء الجحيم؟ (الآيات: ٤٧-٥١)

من أجل هذا جاء الرسول وجاءت سائر الرسالات، ولكن الناس تمردوا وقالوا عن كل واحد منهم أنه شاعر أو مجنون، فهل تواصوا بذلك أم هم قوم طاغون؟ (الآيات: ٥٢-٥٣).

ذرهم في غيهم غير ملوم عليهم، وتوجه للقاء المؤمنين فذكّرهم، إن الذكرى تنفعهم.(الآيات: ٥٤-٥٥).

و كذلك جاء الرسل لتحرير الإنسان من نير العبودية الشركية إلى رحاب عبودية الرب الواحد، وإنما لحكمة خلق الجن والإنس، فما خلقهم الله ليربح عليهم أو يعطوه شيئاً، تعالى الله ذو القوة المتين أن يصل إليه نفع من عباده أنى كان صغيرا (الآيات: ٥٦-٥٨).

إذن؛ فما هي عاقبة هؤلاء الظالمين والكافرين؟ دعهم يستعجلون العذاب، فإن نصيبهم منه مضمون وإنهم لمعذبون مثل سلفهم الغابر، وإن لهم الويل في يوم المعاد عندما يحيق بهم ما استهزؤوا به.

وهكذا تختم السورة بما يبدو أنه محور السورة الأساس؛ أي حكمة خلق الله للإنس والجن المتمثلة في عبادته (الآيات: ٥٩-٦٠).

يسألون أيان يوم الدين؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ[١] ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا[٢] (٢) فَالْجَارِيَاتِ[٣] يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا[٤] (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ[٥] (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ[٦] عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ[٧] (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[٨] (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ[٩] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾.

---

(١) الذاريات: هي الرياح التي تذروا التراب وغيرها.

(٢) فالحاملات وقراً: الأشياء التي تحمل حملًا ثقيلًا سواءاً كانت تلك الحاملات التي تحمل الأمطار أو السفن التي تحمل الإنسان وغيره أو نحوهما، تسير بسبب الذاريات.

(٣) فالجاريات: أي السفن أو السحب.

(٤) فالمقسمات أمراً: هم الملائكة التي خلقها الله وجعلها تقسم أمور الكون.

(٥) الحبك: أي الطرائق والطرق الحسنة.

(٦) يؤفك: يصرَف.

(٧) الخراصون: الخرَّاص الذي يخمّن بدون علم.

(٨) ما يهجعون: الهجوع النوم، أي قليلًا من الليل ينامون، فـ ﴿مَا﴾ زائدة، أو المراد قليلًا من الليل لا ينامون فـ ﴿مَا﴾ نافية.

(٩) بالأسحار: السحر هو الثلث الأخير من الليل.

هدى من الآيات:

في سورة الذاريات المكية التي تحتوي على ستين آية مباركة نقرأ قول الله سبحانه وتعالى في الآية السادسة بعد الخمسين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وكما سبق أن نوّهنا إلى أن بعض الآيات القرآنية تُعدُّ محورا للسياق القرآني في السورة، وربما تكون الآية الواحدة في السورة مفتاحا لفهم السورة بأكملها، والآية (المحور) التي جاءت السورة من أجلها ومن أجل تكريس مفهومها ومضمونها، كما مثلا آية الشورى في سورة الشورى أو آية النور في سورة النور وآية الحديد في سورة الحديد أو ما أشبه.

ولعل الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هي الآية (المحور) في سورة الذاريات، حيث تبعثنا -نحن البشر- إلى التوجه بكليتنا لرب العالمين، والتخلص من الأثقال المادية والأصر النفسية والأغلال الاجتماعية، وفارين إليه من ذنوبنا وجهالتنا، هاربين إلى قوته وقدرته من الضعف والعجز اللذين نرتكس فيهما ارتكاسا.

وإن عبادة الله تعني التحرر من كل عبودية أخرى، من عبودية الهوى والشهوة والمال والسلطة، والتقاليد والأعراف، مما يمنح الإنسان الكرامة التامة، وآنئذ يرتفع إلى مستوى التقرب إلى الله حتى يهب له الرب قدرة لا تحد، وحياة لا تنتهي، جاء في حديث قدسي عن رب العزة سبحانه أنه يقول: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ، أَجْعَلْكَ غَنِيّاً لَا تَفْتَقِرُ. يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ حَيّاً لَا تَمُوتُ. يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ»[1].

إنه آنئذ يكون خليفة الله ليس في الأرض فقط بل في الطبيعة أيضا، ففي الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ خَافَ اللهَ أَخَافَ اللهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ»[2].

بينما يكون العكس حينما يعبد غير الله، حيث يصبح ضعيفا حقيرا أمامه، لا يملك من حول أو قوة: «وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللهَ أَخَافَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[3].

بينات من الآيات:

[١ - ٤] تبدأ سورة الذاريات بآيات تشير إلى ما في الكون من مظاهر قدرة الله وتجليات

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠ ص٣٧٩.

(٢) الكافي: ج٢ ص٦٨.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢١٩.

تدبيره: فهذه الدورة الحياتية التي تبدأ بالرياح تذرو البذور وتنشرها لتتلاقح، ثم تحمل السحب الثقيلة بالغيث وتجري في السماء بيسر، بالرغم من الوقر الذي تحمله، ثم يقسمها الله حسب مساحات الأرض بتقدير حكيم تفيض على السهول والروابي والجبال وعلى الأراضي البعيدة كما القريبة.

وعشرات الألوف من السنن والأنظمة تتولى تدبير هذه الدورة النباتية التي ينهض كل عامل فيها بدوره المرسوم، وتتكامل العوامل حتى تبني حياة زاخرة بالخير والبركة.

أوَلَيس في ذلك عبرة تهدينا إلى ما وراءها من تقدير وتدبير، وأن الإنسان الذي تخدمه هذه المنظومة المتكاملة من العوامل لا يمكن أن يخلق عبثا أو يترك سدى. إنه هو الآخر جاء لحكمة بالغة، ويذهب وفق سنة نافذة، وتحكمه سنة الجزاء العادل.

هكذا تتواصل آيات الكتاب المبين ببلاغة معجزة وفي أيمان متلاحقة لتبصرنا بأن الوعيد حق والجزاء واقع لا ريب فيه، وهذه من أبرز غايات القسم في آيات الذكر الذي سوف نجده بتكرار في فواتح السور الآتية، وسوف نذكر -كما ذكرنا مرارا- بغاياته المتنوعة.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ إنها الرياح التي تنشر الغبار والأوراق والبذور. ما أقدرها من قوة، وما أعظم تدبير من سخَّرها لبث البذور في الفلوات والمفازات المتباعدة..

تفكر ماذا لو سكنت الريح، ولم تكن هذه العواصف الموج والأعاصير الرهيبة، كيف كانت تنتشر في الأرض بذور النباتات الطبيعية التي تكمل كل واحدة منها الأخرى، وهي جميعا ضرورة قصوى في دورات الحياة النباتية والحيوانية.

إننا نمر خلال أراضي شاسعة ونجد آثار الحياة في بقعة بقعة وقيعة قيعة، ولا نعرف ما وراءها من أسرار ذرو النباتات وتلاقحها، وما في كل واحدة من دور عظيم في منظومة الحياة المتكاملة، ولو فكرنا وعلمنا لما وسعنا إلا أن نهتف مسبحين: الله أكبر.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ بعدما تستقر البذور في رحم الأرض تجري الرياح إلى مراكز السحب فوق البحار والمحيطات وتحمل كتل الماء الثقيلة بعيدا عن مجال تكونها لتسقي الأرض من أعلى فلا يبقى موقع جافا، ويفيض موقع آخر فيضانا مضرا. من الذي قدَّر أمر هذه السحب ومواقع سقياها. أوليس المدبر الحكيم؟

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ هذه السحب تجري بيسر، ثم تهطل فتمتلئ الروافد والأنهر، وتجري فوقها السفن بيسر لتصبح أفضل وسيلة لتبادل البضائع بين الأمم منذ أن خلق الله الإنسان

وحتى اليوم.

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ إنهم الملائكة الذين يشرفون بأمر الله على تدبير هذه العوامل الحياتية.
جاء في الحديث أن ابن الكوّاء (وكان خارجيا) سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾؟ قال عليه السلام: الرِّيَاحُ، وعن: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ فقال عليه السلام: السَّحَابُ، وعن: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ فقال عليه السلام: السُّفُنُ، وعن: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ فقال عليه السلام: المَلائِكَةُ[1].

[٥] إذا كان معنى القسم في كلامنا -نحن البشر- اتصال موضوعة بأخرى بصورة اعتيادية فإن معناه في كلام الرب اتصالها بالحق. أرأيت لو قلت: وعمري إنني صادق، ماذا يكون معناه؟ أوَلَيس معناه أنك ربطت صدقك بعمرك، وزعمت أنهما موضوعتان متصلتان حتى لو فقدت إحداهما (صدقك) كانت الثانية (عمرك) مفقودة هي الأخرى؟.

وقد لا تكون الموضوعتان متصلتين ببعضهما في الواقع بل في اعتبارك أو تقديرك فقط.

بينما إذا جاء القسم في كلام ربنا فإن اتصاله بما أقسم له حق وواقع لا ريب فيه، فإذا قرأنا في القرآن الكريم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]. وتلونا بعدها: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]. فإن معنى ذلك أن هناك اتصالا واقعيا بين خلقة الإنسان في أحسن تقويم وبين ما سبق من التين والزيتون (اللذين بهما طعامه)، وطور سينين (الذي يحمي البلاد من الأعاصير والأعداء، ويوفر الكثير من عوامل الحضارة) والبلد الأمين (الذي يزرع السكينة في نفوس الناس) بين كل ذلك وقوام خلق الإنسان.

كذلك في هذا السياق حينما أقسم الله بالرياح التي تذرو، والسحب التي تسقي، والسفن التي تجري، والملائكة الذين يقسمون أمرا، فإن هناك ربطا بينها وبين الحقيقة التالية:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾

أولاً: لأن رب السماء المدبر لهذه القوى العظيمة لا يخلف وعده، وهل يخلف وعده إلا العاجز، وهل لنا أن نتصور شيئا من العجز في مقام ربنا القوي القاهر المقدر الذي حمل الرياح العاصفة هذه المقادير العظيمة من الماء، وساقها من فوقنا إلى حيث شاء من الأرض الميتة فأحياها؟ كلا.. إنه صادق الوعيد، وحق لنا أن نخشاه قبل أن يحل بأرضنا الدمار والبوار.

ثانياً: إن كل تلك القوى المحيطة بنا تؤدي دورها حسب تقدير العزيز العليم، فكيف لا يخضع الإنسان لذلك التقدير؟ كيف ترك يتبع هواه؟ ولماذا جاءته النذر من بين يديه ومن خلفه

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٦، ص١٦٥.

يحذرونه من عذاب شديد؟ بلى، إنه لم يترك إلى الأبد، إنما ليوم الفصل حيث ينتظره الوعيد الصادق. دعنا إذن نحذر الآخرة، ونتقي ما يعرضنا فيها للعذاب، هكذا تتصل حقائق القسم السابقة بحقيقة الوعيد الذي أنذر به البشر.

[٦] ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ الدين: (ذلك الجزاء الأوفى الذي بشرنا به لو اتقينا الرب) حق، ويقع في ميعاده المحدد.

قالوا: الدين هو الجزاء، وإن يوم الدين هو يوم الجزاء، وإذا فالدين -حسب هذا الرأي- يقع في الآخرة. ولكن الأمثال التي يضربها القرآن فيما يأتي من واقع التاريخ البشري في الدنيا لا تخص بالآخرة، وحتى كلمة الدين عامة تشمل الدنيا، بلى، الجزاء الأوفى في الحياة الأخرى أما الدنيا فالجزاء فيها محدود.

إن تقدير الله حكيم، وتقسيم الملائكة الأمر يجري وفق ذلك التقدير، فكيف لا يتصل بسلوك البشر وما يختاره لنفسه من خير وشر.

الأمنة والخوف، التقدم والتخلف، الغنى والفقر، الصحة والمرض، الوفرة والجدب، كل ذلك يخضع لتقدير الرب الحكيم، ولعل وعي هذه الحقيقة يفتح أبواب المعرفة أمام الإنسان، ويعطيه مفك ألغاز الخليقة من حوله، ويضعه على المنهج السليم في بحثه عن العلل والأسباب. إنه باختصار سبيله نحو الحضارة. أليس التخلف ناشئا من الفصل بين سلوك الإنسان وواقعه، إذا فإن الخلاص منه يكون بمعرفة اتصالهما ببعضهما اتصال العلة بالمعلول.

أكثر الناس يجهلون أو يغفلون عن هذه الحقيقة أن ظواهر الطبيعة وأحداثها تخضع لتقدير حكيم، وأن سلوك كل واحد من أبناء البشر يؤثر -بقدره- في هذه الظواهر، لذلك فهم يتمنون تحسن حياتهم، ولكن دون أن يسعوا إلى ذلك بتحسين سلوكهم، والقرآن لا ينفك عن تأكيد هذه الحقيقة لعلنا نبلغ أهدافنا بأقصر السبل وآمنها ألا وإنه إصلاح الذات لإصلاح الحياة.

[٧] ثم يقسم الرب تبارك وتعالى بالسماء التي أحكمت إحكاما، التي تشبه الدروع المحبوكة، المتصلة حلقاتها مع بعضها بمتانة وقوة.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ لعل القرآن الحكيم يشّبه السماء بالدرع، وعندئذ يعطي لها هذا التشبيه صفات ثلاث:

الأولى: أنها قوية متينة كما الدرع.

الثانية: أنها تحفظ الأرض من النيازك والغازات السامة.

الثالثة: أن كراتها شبيهة بحلقات الدرع فهي متناثرة ولكنها ترتبط مع بعضها البعض برباط وثيق. إن الإنسان يزعم بادئ النظر أن لا صلة للشمس بالأرض وللأرض بالقمر أو أنه لا علاقة بين أجرام المنظومات الشمسية ومنظومات المجرات، كلا.. هناك ما يشبه غلالة من الجاذبية تربط بين جميع الكرات والمنظومات والمجرات كما تتصل حلقات الدرع تماما..

[٨] إن التفاعل بين أجرام السماء وأجزاء الأرض لا بد أن ينعكس على التكامل بين معارف الإنسان. أوَلَيس العلم مرآة صافية لما في الواقع، فلماذا التناقض والاختلاف عند البشر؟ لماذا هذه الآراء المتباينة؟ وهذا الحشد الكبير من النظريات التي لا تستقر على أساس؟ أليس ذلك دليلا على مدى جهل البشر، فلماذا التعصب لآرائه في مواجهة بصائر الوحي؟

انظر إلى أقوالهم في الوحي ذاته. إنهم لا يدرون كيف يبرِّرون كفرهم بهذه الحقيقة التي تكاد تفرض نفسها عليهم فرضا! تراهم يقولون حينا: إنه شاعر، وحينا يقولون: بل هو مجنون، ويزعمون حينا بأنه مفترٍ كذاب!

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ قالوا: المراد أنهم اختلفوا في قضية الوحي أو الحشر أو الرسالة أو الولاية، فيكون المعنى: إنكم أمام قول (الوحي) قد اختلف فيه، فماذا يكون موقفكم، هل تنكرونه كما كفر به الآخرون، أم تسلِّمون له كما قبله المؤمنون؟

[٩] وهذا القول المتمثل في الوحي الإلهي تسنده الحجج البالغة، وإنما يكفر به الذين تبعدهم ضلالات الشيطان عنه.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أما من لا يتعرَّض للتضليل الشيطاني وكذبه ودجله وأنواع إفكه فإنه لا ينصرف عنه، لأنه حق لا ريب فيه.

[١٠] والذي يؤفك عن الحقيقة تحيط به الظنون والتصورات. أرأيت الذي لا يعرف وزن التمر على النخل فيطفق بالتخريص كذلك يخرِّص المنحرفون في فهم حقائق الخلق.. ويا ويلهم كيف يفسرون بأذهانهم القاصرة ومعارفهم المحدودة قضايا الخليقة اللطيفة والغائرة.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ إنها لعنته الأبدية التي تلاحقهم، وأي جريمة أكبر من ترك العلم إلى الجهل، واليقين إلى الظن، والوحي إلى التخرص، وهل ابتلي الإنسان بمصيبة أكبر من الضلالة، وفتنة أشد من الجهالة؟

ولعل الآية تشمل كل أنواع التخريص والقول بغير علم أنى كان.

وقالوا في معنى الآية: إنها «دعاء بالقتل والفناء»[1]، لأن فائدة وجود الإنسان علمه فإذا ترك علمه كان الموت أولى له. وقالوا تعني: «اللعنة والطرد من رحمة الله».

[١١] أرأيت الذي تغمره أمواج الماء؟ هل يقدر على أن يبصر شيئا أو يقرر أمرا؟ كذلك الذين تحيط بهم أمواج الخيالات والتخرصات ساهون عن الحقائق.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ إذا تخلص فكرة من دعايات أبواق الشيطان أحاطت به موجة من إثارة الشهوات، وإذا انحسرت عنه الأماني الخادعة طغت عليه موجات القلق والاضطراب والخشية من المستقبل، وهكذا تغمره أمواج الهواجس غمرة بعد غمرة حتى الموت.

[١٢] وبسبب تلاحق غمرات الهواجس والظنون على أفئدتهم يسهون عن حقيقة الموت وواقع الحساب، ولا ينفكون يبعدونه عن أذهانهم، ويتساءلون: متى هو؟

﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ إنهم يستبعدونه أو يستهزئون به، وبالتالي لا يأخذونه مأخذ الجد، ربما لأنهم غرقوا في الأفكار الساهية.

[١٣] وإنه آت لا ريب فيه، وما دام الأمر كذلك فعلينا الإعداد له لأنه رهيب. أوليس الذي يمتطي صهوة الزمن يسار به وإن كان واقفا؟ أوليس «وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ وكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ»[2] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام؟.

وماذا يستعجلون من يوم الدين، هل يستعجلون منه اللهيب الذي يحرق أبدانهم؟.

﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ كما يعرض الذهب على النار، ويبدو أن الكفار يعرضون في البدء على جهنم ثم يلقون فيها، ولعل ذلك لكي يقرأ عليهم حكم خلودهم في النار وسبب ذلك، كما يتلى على المحكوم بالإعدام الحكم وحيثياته قبل تنفيذه.

[١٤] في تلك اللحظة الرهيبة يبلغون الجواب عن سؤالهم الذي اقترن بالسخرية، ويكون الجواب بالطبع مطابقا للسؤال:

﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ هذه هي النار التي كنتم بها تستهزئون. إنها الفتنة التي تمثلت في الدنيا في صورة أوامر ونواهي وواجبات ومحرمات. إنها اليوم ظهرت على واقعها نارا متفجرة.

---

(١) راجع الكشاف للزمخشري: ج٤، ص١٥، جامع الجوامع للطبرسي: ج٣، ص٤٢٥.
(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٠٣.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من هذا الجواب نعرف طبيعة سؤالهم، وأنه كان مليئا بالسخرية والأفكار.

[١٥] في جانب آخر من الصورة نجد المتقين الذين حفظوا أنفسهم من أسباب الاحتراق بالنار، نجدهم في جنات وعيون ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل جنة نعيمها، ولكل عين شراب معلوم، وهم يسيحون فيها يتلذذون بما تشتهيه أنفسهم.

[١٦] ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ كما أخذوا في الدنيا بتعاليم ربهم مسلّمين لها يأخذون اليوم ثوابه العظيم.

وقالوا: الأخذ هنا بمعنى التملك، كأن تقول: فلان أخذ البلاد، فالجنة ليست بحكم المؤقت بل ملكهم الدائم.

وقالوا: صيغة الكلمة (آخذين) تدل على استمرار أخذهم به، لأن نعم الجنة لا يمكن أخذها مرة واحدة لأنها لا نهاية لها.

وقالوا: الأخذ يكون برضا وقبول، فهم راضون بنعيم الجنة أي رضى.

والكلمة كما يبدو تحتمل كل هذه المعاني وأكثر. هذا الأخذ كان في مقابل عطائهم، إنهم في الدنيا قبل الآخرة كانوا محسنين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ فإحسانهم على أنفسهم بالطاعات، وعلى الناس بالإنفاق والصدقات، كان ثمن أخذهم ثواب الله العظيم.

[١٧] سعي المتقين في النهار بهدف الإحسان، أما إذا آووا إلى مساكنهم اتخذوها محرابا للعبادة وفرصة للتهجد، فتراهم صافين أقدامهم يجأرون إلى ربهم، تكاد أرواحهم الطاهرة تفارق أبدانهم شوقا إلى الله وفرقا من عذابه.

إن معرفتهم بربهم وتطلعهم إلى القرب منه لا تدع أجسادهم تستريح إلى الفراش، وهل يستريح من يطلب أمرا عظيما. وإن خشيتهم من غضب ربهم وشديد عذابه تقض مضاجعهم فتتجافى جنوبهم عنها. أرأيت الذي حكم عليه بالإعدام غدا كيف ينام ليلته؟

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قالوا: الهجع النوم ليلا، ولعل الكلمة توحي بثلاثة ظلال حسب ما جاء في اللغة من مفرداتها:

الأول: عدم السكون التام في النوم، وبسبب تعلق قلوب المتقين بالآخرة لا تسكن تماما في الليل بل تسكن جوارحهم دون جوانحهم، ومنه التهجاع النومة الخفيفة.

الثاني: النوم في أول الليل دون آخره. قالوا: الهجعة: النومة الخفيفة من أول الليل.

الثالث: النوم المتقطع في بعض الليل. قالوا: الهجع من الليل: الطائفة منه، ويقال: زارني بعد هجع من الليل[1].

والآية بظاهرها على أن نومهم في كل ليلة قليل حسبما تدل على ذلك آيات أخرى كقوله سبحانه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩].

وللآية تفسير آخر: أن هؤلاء لم يكونوا يتركون قيام الليل إلا قليلا، وجاءت به الروايات فقد أثر عن محمد بن مسلم أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ قَالَ: «كَانُوا أَقَلَّ اللَّيَالِي تَفُوتُهُمْ لَا يَقُومُونَ فِيهَا»[2].

ولا يتنافى التفسيران، فهم يقومون كل الليالي إلا قليلا، وإذا قاموا إلى الصلاة لا ينامون إلا قليلا. وقد تواترت النصوص الدينية في التحريض على قيام الليل والتبتل إلى الله في رحم الظلام حيث تسكن النفوس، وتنام العيون، وتتساقط الحجب بين العبد وربه ويخلو الحبيب بحبيبه.. ويخيل لمن يتلوها أن قيام الليل واجب كسائر الفرائض.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لسليمان الديلمي: «يَا سُلَيْمَانُ لَا تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ فَإِنَّ الْمَغْبُونَ مَنْ حُرِمَ قِيَامَ اللَّيْلِ»[3].

وعنه عليه السلام: «لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ إِلَّا يُوقَظُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ مِرَاراً فَإِنْ قَامَ كَانَ ذَلِكَ وَإِلَّا فَحَّجَ الشَّيْطَانُ فَبَالَ فِي أُذُنِهِ أَ وَلَا يَرَى أَحَدُكُمْ أَنَّهُ إِذَا قَامَ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ (قيام الليل) قَامَ وَهُوَ مُتَخَثِّرٌ ثَقِيلٌ كَسْلَانُ»[4].

وعنه عليه السلام: «وَإِنِّي لَأَمْقُتُ الرَّجُلَ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ مِنَ اللَّيْلِ فَلَا يَقُومُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ قَامَ يُبَادِرُهُ بِصَلَاتِهِ»[5].

---

(١) انظر المعجم الوسيط: ج ١ ص ٩٧٣-٩٧٤.
(٢) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ١٦١.
(٣) المصدر السابق: ص ١٦٠.
(٤) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٤٧٨.
(٥) المصدر السابق: ص٤٧٩.

ولماذا نجد البعض يوفَّق لقيام الليل بينما لا يوفق غيره؟ تجيب النصوص الدينية أن ذنوب النهار تقيد الرجل عن ذلك، وبالذات الكذب والغيبة. يأتي رجل إلى أمير المؤمنين بن أبي طالب عليه السلام يقول: إني قد حرمت الصلاة بالليل فقال: «**أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ قَيَّدَتْكَ ذُنُوبُكَ**»[١].

وفي حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ فَيُحْرَمُ بِهَا صَلَاةَ اللَّيْلِ فَإِذَا حُرِمَ صَلَاةَ اللَّيْلِ حُرِمَ بِهَا الرِّزْقَ**»[٢]. أما إذا قرر الرجل القيام بالليل تائباً إلى الله، فإن الله سبحانه يغفر بذلك ذنوبه التي اقترفها بالنهار، هكذا يقول الإمام الصادق عليه السلام في ما روي عنه: «**صَلَاةُ المُؤْمِنِ بِاللَّيْلِ تَذْهَبُ بِمَا عَمِلَ مِنْ ذَنْبٍ بِالنَّهَارِ**»[٣]. ومثلما تتساقط الذنوب عن المتهجد بالليل فإن الأمراض تطرد من جسده، جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ فَإِنَّهَا سُنَّةُ نَبِيِّكُمْ وَأَدَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَمَطْرَدَةُ الدَّاءِ عَنْ أَجْسَادِكُمْ**»[٤].

كذلك تجلب صلاة الليل الرزق، حتى جاء في النص المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ وَيَجُوعُ بِالنَّهَارِ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ضَمَّنَ صَلَاةَ اللَّيْلِ قُوتَ النَّهَارِ**»[٥]. كما أن قيام الليل يزيد من شرف المؤمن، جاء في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرائيل أنه قال: «**شَرَفُ المُؤْمِنِ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزُّهُ كَفُّ الأَذَى عَنِ النَّاسِ**»[٦].

ونختم حديثنا عن صلاة الليل بحديث رائع عن علي بن محمد النوفلي عن أحد الأئمة عليهم السلام: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَقُومُ فِي اللَّيْلِ فَيَمِيلُ بِهِ النُّعَاسُ يَمِيناً وَشِمَالاً وَقَدْ وَقَعَ ذَقَنُهُ عَلَى صَدْرِهِ فَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى أَبْوَابَ السَّمَاءِ فَتُفَتَّحُ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي مَا يُصِيبُهُ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيَّ بِمَا لَمْ أَفْتَرِضْ عَلَيْهِ رَاجِياً مِنِّي لِثَلَاثِ خِصَالٍ: ذَنْباً أَغْفِرُهُ لَهُ، أَوْ تَوْبَةً أُجَدِّدُهَا لَهُ، أَوْ رِزْقاً أَزِيدُهُ فِيهِ، اشْهَدُوا مَلَائِكَتِي أَنِّي قَدْ جَمَعْتُهُنَّ لَهُ**»[٧].

[١٨] تتجاذب الإنسان قوى الخير وقوى الشر مما يجعله في صراع دائم لا ينفك عنه حتى لقاء ربه، ولا ينجو أي إنسان -أنى كان قوي الإيمان نافذ البصيرة- من السقوط في وهدة الذنوب، ولكن المهم هو القيام بعد السقوط، فبينما نجد أكثر الناس يسترسلون مع

---

(١) الكافي: ج٣ ص٤٥٠.
(٢) تهذيب الأحكام: ج٢ ص١٢٢.
(٣) الكافي: ج٣ ص٢٦٦.
(٤) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٤٧٢.
(٥) المصدر السابق: ص٤٧٤.
(٦) المصدر السابق: ص٤٧١.
(٧) وسائل الشيعة: ج٨ ص١٥١.

الضغوط حتى تهديهم إلى سواء الجحيم فإن الصالحين يعودون إلى نقائهم كلما دنستهم الخطايا، ويتطهرون بالتوبة إلى ربهم الغفور.. وهؤلاء هم أصحاب الجنة.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وعند السَّحر يكون العالم المحيط بالإنسان في سبات عميق، حتى الذين أسهرهم المرض أو اللعب أو ما أشبه يخلدون إلى السكون، والإنسان بدوره يعيش السكون في داخله، تتراجع شهواته، وتهدأ أعصابه، وتقل هواجسه ووساوسه، ويعود إلى نفسه، وتكون الفرصة مواتية لمراجعة حساباته ومحاكمة أعماله وأقواله في محكمة عقله، ووجدانه، وهنالك تتجلى له أسماء ربه، ويجد كأن خالقه القاهر فوقه البصير به والأقرب إليه من حبل الوريد يحاسبه: لماذا ابتعدت عني عبدي؟ أوَلَمْ أكن نعْمَ الرب لك، فلماذا كنت بئس العبد؟ هل غيرت معك عادة الإحسان فأشركت بي وخضعت لعبادي من دوني؟

وكم هي رائعة يقظة الضمير بعد السبات، وانتفاضة الإرادة بعد الخوار؟! الله ما أحلى العودة إلى دار الأنس بعد الغربة في نفق العصيان، ما ألذ حكاية الاعتراف بعد الطيش والتمرد!

من هنا كانت نفوس المتقين تتطلع إلى تلك الساعة المتقدة حبا وشوقا وقربا. ألم تسمع رواية الرسول ﷺ أنه قال: «الرَّكْعَتَانِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1].

أو سمعت الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يسأل: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجها؟ فقال: «لِأَنَّهُمْ خَلَوْا بِاللهِ فَكَسَاهُمُ اللهُ مِنْ نُورِهِ»[2].

وكل واحد منا بحاجة إلى الاستغفار لكي لا تتراكم فوق قلبه أدران الخطايا والغفلة فيقسو وينغلق ويصبح غلفا لا يرجى له علاج.. ولكي لا يفاجئه الأجل فتضيع عنه فرصة التوبة إلى الأبد.

ولا بد أن نسعى لفرز العمل الصالح عن السيئات بالاستغفار حتى لا يختلط علينا الحق والباطل، وذلك بأن نحدد بالضبط طبيعة العمل الذي قمنا به، ولا نخضع لتزيين الشيطان أو تسويل النفس الأمارة بالسوء، فنبرر كل ما قمنا به، ونلبسه ثوب الشرعية بتحريف نصوص الدين حسب أهوائنا، فنكون -لا سمح الله- ممن اتخذ إلهه هواه.

إن المؤمن يتَّهم نفسه أبدا، ويستجلي قيم الحق وموازين الشرع حتى يقيس بها أعماله،

(١) وسائل الشيعة: ج٨ ص١٥٦.
(٢) وسائل الشيعة: ج٨ ص١٥٧.

فإذا اشتبهت عليه قضية سعى إلى معرفة الحق بمراجعة الفقه والسؤال من أهل الذكر.

أما الذين يستغفرون لذنوب مجهولة، بينما يبررون ذنوبهم التي يمارسونها يوميا، فإنهم لا يتطهرون بالتوبة بل يزيدهم الإصرار على تلك الذنوب قسوة في القلب وضلالة في الفكر.

وإذا اغتابوا مسلما كفّروه ليبرّروا ذنبهم، فهل ينفع مثل هؤلاء الاستغفار؟ وإذا أكلوا أموال الناس بالباطل زعموا أنهم مضطرون إلى ذلك، ولا اضطرار عندهم غير حب الراحة، فهل تنفعهم التوبة شيئا؟.

وإذا خضعوا للسلاطين تشبّثوا ببعض النصوص المتشابهة، وتركوا المحكم من آيات الجهاد في سبيل الله والكفر بالطاغوت. وإذا غشوا وكذبوا واحتكروا وأكلوا الربا عدُّوا ذلك تجارة وشطارة ونجاحا وفائدة رابحة، وهكذا..

كلا.. الحلال عند الله لا يصبح حراما بأعذار واهية، والحرام لا يضحى حلالا.. والاستغفار ينفع الفقهاء ومن اتبعهم ممن يلتزم بمقاييس الكتاب وموازين الشرع تماما. نسأل الله أن يجعلنا جميعا منهم.

[١٩] لنفاذ بصائرهم يعلم المتقون أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فيسعون لتزكية أنفسهم منه، بالإنفاق المنظم الذي يفرضونه على أنفسهم أكثر من الحقوق الشرعية، فالواحد منهم يجعل ثلث أمواله التي يغنمها لله، والآخر ربعه، وهكذا حسب ظروفهم المعيشية.

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ والسائل هو الذي يسكب ماء وجهه أمامك فلا تحرمه من عطائك مهما كان قليلا، فقد جاء في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «لَا تَقْطَعُوا عَلَى السَّائِلِ مَسْأَلَتَهُ فَلَوْلَا أَنَّ المَسَاكِينَ يَكْذِبُونَ مَا أَفْلَحَ مَنْ رَدَّهُمْ»[١].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «لَوْ يَعْلَمُ السَّائِلُ مَا فِي المَسْأَلَةِ مَا سَأَلَ أَحَدٌ أَحَداً وَلَوْ يَعْلَمُ المُعْطِي مَا فِي العَطِيَّةِ مَا رَدَّ أَحَدٌ أَحَداً»[٢].

أما المحرم فهو الذي ضاقت عليه مذاهب الاكتساب، فكلما سعى لم يقدر على تأمين معاشه، ويسمى بالمحارف، جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «المَحْرُومُ الرَّجُلُ الَّذِي لَيْسَ بِعَقْلِهِ بَأْسٌ وَلَمْ يُبْسَطْ لَهُ فِي الرِّزْقِ وَهُوَ مُحَارَفٌ»[٣].

---

(١) الكافي: ج٤ ص١٥.
(٢) الكافي: ج٤ ص٢٠.
(٣) الكافي: ج٣ ص٥٠٠.

قالوا: المحارف الذي لايتيسّر له مكسبه، قال: رجل محارف (بفتح الراء) أي محدود محروم، وهو خلاف قولك: مبارك[1].

ويبدو أن المحروم هو الذي حرم رزقه، سواء بسبب جائحة، كما جاء في الآية حكاية عن أهل الجنة التي احترقت: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٧]، أو بسبب إدبار الحياة عنه، وقلة حظه في المكسب.

ويبقى سؤال: ما هذا الحق الذي في أموال المتقين، هل هو الزكاة المفروضة كما قال البعض أم أنه حق آخر؟

يبدو أنه حق غير الحقوق الشرعية، لأنها مفروضة على أموال كل الناس دون المتقين منهم، لذلك جاء في الحديث المروي عن أبي بصير قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا بعض أصحاب الأموال فذكروا الزكاة فقال أبو عبد الله: «إِنَّ الزَّكَاةَ لَيْسَ يُحْمَدُ بِهَا صَاحِبُهَا وإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ ظَاهِرٌ إِنَّمَا حَقَنَ بِهَا دَمَهُ وسُمِّيَ بِهَا مُسْلِماً ولَوْ لَمْ يُؤَدِّهَا لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ وإِنَّ عَلَيْكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ غَيْرَ الزَّكَاةِ فَقُلْتُ أَصْلَحَكَ اللهُ ومَا عَلَيْنَا فِي أَمْوَالِنَا غَيْرُ الزَّكَاةِ فَقَالَ سُبْحَانَ اللهِ أَ مَا تَسْمَعُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ قَالَ: قُلْتُ: مَا ذَا الْحَقُّ الْمَعْلُومُ الَّذِي عَلَيْنَا قَالَ هُوَ الشَّيْءُ يَعْمَلُهُ الرَّجُلُ فِي مَالِهِ يُعْطِيهِ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي الْجُمْعَةِ أَوْ فِي الشَّهْرِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ غَيْرَ أَنَّهُ يَدُومُ عَلَيْهِ»[2].

---

(١) تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ٣٨.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣١.

وفي السماء رزقكم وما توعدون

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ
مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ[1] إِلَىٰ أَهْلِهِ
فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ[2]
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ
فِي صَرَّةٍ[3] فَصَكَّتْ وَجْهَهَا[4] وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ
رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
(٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣)
مُّسَوَّمَةً[5] عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥)
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨)
فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ[6] وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ

---

(١) فراغ: ذهب إبراهيم عليه السلام بتسلل وخفية لأن يحضر لهم طعاماً، فإن من أدب الضيافة أن يتسلل الضيف لإحضار الطعام والتسلل لأجل أن لا يمنعه الضيف عن الإحضار.

(٢) فأوجس: أضمر في نفسه.

(٣) صرة: صياح شديد من الصرير بمعنى الصوت.

(٤) فصكت: لطمت.

(٥) مسومة: معلّمة.

(٦) بركنه: الركن الجانب الذي يعتمد عليه، وفرعون كان يعتمد على جنوده وملكه.

وَهُوَ مُلِيمٌ(١) ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ(٢) ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٣) ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا(٤) عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

مثلما تتصل حقائق السماء والأرض بما في بدنك، لا بد أن تتواصل من خلالها وآياتها وما في عقلك من وعي، ويبدو أن الموقنين وحدهم يبصرون آيات الله في الأرض، وفي النفس وفي السماء التي قدر الله فيها الرزق، وجعل فيها ما تتطلع إليه من فضله، وما نحذر من نقماته.. وفي قصة ضيف إبراهيم تصديق ذلك، فقد جاؤوه بالبشرى (حيث رُزِقَ من عجوز عقيم غلاما عليما هو إسحاق)، وأرسلوا إلى قوم لوط المجرمين بالعذاب متمثلا في حجارة من طين قد هيئت لأولئك المسرفين (الشاذين جنسيا).

وكان العذاب مقدرا بحكمة بالغة، فلم يشمل بيتا واحدا كان فيه مسلمون وهم آل لوط الذين أخرجهم الله منها سحرا، وقد ترك هذا البيت كما آثار تلك القرية لكي يكونا آية بيِّنةً لمن يخشى العذاب (أما قساة القلب فإنهم لن يستفيدوا من هذه الآية).

وقصة فرعون هي الأخرى عبرة لمن يعتبر حيث أرسل الله إليه موسى بحجة بالغة ولكنه تولى بكل وجوده وقواه (حتى إنه لم يعرف كيف يفسر كفره) فقال: هذا ساحر أو مجنون، فأخذه الله وجنوده بقوته، ونبذهم في البحر بذنوبهم.

ومأساة عاد كانت أيضا عبرة مهمة حيث أرسل الله عليهم الريح العقيم التي أتت على كل آثار الحياة في بلادهم (بما كفروا بنعمة الله وكذبوا رسله).

وكذلك فعل بثمود الذين عتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة (نار فيها عذاب)،

---

(١) مليم: آتٍ بما يُلام عليه.

(٢) الريح العقيم: سميت عقيماً لعقمها من الرحمة ولأنها لا تلد خيراً.

(٣) كالرميم: الرميم هو ما تفتت من حجر أو بناء أو غيرهما، وقيل كالشيء الهالك البالي وهو نبات الأرض إذا يبس وديس، وقيل هو العظم البالي السحيق.

(٤) فعتوا: أي خرجوا عن أمر ربهم ترفعاً عنه واستكباراً.

وبالرغم من أنهم كانوا ينتظرونه لم يقدروا على الدفاع، ولهم ينصرهم أحد، وما كان يمكن نصرهم أبدا.

وبعد أن يشير السياق إلى قصة نوح يختم الدرس الذي نستوحي منه سنة الجزاء في الخلق، وأنها لا تختص بقوم ولا بذنب، فكل فسق وجريمة وإسراف يلقى جزاءه، وهذا الجزاء دليل هيمنة الرب وعدالته وقدرته، وكل ذلك يهدينا إلى الجزاء الأكبر في الآخرة.

بينات من الآيات:

[٢٠] لو اطلعت ضحى من فوق ربوة على مروج خضراء، تحيط بها أشجار مثمرة، وعلى اليمين منها ابتسم لك حقل من ورود متنوعة، لا بد أن جمال المنظر يشغلك عن تذكر الحقيقة التالية: أنه لولا ضياء الشّمس الذي ينعكس على الطبيعة لما ما ظهرت هذه الألوان الجذابة عليها. أليس كذلك؟

وإذا تذكرت هذه الحقيقة عرفت آنئذ أن كل ورقة زاهية من هذه الورود وكل نبتة خضراء رائعة في تلك المروج علامة واضحة على وجود ضياء الشمس.

أصحاب البصائر يتذكرون هذه الحقيقة، وينفذون بعقولهم إلى غيب الواقع المشهود فيما يتصل بخالق الطبيعة، ويعرفون أن كل شيء في الخليقة آية ظاهرة لخالقها العظيم، كما أن انعكاسات النور شاهدة على وجود مصدره (الشمس)، وتعالى الله عن الأمثال.

ومن هنا كانت آيات الله في الأرض تتجلى للمؤمنين بصورة أبهى وأسنى، أما غيرهم فإن جمال المظهر يشغلهم عن ينبوع النور والجمال والبهاء، لأن نظرتهم قاصرة، وهمتهم محدودة، فلا تتجاوز الحقائق الجزئية والذاتية.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ المنهج القرآني الذي يكشف حجب العناد والريب والغفلة عن بصائر الناس، ويجعلهم يتفكرون في غيب السماوات والأرض، ولا ينظرون فقط إلى ظاهر الحياة الدنيا، بل يجعلون كل ظاهرة جسرا إلى غيبها، وكل حدث نافذة إلى رحاب الحقيقة الأكبر منه.

بلى، هذا المنهج القرآني المعجز يصل الإنسان بالخليقة عبر جسر الإيمان، حتى ليصبح كل شيء من حوله ناطقا يناجيه بسر الكائنات، ويتناجى هو معه بلغة العارفين.

إن حقائق الخلق، من حجر وشجر وأحياء.. من سحب تلبّد السماء، وغيث يسقي

الأرض، وعواصف ورعد وبرق.. من أمواج البحر، وشعاع الشمس، ونور القمر، إنها جميعا في وعي المؤمنين تجليات لأسماء الله، ومنافذ إلى غيب قدرته وحكمته.. رحمته وعزته.. جماله وجلاله.. فلا ينظرون إلى شيء إلا من خلال هذه الرؤية، مما يجعله مسبحا بحمد ربه، ناطقا بآياته، داعيا إليه، يبث في روعهم حكمة الحياة، ويعكس جمالها وجلالها، ويهديهم إلى سرها العظيم.

فهم إذا نظروا إلى الأرض وحجم هذه الكرة الوحيدة التي تحتضن الحياة فيما نعرف من الكُرات يتساءلون: ما الذي قدَّر حجمها، وطبيعة حركتها حول نفسها وحول الشمس، والمسافة المحددة التي تفصلها عنها.. حتى لو أنها اقتربت أو ابتعدت تباطأت أو تعجلت لما أمكن نشوء الحياة فيها أبدا؟.

«لقد روعي منتهى الدقة في تنظيم العوامل الطبيعية فلو تضخمت القشرة الخارجية للكرة الأرضية أكثر مما كانت عليه عشر مرات لا نعدم الأوكسجين الذي هو المادة الأصلية للحياة، ولو أن أعماق البحار كانت أكثر عمقا مما هي عليه قليلا أو كثيرا، لانجذب جميع الأوكسجين والكاربون من سطح الأرض ولم يعد أي إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سطح الأرض!.

... لو أن هذا الغلاف الذي يحيط بالأرض من الهواء كان رقيقا لخرقته الشهب الثواقب التي تأتي كل يوم بنحو عدة ملايين فتصيب الأرض حيث ما وقعت، إلا أن هذا الغلاف الجوي يمنعها لكثافته فتتلاشى وتحترق عنده فلا تصل إلى الأرض. ولو أن الشهب الثواقب خفت سرعتها لما احترقت عند اصطدامها بالهواء ولوقعت على الأرض ودمرت الكثير. ويقول في مكان آخر أن نسبة الأوكسجين في الهواء هي إحدى وعشرين بالمائة فحسب، فلو كانت هذه النسبة خمسين بالمائة لاحترق به كل ما من شأنه الإشتعال في هذا العالم. . ولو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة في غابة لاحترقت الغابة جمعاء»![1].

أليست شاهدة على حكمة المدبر سبحانه؟.

[٢١] وإذا عدت إلى نفسك التي هي خلاصة مباركة لكل ذلك العالم الكبير الواسع، فإنك تجد آفاقا من العلم لا تحد، وشواهد لا تحصى على حسن التدبير لخالقها الرحمن، ولكننا بحاجة إلى بصيرة نافذة لكي لا تحجبنا حاجات الجسم العاجلة المحدودة عن الغور في أعماقها الزاخرة بالمعرفة والحب والأحاسيس الزاكية.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٧، ص٨٧، بتصرف.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ كيف لا نبصر ما في أقرب الأشياء إلينا، وهل يستحق الإكرام من يغفل عن آيات الله في ضميره ووجدانه.. في عواطفه الخيرة.. في إرادته الماضية.. في عقله الوقاد.. في تركيبة عينه وأذنه.. في أعصاب دماغه.. في حلقه وما أطبقت عليه شفتاه من لسانه ذي الوظائف المتعددة، إلى أضراسه وأسنانه، إلى حلقه وبلعومه؟.

دعنا نتفكر قليلا: «إن الإنسان أعجوبة عالم الوجود وما هو في العالم الأكبر موجود في عالم الإنسان الأصغر أيضا، بل في الإنسان عجائب لا توجد في أي مكان من العالم! والعجب أن هذا الإنسان على عظمته وعقله وعلمه وهذا الابتداع والابتكار والصنع العجيب كان أول يومه على صورة نطفة صغرى لا قيمة لها!! لكن ما أن استقرت في الرحم حتى تكاملت بسرعة وتبدلت يوما بعد يوم ولحظة بعد أخرى فإذا هذه النطفة التي لا قيمة لها تغدو إنسانا كاملا سويا ! خلية واحدة التي هي أصغر جزء في بدن الإنسان تشكل بناية ضخمة متداخلة عجيبة فهي على حد تعبير بعض العلماء تعادل (مدينة صناعية)»[1].

ولكن أين تلك البصيرة التي تنفذ إلى أعماق وجود الإنسان لعلها تهتدي إلى بعض آيات الله العظيمة.. وتؤمن بالبعث من بعد الموت من خلال الإيمان بقدرة الله وحكمته؟

[٢٢] وبعد ذكر الأرض وآياتها، والإنسان وما فيه من تجليات القدرة، يذكرنا السياق بالسماء وآياتها، وكيف يرزقنا الله منها، فهذا الغيث ألا ترى كيف يتنزل من السماء برزق مبارك، وهذه الأشعة التي تبث إلينا من الشمس والنجوم وما فيها من فوائد عظيمة نعرف بعضها ونجهل الكثير؟ كلها آيات التدبير الدقيق. أفلا نتذكر؟

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ وفي السماء تلك الإمكانات المستقبلية التي يهدينا الرب إليها ففيها من البركات أضعاف ما ننتفع به حاليا كما فيها من النقمات ما ينبغي اتقاؤها بالعمل الصالح، ويبدو أن الآيات التالية تأويل لهذه الكلمة، حيث إن ربنا سبحانه قد وعد -ووعْدُه الصدق- إبراهيم بأن يرزقه ذرية كما أوعد قوم لوط بالعذاب فجاءته الملائكة بها جميعا.

وقال البعض: معنى ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة جعلها الله في السماء. ولعل هذا صحيح في بعض رياض الجنة أما الجنة جميعا فعرضها كعرض السماوات والله العالم.

وفي الآية تفسير آخر: هو أن الله قد قدَّر عنده في السماء (الجهة الأعلى) كل أرزاق العباد فلماذا الحرص والتكالب؟.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٧، ص ٩٠.

بلى، السعي واجب ولكن الفرق كبير بين السعي وراء الرزق بل وحتى الكد والكدح من أجله وبين التهالك عليه (الذوبان في بوتقته) حتى لا يكون لدى المرء هم سواه، فتمسخ شخصيته، وتختصر إنسانيته في آلة اقتصادية، كلا.. إن للإنسان تطلعات سامية وإنما الرزق وسيلة البلوغ إليها فقط. لذلك جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرِّزْقَ لَا يَسُوقُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**»[1].

بل إننا نجد أن الرزق يرتبط بجوانب عديدة من حياة الإنسان منها السعي والكدح. فمن ألغى سائر جوانب حياته واختصر نفسه في البحث عن الطعام لم يوفق فيه كيف؟

أليست الأمة الجاهلية المفككة التي لا تهتم بالسياسة ولا تعي التطورات الكبرى في العالم ولا تتكامل عواطفها أدبيا وفنيا هذه أمة متخلفة، وهل نصيب الأمة المتخلفة غير الفقر والمسكنة حتى لو واصل أبناؤها الليل والنهار في طلب الرزق؟

وكما في الأمة كذلك في الفرد فمن تدانت عزيمته وهمته، وضاق أفق علمه ووعيه، وساءت أخلاقه وآدابه، لم ينفعه اجتهاده في طلب الرزق، بينما الآخر الذي تسامت همته، وازداد علمه ووعيه، وحسنت أخلاقه وآدابه اكتفى بقليل من الجهد المركز، وحصل على الكثير من المكاسب أليس كذلك؟ من هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**وَالَّذِي بَعَثَ جَدِّي ﷺ بِالْحَقِّ نَبِيّاً إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْزُقُ الْعَبْدَ عَلَى قَدْرِ الْمُرُوءَةِ وَإِنَّ الْمَعُونَةَ تَنْزِلُ عَلَى قَدْرِ الْمَئُونَةِ وَإِنَّ الصَّبْرَ يَنْزِلُ عَلَى قَدْرِ شِدَّةِ الْبَلَاءِ**»[2]، وقال عليه السلام: «**كَفُّ الْأَذَى وَقِلَّةُ الصَّخَبِ يَزِيدَانِ فِي الرِّزْقِ**»[3]، وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**التَّوْحِيدُ نِصْفُ الدِّينِ وَاسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ**»[4] وأخطر ما في التهالك على طلب الدنيا أنه يشغلك عن ذكر الله، والتسامي إلى قربه، والنظر إلى آيات قدرته في نفسك والخليقة، والاجتهاد في طلب الآخرة التي هي دار مقرك.

وكلمة أخيرة: لأن ما وعدنا الله من رحمته في السماء فقد أمرنا بالتوجه إليها عند الدعاء. جاء في حديث مأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فَلْيَرْفَعْ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَلْيَنْصَبْ فِي الدُّعَاءِ. فَقَالَ ابْنُ سَبَإٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ مَكَانٍ؟ قَالَ عليه السلام: بَلَى، قَالَ: فَلِمَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَوَ مَا تَقْرَأُ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ**

---

(١) الكافي: ج٢ ص٥٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٦ ص٣٠٠.
(٣) التوحيد: ص٤٥٩.
(٤) وسائل الشيعة: ج٩ ص٣٧١.

وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فَمِنْ أَيْنَ يُطْلَبُ الرِّزْقُ إِلَّا مِنْ مَوْضِعِهِ، وَمَوْضِعُ الرِّزْقِ وَمَا وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاءُ»[1].

[٢٣] أقرب الأشياء إليك نفسك، وتتجلى النفس لذاتها حين تفكر، وأعظم لحظات التفكر هي عندما تنطق، وإذا قال بعضهم: أنا أفكر فإذا أنا موجود. وقال آخر: الإنسان حيوان ناطق فلأن التفكر حالة يقظة النفس لذاتها، أما النطق فهو ذروة هذه اليقظة. وقد يشك العقل في معطيات الحواس لأن بعض أحاسيس الأذن طنين الدم من داخل البدن، والبصر قد يزيغ واليد قد تصاب بالبرد دون سبب خارجي. أما النطق فلا يشك العقل فيه لأنه من أعظم آيات الله في البدن، ومن أصعب الفعاليات عند البشر، حيث يشترك فيه الجسم والروح معا. إنه قمة الوعي عند الإنسان، لا يشك فيه أحد حتى المثاليون والسوفسطائيون يزعمون بأنهم على يقين من أنهم ينطقون، وعلى ثقة بما يقولون.

من هنا يحلف القرآن يمينا برب السماء أن وعد الله حق، وأن البعث والنشور حق، كما أن نطق الإنسان حق عند نفسه.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ وحين يكون القسم برب السماء والأرض يكون أقرب إلى وعينا -نحن البشر- لأننا نعرف شيئا من ضخامة السماء والأرض، فلا بد أن نهتدي بذلك إلى بعض جوانب قدرة الرب وتدبيره إذا عرفنا أنه -سبحانه- هو رب السماء والأرض. ثم يكون التأكيد بالغا حيث يضاف إلى القسم أن ولام التأكيد، ويشتد التأكيد بأن يضرب له مثل الحق بحالة النطق.

وقال البعض: إن النطق هو سمة أساسية في حضارة الإنسان، فمن دونه كيف كانت التجارب تنتقل من شخص لآخر، ومن جيل لجيل ناشئ.

وقالوا: إن القسم هو على ضمان الرزق وعلى استجابة الدعاء اللذين ذكرا في الآية السابقة، ويبدو لي أنه على كل الحقائق التي تواصلت في الآيات السابقة وأبرزها حقيقة الجزاء في الدنيا والآخرة.

[٢٤] وهذا مثل ظاهر لما في السماء من رزق ومن وعد مستوحى من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حينما جاءته الملائكة يبشرونه باستجابة دعائه في نفسه (بغلام) وفي قوم لوط (بإهلاك الكافرين).

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٣٢٥.

إن استجابة الدعاء في الذرية التي نزلت بها الملائكة كانت أعظم نعمة ينزلها الله على بشر، فلقد وهب الله له غلاما زكيا يرفع اسمه، ويصبح امتدادا لرسالته كما أن الوعد بإهلاك قوم لوط كان أعظم ما ينتظره الرسول بعد أن يكمل رسالته.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ان الضيافة كانت جانبا مهماً من ثقافة العرب، وكانت للضيف مكانة خاصة عندهم، ولعله لذلك يتخذه القرآن وسيلة لبيان الحقائق التاريخية، ويقول عن ضيوف إبراهيم: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ لقد أكرمهم إبراهيم بضيافته وخدمته لهم.

[٢٥] ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ حينما دخلوا عليه قالوا: ﴿سَلَٰمًا﴾، فرد سلامهم قائلا: ﴿سَلَٰمٌ﴾، وكأنهم استأذنوه فأذن لهم. ولكنه لم يعرفهم، فقال لهم: أنا لا أعرفكم أو أسرَّه في نفسه ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ حيث نظر إليهم فعرف بأنهم ليسوا من أهل بلده، ولعل صورهم لم تكن مطابقة مع صور البشر، إنما كانوا يشبهون البشر فقط.

[٢٦] بعد ذلك جلسوا، فتسللَّ نبي الله الكريم إلى أهله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي ذهب بخفية. وهذه من الآداب التي تتعلق بإكرام الضيف، إذا ليس من اللائق أن يقول المضيف لضيفه: أتأكل كذا، أو ماذا تشرب؟

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ جلب لهم عجلا قد شوي على النار، ولعله فعل ذلك بالرغم من قلة عدد الضيوف (٣ أو ٤ أو على الأكثر ٩) لمزيد من الإكرام، أو لأنهم كانوا ضخاما، أو لكي يطعم بفاضل طعامهم سائر المساكين، وهذا كان ولا يزال من سنن الكرماء.

[٢٧] ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ ودعاهم إلى الطعام، فلم ير أيديهم تصل إلى العجل ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

[٢٨] ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ولعل السبب في إحساسه بالخوف منهم أنه كان من عادة من يضمر شرّاً الا يأكل من بيت عدوه حتى لا يتصف بالغدر. وهكذا قالوا: من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وما لبثوا أن بشَّروه بتحقق أمنيته التي كادت تخيب لكبر سنه. وقد جاءت البشارة بعد الخوف ليكون أبلغ أثرا وأحلى.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ويبدو أن الغلام ليس مجرد الذكر من الأولاد -حسب بعض علماء اللغة- بل: «يلحظ في المادة معنى أخص من النشاط لما هو أصل الحياة، فيقال: غلم كفرح: هاج شهوة، والغلمة: شهوة الضراب، ومن هذا يطلق الغلام على الفتى الذكر الطَّار

الشارب، لاكتمال حيويته»[1].

وإذا صح هذا التفسير فقد بشَّرته الملائكة بولد ذكر، يرعاه الرب حتى يبلغ أشده، ولعل وصفه بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ يدل على ذلك، إذ من المعروف أن الغلام لم يولد عليما، بل نما حتى أضحى كذلك عندما أصبح غلاما. يا لها من بشارة كبرى لمن بلغ من العمر عتيا، وحسب التوراة، وبعض المفسرين: «كان قد جاوزت سنه المئة، أما زوجته سارة فقد بلغت التسعين»[2].

إنه قد قضى عمرا ممتدا، يدعو إلى ربه ولم يؤمن به إلا قليل، والآن حيث يكاد يودع الحياة لا يفكر إلا في من يحمل مشعل الدعوة، ويحقق آمال داعية التوحيد الكبير الذي كاد يكون وحيدا في عالم كان يغوص في دنس الشرك، وظلام الجاهلية.

يا لها من بشارة عظيمة: أن يستجيب الرب لعبده رأفة به، وتخليدا لذكره في الآخرين، فيرزقه ولدا يرعاه حتى يصبح غلاما ويعلمه حتى يضحى عليما.

[٢٩] وسمعت زوجته (سارة) بهذه البشارة، ربما لقربها من الضيوف حيث كانت تخدمهم، أو لأنها جاءت إليهم فأخبرت بها ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ تصيح صياحا يشبه صوت الريح لما أصابها من فرحة مزيجة بالعجب!! ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربته -على عادة النساء العجائز عند مواجهتهن لموقف لا يحتملنه- وعبرت عن عمق تعجبها من هذه البشارة العظيمة ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فهل ألد وأنا عجوز يائس؟! بل كيف ألد وأنا امرأة عقيمة، ولم أنجب في شبابي؟!

[٣٠] ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ نعم، هكذا قال الله القدير، فرزق، ولأنه أراد إثبات هذه الحقيقة أنه وهب عجوزا عقيما غلاما عليما.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ولم يذكر القرآن شيئا عن رد فعل إبراهيم عليه السلام لماذا؟ ربما لأن إنجاب رجل كبير في مثل سنه ممكن وإن كان بعيداً بعكس امرأة عقيم في مثل عمرها، والدليل على ذلك أن إبراهيم عليه السلام تزوج بهاجر فأنجبت له إسماعيل عليه السلام. والمعروف أن الولد كان (إسحاق) وتدل على ذلك الآية المباركة: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. وهذه الحادثة توحي ببصائر ثلاث:

أولاً: أن الله قادر على تغيير ما نعرفه من السنن بقضائه النافذ، وحكمه الذي يرد.

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم الصادر عن مجمع البيان العلمي: ج ٢ ص ٢٧٢.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٤٧.

ثانياً: أنه يستجيب دعاء من دعاه بفضله وبوسائل غير معروفة لدينا، وعلينا ألا نقنط من رحمته في أشد حالات الأزمة، وألا نحرص على الدنيا خشية المستقبل فهو الرزاق ذو القوة المتين.

وإلى هذا تشير الرواية المأثورة عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «خَرَجْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الحَائِطِ فَاتَّكَأْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ يَنْظُرُ فِي تُجَاهِ وَجْهِي ثُمَّ قَالَ: يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ مَا لِي أَرَاكَ كَئِيباً حَزِيناً، أَعَلَى الدُّنْيَا فَرِزْقُ اللهِ حَاضِرٌ لِلْبَرِّ والفَاجِرِ؟

قُلْتُ: مَا عَلَى هَذَا أَحْزَنُ وإِنَّهُ لَكَمَا تَقُولُ. قَالَ: فَعَلَى الآخِرَةِ فَوَعْدٌ صَادِقٌ يَحْكُمُ فِيهِ مَلِكٌ قَاهِرٌ. أَوْ قَالَ: قَادِرٌ. قُلْتُ: مَا عَلَى هَذَا أَحْزَنُ وإِنَّهُ لَكَمَا تَقُولُ. فَقَالَ: مِمَّ حُزْنُكَ؟.

قُلْتُ: مِمَّا نَتَخَوَّفُ مِنْ فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ ومَا فِيهِ النَّاسُ. قَالَ: فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ هَلْ رَأَيْتَ أَحَداً دَعَا اللهَ فَلَمْ يُجِبْهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَ أَحَداً تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ فَلَمْ يَكْفِهِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَ أَحَداً سَأَلَ اللهَ فَلَمْ يُعْطِهِ؟ قُلْتُ لَا ثُمَّ غَابَ عَنِّي»(١).

ثالثاً: أن كل ذلك دليل يهدينا إلى البعث بعد الموت. أليست العقبة الرئيسة عند الكفار به هي جهلهم بقدرة الله على إحياء الموتى، أو خرق الأنظمة السائدة على الخليقة، فهذه القصص تزيل عنهم هذه العقبة، مما يمهد الطريق أمامهم للإيمان بالآخرة.

[٣١] بشارة إبراهيم عليه السلام بالغلام العليم جانب من وعد الله، أما الآخر فهو عذاب الاستئصال الذي صُبَّ على قوم لوط. وحين عرف إبراهيم الملائكة سألهم عن الأمر العظيم الذي نزلوا من أجله، إذ حسب نص مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ بَعَثَ أَرْبَعَةَ أَمْلَاكٍ فِي إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ جَبْرَئِيلَ ومِيكَائِيلَ وإِسْرَافِيلَ وكَرُوبِيلَ»(٢). ومثل هؤلاء لا ينزلون إلا لخطب جلل ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ لا بد أنكم تقومون بعمل عظيم في الأرض فما هو؟

[٣٢-٣٣] ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾.

ونتساءل:

أولاً: ما هو هذا الطين؟. هل هو ذلك الطوب الذي بنيت به مدينتهم باعتبار أن المدينة قد ارتفعت ثم هبطت مرة أخرى ساعة تدميرهم؟ أم هو حمم بركان تفجر عليهم فشبهت

---

(١) الكافي: ج٢ ص٦٣.
(٢) الكافي: ج٥ ص٥٤٦ .

بالطين؟ أم أصل الحجارة التي أهلكوا بها كانت من الطين؟. لا ندري بالضبط، ولكن الظاهر من الآية أنه ذات (السجيل) التي جاءت في آية أخرى، والتي قالوا: أنها معربة فارسية وأصلها (سنك كل) أي حجارة من الطين، والأقرب أنها قطعات من طين متصلب ومتحجر.

ثانياً: ماذا كانت جريمتهم التي استحقوا بها ذلك العذاب الشديد؟ يبدو أنهم كانوا قد تدرجوا في عدة مراحل، حتى بلغوا الدرك الأسفل، الذي مثل في الشذوذ الجنسي، أما غيره فقد جاء في الرواية أنَّ رسول الله ﷺ سأل جبرئيل كيف كان مَهلكُ قوم لوطٍ؟ فقال عليه السلام: «إِنَّ قَوْمَ لُوطٍ كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ لَا يَتَنَظَّفُونَ مِنَ الْغَائِطِ وَلَا يَتَطَهَّرُونَ مِنَ الْجَنَابَةِ بُخَلَاءَ أَشِحَّاءَ عَلَى الطَّعَامِ»[1].

[٣٤] وأن هذا الهبوط المستمر كان بسبب إسرافهم المقيت ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ يبدو من هذه الآية أن الإسراف ينتهي بالإنسان إلى الجريمة، فهو يسرف حتى يستوعب حقه، فيبادر على الاعتداء على حقوق الآخرين، وفي الكلمة المشهورة المأثورة عن الإمام عليه السلام: «فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ»[2] لأن من يأكل أكثر من حقه يأكل -بشكل طبيعي- حقوق الناس، والحجارة التي أصابتهم كانت مسومة، قد عرفت باسمهم، ولعل كل حجارة كانت باسم واحد منهم، فلم تكن تطيش هنا وهناك، لأنها كانت مسجلة باسمه وحسب جريمته.

[٣٥-٣٦] وكما كانت مسوّمة باسم المجرمين كانت بعيدة عن المؤمنين الذين أخرجوا من تلك البلاد ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولكن من كان فيها من المؤمنين؟ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي بيت لوط عليه السلام.

[٣٧] وبعد أن خرجوا من تلك القرى، أرسل الله الحجارة المسومة، فأهلكتهم.

أين كانت قرى قوم لوط؟ يقال أنها واقعة اليوم في الأردن، على مقربة من البحر الميت، وأنها كانت تسمى بـ: (سدوم)، وأنها هي المؤتفكات أي القرى المنقلبة.

ويقال أن إبراهيم عليه السلام الذي بعث لوطا إلى تلك القرى ليدعوهم إلى ربهم كان يسكن في مدينة (حبرون) قريباً من (سدوم) وقد شاهد آثار العذاب حين نزل عليها.

ويزعم البعض: أن بعض الآثار قد ظهرت في قاع البحر الميت، مما يدل على أنه يغطي قرى قوم لوط عليه السلام، ولا ريب أن تلك المناطق تشهد بذلك العذاب الرهيب، الذي نزل بأولئك

(١) تفسير العياشي: ج٢ ص١٥٧، بحار الأنوار: ج١٢ ص١٥٢.
(٢) نهج البلاغة: ص٥٣٣.

المجرمين، بيد أن هذه الآثار كثيرة في أرضنا، وأن عبرها كافية للإنسان ليرتدع عن غيه، بيد أن أكثر الناس في غفلة منها، وإنما يتعظ بها الخائفون من عذاب الله.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ علامة بينة بما وقع فيها، قيل: أنها آثارهم في القرية الخربة، وقال البعض: أنها الحجارة المسومة، ويظهر من حديث مأثور عن النبي ﷺ عن جبرائيل عليه السلام أن الآية بيت لوط حيث قال وهو يروى كيف دمر بأمر الله تلك القرى: «وَإِنِّي نُودِيتُ مِنْ تِلْقَاءِ العَرْشِ لَمَّا طَلَعَ الفَجْرُ يَا جَبْرَئِيلُ حَقَّ القَوْلُ مِنَ الله بِحَتْمِ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ فَاهْبِطْ إِلَى قَرْيَةِ قَوْمِ لُوطٍ وَمَا حَوَتْ فَاقْلَعْهَا مِنْ تَحْتِ سَبْعِ أَرَضِينَ ثُمَّ اعْرُجْ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَأَوْقِفْهَا حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرُ الجَبَّارِ فِي قَلْبِهَا وَدَعْ مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً مِنْ مَنْزِلِ لُوطٍ عِبْرَةً لِلسَّيَّارَةِ...»[1].

حقا: إنها آية بيّنة أن تدمر كل تلك القرى شرَّ تدمير ويبقى بينها بيت واحد عُبِدَ الله فيه سالما. أوّلاً يهدينا ذلك إلى الدَّمار لم يكن بسبب زلزال طبيعي، بل عذابا مقدرا لجرائم ارتكبوها؟

﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أما الغافلون فهم لن ينتفعوا من مثل هذه الآية.

وهذه القصة تذكرنا بسنة الجزاء، وأن الله لم يخلقنا عبثا، وأنه سوف يحاسبنا ليجازينا إن خيرا فخير وإن شرّاً فشر.

[٣٨] ومثل آخر يهدينا إلى حقيقة المسؤولية والجزاء أيضا نقرؤه في قصة فرعون التي بقيت هي الأخرى آية بيّنة للناس.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ لقد أرسل الله موسى إلى طاغوت عصره فرعون، وزوّده بسلطان مبين يتمثل في كلمة الحق والعصا واليد البيضاء.

[٣٩] ولكن ماذا كان جواب فرعون؟

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ كذب بموسى وسلطانه بكل وجوده وقواه سواء قوة جسده أو قوة جيشه ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ لقد حار كيف يفسر حقيقة الرسالة إذا أنكرها، فإذا كان صاحبه ساحرا يبحث عن مال ومقام فلماذا يتحدّى سلطانه؟ لماذا لا يخضع له كما فعل سائر السحرة؟ وإذا كان مجنونا فما هذه الحجة البالغة لديه والسلطان المبين؟ ما هذه المعاجز التي تتوالى على يديه؟.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٢ ص١٥٢، تفسير العياشي: ج٢ ص١٥٧.

وهذا الترديد شائع عند كل الذين يكفرون بالحق، ويعاندون أمام الحجج البالغة، ذلك أن الحق يفرض نفسه على الساحة حتى لا يكاد أحد يقدر على التهرب منه.

[٤٠] انظر إلى عاقبة أمرهم، لقد أخذهم الله بقوته فلم يقدروا على الفرار من جزائه العادل بمثل ما تهربوا من الحق الذي دعاهم إليه، ثم ألقاهم في البحر كما ينبذ شيء يسير لا وزن له ولا قيمة ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ ولا يلام غيره. أفلم ينذره الله، وأتم الحجة عليه فلم تنفعه شيئا؟ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ تلاحقه لعنة الله والملائكة والناس إلى يوم القيامة.

[٤١] وإذا تكررَّت صورة أخذ الطغاة والمجرمين فإن السنة واحدة، وتلك السنة تصبح عبرة لمن شاء أن يعتبر، ففي أرض الأحقاف الواقعة -حسب المفسرين- بين حضرموت وعمان كانت قبائل عاد تطغى وتفسد وتبطش بالناس كما الجبارون، وجاءهم النذير فلم يستجيبوا له، فأرسل الله عليهم الريح لا لكي تلقح ثمارهم أو تحمل الغيث إلى أرضهم العطشى، بل لكي تبيد ما أتت عليه من زرع وضرع وإنسان وأثاث وبناء حتى لا تخلف وراءها شيئا فهي عقيم.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وقالوا في معنى العقيم: أنه الذي لا ينتج غيثا ولا لقاحا. ولعل العقيم هو الذي لا يذر شيئا بعده فتكون الآية التالية تفسيرا له.

[٤٢] ويبدو أن الإعصار كان نارا وُسماً، وهكذا لم يدع شيئا قائما على حاله بل أباد الأرض وما عليها وجعلها رميا.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ قالوا: من الرمة العظم البالي، والرمة الحبل البالي، والرم ما يقع على الأرض من التبن، وقال البعض: الرميم الرماد، وقال آخر: إنه الذي ديس من يابس النبات. إنه التراب المدقوق، وقال ابن عباس: «كالشيء الهالك البالي»[1].

ويبدو لي أن الكلمة توحي بانعدام الشيء، فإذا كان البناء يتهدم، وإذا كان العظم أصبح مهشما، والحبل باليا، والتراب رمادا لا حياة فيه.. وإذا صح هذا التفسير فإن تلك الأرض لا تصلح لإعادة الحياة فيها أبدا، وهذا عاقبة طغيانهم وتحديهم لرسالات ربهم.

[٤٣-٤٤] ومن جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها حيث سكنت قبائل ثمود في منطقة (حجر) نقرأ ذات القصة، ونجد العبرة ذاتها، وتتجلى حقيقة المسؤولية والجزاء.

لقد كفروا بالرسالات، وتمردوا على رسولهم، وعقروا الناقة، فأمهلوا ثلاثة أيام، فلم يقدروا على الفرار، ولا نصرهم ما أشركوا به، ولا نفعتهم الحيلة، بل دمروا بالصاعقة شر

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٣٤٩.

تدمير.. وهكذا كانت في ثمود آية بينة.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قالوا: أنها الأيام الثلاثة التي أمهلوا فيها. ولعل المراد الفرصة التي سنحت لهم في الحياة الدنيا، والحرية المحدودة التي منحوا ليبتلي الله إرادتهم، ولكنهم خالفوا رسوله واستكبروا ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، وعقروا الناقة التي كانت آية مبصرة لهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ بعد ثلاثة أيام ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

[٤٥] وبالرغم من أن الصاعقة نزلت بهم بعد أن أنذروا بها، وعلموا بوقوعها، ونظروا إليها بالعين المجردة، فإنهم لم يقدروا على مقاومتها أو الفرار منها ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ فلا قدروا على مقاومتها بأنفسهم، ولا كان يقدر أحد على نصرهم.

[٤٦] العذاب الذي توالى على المجرمين في الدنيا نذير لنا بأن عذاب الله واقع، وأن الجزاء حق لا ريب فيه، وأنه لا أحد يستطيع أن يهرب من مصيره الذي يرسمه بعمله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ كذبوا بآيات الله فأخذهم بالطوفان ولم تبق منهم إلا العبرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تجاوزوا حدود الله، وفسقوا على أمره، فاختطفهم العذاب وفقا لسنة الله التي لن تجد لها تبديلا.

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ[1] وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا[2] مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾.

هدى من الآيات:

إذا كان محور سورة (الذاريات) أن الهدف الأساسي من خلقه الجن والإنس هو عبادة الله فإن خاتمة السورة تبيِّن ذلك بعد أن تمهد له بتوجيهنا: إلى السماء كيف بناها ربنا بقوة، ولا يزال يوسعها، وإلى الأرض كيف فرشها، ومهدها لنا أفضل تمهيد، وإلى سنة الزوجية في كل شيء مخلوق، تذكرنا بالخالق الغني المقتدر.

ثم يأمرنا بالاستعاذة بالله والفرار إليه من ضعفنا، وعجزنا، وشرور أنفسنا، وشرور

---

(١) بأيد: بقوة من آد يئيد.

(٢) ذنوباً: نصيباً من العذاب، وأصل الذنوب الدلو المملوء وجيء به للإشارة إلى كثرة ذنوبهم.

العالم المحيط بنا.

ولكي لا نستسلم للضغوط يذكرنا: أن الرسول نذير مبين من عند الله، وأنه يحذر من مغبة الشرك بالله، والكفر بالرسالة، واتهام الرسول بأنه ساحر أو مجنون كما فعل الغابرون جميعا. حتى لكأنهم تواصوا بذلك بينما الحقيقة أنهم جميعا كانوا قوما طاغين، فإذا تولى عنهم الرسول لا يكون ملوما لأنهم جحدوا بالرسالة ولكن يجب الاستمرار في رعاية المؤمنين بالتذكرة لأنها تنفعهم.

وبعد هذا التمهيد الذي فيه تذكرة بآيات الله في الخليقة، وتبصرة بدور الرسول في الإنذار والبلاغ فقط فيما يتصل بالكفار، ودور التذكرة فيما يتعلق بالمؤمنين.. ذكرنا الله بأهم غاية في الخلق وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وحقيقة العبادة التسليم لله وتهيئة النفس لاستقبال نور معرفته، وتطهيرها من دنس الشرك والفواحش الباطنة، ثم العمل بكتابه.

وعبادة الله دليل رحمته، وهكذا كان الخلق بهدف التفضل على المخلوقين، ولا تصل أية فائدة من خلقه إليه، فهو لا يريد منهم رزقا ولا طعاما، بل هو الرزاق الذي يغمرهم بنعمه، وهو ذو القوة الدائمة التي لا تزول فلا يحتاج إلى نصرهم.

وفي الخاتمة يحذر ربنا الظالمين بأن نصيبهم من العذاب مضمون لهم، فلا يستعجلوه، كما يحذر الكفار من ويلات اليوم الموعود.

بينات من الآيات:

[٤٧] هل نظرت إلى السماء في ليلة صافية.. هل حاولت مرة إحصاء نجومها؟ لا ريب أنك لو فعلت ذلك كَلَلْتَ، لأنه كلما أدرت عينك رأيت نجمة غائرة في الفضاء اللامتناهي، وإذا علمنا أن كل مجموعة نجوم تشكل مجرة واحدة، فلا بد أن تذهل فعلا مما اكتشفه العلم من عدد نسبي لعدد المجرات التي تبلغ المليارات.. فهل يأتي يوم يستطيع الإنسان أن يحصي نجوم السماء علما بأن ضخامة نجمة واحدة منها قد تبلغ حدا لو ألقي كوكبنا الأرضي فيها لضاع كما تضيع حبة الرمل في الصحراء.

أي قوة بَنَتْ هذه السماء؟! ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ والأيدي هي القوة، ولعل كلمة البناء توحي بالتدريج في الخلق والمتانة فيه، والصلة بين جزء وجزء فيما بني، وكل ذلك صحيح في أمر السماء. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ذهب المفسرون مذاهب شتى في معنى هذه الكلمة، فقد قال ابن

عباس أن معناها: «إنا لقادرون»، وقيل: «وإنا لذو سعة»، وقيل: «وإنا لموسعون الرزق على خلقنا»، وقال الضحاك: «أغنيناكم دليله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦]»، وقيل: «جعلنا بينها وبين الأرض سعة»[١].

ولعل هذا الاختلاف دليل صعوبة استيعاب ظاهر الآية في تلك البيئة العلمية التي كادت لا تعترف إلا بالأرض وما فوقها من أجرام علوية محدودة، وإنا لنجد مثل هذا الاختلاف في كثير من الآيات التي تهدي إلى حقيقة علمية كانت غامضة في تلك الأيام.

علما بأن المعنى الظاهر للآية هو: أن ربنا المقتدر يوسع بناء السماء دائما، وهذا ينسجم مع الحقائق العلمية التالية:

١- أن الأرض وسائر الكرات تمتص المواد الأثيرية المبثوثة في الفضاء، كما لو كانت أجهزة تنظيف عملاقة تكنس الفضاء مما يسمح لها بالنمو دائما، وقد قالوا: أن حجم المواد المبثوثة في الفضاء هو بحجم الأجرام الموجودة الآن، أي إنها كافية لتكون المادة الأولية لخلق أجرام جديدة بعدد وبفخامة الأجرام الموجودة وربما أكثر.

٢- أن السماء في حالة امتداد دائم وكأنها كانت في يوم ما كرة واحدة، وحدث فيها انفجار عظيم قبل (١٥) مليار سنة ثم بدأت تتمدد، وتتسع الفجوة بين أجرامها بصورة منتظمة وسريعة، وكما يقول جورج جاموف: «إن فضاء العالم المتشكل من ملياردات المجرات في حالة انبساط سريعة ، والحقيقة هي أن عالمنا ليس في حالة من السكون ، بل انبساطه مقطوع به.. والإذعان إلى أن عالمنا منبسط يهيء المفتاح لخزينة أسرار معرفة العالم لأنه إذا كان العالم الآن في حالة الانبساط فيلزم أن يكون في زمان ما في حالة انقباض شديد»[٢].

وقد حدَّد بعضهم سرعة انبساط الأجرام، وتباعدها عن بعضها بـ(٦٦) ألف كيلو متر في الثانية الواحدة[٣].

والعجيب أنها كلما ابتعدت عن بعضها ازدادت سرعتها كما قالوا.

إلى أي مدى ستظل السماء تنبسط وتمتد وتتباعد أجرامها وأين ستقف وما هي عاقبة أمرها؟.

---

(١) القرطبي: ج ١٧ ص ٥٢.
(٢) تفسير الأمثل: ج ١٧، ص ١٢٢، نقلًا عن كتاب: بداية العالم ونهايته لمؤلفه: جان ألدر، ص٧٤-٧٧.
(٣) تفسير الأمثل: ج١٧، ص ١٢١، نقلًا عن كتاب: حدود النجوم، فرد هويل، ص٣٣٨-٣٤٠.

علم ذلك كله عند الله. إلا أن هذا التوسع العظيم لا يجري دونه تدبير وهيمنة من لدن سلطان العالم الذي يحفَظ توازنه، ويدبر أموره (سبحانه).

٣- يرى بعض علماء الفضاء: أن هناك أجراما سماوية تتكون مع الزمن، وقد اكتشفوا في بعض زوايا هذا الفضاء الرحيب ما يبدو عندهم بدايات تكون الشموس التي تبدو أكثر لمعانا من الشموس الموجودة بكثير.

إن ألغاز السماوات لا تزال كثيرة ولعل الإنسان يحل المزيد منها كلما تقدم في صنع أدوات جديدة لتصوير أجرام السماء، وتحليل الأشعة التي تصل منها، وربما يعي الإنسان يومئذ أبعاد هذه الآية وأمثالها بصورة أفضل.

٤- ويقول الأستاذ بيار روسو، في كتابه المؤلف عام ١٩٦٣م (من الذرة إلى النجم): «إن المجرات تقع في تسلسل النظام الفلكي فوق النجوم، فالمجرة مجتمع يتألف من مئات ملايين، أو مئات مليارات النجوم، أو قل بالأصح: عددا لا يمكن أن يحصى حتى بأضخم وأدق الكمبيوترات من النجوم.

والمجرة التي نحن جزء منها تحتوي على مالا يقل عن مئتي مليار نجم، يضاف إليها كتلة من المادة المبعثرة بين النجوم تتراوح بين ٣٠٪ و٤٠٪ من الكتلة العامة.

ونكتفي هنا بالقول: إن عدد المجرات لا يحصى كما يبدو ذلك في الصور الفوتوغرافية المأخوذة بواسطة المقاريب الكبرى».

ثم يتحدث عن تكون النجوم من الغيوم (أي المواد ما بين النجوم): «ووجود غيوم من المادة الكونية يحمل على الاعتقاد بأن النجوم خرجت من الغيوم عند تكثفها تصبح نجوما، وليست هذه الظاهرة مجرد افتراض لأن الفلكيين عثروا في السماء على تحول من هذا النوع تم خلال سنوات معدودة».

أما الآن فما يجب أن نحفظه من هذه النظرة السريعة على العالم المجري أمرين:

الأول: هو أن النجوم لم تكن موجودة منذ الأزل لكنها نشأت عن المادة الكونية في أوقات معينة.

الثاني: أنها لم تتكون جميعها في آن واحد، وأنها تتابع تكونها في أيامنا هذه، ويعتقد الثقاة من علماء الفلك: أن عمر النجوم يدور حول ١٥ مليار سنة.

وإذا حددنا عمر المجرة بخمسة عشر مليار سنة، فلا يعني ذلك أن عمر الكون محتوم بها، ونحن نعلم الآن أن المادة تتحول بلا انقطاع إلى طاقة (وبتعبير أصح إلى إشعاع) وفي داخل الظاهرات الهائلة العاصفة في الآفاق الفضائية تعيد هذه الطاقة تكوين المادة بدون انقطاع، وإن كان سياق إعادة الخلق هذا في غاية البطء.

[٤٨] كيف مهد الله الأرض لحياة البشر، كيف تحطمت الصخور التي تكونت أصلا منها حتى أضحت ترابا مرنا، يصنع منه المساكن، ويشق فيه الطرق، ويزرع فيه ما يشاء؟ ولو كانت صلبة كصخور كوكب الزهرة أو رخوة كتراب القمر هل كنا نرتاح عليها، وكيف أودع في ضميرها ما نحتاج إليها من مواد تخصب زراعتنا، وتطهر أجواءنا وتمتص ما يضر بنا؟!

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ بلى، يا ربنا! أنت نعم الممهد والمهيئ للأرض لعيشنا سبحانك.

[٤٩] وبين السماء التي هي آية قدرة الله، والأرض التي هي آية رحمة الله نجد الأحياء والنباتات والأشياء التي جعلها الله يكمل بعضها بعضا. فإذا كانت الأرض تكمل الشمس، ويكملها القمر، فإن البحر يكمل فوائد البر، وهكذا السهل والجبل، والإنسان وسائر الأحياء، وكل أنواع النبات يكمل بعضها بعضا كما يكمل سائر المخلوقات.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ وتتجلى هذه الزوجية في أروع صورها بين الذكر والأنثى، التي نراها في الإنسان والحيوان والنباتات، بل في كل شيء مخلوق حتى الذرة المتناهية في الصغر تجد فيها الجانب المنفي (المتمثل في الإلكترون) والجانب المثبت (المتمثل في البروتون).

وهذا التكامل عنوان الحاجة المشتركة بين المخلوقات التي هي بدورها تهدينا إلى بصيرتين:

ألف: الحاجة بذاتها نعمة، والتحسُّس بها وقود التحرك، وإشباعها لذة الوجود، فلو افترضنا حياة بلا حاجة إلى الطعام والشراب والراحة والجنس فهل كانت لدينا رغبة فيها. إنها أخت الموت، وكلما ازدادت، واشتدت، وتنوعت الحاجة ازدادت وتنوعت واشتدت اللذة في قضائها.. أليس الشبع بعد الجوع، والأمن بعد الخوف، والنكاح عند الشبق أشد لذة وأعظم؟!

بـاء: التكامل وبخاصة بين الزوجين دليلنا إلى ربنا، لأن كل شيء يحتاج إلى غيره، فلا يتصور فيه الاستقلال والألوهية لشهادة كل محتاج أنه فقير محدود ومدبر، وأن له ربا غنيا،

واسعا مدبرا.

ثم إن تدبير التكامل، وتأليف التزاوج، وتنظيم شؤونها دليل إلى المدبر المنظم سبحانه.

وهو في الوقت ذاته شاهد على أن المدبر غير محتاج، وأنه غير محدود، وأنه لا ند له ولا نظير. جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ وبِتَجْهِيرِهِ الْجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ وبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ وبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ والْيُبْسَ بِالْبَلَلِ والْخَشِنَ بِاللَّيِّنِ والصَّرْدَ بِالْحَرُورِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ومُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا دَالَّةً بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرِّقِهَا وبِتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلِّفِهَا وذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فَفَرَّقَ بَيْنَ قَبْلٍ وبَعْدٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا قَبْلَ لَهُ ولَا بَعْدَ لَهُ شَاهِدَةً بِغَرَائِزِهَا أَنْ لَا غَرِيزَةَ لِمُغْرِزِهَا مُخْبِرَةً بِتَوْقِيتِهَا أَنْ لَا وَقْتَ لِمُوَقِّتِهَا حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا حِجَابَ بَيْنَهُ وبَيْنَ خَلْقِهِ»[1].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتزدادون معرفة بالله كلما أحسستم بالحاجة، وكلما قضيت لكم. حقا إن معرفة الله هي الهدف الأسمى لخلقة العالم. أوَلَيست المعرفة هي السبيل إلى التقرب إلى الله، والأنس بمناجاته، والفلاح بذكره.

[٥٠] ولكن كيف نتسامى إلى الله وقد أحاطت بنا عوامل النقص والعجز، فمن نفس أمارة بالسوء تسوّل لنا الذنوب وتسوفنا التوبة، إلى شيطان يغوينا يزين لنا الموبقات، ويملأ أفئدتنا بالتمنيات والوساوس والظنون، وإلى طغاة الأرض الذين يضيّقون علينا مذاهب الحياة حتى نسلّم لهم أمورنا، ونشركهم في ديننا ودنيانا، وإلى مجتمع فاسد، وتربية مفسدة، وثقافة ضالة.. و.. و.. كل هذه العوامل تهبط بنا إلى واد سحيق. فكيف نتسامى إلى الله، ونحرز الفلاح؟!

القرآن الكريم يجيب عن ذلك: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ استعيذوا به من كل شر تذكروه، ناجوه، واعتمدوا مناهجه التي أوحى بها، أطيعوا من أمركم بطاعته، والوا من أمركم بولايته.

والأدعية المأثورة عن أهل بيت الرسول عليهم السلام زاخرة بمعاني الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه، والفرار من سخطه: واليك بعضا منها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ حَقُّهُ كَمَا يَسْتَحِقُّهُ حَمْداً كَثِيراً، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَزِيدُنِي ذَنْباً إِلَى ذَنْبِي، وَأَحْتَرِزُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَبَّارٍ فَاجِرٍ، وَسُلْطَانٍ جَائِرٍ، وَعَدُوٍّ قَاهِرٍ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ جُنْدِكَ، فَإِنَّ جُنْدَكَ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ حِزْبِكَ، فَإِنَّ حِزْبَكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ،

---

(١) الكافي: ج١ ص١٣٨.

وَاجْعَلْنِي مِنْ أَوْلِيَائِكَ فَإِنَّ أَوْلِيَاءَكَ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[1].

ونحن نَفِرُّ إلى الله ونستعيذ به ليس فقط من تلك العوامل، بل أيضا من سخطه وعذابه كما نقرأ في دعاء سيد النبيين محمد ﷺ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالأَرَضُونَ، وَتَكَشَّفَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، مِنْ فُجَاءَةِ نَقِمَتِكَ، وَمِنْ تَحْوِيلِ عَافِيَتِكَ، وَمِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ»[2].

ونقرأ في الدعاء المأثور عن الصادقين عليهما السلام: «اللهُمَّ إِنِّي إِلَيْكَ فَقِيرٌ وإِنِّي عَائِذٌ بِكَ ومِنْكَ خَائِفٌ وبِكَ مُسْتَجِيرٌ رَبِّ لَا تُبَدِّلِ اسْمِي ولَا تُغَيِّرْ جِسْمِي رَبِّ لَا تُجْهِدْ بَلَائِي ولَا تُشْمِتْ بِي أَعْدَائِي أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وأَعُوذُ بِرَحْمَتِكَ مِنْ عَذَابِكَ وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ جَلَّ ثَنَاؤُكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ وفَوْقَ مَا يَقُولُ الْقَائِلُونَ»[3].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وهكذا فالإنسان بين خطرين: أحدهما يسير وسريع الانقضاء، والآخر عظيم دائم، فلينظر لنفسه كيف يختار؟ فلو استسلم للضغوط، وأشرك بالله فإنه يتجنب الخطر اليسير، ويحيق به الخطر الأكبر، بينما لو فَرَّ إلى الله واستجار بذمامه المنيع فإنه ليس فقط يتجنب الخطر العظيم المتمثل في غضب الله الجبار، وعظيم عذابه، بل يغيثه الرب وينقذه من الخطر الآخر.

[٥١] وهكذا بعث الله النذير المبين ليدعوهم إلى نفسه، وليحذرهم من عاقبة التمرد عليه، والإشراك به ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا﴾ فإنه لا ينقذكم من أخطار الدنيا، ويسبب لكم غضب الرب وعذابه ﴿ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وكم تكون خسارة الإنسان كبيرة، وندمه عظيما حينما تصم أذنه عن هذا النذير المبين.

[٥٢] ما الذي جعل البشر يكفرون بهذا النذير المبين، ويخسرون أنفسهم وإلى الأبد؟.

إنه الطغيان الذي انطوت عليه أنفسهم، إنها الذاتية المقيتة، لذلك تراهم يتهمون النذير بتهم متناقضة لكي يبرروا كفرهم به ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

[٥٣] كانت تلك تهمة هدفها الطغيان والكفر، يكررها كل الكفار على امتداد التاريخ،

(١) البلد الأمين، ص١٢٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٤، ص٨٨.
(٣) تهذيب الأحكام: ج٣، ص١٨٥]

حتى ليخيل للإنسان أن بعضهم يوحي لبعض بذلك؛ بيد أن الحقيقة اشتراكهم جميعا في تلك النفسية الطاغية التي تفرز مثل هذه التهم.

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ إن التُّهم ذاتها التي افتراها قوم نوح قبل ألوف السنين على نبي الله العظيم عليه السلام نجدها اليوم مثلا على ألسنة الذين يخالفون الدعاة إلى الله، المنذرين الناس عذابه، ذلك أن أشياء كثيرة تتغير في حياة البشر إلا أنها لا تمس جوهر وجوده، والغرائز التي تنطوي عليها نفسه.

وهكذا ينبغي ألا ننزلق -نحن الذين نتلو آيات القرآن- في هذا الوادي فكلما دعانا إلى الخير داع، أو أنذرنا عن الشر منذر اتهمناه في عقله أو في نيته.

ولعل أخطر شر يجب أن نفر منه إلى الله، ونجأر إليه ليخلّصنا منه هو هذا الطغيان الذي تنطوي عليه أنفسنا (أعاذنا الله من شرورها).

[٥٤] وحين يبلّغ الرسول قومه الإنذار تتم الحجة عليهم، وتنتهي عندئذ مسؤوليته، فلا يظن أحد أن الرسول يكون وكيلا عنه، ومسؤولا عن هدايته بطريقة أو بأخرى. كلا.. إنه لا يلام على كفرهم بعد الإنذار المبين ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾.

[٥٥] بل، المؤمنون يظلون موضع رعاية وعناية من لدن رسول الله، الذي لا يني يذكرهم بربهم، لأنهم يستفيدون من الذكرى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لَمَّا نَزَلَ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَّا إِلاَّ أَيْقَنَ بِالهَلَكَةِ، حِينَ قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فَلَمَّا نَزَلَ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ طَابَتْ أَنْفُسُنَا»[١].

[٥٦] الخلق والعبادة وردا في القرآن في نسقين من المفاهيم: نسق لبيان مقام الألوهية والاستحقاق للعبادة مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، والآخر لبيان غاية الخلقكما هذه الآية الشريفة. فما الخلق وما هي الغاية؟

الخلق وهو الإبداع أو الفعل لهذا المخلوق مما يشير بوضوح إلى حقيقة المخلوقية وما ينتج عنها من أنه حق قائم بالإرادة الإلهية. ومنها حقيقة الفقر والنقص ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] وهذا النقص ليس منافياً للتكامل حيث

(١) نور الثقلين: ج ٥ ص ١٣٢.

إن الرب هو الغني الحميد، وحيث إنه تعالى خلقه لغاية جليلة.

ما هي الغاية الأسمى لخلق الجن والإنس؟ الخليقة سخِّرت للإنسان، الشمس والقمر، والسحاب والرياح، والسهل والجبل، والأنعام والطيور والأسماك و..، كلها مسخرات للإنسان. أو لا نتفكر هل الممكن أن تكون خلقة البشر بلا هدف؟

كل شيء يخدم هدفا، بل لكل جزيئة من جزيئات وجود كل شيء غاية. أفيمكن ألا تكون لوجود الإنسان -سيد مخلوقات كوكبنا- أية غاية؟!

أو يتخذ رب السماوات والأرض من الخلق لعبا -سبحانه- وهو الغني الحميد، والعليم الحكيم؟!

تعالوا إذا نتفكر: هل خلق أي عضو من أعضاء أجسادنا عبثا، حتى ولو كانت قطعة من المصران، أو غدة صغيرة، أو حتى خلية واحدة، وإذا كان الجواب بالنفي حسب كل معلومات الطب والفسلجة، فكيف يكون مجمل خلق الإنسان بلا هدف؟!

فما هو الهدف إذن؟

أو يكفي أن نجعل الهدف الطعام والشراب. دعنا نستنطق عقولنا، ووجدان قلوبنا؟! أو نقتنع من أنفسنا أن نأكل ونشرب ونتمتع. أو لأنا نجد فراغا كبيرا لا بد أن نملأه بغير اللذات العاجلة.

إننا نسعى جميعا نحو العلم والفضيلة، ونعطي لهما قيمة أسمى من قيمة الثروة والقوة، ونتساءل: ما هي أعلى درجات العلم؟ أوَلَيست معرفة الله الذي نعرف به حقيقة أنفسنا، والواقع المحيط بنا. فمن دون معرفة الله تبقى كل الأسئلة حائرة.

كذلك أسمى درجات الفضيلة تقوى الله، وابتغاء مرضاته، والقرب منه.

وتتلخص معرفة الله وتقواه في كلمة العبادة، التي يجعلها القرآن الكريم غاية خلقة البشر فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فما هي العبادة؟.

قالوا: «أصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد: التذليل، يقال: طريق معبد»[1]، ويبدو لي أن أصل معنى العبودية ليس التذلل والخضوع -كما قالوا- بالرغم من أن ذلك من لوازمها، بل صلاح الشيء بحيث يكون مهيأ للاستفادة أو بتعبير آخر: عدم وجود ما يمنع الانتفاع منه،

(١) تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ٥٦.

ولذلك قيل سفينة معبدة وإنها سمي الطريق معبدا لأنه خال من الثغرات والعثرات، وإلا فإن كل الطرق وكل الأراضي خاضعة وذليلة، فلماذا لا تسمى بالمعبدة؟ وإنما سمي الرقيق عبدا لأنه لا يمتنع عن طاعة مولاه، وهكذا يكون أصل الكلمة الطاعة والتسليم.

فما معنى عبادة الله وما هي أبعادها؟ هنالك حقائق لا بد أن نعرفها لكي نعرف شيئا عن عبادة الله:

أولاً: إن ما سوى الله تعالى هو خلق، وهم وأنا سواء في حقيقة المخلوقية ومضمار العبودية؛ فأولئك الذين يخضعون لغير الله، ويتخذون أهواءهم إلههم من دون الله أو يعبدون الطغاة والمترفين، أو يقدسون التراث والتقاليد إنهم بعيدون عن هدف الخلق، لأن عبادة الله تعني تحرير الإنسان من الشركاء من دونه، ولعل الآية التالية تشير إلى ذلك: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]. وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «قَالَ خَرَجَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ فَإِذَا عَبَدُوهُ اسْتَغْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَمَا مَعْرِفَةُ اللهِ؟ قَالَ عليه السلام: مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ إِمَامَهُمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ»[1].

وحسب هذا الحديث يكون تحرر الإنسان عن عبادة غير الله الغاية الأسمى للخلق، كذلك نجد توحيد الله المحور الرئيسي لكل سور الذكر وآياته.

ثانياً: إن عبادة الله لا تتم إلا بمعرفته، وإن معرفته لا تكتمل إلا بعبادته، لأن في معرفته التزلف إليه، والتقرب من رضاه. إن التقرب إليه تعالى اتخاذ الوسيلة إلى مرضاته بأسمائه الحسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]، والتي هي معاني الكمال التي لو تجلّت في الإنسان لبُعث مكاناً محموداً. فالعالم أقرب إلى ربه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والمؤمن المقتدر خير من الضعيف ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٣١٢.

٦٠]، والعدل والأمن وسيلة التقدم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وهكذا.

ولذلك جعلت معرفة الله أو معرفة آياته هدفا من أهداف الخلق حسب ما قرأنا في النص السابق ونقرؤه في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

ولكن كيف يمكن بلوغ كمال المعرفة الإلهية، من دون التسليم له، وطاعته وعبادته. إن التسليم لله ولسننه وهو أحد أبعاد العبادة إذ خلق الله الأشياء بقدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، و﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، وهكذا يهدي الله خلقه للوئام مع السنن ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، نعم هذا الإنسان له فسحة من الاختيار والتسليم هو طريقه الهداية لمعرفة السبيل إلى الله والانسجام مع المسيرة الكونية، علماً بأن معرفته لا تكون إلا به، وكيف يكون غيره دالا عليه، وبنوره أشرقت السماوات والأرض، أو يكون لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له سبحانه؟!

وهو لا يمنح معرفته إلا لمن سلم له، وعبده وحده، وهكذا تكون العبادة هدفا للخلق لأنها السبيل إلى المعرفة.

ثالثاً: هل يمكن أن يبلغ الإنسان الفلاح في الدنيا والآخرة من دون شريعة واضحة يسير عليها، وهل يمكن تطبيق الشريعة بغير الإيمان بالله، والتسليم لأوامره، وهل يمكن تطهير القلب من أدرانه، وتحريره من أغلاله بغير معرفة الله، التي تجعل النفوس في رحاب قدسه، بعيدة عن الأنانية والشح، والغضب، وثائرة الشهوات؟! كلا.. إن معرفة الله، والتسليم له هما السبيل إلى طرد جنود الشيطان من القلب، وتنظيفه من وساوسه، وظنونه، وأمانيه، وتخلقه بأخلاق الرب، وتأديبه بآدابه السامية من الكرم، والإيثار، والإحسان، والتقوى، وحب الخير وأهله، لذلك نجد في آيات الذكر ما يوحي بأن هدف الخلق هو الخلق الرفيع. لنقرأ الآيات التالية:

في تسع آيات قرآنية جعل الله الشكر هدفاً لنعمة الخلق أو سائر النعم كقوله سبحانه:

- ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].
- ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

كما جعلت التذكرة غاية الخلق في قوله سبحانه في هذه السورة:

- ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وهكذا جعل التعقّل هدفا في قوله سبحانه:

- ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

كما جعل الابتلاء هدفا أساسيا للخلق في آياته عديدة كقوله سبحانه:

- ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والامتحان بدوره سبيل لتكامل الإنسان، وتطهيره من الجوانب السلبية فيه.

التكامل.. الهدف الأسمى

من خلال البصائر التي ذكرت نعرف: أن تسامي الإنسان في معارج القرب -المعنوي- من الله سبحانه هو الهدف الأسمى لخلقه، ويتمثل ذلك في تحريره من نَير العبوديات، وتطهير قلبه من غل الهوى والشهوات، وتساميه في مدارج المعرفة بالله سبحانه، والتقرب إليه بالصالحات.

وإذا تسامى الإنسان إلى حيث القرب من الله فإن رضوان الله وغفرانه ورحماته وسائر نعمائه وآلائه يكون كل ذلك قد سبقته هناك لتشمله، ومن هو أولى من الله بأن يقري عبده الذي حلّ بجنابه ضيفا، ومن هنا جعلت الرحمة هدفا للخلق في آية كريمة حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

[٥٧] ولكن الغاية التي نتحدث عنها ليست بمعنى العلة التي لدينا فنحن إذا فعلنا شيئا فلا بد من علة تدفعنا إليه، وغاية نسعى إليها. فالعطش علة الشرب، والجوع علة الأكل، والرقة علة العطف، أما الإرواء والشبع والإحسان فهي أهداف وغايات. وتعالى الله عن أن يكون لفعله سبب ويدفعه، وعلة تجأره، وتجبره. إنه الغني الحميد، عطاؤه محض رحمة منه، وفضله محض إرادة، لا يبرمه إلحاح الملحين، وكما جاء في الدعاء: «**إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي، إِلَهِي أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيّاً عَنِّي**»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٦، باب: ٢- أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها.

وإن اللام الذي جيء بها في سياق بيان الهدف من الخلق ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليس بمعنى: أن الله سبحانه سعى نحو هذه الغاية بهذه الوسيلة -وهو الغني بذاته- وإنما بمعنى: أنه قدر وقضى ليكون ذلك وسيلتنا إليه، وطريق سعينا ابتغاء مرضاته، ومدارج كمالنا في وجودنا، كما أن الطهارة غاية الوضوء، وذكر الله هدف الصلاة، والتقوى نتيجة الصيام، فإن العبادة غاية الخلق ومحتوى ما أمر الإسلام به من واجبات.

ولعله لذلك أكد ربنا على أنه غني بذاته عن خلقه، وعن أي فعل يمارسونه فقال سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ فلا يتصور أي فائدة تصل إلى الله -سبحانه- من خلال خلقه.

ويبدو أن الفارق بين الرزق والإطعام هو أن الرزق يستمر، بينما قد يكون الطعام مرة واحدة، وقد لوحظ في كل منهما معنى الاستفادة والمنفعة، وكأن المرزوق يعتمد في بقائه على الرزق أو الطعام الذي هو مفردة من مفردات الرزق.

[٥٨] وكيف يحتاج إلى الرزق من يعتمد عليه الخلائق جميعا في حياتهم، فلولا دوام فضله، وتواتر نعمه، وتواصل رزقه لم يبق شيء مخلوق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ والرزاق لا يكون مرزوقا ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ فلا ضعف فيه حتى يحتاج إلى الطعام، ولا نقص حتى يحتاج إلى إتمام، وقوته ليست عرضية بل هو متين شديد، فهو سبحانه لا يغلب ولا تلحقه مشقة في أفعاله أو رهق.

وربما تدل الآية على أن رزق الله -سبحانه- يتوالى على عباده بعبادتهم، وكذلك قال ربنا سبحانه على لسان نبيه الكريم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

[٥٩] ولتبقى مصائر الغابرين عبرة للأجيال، ولا بد أن نعرف أنها خاضعة لسنة إلهية لا تتبدل ولا تتغير، فلقد أهلك الظالمين لظلمهم، وسوف يهلك من سار على دربهم عاجلا أو آجلا ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ وما لهم يستعجلون الله ورسوله في عذاب يصيبهم، تقدم أو تأخر وهل يستعجل أحد هلاكه؟!

قالوا: الذنوب: الفرس ذو الذنب الطويل، وسمي به الدلو الكبير الذي يربط في نهايته الحبل لتسهيل عملية التفريغ، ويبدو أن العرب كانوا يتعاونون في نزح مثل هذا الدلو على أن

يكون كل ذنوب لطائفة منهم وأنشدوا:

لها ذنوب ولكم ذنوب   فإن أبيتم فلكم قليب

وهكذا استخدمت الكلمة بمعنى النصيب، ولعله النصيب الذي يشترك فيه طائفة من الناس، فيكون معنى الآية: أن لهم نصيبا من الذنوب يصيبهم بعد نصيب السابقين. أي أن لهم دورهم فلينتظروا ولا يستعجلوا، كما أن لكل قوم دورهم في تقسيم الماء ذنوبا لهؤلاء وذنوبا لأولئك على الترتيب.

وقال بعضهم: «باعتبار أن الذنوب هو في الأصل الدلو الذي يصب فإن العذاب يُصَبُّ عليهم صَبّاً».

ويبقى سؤال: لماذا استخدمت كلمة الظلم فيهم مع أنهم كانوا كافرين؟ يبدو أن الظلم أعمُّ من الكفر والشرك، يشملهما، ويتسع لغيرهما فيكون المعنى: أن عاقبة الظلم سواء كان بدرجة الكفر والشرك أو أقل منهما وخيمة، تستنزل النقمة على صاحبه.

[٦٠] أما الكفار فلهم الويل في يوم الوعيد الصادق، الذي أنذروا به في فاتحة السورة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ إنهم هالكون في ذلك اليوم ولا يأسف لمهلكهم أحد أبدا، إنما تلحقهم اللعنة لأنهم مسؤولون عن هلاكهم.

وفي نهاية تلاوتنا لسورة (الذاريات) نستعيذ بالله من كل شر، ونَفِرّ إلى جنابه من كل خوف، ونبتهل إليه ضارعين: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ وأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ أَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَافِيَتَكَ فِي أُمُورِي كُلِّهَا وأَعُوذُ بِكَ مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وعَذَابِ الآخِرَةِ»[1].

(١) البلد الأمين: ص ٨.

المحتويات